التفسير الكاشف

محمد جواد مغنية

المجلد الثالث

سورة المائدة إلى آخر سورة الأنفال

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

التفسير الكاشف

٣

محمد جواد مغنية

التفسير الكاشف

المجلد الثالث

من

سورة المائدة إلى آخر سورة الأنفال

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

جميع حقوق الطبع مسجله و محفوظه للناشر

الكتاب .... التفسير الكاشف (ج ٣)

المؤلف .... العلامه محمدجواد مغنية رحمه الله

الناشر .... دارالكتاب الاسلامي

الطبعه .... الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

المطبعه .... مطبعة ستار

عدد النسخ .... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي للمجموعة: ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 085 - 9

الترقيم الدولي (ج ٣): ٣ - ٠٨٨ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 088 - 3

مكتبة ... الدين ... العامة

سُورَةُ المَائِدَةِ

مدنية الا قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنه نزل في حجة الوداع ، وعدد آياتها ١٢٠ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اوفوا بالعقود الآية ١ ـ ٢ :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ★

اللغة :

العقود واحدها عقد ، والمراد بها كل التزام جرى بين بالغين عاقلين عن طيب نفس على أي شيء كان ، شريطة ان لا يحرم حلالاً ، ولا يحلل حراماً.

والبهيمة في اللغة الحيوان الذي لا نطق له لما في صوته من الابهام ، ولكن العرب لا يستعملون هذه اللفظة في الطير . والأنعام الإبل والبقر والغنم . وشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة والعلامة والآية بمعنى واحد ، وشعائر الله علامات دينه ودلائله ومظاهره وآياته . والمراد بالهدي ما يهدى من الانعام الى الكعبة ليذبح هناك . والقلائد جمع قلادة ، وكانوا يقلدون الإبل من الهدي بما يدل عليها ، فلا يتعرض لها أحد . وآمّين أي قاصدين . ولا يجرمنكم أي لا يبعثنكم . والشنآن البغض .

الاعراب :

الا ما يتلى (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل من بهيمة . غير حال من الضمير المجرور في لكم ولا القلائد على حذف مضاف ، أي ولا ذوات القلائد. ولا آمين أيضاً على الحذف ، أي ولا قتال آمّين . والبيت مفعول لآمّين. وجملة يبتغون حال من الضمير في آمين . وان صدوكم المصدر المنسبك مفعول لأجله ليجرمنكم . والمصدر المنسبك من ان تعتدوا مجرور بحرف جر محذوف ، والمجرور متعلق بيجرمنكم ، أي لا يبعثنكم شنآن قوم لأجل صدهم اياكم عن المسجد على الاعتداء .

المعنى :

تدور آيات القرآن حول العقيدة ، والعبادة ، والشريعة ، والأخلاق، والرئاسة الدينية والدنيوية ، والقضاء والجهاد ، وتعرف الآيات الواردة في الشريعة بما فيها العبادة ، تعرف بآيات الأحكام عند الفقهاء ، وتبلغ حوالي خمسمئة آية ، ومنها قوله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود). وهذه الجملة على ايجازها عظيمة النفع ، فإنها الأصل والأساس لاجماع المذاهب على وجوب الوفاء بما يقع عليه التراضي بين اثنين ، مع توافر الشروط التي اعتبرها الشرع من البلوغ والعقل في المتعاقدين

وقابلية الشيء المعقود عليه للتملك ، وعـــدم استلزامه تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال ، وما إلى ذلك مما جاء في كتب الفقه ، ومنهـا الجزء الثالث من فقـــه الإمام جعفر الصادق .

(أحلت لكم بهيمة الانعام) . الانعام هي الابل والبقر والغنم والمعز الأهلية والوحشية ، وتقع البهيمة على الانعام وغيرها من الحيوانات التي لا نطق لهـا ، وعلى هذا تكون اضافة البهيمة الى الانعام من باب اضافة الشيء الى ما هو أخص منه . وبعد أن أحلّ الله أكل الانعام جاء هذا الاستثناء (الا ما يتلى عليكم). وقد تلا علينا جل ثناؤه صنفين من الانعام : الأول ما أشار اليه بقوله : «غير محلي الصيد وأنتم حرم» . والثاني ما أشار اليه في الآية الثالثة « حرمت عليـكم الميتة والدم... » . ويأتي الكلام عن هذا الصنف قريباً .

ومعنى (غير محلي الصيد وأنتم حرم) ان الانعام التي أحل الله لنا أكلهـا هي الانعام الأهلية ، أو الوحشية التي لم نتصيدها حال الاحرام ، أما المصطادة في هذه الحال ، فأكلها حرام ، لأن كل مـا يصطاده المحرِمُ فلا يجوز أكله، سواء أكان من الانعام ، أم من غيره ، ويأتي التفصيل عنـــد تفسير الآية ٩٧ وما بعدها من هذه السورة .

(يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) . وشعائره جل وعز هي أحكام دينه ، ومن أظهرها مناسك الحج والعمرة ، قال تعالى: « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب — ٣٢ الحج » ، ومعنى النهي عن تحليل أحكام دين الله ان لا نحرفهـــا ، ونتصرف فيها كما نشاء . (ولا الشهر الحرام) أي لا تحلوا القتال في الشهر الحرام، والمراد به الأشهر الأربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، لأن الألف واللام في الشهر للاستغراق . (ولا الهدي) وهو ما يُهدى الى بيت الله من الإبل والبقر والغنم ، والمراد ان لا يتعرض أحـد لها بغصب أو منع من بلوغها البيت الحرام . (ولا القلائد) أي ولا ذوات القلائد فقد كانوا يقلدون الهدي بنعل أو حبل وما اليه ، ليُعرف فلا يتعرض له أحد، وانما ذكر ذوات القلائد بعد الهدي ، مع ان الهدي يقع عليها وعلى غيرهـا — للاهتمام بها ، تماماً كقوله تعالى : «حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى» .

(ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا) . أي لا تقاتلوا أحداً قصد بيت الله ، سواء أقصده للعبادة أم التجارة . (واذا حللتم فاصطادوا) . لأن الصيد يحرم في حال الاحرام،وفي ارض الحرم مطلقاً ، فإذا لم يكن الانسان محرماً ولا في أرض الحرم فالصيد وأكل المصيد حلال ، لزوال المانع .. والأمر في قوله : « فاصطادوا » للاباحة ، لأنه ورد بعد النهي .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) . في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة والبيت الحرام ، وأراد النبي والصحابة أن يزوروا البيت في هذه السنة فصدهم عنه المشركون ، وفي حجة الوداع كانت السيطرة على مكة والبيت للمسلمين ، فنزلت هذه الآية ، ومعناها لا ينبغي لكم أيها المسلمون أن يحملكم بغض المشركين لكم ، أو بغضكم لهم على أن تمنعوهم عن البيت الحرام بعد أن أظهركم الله عليهم ، لأنهم منعوكم من قبل . وقد كان هذا قبل أن تنزل الآية ٢٩ من سورة التوبة : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

وتسأل : ألم يقل الله سبحانه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم .. البقرة ، ١٩٤ ؟

الجواب : ان هذه الآية نزلت في القصاص ، والمعاملة بالمثل في موارد خاصة ، كالحرب وقطع الأعضاء ، أي من قاتلكم فقاتلوه ، ومن قطع يد غيره تُقطع يده ، وما الى ذلك .. أما من منع وصد عن عبادة الله والتجارة والزراعة فلا يجوز أن يُمنع هو عن ذلك ، بل يجازى بعقوبة أخرى .

والخلاصة ان جزاء المعتدي قد يكون بالمثل ، وقد يكون بغيره ، وفي سائر الأحوال ينبغي أن يكون الجزاء انتصاراً للحق ، لا تشفياً وانتقاماً .

الثورة والثورة المضادة :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان). من الألفاظ التي كثر تداولها اليوم على ألسنة المتكلمين ، وأقلام الكتّاب لفظ الثورة والثورة المضادة .. ويعنون بالثورة تعاون المخلصين ونضالهم ضد التخلف والأوضاع

الفاسدة ، ويعنون بالثورة المضادة تكتل الرجعيين والخائنين وتعاونهم على مقاومة كل محاولة لتغيير التقاليد الضارة الفاسدة .

وظاهر الآية الكريمة يخوّل لنا ان نطبق قوله تعالى : « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » على الثورة المضادة لكل خير وتقدم .

حرمت عليكم الميتة الآية ٣ :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ★

الإعراب :

الا ما ذكيتم (ما) في محل نصب على الاستثناء المتصل مما تقدم ذكره من الحيوانات على أن يدرك حياً سوى ما لا يقبل التذكية كالخنزير . والمصدر من ان تستقسموا في محل رفع عطفاً على الميتة ، أي وحرّم عليكم أن تستقسموا . وديناً حال من الإسلام . وغير حال من الضمير في اضطر .

المعنى :

كل المأكولات والمشروبات على الاباحة الا ما ورد النص بتحريمه خصوصاً كالميتة وما اليها ، أو عموماً كالأشياء الضارة ، ومنها الخبائث . قال تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً - ١٦٨ البقرة » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : كل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً ، حتى تعرف الحرام بعينه فتدعه .

وتقدم في الآية الأولى قوله تعالى : « الا ما يتلى عليكم » وقد تلا علينا صنفين من المحرمات : الأول ما أشار اليه بقوله : « غير محلي الصيد » الخ وسبق تفسيره . الثاني ما ذكره في هذه الآية ، وهو عشرة أصناف .

الأول : الميتة ، وهي كل حيوان أو طير مات من غير تذكية شرعية ، وتختلف التذكية الشرعية باختلاف الحيوان ، فتذكية السمك باخراجه من الماء حياً ، وتذكية الجراد بالاستيلاء عليه حياً أيضاً ، وتذكية الجنين بذكاة أمه ، وتذكية المصيد تكون بالكلب المعلّم ، أو بالسيف أو الرمح أو السهم أو آلة محددة الرأس ، وتذكية الحيوان باستقباله القبلة وقطع أوداجه الأربعة مع ذكر اسم الله عليه . والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الرابع من فقه الإمام الصادق .

الثاني : الدم المسفوح ، والمراد به الذي يخرج بقوة ودفع ،ويتميز عن اللحم، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه ، والدم الذي هو كاللحم حلال اذا كان كبداً عند جميع المذاهب ، وحرام اذا كان طحالاً عند الشيعة الإمامية خاصة .

الثالث : لحم الخنزير ، وهو حرام باجماع المسلمين .

الرابع : ما أهل لغير الله ، والاهلال رفع الصوت ، يقال : استهل الصبي اذا صرخ عند الولادة ، والمراد به هنا ما ذُبح على غير ذكر الله . وقد كان المشركون يذبحون لأصنامهم ، ويرفعون أصواتهم باسم اللات والعزى . وتقدم الكلام عن هذه الأصناف الأربعة عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ .

الخامس : المنخنقة ، وهي التي تموت اختناقاً بيد أو حبل ، أو يدخل رأسها في مضيق ، وما الى ذلك .

السادس : الموقوذة ، وهي التي تضرب بعصا ونحوها ، حتى تموت .

السابع : المتردية ، وهي التي تتردى من مكان عال .

الثامن : النطيحة ، وهي التي تنطحها أخرى ، فتموت .

التاسع : ما أكل السبع ، أي ما تبقى من فريسة الحيوان المفترس .

ثم استثنى سبحانه من الأصناف الخمسة الأخيرة ما ندركه حياً ، فانه يحل لنا بالذبح الشرعي ، وهذا معنى قوله تعالى : (الا ما ذكيتم) . وفي الأخبار : « ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن تدركه وتتحرك اذنه أو ذنبه أو تطرف عينه » .

العاشر : ما ذبح على النصب ، قال صاحب التسهيل لعلوم التنزيل : « النصب جمع نصاب ، وهي حجارة كان أهل الجاهلية يعظمونها ، ويذبحون عليها ، وليست بالأصنام ، لأن الأصنام مصورة ، والنصب غير مصورة » .

وتجدر الاشارة الى ان محرمات الطعام لا تنحصر بهذه الأصناف العشرة التي جاءت في الآية الكريمة ، بل هناك محرمات أخرى ، كالكلب والحيوان المفترس والطير الكاسر كالبازي والنسر والحشرات وبعض أنواع السمك ومحرمات الذبيحة ، وما اليها مما نصت عليه السنة النبوية ، وأجمع عليه الفقهاء ، ولا فرق بين ما جاء النص على تحريمه في الكتاب أو السنة : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا – ٧ الحشر » . وغير بعيد أن يكون ذكر هذه الأصناف بالخصوص لمناسبة قوله تعالى : « أحلت لكم بهيمة الانعام » . وبعد أن ذكر سبحانه الأصناف العشرة عطف عليها قوله :

(وان تستقسموا بالأزلام) . أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام ، وهي جمع زلم بضم الزاي وفتحها ، مع فتح اللام ، والزلم قطعة من الخشب على هيئة السهم . وكان أهل الجاهلية اذا أراد أحدهم أن يقدم على أمر يهمه أخذ ثلاثة من الأزلام ، وكتب على واحد منها أمرني ربي ، وعلى ثان نهاني ربي ، وأهمل الثالث ، ثم يغطيها بشيء ، ويدخل يده ويخرج أحدها ، فان كان أمراً فعل ، وان كان نهياً ترك ، وان كان مهملاً أعاد ، حتى يخرج الأمر ، أو النهي .

(ذلكم فسق) . اشارة الى خصوص الاستقسام بالأزلام دلالة ، والى جميع المحرمات المذكورة حكماً ، وبهذا يتبين معنا ان اختلاف المفسرين حول ذلكم: هل هي اشارة الى خصوص الأخير ، أو الى الجميع ؟ ان هـذا الاختلاف لا جدوى منه،ما دام حكم الجميع واحداً ، من حيث الفسق ، أي الذنب العظيم .

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) . قال كثير من المفسرين : ان المراد باليوم في الآية اليوم الذي نزلت فيه من ذي الحجة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجـرة ، وعليه يكون الألف واللام في اليوم للعهد ، وقال صاحب مجمع البيان : اليوم هنا بمعنى الآن ، كما يقول القائل : اليوم قد كبرت ، أي الآن قد كبرت . ومهما يكن فان معنى الآية ان الكفار يئسوا من زوال الإسلام ، أو تحريفه بعد أن تمكـن في نفوس أتباعه ، وأخذ طريقه في الانتشار يوماً بعد يوم .. اذن ، فلا تخافوا – أيها المسلمون – من الكافرين ، وخافوا من الله وحـده ، وصدق الله العظيم في كل ما يقول : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كـره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون – ٣٣ التوبة » .

ومن المفيد بهذه المناسبة أن نقتطف جملاً من كتاب « الإسلام في القـرن العشرين » للعقاد ، قال :

« ان العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة ، وحسب في ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين .. وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال القوة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .. ان قوة صمود العقيدة الإسلاميـة في صدر الإسلام عجيبة ، ولكن صمودها الآن أعجب ، لأنها لا تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، بل لا تملك الدفاع ، ولا اتفاق بين أهلها على الدفاع ..

ان قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياستها ، وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفي افريقية اليوم مئة مليون مسلم ، لا شأن في اسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب من هـذا العدد مسلمون

في السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه في الباكستان ، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين » .

اكمال الدين واتمام النعمة :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).
اختلف الشيعة وأكثر السنة في تفسير هذه الآية ، ونحن نعرض أقوال الطرفين كناقلين ، لا مؤيدين ، ولا مفندين ، ونترك القارىء وعقله يستفتيه وحده .

قال السنة أو أكثرهم : المراد بالآية ان الله سبحانه أكمل للمسلمين دينهم بتغلبه واظهاره على الأديان كلها رغم محاربة أهلها ومقاومتهم له وللمسلمين ، وأتم نعمته عليهم بالنص على عقيدته وشريعته أصولاً وفروعاً ، وأبان جميع ما يحتاجون اليه في أمر دينهم ودنياهم : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

وقال الشيعة : يصح تفسير الآية بهذا المعنى إذا لم تقترن بحادثة تفسرها ، وتبين المراد منهـا ، فإن كثيراً من الآيات تفسرها الحادثة التي اقترنت بزمن نزولها . من ذلك — على سبيل المثال — قوله تعالى مخاطباً نبيه الأكرم: « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه — ٣٧ الأحزاب » . فلو جردنا هذه الآية عن قصة زيد بن حارثة ، وأخذنا بظاهرها لكان معنى الآية ان رسول الله (ص) يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق .. حاشا من اصطفاه الله لوحيه ورسالته .

ثم قال الشيعة : وهذه الآية اقترنت بحادثة خاصة تفسرها وتبين المراد منها ، واستدلوا على ذلك بما يلي :

أولاً : اتفق علماء السنة والشيعة المفسرون منهم والمؤرخون على ان سورة المائدة بجميع آياتها مدنية ، ما عدا هذه الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت في مكة ، وفي السنة العاشرة للهجرة ، وهي السنة التي حج فيها رسول الله (ص) حجة الوداع ، لأنه انتقل الى جنان ربه في شهر ربيع الأول سنة احدى عشرة .

ثانياً : ان النبي بعد أن قضى مناسكه في هذه السنة توجه الى المدينة ، ولما

بلغ غدير خم – وهو مكان في الجحفة تتشعب منه طرق كثيرة – أمر مناديه أن ينادي بالصلاة ، فاجتمع الناس قبل أن يتفرقوا ، ويذهب كل في طريقه الى بلده ، فخطبهم وقال فيما قال :

« ان الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه يقولها ثلاثاً ، وفي رواية أربعاً .. ثم قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . وأحبّ من أحبه ، وأبغض من بغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار . ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

والسنة لا ينكرون هذا الحديث بعد ان تجاوز حد التواتر[1] وسجله الكثير من أئمتهم وعلمائهم ، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده ، والنسائي في خصائصه ، والحاكم في مستدركه ، والخوارزمي في مناقبه ، وابن عبد ربه في استيعابه ، والعسقلاني في اصابته ، كما ذكره الترمذي والذهبي وابن حجر وغيرهم ، ولكن الكثير منهم فسروا الولاية بالحب والمودة،وان المراد من قول الرسول (ص): من كنت مولاه – من أحبني فليحب علياً .

ورد الشيعة هذا التفسير بأن قول النبي : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه – يدل بصراحة ووضوح على ان نفس الولاية التي ثبتت لمحمد (ص) على المؤمنين هي ثابتة لعلي (ع) ، دون زيادة أو نقصان ، وهذه الولاية هي السلطة الدينية والزمنية ، حتى ولو كان للفظ الولاية ألف معنى ومعنى .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة .

---

١ نقل الشيعة هذا الحديث عن العديد من مصادر السنة ، ووضع علماؤهم فيه كتباً خاصة ، وآخرهم الشيخ الاميني من علماء النجف الأشرف في هذا العصر ، فقد ألف كتاباً أسماه الغدير في ١٢ مجلداً ، تبلغ صفحاتها حوالي خمسة آلاف صفحة ، ذكر فيه رواة الحديث ، وهم ١٢٠ صحابياً ، و ٨٤ تابعاً ، و ٣٦٠ إماماً وحافظاً للحديث ، وفيهم الحنفي والشافعي وغيرهما كل ذلك نقله عن كتب السنة والكتاب معروض للبيع في مكتبات العراق وايران ولبنان .

وتسأل : ان اكمال الدين باظهاره على الأديان ، وبيان أحكامه كاملة وافية كما يقول السنة – واضح لا يحتاج الى تفسير ، أما اكمال الدين بالنص على خلافة علي فلا بد له من التفسير والايضاح ، فبأي شيء يفسره الشيعة ؟.

قال الشيعة في تفسير ذلك : ان الاكمال حقاً لا يتم إلا بوجود السلطة التشريعية والتنفيذية معاً ، والأولى وحدها ليست بشيء ما لم تدعمها الثانية ، وقد كان التنفيذ بيد الرسول الأعظم (ص) ، فظن اعداء الاسلام ان السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول ، وبذهابها يذهب الاسلام ... فأقام النبي علياً ليحفظ الشريعة من بعده ، ويقيم الدين كما أقامه الرسول (ص) ، وبهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الاسلام أو ضعفه .

(فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فـإن الله غفور رحيم) . مر تفسيره مفصلاً في ج ١ ص ٢٦٥ فقرة « المضطر وحكمه » ، الآية ١٧٣ من سورة البقرة .

وما علمتم من الجوارح مكلبين الآية ٤ :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ★

اللغة :

الجوارح جمع جارح من جرح بمعنى كسب ، ومنه قوله تعالى : « ويعلم ما جرحتم بالنهار » والمراد بالجوارح هنا ما يمكن الاصطياد به من الكلاب والفهود والطيور، لأنها كواسب لأهلها . ومكلبين أي معلمين الكلاب ونحوها الاصطياد ،

وانما اطلق لفظ مكلبين على الجوارح المعلمة ، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب ، فاشتق منه هذا اللفظ لكثرته في جنسه .. هذا عند غير الشيعة ، أما الشيعة فلا يجيزون الا صيد الكلب ، وفيما يلي التفصيل .

الإعراب :

ماذا يجوز أن تكون (ما) مبتدأ ، وذا خبر بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون (ماذا) كلمة واحدة وجملة أحل خبر . وما علمتم على حذف مضاف ، أي وصيد الذي علمتم . ومكلبين حال من ضمير علمتم،لأنها بمعنى معلمي الكلاب .

المعنى :

(يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) . الطيب ضد الخبيث ، والخبيث ما نص الشارع على تحريمه بالخصوص كالميتة ولحم الخنزير،أو بالعموم، وهو ما فيه ضرر وفساد بجهة من الجهات . وقد ذكر سبحانه هذه الجملة بلفظها أو معناها في ١٥ مكاناً من كتابه العزيز .

(وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) . واتفقت كلمة المذاهب على ان صيد الكلب يحل أكله بالشروط الآتية ، واختلفت في صيد غيره كالفهد والصقر وما أشبه اذا كان معلماً يفقه ما يفقهه الكلب ، قال الشيعة : لا يحل . وقال غيرهم : يحل . واستدل الشيعة بأن لفظ مكلبين خاص بصيد الكلب المعلم ، ومهما يكن ، فلا يحل صيد الجوارح إلا مع توافر الشروط التالية :

١ — أن يكون الجارح معلماً إذا أمره صاحبه يأتمر ، وإذا زجره ينزجر . وهذا هو معنى قوله تعالى : « تعلمونهن مما علمكم الله » .

٢ — ان يرسله صاحبه بقصد الصيد ، فلو انطلق من تلقائه ، وأتى بالصيد مقتولاً فلا يحل .

٣ — أن يكون الصائد مسلماً عند الشيعة .

٤ ــ أن يسمي الصائد عند ارسال الجارح ، فيقول : اذهب على اسم الله ، وما أشبه ، وهذا معنى قوله تعالى : « واذكروا اسم الله عليه » .

٥ ــ أن يدرك الجارح الصيد حياً ، وان يسند الموت الى جرحه ، فلو أدركه ميتاً لم يحل ، وكذا اذا أدركه حياً ، ولكن مات بسبب آخر غير الجارح .

طهارة أهل الكتاب الآية ٥ :

اَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ★

اللغة :

للاحصان معان أربعة : الاسلام والتزوج والحرية والعفة ، وهي المقصودة هنا . والسفاح الزنا ، والمراد به هنا الجهر به ، لأنّ قوله تعالى : « ولا متخذي اخدان » المراد به الزنا بالسر ، والخدن الصديق يقع على الذكر والأنثى .

الاعراب :

والمحصنات معطوف على الطيبات ، واذا ظرف متضمن معنى الشرط متعلق بأحل . ومحصنين حال من الواو في آتيتموهن . وغير مسافحين (غير) صفة

لمحصنين ، ويجوز أن تكون حالاً ، وان كان صاحب الحال نكرة ، ما دام المعنى ظاهراً .

المعنى :

(اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) . اختلف السنة والشيعة في المعنى المراد بطعام أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، فقال السنة : المراد به ذبائحهم ، نقل هذا عنهم صاحب تفسير المنار ، وهذه عبارته بالحرف : « فسر الجمهور الطعام هنا بالذبائح،لأن غيرها حلال بقاعدة أصل الحل » .

وذهب أكثر فقهاء الشيعة الى نجاسة أهل الكتاب ، وحرموا طعامهم وشرابهم، حتى الخبز والماء الذي باشروه . وفسروا الطعام في الآية بالحبوب .

أما نحن فنرى طهارة أهل الكتاب[1] ، وقد صرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الأول من فقه الإمام جعفر الصادق،وعلى هذا كثير من المراجع الكبار، منهم السيد الحكيم والسيد الخوئي الذي أسرّ برأيه لمن يثق به . أما قول من قال: الكتابي متنجس لا نجس فهو تلاعب بالألفاظ ، لأن الأشياء في الشريعة على قسمين : طاهر ونجس ، ولا ثالث .. أجل قد تعرض النجاسة للطاهر،ثم تزول بالتطهير ، ولو كانت لازمة له لكان نجساً ، لا متنجساً .

أما تفسير الطعام بالحبوب خاصة فبعيد كل البعد عن فصاحة القرآن وبلاغته، فقد استعمل الطعام لصيد البحر ، ولا حبوب في البحر ، قال تعالى : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم – ٩٦ المائدة » . واستعمله في الماء ، وبين الماء والحبوب ما بين السائل والجامد،قال عز من قائل: « فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني – ٢٤٩ البقرة » . واستعمله في شتى المأكولات : « فاذا طعمتم فانتشروا – ٥٣ الأحزاب » . وهل يجرؤ واحد على تفسيره باذا أكلتم الشعير – مثلاً – فانتشروا ؟.. واذا تجرأ على مثل هذا التفسير فمن أي نوع

---

[1] وأخيراً أفتى بطهارتهم السيد الحكيم المرجع الكبير للطائفة الاسلامية الشيعية .

يكون ؟.. بل استعمل سبحانه الطعام في اللحم : « قل لا أجد في ما أوحي اليّ محرماً على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير – ١٤٥ الانعام » .

ومن أجل هذا نقول بأن ذبائح أهل الكتاب حلال ، مع العلم بتوافر الشرائط من الاستقبال والتسمية وقطع الأوداج الأربعة ، وهذا هو الفرق بين ذبيحة الكتابي ، وذبيحة المسلم ، فذبيحة الأول تحرم الا اذا علمت بأنه استقبل وسمى وقطع الأوداج الأربعة مع استقرار الحياة في الحيوان قبل الذبح ، وذبيحة الثاني تحل الا اذا علمت بأنه أخل بما أوجبه الشرع . وصرحنا بذلك مع الدليل في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، وفيه روايات صحيحة عن أهل البيت (ع) . وعمل بها الشهيد الثاني والصدوق وابن أبي عقيل وابن الجنيد . قال صاحب مجمع البيان عند تفسير هذه الآية : « عن أكثر المفسرين ، وأكثر الفقهاء ان المراد بالطعام في الآية ذبائح أهل الكتاب، وبه قال جماعة من أصحابنا » أي من علماء الشيعة الذين يعتد بأقوالهم .

(والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان) . المراد بالاحصان في الألفاظ الثلاث العفة ، وبالاجور المهور ، والمسافحون هم الذين يرتكبون الزنا جهراً ، ومتخذو الاخدان يرتكبونه سراً ، وقيّد اتيان الاجور بعدم الزنا المشار اليه بمحصنين غير مسافحين – للاشعار بأن ما يدفعه الرجل للمرأة من المال يجب أن يكون مهراً للنكاح الشرعي ، لا أجراً للسفاح ، ومحصل المعنى ان الله قد أحل نكاح العفيفات المسلمات والكتابيات ، وعلى من ينكحهن أن يدفع لهن ما جرى عليه الاتفاق من المال مهراً شرعياً ، لا بدلاً عن الزنا .

واتفق فقهاء المذاهب على أن المسلم لا يحل له أن يتزوج بمن لا تدين بشيء اطلاقاً ، ولا بمن تعبد الأوثان والنيران ، وما اليها ، واختلفوا في زواج الكتابية ، أي النصرانية واليهودية ، فقال أصحاب المذاهب الأربعة السنية : يجوز ، واستدلوا بهذه الآية ، واختلف فقهاء الشيعة بين مجيز ومانع ومفصل بين الزواج الدائم والمنقطع ، فأجاز الثاني ، ومنع الأول .

ونحن مع القائلين بالجواز مطلقاً ، ومستندنا أولاً : الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام . ثانياً : قوله تعالى: « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب» . ثالثاً : الروايات الكثيرة عن أهل البيت (ع) ، وذكرها صاحب الوسائل والجواهر، ووصفها هذا بالمستفيضة ، أي بلغت حداً من الكثرة يقرب من التواتر ، ونقلنا بعضها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق .

وتسأل : وما أنت صانع بقوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . وقوله : ولا تمسكوا بعصم الكوافر ؟

الجواب : المشركات غير الكتابيات بدليل عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية الاولى من سورة البينة: «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » . أما قوله : « فلا تمسكوا بعصم الكوافر » فغير صريح في الزواج ،لأن الامساك بالعصم كما يكنى به عن الزواج يكنى به عن غير الزواج أيضاً، قال صاحب المسالك : « ان الآية ليست صريحة في ارادة النكاح،ولا فيما هو أعم منه » .

(ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) . بعد أن ذكر سبحانه طرفاً من أحكامه وحلاله وحرامه قال : من سمع وأطاع فهو المؤمن حقاً ، وعمله مقبول ، وعليّ أجره وثوابه ، ومن جحد أحكامي وشريعتي فهو الكافر الخاسر ، فالمراد بالإيمان هنا نفس الأحكام التي يجب الايمان بها ، من باب اطلاق المصدر على المفعول ، كاطلاق الخلق على المخلوق، والأكل على المأكول ، أما الاحباط فقد تكلمنا عنه مفصلاً عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦ .

الوضوء والتيمم الآية ٦ – ٧ :

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلوا وُجوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ

جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ★ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ★

اللغة :

المرافق جمع مِرفَق . والكعبان عظمان ناشزان يفصلان بين الساق والقدم . والجنب ذو الجنابة ، ويطلق على المذكر والمؤنث ، والمفرد والمثنى والجمع . والغائط المكان المنخفض ، والمراد به هنا قضاء الحاجة من المخرجين . والصعيد وجه الأرض .

الإعراب :

برؤوسكم ، قيل الباء زائدة ، وقيل للالصاق ، وقيل للتبعيض ، ويأتي التفصيل في فقرة المعنى . وما يريد الله ليجعل عليكم من حرج مفعول يريد محذوف ، ويجعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لفظة الله،ومن زائدة ، وحرج مفعول يجعل ، والتقدير ما يريد الله ذلك لأن يجعل عليكم حرجاً . ومثله يريد ليطهركم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة) . أي إذا أردتم القيام الى الصلاة،

تماماً كما تقول : اذا تمت فاقرأ سورة الفاتحة ، وهــذا من باب اطلاق السبب على المسبّب .

(فاغسلوا وجوهكم) . لا خلاف فيه ، سوى ان الشيعة الامامـيـة قالوا : يجب الابتـداء من الأعلى ، ولا يجوز النكس ، وقال غيرهم : يجوز الغسل كيف اتفق ، والابتداء من الأعلى أفضل .

(وأيديكم الى المرافق) . أيضاً لا خلاف فيه إلا ان الشيعة أوجبوا الابتـداء بالمرفق ، وأبطلوا النكس ، كما أوجبوا تقديم اليد اليمنى على اليسرى ، وقـال السنة : بغسلها كيف اتفق .. أجل ، تقديم اليمنى أفضل ، وكذا الابتداء من الأصابع الى المرفق .

وتسأل : ان كلاً من السنة والشيعة قد خالفوا ظاهر الآيـة ، لأن المرافق يجب أن تكون نهايـة الغسل لمكان « الى » ، مع ان السنة لا يوجبون ذلك ، والشيعة لا يجيزونه ، فما هو التأويل ؟

وأجاب كثيرون بأن « الى » هنا بمعنى مع مثل قوله تعالى : «ويزدكم قوة الى قوتكم ٥٢ هود » ، أي مع قوتكم .. والذي نراه في الجواب ان التحديد في الآية للعضو المغسول ، وهو اليد ، بصرف النظر عن كيفيـة الغسل من حيث الابتداء والانتهاء ، تماماً كقولك : بعتك الأرض من هنا الى هنـاك ، وقطفت ورد الحديقة من هنا الى هنا ، وأنت تريد تحديد الكم والمقدار ، لا بيـان الكيف والهيئة .

(وامسحوا برؤوسكم) . قال الحنابلة : يجب مسح الرأس والأذنين،ويجزي الغسل عن المسح بشرط امرار اليـد على الرأس . وقال المالكية : يجب مسح جميع الرأس دون الاذنين . وقال الحنفية : يجب مسح ربع الرأس ، ويكفي ادخال الرأس في الماء ، أو صبه عليه . وقال الشافعية : يجب مسح بعض الرأس ولو قل ، ويكفي الغسل أو الرش . وقال الشيعة الاماميـة : يجب مسح جزء من مقدم الرأس ، ويكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ، ولا يجـوز الغسل ولا الرش .. وعليه يكون معنى الباء الالصاق على القولين الأولـين ، والتبعيض على الأقوال الأخيرة الثلاثة .

(وأرجلكم الى الكعبين) . ورد في الأرجل قراءتان : احداهما النصب ، والأخرى الخفض . وقال السنة : يجب غسل الأرجل ، لا مسحها،لأنها معطوفة على الأيدي ، على القراءتين . أما على قراءة النصب فواضح،اذ الأيدي منصوبة لفظاً ومحلاً . وأما على قراءة الجر فللجوار والإتباع ، أي الرؤوس مجرورة ، والأرجل مجاورة لها ، فجُرت الأرجل لعلاقة المجاورة ، تماماً كقول العرب : « جحر ضب خربٍ » مع العلم بأن خرب يجب رفعه ، لأنه صفة للحجر ، لا للضب ، ولكنه خفض لمجاورته للضب .

وقال الشيعة : يجب مسح الأرجل،لا غسلها ، لأنها معطوفة على الرؤوس . أما على قراءة الجر فواضح ، اذ الرؤوس مجرورة بالباء . وأما على قراءة النصب فمعطوفة على محل الرؤوس ، لأن كل مجرور لفظاً منصوب محلاً .

ثم قال الشيعة : ان العطف على الأيدي لا يجوز لأمرين :

الأول : انه خلاف الفصاحة ، لوجود الفاصل بين الأيدي والأرجل ، وهو قوله : « وامسحوا برؤوسكم » ولو كان الأرجل معطوفة على الأيدي لقال : « وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين » ولم يفصل بين الأيدي والأرجل بمسح الرأس .

الثاني : ان العطف على الأيدي يستدعي أن يكون لكل قراءة معنى مغاير للآخر ، اذ يكون المعنى على قراءة النصب الغسل ، وعلى قراءة الجر المسح .. وهذا بخلاف العطف على الرؤوس فان المعنى يكون واحداً على القراءتين. بالاضافة الى أن الجر للجوار رديء لم يرد في كلام الله اطلاقاً .

(وان كنتم جنباً فاطهروا) . يجب الغسل من الجنابة لأمرين : الأول : نزول المني في نوم أو يقظة . الثاني : ادخال رأس الاحليل في قُبل أو دبر ، وبالأولى ادخاله كاملاً .

ولم يوجب السنة الغسل بكيفية خاصة ، وانما أوجبوا أن يعم الماء جميع البدن كيف اتفق .

وقسّم الشيعة الإمامية غسل الجنابة الى نوعين : ترتيب وارتماس ، والترتيب ان يصب المغتسل الماء على جسمه صباً،وفي هذه الحال أوجبوا الابتداء بالرأس ،

ثم بالجانب الأيمن من الجسم ، ثم الأيسر ، فلو أخل ، وقدّم المؤخر،أو أخر المقدم يبطل الغسل . أما الارتماس فهو غمس تمام البدن تحت الماء دفعة واحدة، فلو خرج جزء منه عن الماء لم يكف .

(وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) . تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٣ .

(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) . الحرج الضيق والمشقة ، والضرر حرج وزيادة ، ومنه الأذى والمرض وذهاب المال .. والإسلام لم يشرع حكماً يستدعي أي نحو من الضيق والمشقة ، فضلاً عن الضرر ، فما أمر بشيء الا وفيه خير وصلاح ، وما نهى عن شيء الا وفيه شر وفساد،واذا كان في الشيء الواحد جانبان: نفع وضرر ، ينظر : فان كان النفع أكبر فهو مطلوب ، وان كان الضرر أكبر فهو منهي عنه ، فالعبرة دائماً بالأكثر ، ومع التساوي فالخيار في الفعل والترك،قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم - ٢٤ الأنفال ». وقال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » .

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به) . كل من دخل في دين أو حزب فقد قطع عهداً على نفسه أن يستجيب لمبادئه وتعاليمه ، ويعمل بها عن رضى وطيب نفس .. وهذا هو الميثاق الذي واثقنا الله به نحن المسلمين حين ارتضينا الإسلام ديناً ، ومن قام بهذا الميثاق وأداه كما أمر الله فقد وفى مع الله ، ومن عصى فقد خان الله،ومن أظهر معاني الوفاء لله سبحانه الاخلاص لعباده . والصدق في معاملاتهم ، ولا أعرف علامة على الصدق في الدين حقاً وواقعاً غير الوفاء .. وأنصح كل انسان ان لا يأتمن أحداً لعلمه أو عبادته ، أو لمنصبه وشهرته ، بل يأتمنه ويثق به بعد اليقين بصدقه ووفائه .

اعدلوا هو أقرب للتقوى الآية ٨ - ١٠ :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ★ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ★ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ ★

اللغة :

القسط العدل . ولا يجرمنكم ، أي لا يبعثكم . والشنآن البغض .

الاعراب :

شهداء حال من الواو في كونوا . هو أقرب مبتدأ وخبر ، وضمير هو يعود على المصدر المتصيد من اعدلوا . وعد الله (وعد) تحتاج الى مفعولين الأول الذين آمنوا ، والثاني جملة لهم مغفرة ، وقيل : المفعول الثاني محذوف تقديره الجنة ، وجملة لهم مغفرة مفسرة لهذا المفعول المحذوف .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) . للايمان الصحيح مظاهر تحس وتلمس ، وقد حددها الله سبحانه ، وأوضحها بشتى الأساليب في العديد من آياته ، مر الكثير منها ، وما يأتي أكثر ، والآية التي نفسرها الآن تقول بلسان مبين : ان كنتم مؤمنين فقوموا لله ، واشهدوا بالعدل، ومعنى القيام له تعالى الصدق والاخلاص في الأقوال والأفعال ، أما الشهادة بالعدل فليس المراد منها ان نشهد لأعدائنا وأضدادنا بما لهم من حق علينا أو على غيرنا ..

كلا ، وان كان السياق يشعر بذلك ، وانما المراد أن يعدل الانسان في جميع سلوكه ، دون استثناء .

فإن كان عالماً زمنياً اتخذ من علمه وسيلة للقضاء على أسباب الضعف والتخلف ، وتوفير أسباب القوة والتقدم ، وان كان « دينياً » دعا الى كلمة الله ، وهي أن يحسن الانسان خلافة الله في أرضه ، ويقاوم كل من ينحرف عن هذا السبيل ، وان كان جاهلاً استجاب لأهل العلم والدين ، ووقف الى جانبهم مناصراً ومؤازراً ، ما داموا مع الحق والعدل .

هذا هو العدل الذي أمر الله به في هذه الآية وغيرها ، العدل الذي هو أمل الانسانية وهدفها ، والذي لا تستقيم بدونه حياة .. ان المجتمع قد يعيش من غير علم ، اما ان يعيش بلا عدل في جهة من الجهات فمحال ، حتى ولو كان جميع أفراده عباقرة ومخترعين .. ان العلم بلا عدل ضرره أكثر من نفعه ، أما العدل فكله نفع ، ومحال أن يكون فيه للضرر شائبة . وان وجدت فهي وسيلة لدفع ما هو أعظم ضرراً ، وأشد خطراً .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) . المراد بالقوم في الآية أعداء الخير والعدل الذين يقاومون كل محاولة لتحرير الانسانية من قيود الضعف والتخلف .. وقد أمرنا سبحانه بالمضي في اقامة العدل والعمل من أجل الحياة غير مهتمين ولا مكترثين بغيظ المنحرفين ودسائسهم ، وبعبارة ثانية ينبغي أن نعمل بالمثل : القافلة تسير ، والكلاب تنبح .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) . في الآية ٢٥ من سورة البقرة بشر سبحانه المؤمنين العاملين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفي الآية ٥٧ من سورة آل عمران بشرهم بأنه تعالى يوفيهم أجورهم ، وزاد في الآية ٥٦ من سورة النساء بأن لهم في الجنة أزواجاً مطهرة ، ويأتي هذا الوعد في بقية السور بأسلوب آخر .. والهدف في الجميع واحد ، وهو الحث والترغيب في الايمان والعمل كلما دعت المناسبة .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . بعد أن وعد المؤمنين العاملين بالنعيم توعد الكافرين بالجحيم على طريقته تعالى من تعقيب الترغيب

بالترهيب .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان من كفر بالله فهو من أصحاب الجحيم ، وان لم يدعه الى الايمان نبي أو وصي نبي . ذلك ان آياته تعالى التي تقوم بها الحجة على وجوده لا تختص بما أنزله على رسله ، فلقد أقام الدليل الكافي الوافي على وحدانيته وعظمته من الأنفس والسموات والأرض ، فمن يكفر بها تلزمه الحجة : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق – ٨ الروم » .

اذكروا نعمة الله الآية ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ★

الإعراب :

اذ ظرف متعلق بنعمة الله . والمصدر المنسبك من : أن يبسطوا ، مجرور بالباء المحذوفة ، والمجرور متعلق بهمّ .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ همّ قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) . يقال ، بسط اليه لسانه اذا شتمه ، وبسط اليه يده اذا بطش به ، والمراد بالقوم هنا مشركو مكة الذين أرادوا القضاء على الإسلام في بدايته عن طريق البطش بأتباعه قتلاً وتعذيباً وتشريداً ، ثم اعلان

الحرب وتجييش الجيوش ،ولكن الله في النهاية نصر المسلمين على أعدائه وأعدائهم، وصاروا أعزاء بعد أن كانوا أذلاء ، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين ، ولا نعمة أعظم من الحرية والنصر على العدو ، وبعد أن ذكّر الله سبحانه المسلمين بهذه النعمة الجلى وجّه اليهم هذا الخطاب :

(واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لا على قوتهم ، أي انما منحتكم هذه القوة لتستعملوها في احقاق الحق ، لا في احياء الباطل ، وفي انتشار الأمن والعدل ، لا لاستغلال المستضعفين ، والتآمر عليهم ، والتحكم بهم، كما فعل بكم المشركون من قبل ، وكما يفعل أكثر الناس ، يطلبون العدالة ، وهم ضعفاء ، ويتنكرون لها ، وهم أقوياء .. ان المؤمن حقاً يخشى الله ويشكره ، وهو قوي أكثر مما يخشاه ويشكره ، وهو ضعيف ، أو هو في الحالين سواء – على الأقل – أما من آمن بلسانه ، دون قلبه فعلى العكس : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون – ٦٥ العنكبوت » .

أخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ – ١٤ :

وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ★ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ★ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ★

اللغة :

نقيب القوم من يبحث عن أحوالهم، والمراد به هنا من أسندت اليه أمور القوم وتدبير مصالحهم . ويطلق التعزير على التأديب ، وعلى النصرة ، وهو المراد هنا. وأغرينا أي الصقنا ، لأنه مأخوذ من الغراء الذي يلصق بالشيء .

الإعراب :

فبما نقضهم (ما) زائدة ، والمجرور متعلق بلعناهم . وقاسية مفعول ثان لجعلنا . ومن الذين قالوا متعلق بأخذنا .

المعنى :

تحدث سبحانه في كتابه العزيز عن الكفار والمشركين بعامة ، وعن مشركي قريش بصورة خاصة لما لاقاه النبي (ص) منهم ، وتحدث عن المنافقين الذين أظهروا الاسلام ، وأبطنوا الكفر ، وعن اليهود والنصارى ، ولكنه تحدث عن اليهود أكثر من الجميع ، لأنهم أكثر خلق الله عناداً للحق، وحقداً على الانسانية، ومر الكثير عنهم في سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء، ومعظم هذه السورة، أي المائدة فيهم وفي النصارى .

(ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً). ذكر

سبحانه انه بعث من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً ، ولم يبين : هل كان هؤلاء الاثنا عشر زعماء اسباطهم الذين يمثلون ١٢ فرعاً من يعقوب ، وهو اسرائيل ، أو هم أنبياء أو أوصياء ؟ لم يذكر الله شيئاً من ذلك ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه .. اجل ، ان الآية صريحة في انه قد كان لله ميثاق مع بني اسرائيل، يتضمن أن يقوم بنو اسرائيل بأمور خمسة ، وان الله يثيبهم بأمرين اذا وفوا ، واذا نكثوا استحقوا منه تعالى الطرد والعذاب ، أما الامور التي التزموا بادائها والوفاء بها فهي :

١ ـ اقامة الصلاة . (لئن أقمتم الصلاة) .

٢ ـ ايتاء الزكاة . (وآتيتم الزكاة) .

٣ ـ الايمان برسل الله . (وآمنتم برسلي) .

٤ ـ نصرة الرسل . (وعزرتموهم) .

٥ ـ بذل المال في سبيل الله . (وأقرضتم الله قرضاً حسناً) . ويدل عطف القرض على الزكاة على انه كان الواجب في أموالهم أمرين : الزكاة ، والبذل في سبيل الله . ولقاء القيام بهذه الأمور الخمسة التي جاءت شرطاً في الميثاق يثيبهم الله بأمرين وقعا جزاء لهذا الشرط ، وهما :

١ ـ العفو عن السيئات . (لأكفرن عنكم سيئاتكم) .

٢ ـ الجنة . (ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) .

هذا هو ميثاق الله مع بني اسرائيل شرطاً وجزاء ، وبعد ان بيّنه سبحانه خاطبهم بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ». ومن ضل الصراط المستقيم فعاقبته الخزي والخذلان .

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) . انهم ينقضون كل عهد الا عدم نقض العهد والميثاق ، وهذه سمة لهم لا تفارقهم أبداً، كما ان لعنة الله عليهم لا تنفك عنهم أبداً .. للتلازم والتلاحم بين نقض العهد ، وبين لعنة الله . (وجعلنا قلوبهم قاسية). كل من لا يتقي الشر والمعاصي فيت قلبه . قال الإمام علي (ع): من قل ورعه مات قلبه .

وتسأل : كيف نسب سبحانه قسوة قلوبهم اليه ؟ أليس معنى هذا انهم غير مسؤولين عن هذه القسوة ، لأنها من الله ، لا منهم ؟.

الجواب : ان الله بيّن لهم طريق الخير ، وأمرهم به ، وبيّن طريق الشر، ونهاهم عنه ، وأخذ منهم الميثاق على السمع والطاعة ، فأعطوه إياه ، ثم خانوا ونكثوا ، وأصروا على العصيان والتمرد ، فتركهم وشأنهم ، ولم يلجئهم إلى عمل الخير ، إذ لا تكليف مع الالجاء ، ولأنه تعالى لم يلجئهم صح ان ينسب القسوة اليه ، ومن أراد زيادة في التوضيح فليرجع الى ما قلناه عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة الاضلال من الله سلبي ، لا ايجابي .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) . تقدم تفسيره في سورة النساء الآية ٤٥ . (ونسوا حظاً مما ذكروا به) . ذُكّروا بالتوراة ، فحرفوا منها ما يتنافى مع أهوائهم ، وابقوا ما يشتهون . وإذ نقضوا ميثاق الله ، وحرّفوا كتابه الذي أنزله اليهم من السماء — فبالاولى أن ينقضوا ما يعطونه من مواثيق للعرب وغير العرب ، وان يحرفوا قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن .

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم) . لم يكتف يهود الجزيرة العربية آنذاك بانكار نبوة محمد (ص) ، حتى تآمروا عليه مع أعدائه ، وبيتوا له المكر والغدر ، فخاطبه الله بقوله : (لا تزال تطّلع على خائنة منهم) . اي انك لاقيت — يا محمد — الكثير من اليهود ، وستلاقي أيضاً الكثير منهم ، وان احسنت اليهم ، لأن المحسن والمسيء عندهم سواء (إلا قليلاً منهم) وهم الذين أسلموا وصدقوا في اسلامهم كعبدالله بن سلام ومن معه . ورغم ذلك كله فان الله أمر نبيه أن يقابل اساءتهم بالاحسان : (فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) .

وتسأل : أبعد أن وصفهم سبحانه بأقبح الأوصاف ، وان الخير لا يُرجى منهم بحال ، أبعد هذا يأمر نبيه بالصفح والعفو عنهم ؟ وهل يعرف اليهود معنى الصفح والعفو ؟ وهل يجوز الصفح عن الأفاعي والعقارب ؟

وأجيب عنه بأجوبة منها ان ضمير عنهم يعود على القليل منهم الذين أسلموا وأخلصوا . ومنها ان هذه الآية منسوخة بآية السيف . وهذان الجوابان محتملان،

أما الأول فلأن الضمير بظاهره يعود على الأقرب ، وأما الثاني فلوجود النسخ في القرآن .

ويجوز أن يكون الأمر بالصفح عنهم نزل بعد أن قوي الإسلام ، وأصبح في حصن حصين لا يضره كيد اليهود ولا غيرهم من الكافرين .

(ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) . بعد ان بيّن سبحانه حال اليهود من نقض الميثاق والتحريف بيّن حال النصارى وانهم واليهود سواء من هذه الجهة .. ولكن جل ثناؤه ذكر في الآية السابقة نوع الميثاق الذي نقضه اليهود ، ولم يذكر شيئاً عن نوع الميثاق الذي أخذه على النصارى ، وغير بعيد ان الله سبحانه أطلق الكلام بالنسبة الى النصارى لوضوح الميثاق الذي أخذه منهم، وهو التوحيد (فنسوا حظاً مما ذكروا به) . والذي ذكروا به هو الانجيل الذي أنزله الله على عيسى (ع) وينص صراحة على التوحيد ، وعلى نبوة محمد (ص) باسم أحمد ، فحرّفوه تماماً كما حرّف اليهود التوراة .

ومن أقوى الأدلة على تحريف الانجيل ان رؤساء الكنيسة وعلماء التاريخ في الأناجيل الأربعة التي اعتمدها النصارى في القرن الرابع « قد اختلفوا فيما بينهم فيمن كتب الأناجيل ؟ ومتى كُتبت ؟ وبأية لغة ؟ وكيف فُقدت نسخها الأصلية ؟ وهذه الخلافات موجودة بالتفصيل في « دائرة المعارف الفرنسية الكبرى » . ذكر هذا وكثيراً غيره صاحب تفسير المنار .

(فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة) . ولا شيء يقال في تفسير هذه الجملة خير مما قاله الشيخ أبو زهرة في كتاب « محاضرات في النصرانية » . لذا ننقل عبارته بحروفها :

« لقد وقع بين الذين قالوا : إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه سبحانه في كتابه الصادق الكريم ، فقد سال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ، ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله ، سواء أكان ذلك بسبب الخلافات الدينية ، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية ، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات، ولم تخمد هذه الحروب والجراحات، وهي ماضية الى يوم القيامة ، كما قال أصدق القائلين » .

قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ – ١٦ :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ★ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ★

الاعراب :

جملة يبين لكم حال من رسولنا . وسبل السلام بدل من رضوانه ، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً ليهدي ، لأن هدى تتعدى تارة الى المفعول الثاني بواسطة حرف الجر مثل هداه الى الخير ، وتارة بلا واسطة مثل هداه الخير .

المعنى :

أمر الله سبحانه نبيه (ص) والمسلمين جميعاً أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ثم ضرب لهم أمثلة من هذا الجدال ليكونوا على بينة من معناه ومفهومه ، من ذلك أن يقول المسلمون لأهل الكتاب : « آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون – ٤٦ العنكبوت » : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله – ٦٣ آل عمران» .. وهناك آيات تحصي على أهل الكتاب بعض آثامهم،ومنها هذه الآية التي نفسرها، فقد ذكرتهم بتحريف التوراة والانجيل ، وعنادهم لمحمد الذي جاءهم بالهدى والنور .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) . المراد بالرسول محمد (ص) ، فإنه بيّن لليهود والنصارى فيما بيّن بعض ما أخفوه من الكتاب الذي معهم ، فالنصارى أخفوا التوحيد ، وهو اساس الدين ، واليهود أخفوا من العقيدة خبر الحساب والعقاب يوم القيامة ، ومن الشريعة تحريم الربا ، ورجم الزاني ، كما أخفى اليهود والنصارى معاً بعثة محمد: « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل – ١٥٦ الأعراف » .

لقد أطلع الله سبحانه محمداً (ص) على كل ما أخفاه وحرّفه اليهود من التوراة ، والنصارى من الانجيل ، ثم أخبرهم محمد (ص) بكثير مما كانوا يخفون ، وسكت عن كثير مما يعلم من تحريفهم . وهذا معنى قوله تعالى : « يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » . أي يسكت عنه .

وجاء هذا الإخبار من محمد (ص) دليلاً قاطعاً على نبوته ، ومعجزة من معجزات القرآن التي لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيها ويشك ، لأن النبي (ص) كان أمياً لم يقرأ كتاباً ، ولم يخبره أحد عما في كتب اليهود والنصارى .

وتسأل : لماذا أخبرهم النبي بالبعض فقط ، دون الجميع ؟

الجواب : ان الغاية هي اعلامهم بأن الرسول عالم بما يخفون ، وهذه الغاية تحصل بالاخبار عن البعض ، كما تحصل بالاخبار عن الكل .. هذا ، الى انهم اذا علموا بأنه (ص) عالم ببعض ما أخفوه فقد علموا بأنه عالم بالكل .

الاسلام وأنصار السلام :

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) . قيل : النور محمد ، والكتاب القرآن . وقيل : هما وصفان للاسلام .. ولا اختلاف بين القولين الا في التعبير ، فان محمداً والاسلام وكتاب الله معانٍ متلازمة متشابكة ، لا ينفك بعضها عن بعض .

(يهدي به الله من اتبع رضوانه) . أي من رغب في مرضاة الله وحده ، وطلب الحق لوجه الحق فانه يجد في الاسلام بغيته ومرامه ، لأن فيه ثلاث فوائد :

١ - (سبل السلام) . وليس المراد بالسلام خصوص السلام الذي ينشده وينادي به أنصار السلام من طلب الأمن على الأرواح والأموال للشعوب . وانما المراد به السلام الكامل الشامل لجميع الشعوب . والأفراد ، وسلام البيت والأسرة من التربية الفاسدة ، وسلام العقل من الجهل والايمان بالخرافات والأساطير ، وسلام النفس من الطمع والحقد والكذب والمكر .

٢ - (ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه) . أي يخرجهم الله بأمره تعالى من ظلمات التعبد للأصنام الى نور التوحيد الذي يحررهم من كل قيد إلا التعبد لله الواحد القهار .

٣ - (ويهديهم الى صراط مستقيم) . والصراط المستقيم عند الله هو السبيل الذي يجعل الحياة ، هذه الحياة ، متعة وهناء لا عذاباً وشقاء .

وبعد ، فهل عند أنصار السلام وغيرهم من الذين ينادون بتنمية الانتاج ، وتوفير العيش للجميع ، هل عند هؤلاء وغير هؤلاء منهج أفضل وأجدى مما عند الاسلام ؟. وهل يحبون عباد الله أكثر من حب الله لعباده ، أو انهم أعلم منه بما يصلح خلقه ويفسده ؟ وبالتالي ، هل في عقيدة الاسلام ، وشريعة الاسلام ، وأخلاق الاسلام ، أو في حكم واحد من أحكام الاسلام ما يتنافى مع زيادة الانتاج وتوزيعه بالحق والعدل ؟. ان القرآن أول الدعاة الى حياة أفضل ، قال سبحانه في الآية ٩ من الاسراء : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ». قال المفسرون : أي للحالة الأفضل .

ومهما شككت ، فاني على علم اليقين ان ما من أحد يدرس الاسلام دراسة صحيحة ، أي بكفاءة وتجرد ، إلا آمن به واذعن له ، من حيث يريد ، أو لا يريد .

قالوا ان الله هو المسيح الآية ١٧ - ١٩ :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ★ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

الاعراب :

جميعاً حال من المسيح وامه ومن في الأرض . وعلى فترة متعلق بمحذوف حالاً من الضمير في يبين . والمصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور باضافة مفعول له محذوف ، والتقدير مخافة قولكم ما جاءنا من بشير .

المعنى :

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) . قد نفهم ان أحكام الشرائع الوضعية تتغير بتغير الأزمان ، أما ان تتغير اصول العقيدة الدينية بتغير الظروف والأوقات فبعيد عن فهم كل عاقل .. ولكن هذا ما حدث بالفعل للعقيدة المسيحية ، فقد ابتدأت هذه العقيدة بالتوحيد الخالص في عيسى (ع) ، وبقيت على التوحيد أمداً غير قصير فرقٌ من المسيحيين ، منها فرقة ابيون ، وفرقة بولس الشمشاطي ، وفرقة أريوس ، وقد نص القرآن صراحة على ان

عيسى (ع) أتى بعقيدة التوحيد :

« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي آلهين من دون الله . قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » (١١٥ المائدة) .

وظلت عقيدة التوحيد عند كثير من المسيحيين . ولم تُعلن عقيدة التثليث مدعومة بالقوة الى سنة ٣٢٥م حيث أصدر مجمع نيقية قراراً بإثبات ألوهية المسيح ، وتكفير من يقول : انه انسان ، وحرق جميع الكتب التي تصفه بغير الألوهية ، ونفذ قسطنطين امبراطور الرومان هذا القرار ، وأصبح المسيح إلهاً عندهم بعد أن كان بشراً . وصدق عليهم قول الفيلسوف الصيني (ابن يوتانغ) : ان الاغريق جعلوا آلهتهم مثل الرجال ، أما المسيحيون فقد جعلوا الرجال مثل الآلهة [١] .

وبهذا يتبين معنا ان الاعتقاد بألوهية عيسى (ع) كان قبل نزول القرآن بحوالى ثلاثة قرون — اذن . يكون المعنى المراد من قوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح) المعنى الظاهر من اللفظ ، ولا داعي للتأويل بالحلول والاتحاد ، كما فعل كثير من المفسرين القدامى زاعمين ان أكثر النصارى لا يقولون بربوبية عيسى ، بل يقولون : ان الله حل به ، أو اتحد معه ، وعليه فلا تعدد .. وقال صاحب تفسير المنار : « ان أمثال الزمخشري والبيضاوي والرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى ، لأنهم لم يقرأوا كتبهم ، ولم يناظروهم فيها » . وصدق صاحب المنار ، فان من يرجع الى كتبهم يجدها صريحة في التثليث ، ونقل الشيخ أبو زهرة الكثير منها في كتاب « محاضرات في النصرانية »

---

١ المجامع عند النصارى تنقسم الى ثلاثة اقسام : مجامع مسكونية ، اي تجمع رجال الكنيسة في جميع انحاء المعمورة ، وهذه حكمها لا يرد ، ومجامع ملية ، اي تختص بملة دون ملة ، ومجامع اقليمية : اي خاصة باقليم دون اقليم .. وتجدر الاشارة الى ان ابا حنيفة يقول : ليس لله احكام واقعية ، وان حكمه ما يراه المجتهد بالذات ، اي ان حكم الله واقعاً ما حكم به الفرد فضلا عن الجماعة والمجامع .

وعقد في هذا الكتاب فصلاً خاصاً بعنوان « النصرانية كما هي عند النصارى وفي كتبهم » ، ومما جاء فيه ان القس بوطر ألّف رسالة أسماها «الأصول والفروع» قال فيها : « ان في اللاهوت ثلاثة أقانيم ، ولكل منهم عمل خاص في البشر » . وتقدم الكلام عن الأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من النساء .

الاشاعرة والنصارى :

وتسأل : ان النصارى يؤمنون بالتثليث والوحدانيـة في آن واحـد ، لأنهم يقولون « بسم الأب والابن والروح القدس إلهاً واحداً » ، فكيف يمكن الجمع بين الوحدانية والتثليث ، كيف يكون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحداً ؟

وأجاب المسيحيون أنفسهم عن ذلك بأن العقيدة فوق العقـل ، وهم يربون صغارهم على ذلك ، ويقولون لهم : اذا لم تفهموا هذه الحقيقة الآن فانكم سوف تفهمونها يوم القيامة .

وبهذه المناسبة نشير الى أن الأشاعرة من المسلمـين قالوا : ان الله قد أراد الكفر به من العبد ، ومع ذلك يعاقبه عليه .. فاذا كان قول النصارى : الثلاثة واحد غير معقول فان قول الأشاعرة : الله يفعل الشيء ثم يعاقب عبده عليه غير معقول أيضاً .

أما المسلمون فيؤمنون ايماناً جازماً بأن كل ما يقره العقل يقره الدين ، وما يرفضه العقل يرفضه الدين ، ويروون عن نبيهم انه قال : أصل ديني العقل .. وان رجلاً سأله عن معنى البر والإثم ؟ فقال له : استفت قلبك،البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس،وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك .

(قل فمن يملك من الله شيئاً ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً) . هذه الآية من أقوى الردود على المسيحيين ، وأصدق الأدلة على عدم ألوهية المسيح ، لأن الله سبحانه اذا ملك القدرة على هلاك المسيح فلا يكون المسيح ، والحال هذه ، إلهـاً ، وان لم يملك الله القدرة على هلاكه فلا يكون الله إلهاً ، والمفروض انه إله ، فيكون قادراً على هلاك المسيح .

ورب قائل يقول : ان هذه الآية لا تصلح رداً على النصارى فضلاً عن انها من أصدق الأدلة . لأنها دعوى مجردة عن الدليل .. فللنصارى أن يقولوا : ان الله لا يقدر على هلاك المسيح ، ولا المسيح يقدر على هلاك الله . لأن كلاً منهما إله ؟.

الجواب : ان المسيحيين متفقون قولاً واحداً على أن اليهود قد صلبوا المسيح وآذوه وأماتوه وقبروه تحت الأرض ، وعلى ذلك نصت أناجيلهم ، منها ما جاء في انجيل متى إصحاح ٢٧ رقم ٥٠ : « وصرخ أيضاً يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » . وما جاء في انجيل لوقا إصحاح ٢٣ رقم ٤٦ : « ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا أبت في يدك استودع روحي ولما قال هذا أسلم الروح » . وما جاء في انجيل يوحنا إصحاح ١٩ رقم ٣٣ و ٣٤ « واما اليسوع فلما انتهوا اليه ورأوه قد مات لم يكسروا ساقيه . ولكن واحداً من الجند فتح جنبه بحربة ، فخرج للوقت دم وماء » أي خرج من جنب المسيح بعد موته . وإذا كان اليهود قد أهلكوا المسيح فبالأولى أن يقدر الله على هلاكه وهلاك أمه .

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) . ان قولهم هذا تماماً كقولهم الذي حكاه الله عنهم في الآية ١١١ من سورة البقرة : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » . وتجد تفسير هذه الآية في ج ١ من هذا التفسير ص ١٧٧ و ١٧٨ .. وتجدر الاشارة الى عقيدة الاسلام التي تقول : لا فضل لانسان على انسان إلا بالتقوى . وان النطق بكلمة الاسلام من حيث هو ليس بشيء إلا مع العمل الصالح .

(قل فلم يعذبكم بذنوبكم) . وتسأل : ان هذا لا يصلح جواباً لليهود والنصارى عن زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ، لأن لهم أن يقولوا : ان الله لا يعذبنا في الآخرة ، وإذا لم يكن لديهم دليل محسوس على عدم عذابهم في الآخرة فلا دليل محسوس أيضاً على عذابهم في ذلك اليوم ؟.

الجواب : ان المراد بالعذاب ما يعم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .. والله سبحانه قد عذب اليهود في الدنيا على يد الفراعنة ، وبختنصر والرومان وغيرهم . (انظر ج ١ من هذا التفسير ص ٩١) . أما عذاب النصارى فهو أدهى وأمر ،

لأنه في الدنيا كان محاربة بعضهم بعضاً ، وتنكيل بعضهم ببعض .. وبديهة ان الأب لا يعذب أبناءه ، والمحب لا يعذب أحباءه .

أما الدليل على عذابهم في الآخرة فقد أشار اليه سبحانه بقولـه : (بل أنتم بشر) لا تمتازون عن غيركم في شيء .. كل الناس من آدم ، وآدم من تراب كما قال رسول الله (ص) . (يغفر لمن يشاء) ممن يراه أهلاً لمغفرته (ويعذب من يشاء) ممن يراه مستحقاً لعذابه ، وليس لأحد أن يفرض عليـه الغفران ، أو يمنعه من العذاب .

(ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) . لأنه خالق الكون ، ومن كان كذلك فهو غني عن الأبناء والأحباء . (واليه المصير) . وهناك يعلم اليهـود والنصارى انهم أبغض عباد الله ، وأكثرهم عذاباً على افترائهم الكذب بأنهم أبناء الله وأحباؤه .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم عـلى فترة من الرسل) . أي بعـد انقطاع الوحي أمداً من الزمن ، واحتياج الناس الى الأنبياء والمرشدين ، قال الإمام علي (ع) : « بعثه والناس ضلاّل في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قـد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى من زلزال في الأمر ، وبلاء من الجهل ، فبالغ (ص) في النصيحـة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة » .

(ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاء بشير ونـذير) ولم يترك الله لكم حجة ولا معـذرة ، وهذه الآية بمعنى الآية ١٦٥ من سورة النساء : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعـد الرسل » ومر تفسيرها . (والله على كل شيء قدير) . يقدر على نصرة محمد (ص)، واعلاء كلمة الاسلام ، وان جحده اليهود والنصارى .

موسى وقومه الآية ٢٠ – ٢٦ :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ★
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا
عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ★ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ★
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ★
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ★ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ★ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ★

اللغة :

الجبار للمبالغة . ويستعمل في اصلاح الأمور ، يقال : جبر كسره إذا أصلحه. وجبر الفقير إذا أنعشه ، وأيضاً يستعمل في ذم الانسان المتكبر المتعاظم وهذا هو المراد هنا . واذا وصف ذو الجلال به فالمراد به العالي الذي لا يُنال ، حتى العقول تعجز عن ادراك كنهه وحقيقته ، ومن ذلك قول العرب : نخلة جبارة ، اذا طالت وعلت وقصرت الأيدي عن تناولها . والتيه الحيرة . والأسى الحزن له أو عليه .

الاعراب :

فتنقلبوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لوقوع الفعل في جواب النهي . وما داموا (ما) مصدرية ظرفية . والمصدر المنسبك بدل بعض من أبداً . وها هنا . (ها) للتنبيه ، وهنا ظرف متعلق بقاعدون . وأربعين سنة ظرف متعلق بمحرمة. وجملة يتيهون حال من الضمير في عليهم .

المعنى :

هذه الآيات حلقة من قصة بني اسرائيل التي ذكرها سبحانه متفرقة في العديد من سور القرآن ، وكرر بعض حلقاتها مرات ، وهي كما ترى ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى :

(واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت احداً من العالمين) . ذكرهم موسى (ع) بنعم الله عليهم تمهيداً لما سيأمرهم به من الجهاد ، وعدّ من هذه النعم ثلاثاً : الأولى ان الله جعل فيهم أنبياء . الثانية : انه جعلهم ملوكاً ، أي مستقلين يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، ولا نعمة أعظم من الحرية . الثالثة : انه عاملهم بما لم يعامل به أحداً من الناس ، فأهلك عدوهم من غير جهاد وقتال ، وأنزل عليهم المن والسلوى بلا حرث ولا حصاد ، وأخرج لهم المياه العذبة من الحجر بلا حفر وتنقيب ، وأظل فوقهم الغمام بلا بناء وعناء .

وبهذه النعم الثلاث نجد تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين » . فالتفضيل على أهل زمانهم كان بإرسال الأنبياء منهم ، وباستقلالهم ، وانزال المن والسلوى عليهم ، وما اليه . وبتعبير ثان ان التفضيل لم يكن بالأخلاق والمناقب ، بل بكيفية المعاملة معهم .

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب - أي وعد - الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين) . بعد أن ذكرهم موسى بنعم الله عليهم

أمرهم بغزو فلسطين ، وكان فيها الحيثيون والكنعانيون ، وأمرهم بالصبر والثبات في القتال ، وكان الله قد وعدهم السكنى بها في ذلك العهد . فقول موسى : « كتب الله لكم » اشارة الى هذا الوعد ، وليس معناه ان فلسطين ملك طلق لهم ، كما يزعم اليهود .

ولكن قوم موسى قالوا له جبناً وضعفاً : (يا موسى ان فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فإنا داخلون) . فهم يريدون نصراً رخيصاً ومريحاً ، لا يكلفهم قتيلاً ولا جريحاً ، تماماً كإغراق عدوهم فرعون .. ولكن رجلين صالحين منهم قاما فيهم مرشدين يحثانهم على السمع والطاعة لله ولرسوله ، واليهما أشار سبحانه بقوله :

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما - أي بالايمان ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) . أي اغزوا القوم في عقر دارهم ، فيذلوا وينكسروا ، على أن تكونوا متوكلين حقاً على الله ، كما هو شأن المؤمنين المخلصين . ولكنهم عادوا الى جبلتهم من العناد والتمرد والقحة والصلافة .

و (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) . أرأيت الى هذه الجرأة على الله ورسوله ؟.. الى هذه الوقاحة والصلافة : « اذهب أنت وربك » .. انه ربهم اذا خدم مصالحهم الشخصية ، ولم يكلفهم بما يزعجهم ، وقتل أعداءهم .. وهم (قاعدون) سالمون آمنون ، أما اذا انزعج خاطرهم بأدنى تكليف فهو رب موسى ، وليس بربهم .. ومعنى هذا في واقعه ان أهواءهم وشهواتهم وحدها هي ربهم وإلههم الذي يستحق منهم العبادة والتقديس بحمده .

والحق ان هذه الظاهرة لا تخص اليهود وحدهم ، بل تشمل كل من عبد الله على حرف .. وما أكثرهم في المسلمين والنصارى .

(قال ربّ اني لا أملك الا نفسي وأخي) . هذا التوجه من موسى الى ربه يشعر بالشكوى من غربته بين قومه بعد الجهد الجهيد ، والعناء الطويل من أجلهم .. (اني لا أملك الا نفسي وأخي) ولا ملك ولا أمر لمن لا يطاع :

(فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) . لم يجد موسى بداً من الطلب اليه تعالى ان يفصل ويباعد بينه وبين قومه بعد نكولهم عن عهد الله وميثاقه .

(قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) . هذا هو جزاؤهم: التيه في صحراء سيناء الجرداء ، يسيرون فيها لا يهتدون الى طريق الخروج، ولا يدرون أين المصير .. وهكذا يضربون في مجاهلها أربعين عاماً ، حتى يفنى كبراؤهم . وينشأ بعدهم جيل جديد .

قابيل وهابيل الآية ٢٧ - ٣١ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ★ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ★ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ★ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ★ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ★

اللغة :

القربان مصدر كالشكران والكفران ، والمراد به هنا اسم المفعول ، أي الشيء

الذي يتقرب به الى الله من الذبائح وغيرها ، فهو مثل الخلق حيث أريد بـه المخلوق . والبسط المد ضد القبض . وباء بوءاً ، أي رجع رجوعاً . فطوعت له نفسه ، أي زينت له نفسه . والسوأة ما يسوء ظهوره . والويل حلول الشر ، والويلة تستعمل في الفضيحة ،وهذا المعنى هو المراد هنا ،فكأنه قال : وافضيحتاه .

الإعراب :

اذ قربا قرباناً ، أي قرب كل واحـد منهما قرباناً ، مثل قوله تعـالى : فاجلدوهم ثمانين جلدة ، أي اجلدوا كل واحد منهم . وكيف حال من الضمير في يواري . وجملة يواري مفعول ثان ليريه . يا ويلتا ليس النداء هنا للآدميين بل للويل نفسه ، أي يا ويل احضر هذا وقتك . وكذا واعجباه ، أي أيهـا العجب هذا وقتك .

المعنى :

لقد حاك القصاص ، وكثير من المفسرين الأساطير من قصة ابني آدم هذين .. ولا مصدر إلا الاسرائيليات . ونحن نلخص ما دل عليه ظاهر الآيات بما يلي :

لقد كان المتنازعان ابني آدم من صلبه مباشرة ، كما هـو الظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يصرح باسمها ، وقال المفسرون والمؤرخون : ان اسم القاتل قابيل ، واسم المقتول هابيـل .. وسبب النزاع والشقاق ان كلاً منهما قرب قرباناً لله سبحانه ، فتقبله جل ثناؤه من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل .. ولم تذكر الآيات نوع القربان ، ولا كيفية التقبل من ذاك ، والرفض من هذا .

فثارت حفيظة قابيل ، وهدد أخاه بالقتل . فقال له هابيل : انت الجاني على نفسك ، ولا لوم عليّ ، لأن الله تعالى يتقبل من المتقين ، ولستَ منهم ، وان أردت قتـلي فلا اقابلك بالمثل ، وكفاك جرماً إن فعلت أن ترجع بإثم قتلي ، وإثمك الذي كان السبب في عدم قبول قربانك .

ولكن هـذه الكلمات لم تترك أثراً في نفس قابيل ، بل على العكس زادت من نقمته ، ونفّذ الخطة عامداً ، وبعـد أن صار أخوه جثة هامدة لم يعرف كيف يواريها ، فبعث الله غراباً ، فحفر برجليه ومنقاره حفرة ، فلما رآهـا القاتل زالت حيرته ، واهتدى الى دفن أخيه من عمل الغراب .. ولكنه عض يده ندامة بعد أن ادرك فداحة الخطب ، كما أدرك انه دون الغراب معرفة وتصرفاً .

هذا هو موجز القصة ، كما دلت عليها الآيات .. وبهذه المناسبة نشير الى خلاف معروف بين علماء الأخلاق منذ القديم ، وهو ، هل الانسان شرير بالطبع ، أو خيِّر بالطبع ؟. وحاول كثير من المفسرين أن يستدلوا بهذه القصة على انه شرير بالطبع .

والصحيح ان في كل انسان استعداداً للخير والشر بفطرته ، حتى خير الأخيار ، وشر الأشرار ، والفرق ان في بعض الأفراد مناعة من عقل رصين ، أو دين متين يكبح نزواتهم الى الشر ، ويندفع البعض الآخر مع شهواته لضعف في دينه ، أو عقله .

الفرد والجماعة في الاسلام الآية ٣٢ :

مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ★

اللغة :

من أجل ذلك ، أي بسبب ذلك . والإسراف التجاوز عن حد الاعتدال .

الإعراب :

من أجل ذلك متعلق بكتبنا . وانه (الهاء) ضمير الشأن ، والمصدر المنسبك من ان وما بعدها مفعول كتبنا . ومن شرطية . وبغير متعلق بمحذوف حالاً من الضمير في قتل . وبعد ظرف متعلق بمسرفون .

المعنى :

(من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل) . لقد كشفت قصة ولدي آدم ان في الناس نوعين : معتدياً ومعتدى عليه .. ولحماية هذا من ذاك ، وصيانة الحياة ونظامها جعل الله لكل معتد عقوبة يستحقها ، واعتبر قتل الأبرياء جريمة الجرائم كلها ، فقوله تعالى : (من أجل ذلك) اشارة الى جريمة القتل من حيث هي ، وليس اشارة الى قصة قابيل مع أخيه هابيل .وان كانت هي السبب الباعث على التشريع ، تماماً كما تشرع السلطة قانوناً عاماً بسبب حادثة خاصة .

وتسأل : ان عقوبة القتل تعم بني اسرائيل وغيرهم ، فما هو القصد من تخصيصهم بالذكر ؟

الجواب : أجل ، ان هذه العقوبة وغيرها عامة لهم ولغيرهم ، ولكن الله سبحانه خص اليهود بالذكر لأنهم أجرأ خلق الله على قتل عباده ،واراقة دمائهم ، وبذلك تشهد توراتهم التي أباحت لهم قتل النساء والأطفال . ويشهد عليهم قتلهم الأنبياء في تاريخهم القديم ، وسيرتهم في فلسطين في تاريخهم الحديث .

(انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض) . أي أو غير فساد في الأرض عطفاً على نفس ، لا على غير ، والمعنى يجوز شرعاً قتل من قتل غيره عدواناً ، وأيضاً يجوز قتل من سعى في الأرض فساداً جزاء وفاقاً ،وصيانة لحياة الناس وأمنهم .

أما من يقتل نفساً بريئة مسالمة (فكأنما قتل الناس جميعاً) . اختلف المفسرون وغير المفسرين في الوجه المبرر لتشبيه القتل الافرادي بالقتل الجماعي ، واحياء الفرد باحياء الناس جميعاً ..

فمن قائل : انه مبالغة في الردع عن جريمة القتل ، والحث على انقاذ النفس وتخليصها من المهلكات ، كالغرق والحرق ، وما اليهما من اغاثة الملهوف . ومن قائل : انه بيان لحقيقة القاتل والمحسن ، بأن من أقدم على قتل واحد يقدم على قتل الناس جميعاً ، تماماً كما يقولون : « من يسرق البيضة يسرق الجمل »[1] وان من أحسن الى واحد من الناس يحسن للجميع ، ما دام الدافع له حب الخير والاحسان . وقال آخرون : انه بيان للطبيعة النوعية في الانسان ، وانها تتمثل في البعض والكل على السواء ، لا تزيد بكثرة الأفراد ، ولا تنقص بقلتهم .

والذي نفهمه من الآية ان الفرد في نظر الإسلام هو غاية بنفسه ، لا وسيلة الى غيره ، وانه ظاهرة انسانية ، له ما لها من الحرمة والكرامة ، وان العدوان عليه عدوان على الانسانية التي تتمثل به وبالناس جميعاً ، وان الاحسان اليه احسان الى الناس جميعاً .

وتسأل : ان هذا تضخيم خيالي لذات الفرد ، وتضحية بالجماعة من أجله ، مع ان العكس هو الحق والعدل ؟

الجواب : ليس المراد بمصلحة الفرد المصلحة التي تطغى على مصلحة الجماعة ، وتتنافى معها ، ولا المراد بالفرد الذي يحاول العيش على حساب غيره من الناس .. ان هذا لا يعد انساناً بالمعنى الصحيح ، بل هو أعدى أعداء الانسانية في نظر الإسلام ، والى هذا يومىء قوله تعالى : (أو فساد في الأرض) . وانما المراد بالفرد الذي يستمد مصلحته من مصلحة الجماعة ، ويرى حياته بحياتها ، وكرامته بكرامتها . كما ان المراد بمصلحة الجماعة مصلحة جميع أفرادها ، لأن الجماعة ليست مجموعة أصفار ، وانما هي مجموعة أفراد .. فأية جماعة يوجد فيها ضعيف واحد يخاف على حق من حقوقه فهي ضعيفة في كيانها ، فاسدة في أوضاعها ، تماماً كالجسم اذا فسد بعض أعضائه ، أو البيت اذا انهدم ركن من أركانه .

وعلى هذا تكون مصلحة الفرد والجماعة متكاملتين ، يملأ بعضها بعضاً ، ولا تنفك احداهما عن الأخرى .

---

١ رأيت هذا بالحرف في بعض الأحاديث المروية عن النبي (ص) .

(ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) . أي ان رسل الله قد بلغوا اليهود حكم الله سبحانه ، وقالوا لهم بوحي منه : من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل النـــاس جميعاً .. ولكن الكثير من اليهود لم يكترثوا بهذا التحذير ، ومضوا مسرفين في سفك الدماء وانتهـــاك الحرمات .. وقوله تعالى : (بعد ذلك) اشارة الى انهم فعلوا ما فعلوا بعد إقامة الحجة عليهم ، وانقطاع كل عـــذر يمكن أن يتذرعوا به .. وهذا هو موقف القرآن من كل جاحد يحتج عليه بمنطق الحق ، ويدعوه اليه بالحكمة ، حتى اذا أصر على جحوده كان اصراره عناداً للحق بالذات ، لا لشخصية الداعي .

جزاء المفسدين الآية ٣٣ ـ ٣٤ :

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ★ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ★

اللغة :

تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف معناه إذا قُطعت اليد اليمنى تُقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والخزي الذل والفضيحة .

الإعراب :

جزاء مبتدأ . وفساداً مصدر وضع موضع الحال من الواو في يسعون ، أي يسعون في الأرض مفسدين . والمصدر المنسبك من أن يقتلوا خبر جزاء . ومن خلاف متعلق بمحذوف حال من ايديهم وأرجلهم . وذلك مبتدأ أول ، وخزي مبتدأ ثانٍ ، وخبره لهم ، والمبتدأ الثاني مع خبره خبر المبتدأ الأول . وفي الدنيا متعلق بمحذوف صفة لخزي . وإلا الذين في محل نصب على الاستثناء المتصل من واو يحاربون .

المعنى :

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً) المراد بمحاربة الله ورسوله ان الاعتداء على الناس اعتداء على الله والرسول ، ومن أجل هذا كانت عقوبته حداً من حدود الله . والمراد بالفساد في الأرض هنا قطع الطريق ، وتلتقي في هذه الجريمة عدة جرائم : إخافة الآمنين ، والتمرد على الحكم ، والمجاهرة بالإجرام ، وإراقة الدماء ، ونهب الأموال ، وقد يكون فيها هتك الأعراض . ومن أجل ذلك جعل الله جزاء قطاع الطريق ما أشار اليه بقوله :

(أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) . المراد بالمفسد هنا كل من جرد السلاح لاخافة الناس بالضرب أو القتل أو السلب أو الاهانة أو الاعتداء على الأعراض ، مسلماً كان أو غير مسلم ، فعل ذلك في بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في مصر أو غير مصر ، تسلح بسيف أو مسدس أو عصا أو حجارة ، فالعبرة باخافة الناس على أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم ، ونصت الآية على أربع عقوبات :

١ – القتل ، وجاء بصيغة المبالغة اشارة الى ان القتل حتم لا بد منه ، ولو ان قاطع الطريق قتل نفساً ، وعفا عنه ولي المقتول فلا يعفى عنه ، قيل للإمام

أبي جعفر الصادق (ع) : أرأيت لو أراد أولياء المقتول أن يأخذوا الديـــة ، ويدعوه ، ألهم ذلك ؟ قال : لا ، عليه القتل .

٢ - الصلب ، والمبالغة فيه كالمبالغة في القتل ، أما كيفيته فما هو معروف عند الناس .

٣ - قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أي إذا قطعت اليد اليمنى قطعت الرجل اليسرى ، والمبالغة فيه أظهر من المبالغة في القتل والصلب لتكرار القطع .

٤ - النفي إلى بلد ناء عن بلده يحس فيه بالغربة والتشريد . وقال أبو حنيفة : المراد بالنفي السجن ..

وعلق صاحب المنار على هذا بقوله : « وهو أغرب الأقوال » .

واختلفت المذاهب الاسلامية في كيفية تنفيذ هذه العقوبات الأربع : هل تنفذ على سبيل التخيير أو التعيين لكل حسب جرمه ، ومقدار إفساده ؟.

قال الشيعة الإمامية : ان (أو) تدل بظاهرها على التخيير ، وعليه يترك الأمر لاجتهاد الحاكم في تنفيذ ما تدرأ به المفسدة ، وتقوم به المصلحة من القتل أو الصلب أو القطع أو النفي . وقريب من هذا قول المالكية .

وقال الشافعية : ان هذه العقوبات تختلف باختلاف الجنـــايات ، فمن اقتصر على القتل قُتل ، ومن قَتل وأخذ المال قُتل وصلب بعد القتل ثلاثة أيام ، ومن أخذ المال فقط قُطع من خلاف ، ومن أخاف السبيل . دون أن يقتل أو يأخذ المال نفي .

وقال الحنفية : ان أخذ المال وقَتل فللحاكم الخيار ، ان شاء قطع من خلاف وان شاء قتل ولم يصلب ، وان شاء جمع بين القتل والصلب ، وصفة الصلب عنده أن يصلب حياً ، ويبعج بطنه برمح إلى أن يموت ، ولا يصلب أكثر من ثلاثة أيام .

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم) . إذا تاب قاطع الطريق من تلقائه ، وقبل القبض عليه سقطت عنه العقوبة ، لأن الحكمة من العقوبة أن يرتدع المجرم عن الفساد ، فان ارتدع من نفسه لم يبق لها من موجب ، وهذا أصدق مثال على انسانية الشريعة الإسلامية وعظمتها .

وتجدر الإشارة إلى أن التوبة قبل الظفر بالجاني تسقط عنه العقوبة الأدبية ، أما الحقوق المادية للناس فيُطالب بها ، فإن سلب مالاً فعليه ارجاعه أو ارجاع بدله من المثل أو القيمة إذا كان قد تلف ، وان قتل ، فللأولياء المقتول أن يقتلوه به إن شاءوا .

ابتغوا اليه الوسيلة الآية ٣٥ – ٣٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ★ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ★ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ★

اللغة :

الوسيلة الوصلة والقربة ، تقول توسلت اليه ، أي تقربت اليه .

الإعراب :

ما في الأرض اسم أن . ولهم خبرها ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها فاعل لفعل محذوف ، أي لو ثبت ان لهم ، و «لو وجوابها» خبر إن الذين .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون) . ان تقوى الله ، وابتغاء الوسيلة اليه ، والجهاد في سبيله ، كل هذه تعبر عن معنى واحد ، أو عن معان متلازمة متشابكة ، لأن تقوى الله اتقاء سخطه ، وابتغاء الوسيلة اليه طلب مرضاته ، والجهاد في سبيله يشمل الأمرين .. وأفضل ما يتوسل به المتوسلون الى الله حب الناس ، والعمل من أجلهم ، وقرأت كلمة لكاتب كبير تقول : « محال أن يعرف حقيقة الناس من لا يحب الناس » . ونزيد عليها : ومحال أن يحب الله من لا يحب الناس .

(إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة) . يضحي الانسان بجميع ما يملك للخلاص من أسقامه وآلامه في حياته هذه ، فكيف بنار جهنم . (ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم). انما يقبل الفدية من يفتقر اليها ، ولله ملك السموات والأرض . (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) . وهذا نص قاطع على أن من جحد الخالق ، أو عبد سواه ، فهو مخلد في النار . (وما هم بخارجين منها) . وفي الآية ٢٠ من سورة السجدة : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » . وهناك جرائم لا تقل إثماً وعذاباً عن الكفر بالله ، كسلب الشعوب أقواتها ومقومات حياتها ، وقتل النفس ، لأنها أبت إلا أن تعيش حرة كريمة .

والسارق والسارقة الآية ٣٨ ــ ٤٠ :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ

عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

الاعراب :

والسارق والسارقة مبتدأ ، والخبر فاقطعوا ، وجاز دخول الفاء على الخبر لأن الألف واللام في السارق والسارقة بمعنى اسم الموصول ، فكأنه قال ، من سرق فاقطعوا . وعن سيبويه ان الخبر محذوف . والظاهر من أيديهما ان السارق تقطع يداه الاثنتان ، لأن أيديهما جمع ، والجمع يصدق على الثلاثة وما فوق ، ولو كان المقصود قطع الواحدة لقال يديهما ، ولكن هذا الظاهر متروك بالسنة النبوية والاجماع على قطع الواحدة ، كما ان عموم السارق والسارقة يقتضي قطع كل سارق وسارقة ، ولكن هذا العموم متروك كما يتضح مما يأتي . وجزاء مفعول من أجله لإقطعوا . ونكالاً بدل من جزاء .

المعنى :

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله) . المراد بالنكال هنا العقوبة الدنيوية .. ومهما اختلفت الشرائع السماوية والأرضية في تحديد الجريمة ، ونوع العقوبة ، وشروط تنفيذها فانها تتفق على أن الهدف منها ردع المجرم عن الاجرام حفظاً للأمن وصيانة للمصالح ، قال الإمام علي (ع) : « السلطان وزعة الله في أرضه » . ولا يُلتفت إلى قول بعض الفقهاء : ان الهدف من العقوبة مجرد سقوط العذاب عن المجرم في الآخرة .. أجل ان الله أعدل وأرحم من أن يجمع بين عقوبتين على جرم واحد . ولقطع يد السارق شروط :

١ - أن يكون المسروق في حرز ، ويخرجه السارق منه ، فمن سرق سيارة - مثلاً - من كاراج مقفل يحد ، ويرجع السيارة إلى أهلها ، ومن سرقها من

الطريق ، أو من كاراج غير مقفل فلا حد ، بل يعزر بما يراه الحاكم ، ويرجع المسروق إلى صاحبه . ولا خلاف في ذلك .

٢ – اتفقوا على أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو أكثر . وقال أبو حنيفة : بل في دينار .

٣ – أن يكون السارق بالغاً ، لحديث : « رفع القلم عن الصبي ، حتى يحتلم ، وعن المجنون ، حتى يفيق ، وعن النائم ، حتى يستيقظ » . وقال المالكية : لا فرق بين الصغير والكبير .

٤ – أن يكون السارق عاقلاً ، لحديث « رفع القلم » .

٥ – اتفقوا على ان الوالد لا يقطع إذا سرق من مال ولده ، لحديث : « أنت ومالك لأبيك » وقالت المذاهب الأربعة ، وبعض فقهاء الشيعة : الأم مثل الأب . وقال الحنفية والشافعية والحنابلة : لا يُقطع أحد الزوجين بسرقة مال الآخر . وقال المالكية : لا يُقطع إذا سرق من بيت يسكنان فيه معاً ، وإلا قُطع . وقال الشيعة : يُقطع اطلاقاً إلا إذا سرقت الزوجة لنفقتها ونفقة أولادها .

٦ – أن لا تكون السرقة في عام المجاعة ، فاذا سرق الجائع مأكولاً ، حيث لا وسيلة لسد حاجته إلا السرقة فلا حد عليه .

أما كيفية القطع فقد اتفقت المذاهب الأربعة على ان الكف اليمنى تُقطع من المفصل . وقال الإمامية : تقطع أصابعه الأربع من الكف اليمنى ، وتترك الراحة والابهام . وهناك مسائل كثيرة تتصل بهذا البحث ندعها لكتب الفقه ، ومنها الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق .

(فمن تاب – من السارقين – من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم) . قال السنة : توبه السارق لا تسقط عنه الحد . وقال الشيعة الإمامية : إذا تاب السارق من تلقاء نفسه ، وقبل أن تثبت السرقة عليه عند الحاكم فلا حد عليه . ووافقهم على ذلك صاحب تفسير المنار ، قال : « وإذا قيست السرقة على الحرابة – أي قطع الطريق – فالقول بسقوط الحد ظاهر ، إن تاب السارق قبل رفع أمره إلى الحاكم » .

واتفقوا على ان التوبة لا تسقط الحق الشخصي للمسروق منه ، ولا بد من اعادة المال الى صاحبه عيناً ان كان قائماً ، أو بدله ان كان تالفاً .

(ألم تعلم ان الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) . هذا خطاب لكل من يسمع القرآن ، لا للنبي وحده ، وفيه بيان ان الله سبحانه هو الذي خلق الكون والانسان ، وانه لا يفعل إلا ما فيه خير وصلاح لعباده، فإذا عذب من يشاء من الجناة فإنما يفعل ذلك تربية له ، وتأميناً للناس من شره، وإذا غفر ورحم من يشاء من عباده التائبين فإنما يفعل ذلك ترغيباً له في اصلاح نفسه .

سماعون للكذب الآية ٤١ ـ ٤٣ :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ★ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ★ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ

وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَا أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ★

اللغة :

كل من يقبل الكذب يقال له سماع للكذب . والمراد بالسحت المال الحرام .

الإعراب :

من الذين قالوا متعلق بمحذوف حال من واو يسارعون . سماعون مبتدأ خبره من الذين هادوا ، واللام في (للكذب) زائدة ، والكذب مفعول سماعون . وسماعون الثانية تأكيد للأولى ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي هم سماعون . واللام في (القوم) ليست زائدة ، بل متعلقة بسماعون الثانية ، مثل استمعت له . وشيئاً مفعول مطلق ، أي فلن تملك له من الله أي نوع من الملك . وكيف حال من فاعل يحكمونك . وعندهم التوراة مبتدأ وخبر . وكذلك فيها حكم الله .

المعنى :

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) . هذا خطاب من الله لرسوله (ص) ، يهون عليه أمر المنافقين واليهود ، لأن العاقبة ستكون عليهم لا لهم .. وهذه الجملة تختص بالمنافقين ، لأن الإيمان بالأفواه ، دون القلوب حقيقتهم وهويتهم .

والنهي عن الحزن نهي عن لوازمه ، وعدم ترتب الأثر عليه ، لأن الانسان لا اختيار له فيه ، وأي عاقل يختار الحزن لنفسه ؟ ولكن تبقى السيطرة معه للعقل والدين ، قال الرسول الأعظم (ص) : تدمع العين ، ويحزن القلب ،

ولا نقول ما يسخط الرب . وبعد أن ذكر سبحانه المنافقـين أشار إلى قوم من اليهود بقوله :

(ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) . عـاد الحديث عن اليهود ، وفي هذه الآيات أخبار اعتمدها المفسرون ، وتتلخص بأن التوراة كانت تنص على وجوب رجم الزاني .. وصادف في عهد الرسول (ص) ان زنى رجل وامرأة من أشرافهم ، فكره قوم من اليهود رجمها ، وأرسلوا وفداً منهم إلى رسول الله ليسألوه عن حكم الزنا ، وقالوا للوفد : ان افتى بغير الرجم فاقبلوا ، وان افتى بالرجم فارفضوا .. فجاءوا الرسول ، فأفتاهم بالرجم، فرفضوا زاعمين ان التوراة ليس فيها رجم ، ولما حـاجّ الرسول بعض علمائهم اعترف بأن حكم التوراة هو الرجم ، تماماً كما أفتى الرسول ، وان اليهود خصوا حكم الرجم بالضعفاء ، وجعلوا الجلد مكان الرجم اذا زنى الشرفاء .

فالمراد بقوله : (سماعون للكذب) ان اليهود يقبلون الكذب من المنافقين ، ومن بعضهم البعض . والمراد من القوم في قوله : (لقوم آخـرين لم يأتوك) أولئك الذين أرسلوا الوفد ليسألوا النبي (ص) ولم يأتوه بأنفسهم .

(يحرّفون الكلم من بعد مواضعه) . حيث وضعوا الجلد مكـان الرجم . وتقدمت هذه الجملة بالمعنى في سورة البقرة الآية ٧٥ : « يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه » . وأيضاً تقدمت بحروفها في الآية ٤٥ من سورة النساء .

(يقولون إن أوتيتم هـذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) . أي قال الذين أرسلوا الوفد للوفد : ان أفتى محمد (ص) بغير الرجم فاقبلوا،وإن أفتى بالرجم فارفضوا .

(ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئـاً) . اختلف المفسرون في المراد من الفتنة .. قال الأشاعرة ، أي السنة : المراد من الفتنة الكفر ، ويكون المعنى ان أي عبد جعله الله كافراً وضالاً فلن يقدر أحد أن يدفع عنه الكفـر والضلال .. وإنما ذهب الأشاعرة إلى هذا التفسير ، وفي مقدمتهم الرازي لأنهم يجيزون على الله أن يريد الكفر من عبده ، وأن يفعله فيه ، ثم يعذبه عليه .

وقال الشيعة والمعتزلة : المراد من الفتنة في هذه الآية العذاب، ويكون المعنى

ان من يرد الله عذابه فلن يقدر أحد أن يدفع العذاب عنه .. وإنما قالوا ذلك لأنهم لا يجيزون على الله أن يفعل الشيء ، ثم يعاقب غيره عليه .

والذي نراه في تفسير هذه الآية ان الله سبحانه نهى اليهود عن الكذب والتحريف ، والمكر والخداع ، وتوعدهم بالعذاب إن خالفوا وتمردوا . ولكنهم أصروا على العناد ، ولم يكترثوا بالنهي ، ولا بالوعيد .. فتركهم الله وشأنهم ؛ ولم يردعهم بالقسر والقهر عن الفتنة ، لأنه تعالى يعامل الناس — فيما يعود إلى أفعالهم معاملة المرشد الناصح ، لا معاملة القاهر الغالب .

وقد أكد سبحانه ذلك بقوله : (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم). أي لم يرد أن يلجئهم إلجاءً إلى تطهير القلوب وتزكية النفوس ، بل جعل لهم الخيار في ذلك ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الفتنة اليه تعالى .. وقد أوضحنا ذلك عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء،فقرة « الاضلال من الله سلبي لا إيجابي ».

(سماعون للكذب أكالون للسحت) . كرر سبحانه (سماعون للكذب) مبالغة في الذم والقدح ، والردع والزجر ، والمراد بالسحت المال الحرام، كالربا وما اليه .. وأشد جرماً من الربا الأموالُ التي يقبضها العملاء من الدول الاستعمارية لتبقى شعوبهم متخلفة بائسة تتسول الرغيف ممن ينهب أقواتها وثرواتها .

(فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) . هذا بيان لوظيفة الحاكم المسلم إذا تحاكم لديه خصمان من غير المسلمين .. وقد اتفق الفقهاء على انه إذا كان الخصمان من غير أهل الذمة فللحاكم الخيار ، إن شاء حاكمهما ، وإن شاء رفض ، حسبما يرجحه من المصلحة .. واختلفوا فيما إذا كان الخصمان من أهل الذمة ، فقال صاحب المنار — من السنة — : يجب على الحاكم أن يحاكمهما. وقال فقهاء الشيعة : بل هو مخير ان شاء حاكم ، وان شاء رفض .

وإذا حاكم يجب عليه أن يفصل بينهما بحكم الإسلام ، لا بأحكام دينهم، لقوله تعالى : (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) .

وإذا كان أحد المتخاصمين مسلماً ، والآخر غير مسلم وجب على الحاكم قبول الدعوى والحكم بما أنزل الله باتفاق المسلمين .

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك).
تحاكم اليهود في أمر الزاني عند النبي (ص) ، ولما حكم بينهم تولوا عنه ورفضوا حكمه بعد أن اختاروه حكماً .. وما كان أغناهم عن الحالين ؟. فالأولى بهم أن لا يحكموه منذ البداية ، أما أن يرضوا به حكماً ، ثم يرفضوا حكمه فغريب .. هذا مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه (ص) حكم بحكم الله الموجود في التوراة .. فقوله تعالى : (بعد ذلك) إشارة إلى التحكيم ، وإلى حكم النبي بحكم الله . ولفظ ذلك يشار به الى المفرد والمثنى والجمع .

(وما أولئك بالمؤمنين) . أي لا غرابة في أن يتولوا عن حكم النبي بعد أن رضوا به حكماً ، وبعد ان حكم بحكم الله ، لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بالتوراة إيماناً صادقاً ، وإنما يؤمنون بأهوائهم ورغباتهم .. وكل من لا يرضى بالحق وحكمه فما هو من الايمان الحق في شيء يهودياً كان أو مسلماً . قال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً — ٦٤ النساء » .

فلا تخشوا الناس الآية ٤٤ :

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ★

اللغة :

ربانيون جمع رباني نسبة إلى الرب ، أي يرضي الرب بأقواله وأفعاله . والأحبار جمع حبر بفتح الحاء ، وهو العالم .

الإعراب :

فيها هدى ونور مبتدأ وخبر . والربانيون والأحبار فاعـــل لفعل محذوف دل عليه الموجود ، أي ويحكم الربانيون والاحبار بما استحفظوا .

المعنى :

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) . كل كتاب أنزله الله على نبي من أنبيائه فهو نور يهدي إلى الحق والخير ، والتوراة كتاب الله أنزله على موسى (ع) فهو هدى ونور .. أما توراة اليوم فليست من الله في شيء، لأنها أبعد ما تكون عن الهدى والنور ، والحق والخير .. إن تعاليمهـا تقوم على التفرقة العنصرية ، فتجعل اليهود شعب الله المختار ، يباح لهم غزو الشعوب الأخرى، وقتل رجالها ، وذبح نسائها وأطفالها ، ونهب أموالها ، واحتــلال ديارها . (أنظر فقرة ١٣ و ١٤ من اصحاح ٢٠ سفر التثنية – نقلاً عن الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي) .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) . أي ان الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى كانوا يرشدون اليهود إلى حكم التوراة التي هي هدى ونور ، فيحلون لهم حلالها ، ويحرمون لهم حرامها. وقوله تعالى: (النبيون الذين أسلموا) معناه ان أنبياء الله أسلموا أنفسهم لله، وحكموا لليهود بحكم الله ، لا بمشيئتهم ، ولا باجتهاداتهم أو أهوائهم ، كما فعل اليهود في عهد محمد (ص) وأرادوا منه أن يحكم في الزاني بما يشتهون .

(والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله) . أي وكذلك علـماء اليهود وقضاتهم المؤمنون المخلصون كانوا يحكمون بما عرفوا وحفظوا من كتاب الله . (وكانوا عليه شهداء) الضمير في (كانوا) يعود على الربانيين والاحبار ، وفي (عليه) يعود على اليهود ، والمعنى ان أولئك الربانيـــين والاحبار كانوا يعملون بكتاب الله ، ولا يحيــدون عنه ، وليس من شك ان من قدّس قولاً والتزم العمل به فقد شهد له بالفعل قبل القول انه حق وعدل .

(فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) . من عرف حكم الله لا يخالفه إلا لأحد أمرين : إما خوفاً على منصبه من الزوال ،وإما طمعاً في المال ، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله : (فلا تخشوا الناس واخشون) . وإلى الثاني بقوله : (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) . والمعنى يا أحبار اليهود اعملوا بما تعلمون إنه الحق ، ولا تخشوا فيه لومة لائم ، ولا تحرّفوه طمعاً في الرشوة .. وإذا كان هذا الخطاب موجهاً بظاهره للاحبار الذين حرفوا حكم الزاني من الرجم إلى الجلد فإنه في واقعه عام لكل من يحاول التحريف والتزييف خوفاً أو طمعاً .

وأبلغ قول يفسر هـــذه الآية كلمة قالها علي أمير المؤمنين (ع) في وصف أولياء الله : « بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون ، ولا مخوفاً فوق ما يخافون » أي لا يرجون إلا الله ، ولا يخافون إلا منه .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وقـال تعالى في الآية التالية ٤٥ : (فأولئك هم الظالمون). وفي الآية ٤٧ (فأولئك هم الفاسقون). وعند تفسير هذه الآية ، أي ٤٧ نبين الوجـــه في تعدد الوصف بالكفر والظلم والفسق ، لموصوف واحد .

النفس بالنفس الآية ٤٥ - ٤٧ :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ★ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً

وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ★ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ★

الاعراب :

النفس اسم ان ، وبالنفس متعلق بمحذوف خبرها ، والعين وما بعدها عطف على النفس . والجروح قصاص ، أي وان الجروح قصاص . ومصدقاً الأولى حال من عيسى . وفيه هدى مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الانجيل . ومصدقاً الثانية عطف على الجملة الحالية ، لأنها حال مثلها .

المعنى :

(وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) . هذه الآية من آيات الأحكام ، وموضوعها القصاص ، وفي الفقه الاسلامي باب خاص به ، وهذا الحكم ، أي النفس بالنفس الخ من الأحكام التي نزلت في التوراة ، ولم تنسخه الشريعة الاسلامية . وسبق الكلام عن القصاص عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(فمن تصدق به فهو كفارة له) . ضمير (به) يعود على حق القصاص ، و (فهو) يعود على التصدق ، أي المصدر المتصيد من (تصدّق) وضمير (له) يعود على المتصدّق ، والمعنى ان المجني عليه إذا عفا عن الجاني فإن الله سبحانه يجعل هذا العفو كفارة لذنوب العافي .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) . يأتي الكلام عنه في الآية التالية .

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة) . الضمير في آثارهم يعود على النبيين ، أي وبعثنا عيسى بعد النبيين الذين كانوا يحكمون

بالتوراة ، وصدق هو التوراة بأقواله وأعماله ، ونقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال: « ما جئت لأنقض الناموس — أي شريعة التوراة — وانما جئت لأتمم » . أي لأزيد عليها من الأحكام والمواعظ .

(وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) . شأن كل كتاب إلهي ، وكل نبي من أنبياء الله،والانجيل الذي وصفه الله بالهدى والنور هو الانجيل الذي نطق بالتوحيد، ونفي التثليث ، وأقر بنبـوة محمد (ص) (ومصدقاً لما بين يديه من التوراة) التي تأمر بالعدل والاحسان ، ولا تبيح القتل والسلب .

(وهدى وموعظة للمتقين) . وتسأل : ان الله سبحانه وصف الانجيل الذي أنزله على عيسى بالهدى والنور ، ثم وصفه ثانية بالهدى والموعظة للمتقين فما هو الوجه لتكرار وصفه بالهدى في آية واحدة ؟.

الجواب : إن الهدى الأول جاء وصفاً لطبيعة الانجيل من حيث هو بقطـع النظر عن العمل به ، والهدى الثاني جاء وصفاً له من حيث العمل به ، أي ان هذا الذي في الانجيل إنما ينتفع به ويتعظ بمواعظه المتقون ، فهو تماماً كقولك : إنما ينتفع بالنور ذوو الأبصار ، قال الإمام علي (ع) : « ربَّ عالم قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه » . لأنه لم يعمل بعلمه، ونكرر القول : إن المراد بالانجيل في الآية الانجيل الذي ينزه الله عن الولد والصاحبة،وينفي الربوبية عن عيسى (ع) ويبشر بنبوة محمد (ص) .

(وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) . أهل الانجيل النصارى ، وأهل التوراة اليهود ، وأهل القرآن المسلمون ، وقد أمر الله سبحانه كـل من يدين بدين ، ويؤمن بكتاب من كتب الله سبحانه أن يعمل به،ويُلزم نفسه بأحكامه، ومن خالف فهو مفترٍ كذاب ، يهودياً كان أو نصرانياً أو مسلماً . ولا ميزة لطائفة دون طائفة ، وإنما خص أهل الانجيل بالذكر لأن الحديث عنهم .

بين الكفر والفسق والظلم :

قال سبحانه في الآية المتقدمة ٤٤ : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » . وقال في الآيه ٤٥ : « ومن لم يحـكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون » . وقال في الآيــة ٤٧ ؟ « ومن لم يحــكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . ثلاثة أوصاف تواردت على موصوف واحد، وقد اختلف المفسرون في التوجيه والتأويل ، ونضرب صفحاً عن أقوالهم تجنباً للاطالة ، أما رأينا فنبديه فيما يلي :

ان الدين عقيدة وشريعة ، والعقيدة من صفات القلب ، ولها أصول ، وهي الايمان بالله وصفاته ، وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والشريعة أحكام عملية تتعلق بالأقوال والأفعال ، وإذا أطلق لفظ الكفر مجرداً عن القرينة ، كما لو قيل : فلان كافر فُهم منه انه يجحد أصول العقيدة كلاً أو بعضاً .. وإذا أطلق لفظ الفسق فُهم منه انه مقر بالدين أصولاً وفروعاً ، ولكنه متهاون ، وتارك العمل بالفروع كلاً أو بعضاً .

هذا ، إذا أطلق كل من اللفظين ، دون أن يضاف إلى شيء ، أمــا إذا أضيف الفسق إلى العقيدة كقولنا : فلان فاسق العقيدة فيكون المراد بالفسق الكفر ، وقد جاء هذا الاستعمال في القرآن ، قال تعالى : « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون - ٩٩ البقرة » . وإذا أضيف الكفر الى العمل ، لا الى العقيدة فالمراد منه الفسق ، قال تعالى : « ولله على النــاس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين - ٩٧ آل عمران » . فقد وصف سبحانه تارك الحج بالكفر ، مع انه مؤمن بجميع الأصول ، فيتعين ان المراد بالكفر الفسق .

أما لفظ الظلم فيجوز اطلاقه على الكفر وعلى الفسق ، لأن كلاً من الكـافر والفاسق قــد ظلم نفسه ، حيث حملها من العذاب ما لا تطيق ، قــال تعالى : « والكافرون هم الظالمون ٢٥٤ — البقرة » . وقال : « ومن أظــلم ممن كتم شهادة عنده من الله - ١٤٠ البقرة » . وكتم الشهادة بوجه العموم لا يوجب الكفر باتفاق المسلمين .

وبهذا يتبين معنا ان الكفر والفسق والظلم ألفاظ كثيراً ما تتوارد في القرآن على معنى واحد ، وعليه يصح أن يوصف بها من لم يحكم بما أنزل الله ، والقصد التغليظ على من لم يحكم بالحق ، سواء أحــكم بالباطل ، أو استنكف عن الحــكم سلباً

وإيجاباً ، ونفس الشيء يقال فيمن يُحكم عليه بحكم الله فيستنكف عن تنفيذه والاذعان له .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن الفقهاء اتفقوا على ان من جحد حكماً شرعياً ثبت باجماع المسلمين كوجوب الصلاة وحرمة الزنا فهو كافر ، ومن خالفه مقراً به فهو فاسق .

لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ ــ ٥٠ :

وأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ★ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ★ أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ★

اللغة :

المهيمن على الشيء القائم على شؤونه . والشرعة والشريعة لمعنى واحد ، وهي

الطريق الى الماء ، أو مورد الماء ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الأحكام العملية ، لأن كلاً من الماء وأحكامه تعالى سبب للحياة . والمنهاج الطريق الواضح. والابتلاء الاختبار . وان يفتنوك ، أي يميلوا بك عن الحق .

الاعراب :

بالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب . ومصدقاً حال . وليبلوكم منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف، والتقدير فرقكم ليبلوكم . والمصدر المنسبك من أن أحكم مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير الحكم بالحق لازم. والمصدر المنسبك من أن يفتنوك، مفعول لأجله، على حذف مضاف أي احذرهم مخافة أن يفتنوك . وحكماً تمييز .

المعنى :

(وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه). المراد بالكتاب الأول القرآن ، لأن الخطاب موجه لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب الثاني جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ، ومنها التوراة والانجيل .. بعد أن ذكر سبحانه التوراة والانجيل وموسى وعيسى (ع) عقب بذكر القرآن ومحمد (ص) ، ووصف القرآن بوصفين : الأول : انه يصدّق كل كتاب نزل على نبي من الأنبياء . الثاني : انه مهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية ، ومعنى هيمنة القرآن على التوراة والانجيل انه يشهد لهما بالحق والصدق ، ويخبر عن الأصول والأحكام المحرفة فيهما ليميز الناس الأصيل من الدخيل الذي نسبه رؤساء الأديان الى الله كذباً وافتراء .

(فاحكم بينهم - أي بين اليهود - بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق) . وبديهة أن النبي (ص) لا يحكم إلا بالحق ، ولا يتساهل فيه كبيراً كان أو صغيراً ، ومحال أن يتبع هوى مخلوق .. كيف وأقواله وأفعاله الميزان الذي يقاس به الحق والعدل ؟.. ولو افترض أن مخادعاً حاول أن يخدع الرسول

بمظهره ورياءه ، وأوشك الرسول أن يُخدع به باعتباره بشراً فإن الله سبحانه يرعاه بعنايته ، ويُعلمه بالواقع قبل أن تبدر منه أية بادرة يريدها منه المخادع المحتال : « ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً – ٧٤ الاسراء ».

وتسأل : ما دام الأمر كذلك ، فلماذا خاطب الله نبيه المعصوم بهذا الخطاب؟

الجواب : أولاً بيّنا فيما تقدم ان الخطاب إذا صدر من الأعلى لا يُلحظ فيه حال المخاطب ، مهما كانت منزلته ، وإنما يعتبر ذلك إذا صدر الخطاب من المساوي أو الأدنى .

ثانياً : إن الله سبحانه يعلم ان علماء السوء من أمة محمد (ص) سيبررون الانحراف عن حكمه ، بمعاذير شيطانية ، فخاطب نبيه الأكرم بهذا الخطاب تحذيراً لهم من التلاعب بالدين مسايرة لأهواء الحاكمين والمترفين .

(لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) . المضاف اليه محذوف ، أي لكل أمة. ومنكم خطاب لجميع الناس ، أو للأمم الثلاث : اليهود والنصارى والمسلمين ، وشرعة الشريعة ، وهي الأحكام العملية التي يمتثلها الانسان طاعة لله ، وابتغاء مرضاته وثوابه ، وتجدر الإشارة إلى أن كلمة الشريعة أخص من كلمة الدين ، لأن الدين يشمل الشريعة ، وأصول العقيدة . والمنهاج السبيل الواضح ، أي أن الله جعل لكل أمة شريعة واضحة لا التباس فيها ولا غموض .

وهذه الآية نص في أن شريعة الله لم تكن واحدة لكل الناس في كل العصور وأنها كانت فيما مضى مؤقتة بأمد محدود ، وإن الأديان تتفق وتتحد في أصول العقيدة فقط ، لا في الشريعة .

وتسأل : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا اختصت الشريعة الإسلامية بالدوام والاستمرار من بين الشرائع ؟

ولن يعرف الجواب عن هذا السؤال إلا من درس الشريعة الإسلامية ، حيث يرى أنها تقوم على قواعد ثابتة محال أن تتغير بتغير الأزمان والأحوال ، لأنها تلائم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لا من حيث انه قديم أو حديث ، من ذلك على سبيل المثال : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. كل إنسان بريء ، حتى تثبت إدانته .. الصلح خير .. إقرار العقلاء على أنفسهم جائز .. الناس عند

شروطهم .. الحدود تدرأ بالشبهات .. لا ضرر ولا ضرار .. الضرورات تبيح المحظورات .. اليقين لا ينقضه إلا يقين مثله .. درأ المفسدة أولى من جلب المصلحة .. الضرر لا يزال بضرر مثله .. الغائب على حجته حتى يحضر ، وما إلى ذلك مما أفرد له الفقهاء المجلدات .. إن هذه المبادىء محال أن تتغير إلا إذا تغيرت طبيعة الإنسان .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) . ميّز الله سبحانه الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن جعل فيه استعداداً للجهل والعلم ، والتخلف والتقدم ، ولعمل الخير والشر ، ثم نهاه عن هذا ، وأمره بذاك ، وكان من نتيجة هذا الاستعداد والأمر والنهي أن تفاوت الناس في استغلال هذا الاستعداد ، وفي طاعة الله ومعصيته ، ولو شاء الله أن لا يمنح الإنسان هذه الموهبة لفعل ، ولو فعل لكان الناس جميعاً في مستوى واحد ، تماماً كالحيوانات والطيور والحشرات، يتصرفون ولا يعرفون خيراً ولا شراً ، ولا نجاحاً ولا فشلاً .

(ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) . أي أن الله منحنا هذه الموهبة ، وأمرنا ونهانا ليعاملنا معاملة السيد المختبر لعبيده أيهم أحسن عملاً ، مع العلم بأنه يعلم السرائر والضمائر ، ولكنه لا يثيب إلا بالعمل ، ولا يعاقب إلا بعد الانذار والاعذار .

(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) . أي إذا كان الله قد منح الإنسان هذه الموهبة ، وشرّع الشرائع للأمم لتظهر الأفعال التي يستحق بها الإنسان الثواب فعلينا جميعاً أن نسارع إلى عمل الخيرات لأنها المقصود الأول من الشرائع، ومن يتخذ من اختلاف الشرائع وسيلة للشحناء والبغضاء فإن الله سبحانه يحاسبه غداً ، ويجازيه بما يستحق .

(وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) . هذه الآية تكرار للآية التي قبلها بلا فاصل ، وقال بعض المفسرين : تلك نزلت في تحاكم اليهود في الزنا ، وهذه في تحاكمهم في القتل ، ولا دليل على هذا التوجيه ، ولا على غيره مما في كتب التفسير ، وقد بينا في ج ١ ص ٩٦ ان القرآن الكريم يستعمل التكرار لأنه عامل قوي في تكوين الآراء وانتشارها .

هذا ، إلى أن ضمير أهوائهم يعود إلى اليهود ، ومن طريقة القرآن أن يكرر ويؤكد ما يتصل بهم أكثر من تأكيده وتكراره لأي شيء آخر ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن اليهود شر الأمم على الاطلاق ، وبذلك شهد تاريخهم القديم والحديث ، وما من أحد رآهم أهلاً لغير الشر إلا أهل الشر ، وقد ظهرت هذه الحقيقة للرأي العام بأجلى معانيها بعد ٥ حزيران من سنة ١٩٦٧ .

(فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) . أي إن أعرضوا عن حكم الله فسيعود عليهم هذا الاعراض بالخزي والوبال ، وتسأل : لماذا قال ببعض ذنوبهم ، ولم يقل بذنوبهم ، وهل معنى هذا ان الله يعذبهم على بعض الذنوب ، ويعفو عن بعض ؟

الجواب : ان قوله تعالى : « ببعض ذنوبهم » اشارة إلى إعراضهم عن الحكم الذي حكم به رسول الله (ص) ، والمعنى : لا يرعك أيها الرسول إعراض اليهود عن حكمك ، فإن الله سيعاقبهم على هذا الاعراض والتمرد .

(وان كثيراً من الناس لفاسقون) . الفاسق من عصى الله في حكم واحد من أحكامه .. وعلى هذا فأكثر الناس ، بل كل الناس،فاسقون إلا من ندر ، ولكن كلمة كثير تُستعمل في الأكثرية ، ولا عكس . (أفحكم الجاهلية يبغون). وكل حكم يخالف حكم الله فهو حكم الجاهلية ، سواء أكان في عصر الجاهلية ، أم بعده .

(ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) . وليس من شك ان كل حكم فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو حكم الله ، سواء أورد فيه نص خاص من الكتاب والسنة ، أم لم يرد ، وكل ما فيه ضرر للناس بجهة من الجهات فمحال أن يرضى الله به ، حتى الحق الإلهي يسقط اذا تولد منه الضرر .. وكفى دليلاً على أن كل حكم ينتفع الناس به فهو حكم الله ، كفى دليلاً على هذه الحقيقة الآية ٢٣ من سورة الأنفال : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » لأن معناها ان كل دعوة إلى الحياة فهي دعوة لله ولرسول الله (ص) .

واختلف المفسرون في معنى اللام في قوله تعالى : (لقوم يوقنون) فقال

بعضهم : انها بمعنى عند مثل كتبته لخمس خلون من شهر كذا ، أي عند خمس . وقال آخر : هي للبيان . والصحيح انها للاختصاص مثل الجنة للمتقين، لأن المؤمنين الموقنين هم وحدهم الذين يحكمون ويعملون بحكم الله .

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الآية ٥١ ــ ٥٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ★ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ★ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ★

اللغة :

الدائرة ما أحاط بالشيء ، والمراد بها هنا ما يدور به الزمان من المصائب ، يقال دارت عليه الدوائر ، أي نزلت عليه النوائب والدواهي . والفتح القضاء والفصل ، والمراد به هنا النصر .

الاعراب :

بعضهم أولياء بعض مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب.

وفي قلوبهم مرض مبتدأ وخبر ، والجملة صلة الذين . و (فترى) ان كانت بصرية فانما تحتاج الى مفعول واحد ، وهو الذين ، وعليه تكون جملة يسارعون حال ، وإن كانت قلبيـــة فتحتاج إلى مفعولين ، وعليه تكون جملة يسارعون مفعولاً ثانياً . وجهد مفعول مطلق لأقسموا لأنه مضاف إلى الإيمان ، والإيمان بمعنى القسم ، فيكون مثل قعدت جلوساً ، وجلست قعوداً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أوليـــاء) . يتسع الإسلام لجميع الأديان والأجناس ، لا فرق عنده بين الأسود والأبيض ، ولا العربي والعجمي ، ولا بين المسلم وغير المسلم من حيث المساواة أمام العدالة والقانون .. فلكل إنسان كائناً من كان الحق في أن يعيش بحرية وأمان على نفسه وماله ، ولا سلطان لأحد عليه ما كفّ أذاه عن غيره ، فإن تعدّى وأفسد أقيم عليه الحد .. فإذا أساء المسلم إلى غيره وجب علينا نحن المسلمين أن نمقته ونبرأ منه، وعلى العدالة أن تردعه وتعاقبه ، وإذا كفّ اليهودي أو النصراني أذاه بسطنا له يد البر والإحسان ، ولو أنكر نبوة محمد والقــرآن ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخــرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون — ٩ الممتحنة » .

وإذا عطفنا هذه الآية التي رغّب الله بها المسلمين في البر والإحسان إلى جميع الطوائف وأهل الأديان الذين لم ينصبوا العداء للمسلمين ، إذا عطفنا هذه الآية على الآية التي نفسرها ، وجمعناهما في كلام واحد يكون المعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أوليـــاء إذا نصبوا العداء لكم ، وكانوا حرباً عليكم ، أما إذا كانوا وادعين مسالمين فعليكم أن تحسنوا العشرة معهم ، وتعيشوا جميعاً متعارفين متآلفين .. بل ولكم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، لأن الله يحب

العدل والإحسان إلى جميع خلقه ، من آمن أو كفر بشرط واحد : وهو أن لا يسيء إلى أحد ، لأن الناس ، كل الناس عيال الله ، وأحبهم اليه أنفعهم لعياله .. فالمبرر عنده تعالى لحسن العشرة مع أي إنسان ، هو كف الإساءة والأذى ، أما من جحد وكفر فعليه كفره . وتقدم الكلام مفصلاً عن موالاة المؤمن للكافر بشتى أقسامها وأحكامها عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران.

وبهذه المناسبة نشير إلى أن كرهنا لليهود نحن المسلمين لا سبب له إلا انهم قاتلونا في عقر ديارنا ، وأخرجوا منها نساءنا وأطفالنا ، كما ان السبب الأول والأخير لكرهنا وعدائنا للولايات المتحدة وانكلترا ، ومن اليهما من دول الاستعمار التي ساندت اسرائيل هو أن هذه الدول ظاهرت اسرائيل على إخراج أهل فلسطين من ديارهم .. ومرة ثانية نعيد خطاب الله لنا وقوله عز من قائل : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

البترول واليهود والنصارى :

(بعضهم أولياء بعض) . أجمع المفسرون على ان المراد بعض اليهود أنصار بعض ، وبعض النصارى أنصار بعض،وليس المراد ان كل طائفة توالي الأخرى ، لأن ما بين الطائفتين من العداء أكثر مما بين النصارى والمسلمين ، فإن اليهود يرمون مريم بالفاحشة ، والمسلمون يقدسونها ويبرأونها من كل عيب .

وليس من شك ان المفسرين قد استوحوا هذا المعنى من العصر الذي عاشوا فيه ، حيث لا شركات بترول عالمية ، ولا مؤسسات احتكارية نهمة إلى التوسع والسيطرة على ثروات الشعوب ومقدراتها .. أما اليوم وبعد أن قامت هذه الشركات والمؤسسات فقد رأى أصحابها المسيحيون في اليهود خير وسيلة يعتمدون عليها لتدعيم احتكاراتهم وأطماعهم ، ومن أجل هذا أقاموا دولة إسرائيل في فلسطين وحرصوا على تعزيزها وحمايتها ، ورسموا لها خطط العدوان والتوسع ، وتعهدوا بالوقوف إلى جانبها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن .. وتعلقت هي بأذيالهم ،

ودارت في فلكهم ، ونفذت خطط الاستعمار ، وامتثلت أوامر العدوان بعد أن استبان لها ان حياتها رهن بالسمع والطاعة لأوامر الاستعمار ، وتنفيذ خططه ، وإلا تخلى عنها ، وولت إلى غير رجعة .. وإذا عقد المستعمرون وأذنابهم الآمال على مخالب إسرائيل فإنا نعتمد على الله ، وعلى حقنا المشروع ، واستعادة إيجابيتنا استعداداً للمعركة الحاسمة لاسترداد الحق السليب .

(ومن يتولهم منكم فإنه منهم والله لا يهدي القوم الظالمين) . أي ان من يتولى اليهود والنصارى الذين نصبوا العداء للاسلام والمسلمين فهو بحكمهم يحاسب حسابهم ، ويعاقب عقابهم ، لأن من رضي عن قوم فهو منهم ، وهذه الآية دليل قاطع على ان عملاء الاستعمار الذين يقومون بدور الحارس لمصالحه هم أشد جرماً ، وأكثر خطراً من المستعمرين أنفسهم ، أو مثلهم - على الأقل - لأنهم الركيزة الأولى لاستغلالهم وعدوانهم .

(فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم) . يظهر من سياق الآية انها قضية في واقعة ، وحكاية عن حادثة خاصة تتلخص بأن بعض المنافقين المشار اليهم بقوله : (في قلوبهم مرض) كانوا يوالون اليهود الذين يضمرون العداء للاسلام والمسلمين ، ويخطبون ودهم ، وإذا عوتبوا على ذلك قالوا : ما يدرينا أن تدور الأيام ويضعف الاسلام ، وتصير القوة والشوكة لليهود والمشركين على المسلمين ، فإذا لم نحتط من الآن لأنفسنا ونتخذ لنا يداً عندهم خسرنا كل شيء ودارت علينا دائرة السوء ، وهذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى : (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) .. وهكذا الانتهازيون يتذبذبون بين جميع الفئات ، حتى إذا كان الغلب لفئة على فئة قالوا لمن غلب : ألم نكن معكم ؟.. وبكلمة ان المنافقين مع الجميع بألسنتهم ، وفي واقعهم لا يستجيبون إلا لأهوائهم : « ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون — ٥٦ التوبة » ، أي يخافون على أنفسهم ومصالحهم .

وتسأل : لماذا قال يسارعون فيهم ، ولم يقل يسارعون اليهم ؟.

الجواب : ان فيهم أبلغ في التأكيد والثبات ، لأن الداخل في الشيء يتمكن منه أكثر من المسارع اليه .

(فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) . المراد بالفتح انتصار المسلمين على اليهود والمشركين ، والمراد بأمر من عنده اظهار حال المنافقين ، واذلالهم وخزيهم ، والمعنى ان المنافقين أحكموا الخطة لأنفسهم عند أعداء الاسلام ظناً منهم ان الدائرة ستدور مع الكفار على المسلمين ، ولما انعكس الأمر ، ودارت الدائرة مع المسلمين على أعدائهم ندم المنافقون ، ولكن حيث لا ينفع الندم .

(ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم) . لما أظهر الله المسلمين على أعدائهم لم يستطع المنافقون أن يخفوا ما في أنفسهم من الحسرة واللوعة ، وظهر أثرها في فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم .. فتعجب المؤمنون من حال المنافقين حين تكشفت حقيقتهم ، وقال بعضهم لبعض: أهؤلاء الذين كانوا يحلفون بالأمس أغلظ الإيمان مجتهدين في توكيدها انهم منا ومعنا ؟. ما أجرأهم على الكذب والرياء . (حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) . قال الرازي وصاحب المنار : يحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الله ، ويحتمل أن تكون من كلام المؤمنين .

ويلاحظ بأن احتمال كونها من كلام الله غير وارد على الاطلاق ، لأن سياق الآية يدل على أنها من كلام المؤمنين ، وليست إخباراً مستأنفاً من الله سبحانه ، والمعنى ان المؤمنين بعد أن تعجبوا من حال المنافقين وألاعيبهم قالوا : لقد بطلت أعمال المنافقين التي كانوا يتظاهرون بها أمامنا كالصوم والصلاة ، وما اليهما ، ولم ينلهم من الثواب شيء (فأصبحوا خاسرين) . خسروا الدنيا ، لأنهم خذلوا وخسروا الآخرة لما أعد لهم من العذاب الأليم .

أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين الآية ٥٤ :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِـمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ★

اللغة :

الذِّل بكسر الذال ضد الصعوبة ، والمراد به هنا التواضع واللين ، وبضم الذال ضد العز ، أي الهوان .

الاعراب :

جملة يحبهم صفة لقوم . وأذلة صفة ثانية . وأعزة صفة ثالثة . وجملة يجاهدون صفة رابعة .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) . الارتداد هو الكفر بعد الإسلام . وذكرنا المرتد وتقسيمه إلى مرتد عن ملة وفطرة ، وحكم كل منها عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٥ . والنهي عن الارتداد بعد النهي عن موالاة أعداء الدين يُشعر بأن هذه الموالاة قد تؤدي إلى الارتداد عن الإسلام . وفي الحديث : « لو ان راعياً رعى إلى جنب الحمى لم يثبت غنمه أن يقع في وسطه » .

وقال أهل السيَر والتاريخ : ان ثلاثة ارتدوا ، وادعوا النبوة على عهد رسول الله (ص) بعد أن آمنوا به . الأول الأسود العنسي ، تنبأ في اليمن ، وأخرج عمال رسول الله (ص) منها ، ولكنه قُتل قبل وفاة النبي (ص) بيوم واحد . الثاني مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، وكتب إلى محمد (ص) : « من

مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإني شريك معك في الأمر ، والأرض بيننا مناصفة » . وقُتل في عهد أبي بكر . الثالث طلحة بن خويلد، ادعى النبوة ، ثم عاد وأسلم .

أما سجاح فقد ادعت النبوة في خلافة أبي بكر ، وتزوجها مسيلمة . وقال أبو العلاء المعري في هذا الزواج :

أمست سجاح ووالاها مسيلمة كذابة في بني الدنيا وكذاب

وتسأل : ان بعض الشيوخ لا تتوافر فيهم شروط المجتهد الذي عناه الإمام (ع) بقوله : « صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه » ومع ذلك يدعي النيابة عن المعصوم في الفتيا والقضاء ، وان الراد عليه راد على الله ، فهل حكم هذا ، تماماً ، كحكم مسيلمة الكذاب ، لأن كلاً منهما يفتري على الله كذباً ؟.

الجواب : يكون بحكم مسيلمة الكذاب بشرطين : الأول أن يدعي النيابة عن المعصوم ، وهو يعلم بأنه مفترٍ كذاب ، وانه ليس أهلاً لهذه الدعوى .

الشرط الثاني : أن لا يرى الاجتهاد والعدالة من الشروط الأساسية للنيابة عن المعصوم . مع علمه بأنهما واجبان بحكم البديهة الدينية .. وهذا الفرض بعيد جداً فإن من يدعي النيابة عن المعصوم يرى نفسه من أهل العدالة والاجتهاد ، حتى ولو لم يكن مطيعاً لمولاه ، ومخالفاً لهواه .

وليس من شك ان هذا يفترق عن مسيلمة الكذاب ، من حيث الارتداد ، ولكنه يلتقي معه من حيث الكذب والغرور .. وبديهة ان العلم والغرور ضدان لا يجتمعان ، تماماً كالكذب والعدالة ، لأن الغرور يبعد صاحبه عن واقعه ، ويفصله عن نفسه ، وينتقل به الى عالم الأوهام والأحلام ، ومن كان هذا شأنه فلا يهتدي إلى صواب .

(فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) . اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بلفظ القوم . ونقل الرازي في ذلك ستة أقوال .. والله سبحانه لم يعينهم

بأسمائهم ، بل أشار اليهم بأوصافهم ، وعلى هذا فكل من تنطبق عليه الأوصاف الخمسة المذكورة في الآية فهو المقصود ، وهي :

١ – يحبهم ويحبونه ، وحب الله لعبده أن يرفع من شأنه غداً ، وينعم عليه بالجنان والرضوان ، أما حب العبد لله فإنه لا ينفك أبداً عن حبه لعباد الله ، تماماً كما لا ينفك حب الحق عن حب العاملين به ،وكراهية الباطل عن كراهية أهله.

٢ – أذلة على المؤمنين ،لأن التواضع للمؤمن المخلص تقديس وتكريم للإيمان والاخلاص ، لا للأفراد والأشخاص ، قال تعالى يخاطب نبيه العظيم : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين – ٢١٥ الشعراء » .. وبديهة انهم لم يستحقوا هذه الكرامة إلا بالإيمان والاخلاص لله ولرسوله .

٣ – أعزة على الكافرين ، لأن الاستعلاء عليهم استعلاء للعقيدة والمبدأ ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم – ٢٩ الفتح » .

وترشدنا هذه الآية ، وآية « واخفض جناحك » الى حقيقتين : الأولى كل من يتذلل للأغنياء والأقوياء الطغاة ، ويتعاظم على الفقراء المؤمنين فإنه ليس من الدين في شيء ، وان قام الليل ، وصام النهار . الحقيقة الثانية ان قيم الأخلاق في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها ، وان الله سبحانه قد أمر بها من أجل الانسان، ولم يأمر الانسان بها من أجلها .. ومن هنا كان التواضع للمتكبرين ضعة ، وللمتواضعين رفعة . قال الإمام علي (ع) : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله .

٤ – يجاهدون في سبيل الله ، وكل عمل يسد حاجة ، أو يدفع ظلامة فهو جهاد في سبيل الله . وفي الحديث : « إن النبي (ص) كان جالساً مع بعض أصحابه ، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال : إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان .

٥ – لا يخافون لومة لائم ، لا يظهر الايمان على حقيقته إلا عند المحنة ،

فهي المحك الصحيح لايمان المؤمن .. ينكر المنكَر إرضاء لربه وضميره ، أما ما يصيبه من وراء ذلك فيهون ويزدري .

هذا هو شعار المخلصين : لا يخافون في الحق لومة لائم . أو كما قال نبي الرحمة : « إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » . ولا مصدر لهذه المشاكل التي يعانيها عالم اليوم من حرب فيتنام إلى حرب الشرق الأوسط ، ومن الحكومة العنصرية في روديسيا وجنوب افريقيا إلى مشكلة الملونين في الولايات المتحدة ، لا مصدر لهذه المآسي وما اليهـا إلا سكوت من سكت عن الحق في الصحف والاذاعات والأمم المتحدة ومجلس الأمن خوفاً من ملوك الذهب الأسود وحماتهم المأجورين .

وبالتالي ، فإن قوله تعالى : « ولا يخافون لومة لائم » يرسم صورة حيـة للمتدين ، والأهداف التي يجب أن ينطلق اليها ، ويضحي من أجلها .. بقي هذا السؤال البسيط : هل يسوغ بعد هذا للقائـل أن يقول : إن الدين مغيبات ، وصلاة أموات !.

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) . وقد رأينـا بالحس والوجدان ان الله سبحانه لا يشاء أن يمنح فضله إلا لمن سار وفق الأسباب والسنن التي أقام بهـا جلت حكمته نظام الكون بأسره .. ولو أراد منا أن نمشي بلا رجلين ، ونعمل بلا يدين ، ونبصر بلا عينين لكان في غنى عن خلق شيء منها : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ ٢ الفرقان » .

مشكلة الاخلاق :

قال (نيتشه) فيلسوف الإنسان الأعلى : لا واقع لقيم الأخلاق ، فالحرية والعدالة والمساواة مجرد ألفاظ صنعها الضعفاء ليحدّوا بها من سيطرة الأقوياء .

وقال ماركس فيلسوف الثورة ضد الإنسان الأعلى : العكس هو الصحيح ، فالزهد والصبر والوداعة ألفاظ صنعها الأقوياء ليسيطروا بها على الضعفاء .

ومعنى هذا عند الاثنين ان ألفاظ القيم لا مصدر لها إلا الهوى والمصلحـة

الذاتية ، وما دام الهوى لا يتفق مع الإنسانية والمثــل العليا فتكون ألفاظ القيم دجلاً ونفاقاً .

ونحن نؤمن بأن مصدر القيم هي المصلحة ، ولكنها المصلحة المنبثقة من طبيعة الانسان بما هو إنسان ، لا بما هو طبقة من الطبقات ، وفئة من الفئات،وليس من شك أن هذه المصلحة تتفق مع الإنسانية والمثل العليا ، بل هي هي ، ولذا سميت قيماً إنسانية،لا طبقية . وعليه يكون لها واقع ثابت بثبوت الإنسان نفسه .. ولا ينفي هذا استغلال من يستغلها،وتحريف من يحرّفها حسب أهوائه ومصلحته، وإلا لم يصح تقسيم الناس إلى محق ومبطل يحرّف الكلم عن مواضعه ، وإلى مخلص ومنافق يتستّر بشعار الصالحين .. هذا ، إلى أنه ليس في تاريخ الإنسان مجتمع واحد قال للفرد : افعل ما شئت،فإنك غير مسؤول عن شيء قتلت أو سرقت.

أجل ، هناك مذاهب شتى لتحديد القيم الأخلاقية لا يتسع المقام لذكرها .. والذي يهمنا أن نحددها كما هي في نظر الاسلام ، وقد انطلقت أقلام الغيورين تحدد القيم الاسلامية بأنها تهدف إلى تكوين الفرد الصالح في المجتمع الصالح .. وهذا التحديد يحتاج إلى تحديد ، لأن القارىء لا يفهم منه شيئاً واضحاً يلتزمه عند التطبيق والممارسة ، وتجنباً لهذا المحذور نمهد أولاً بذكر بعض الأمثلة ، ثم نستخرج من دلالتها التحديد الواضح الذي يمكن ممارسته في الحياة اليومية .

أمر الإسلام بالصدق والوفاء والبذل والتواضع والصبر والعفو ، وما إلى ذلك، ولكن قيد وجوبها بحد لا يصح تجاوزه بحال ، وهو أن لا يؤدي الالتزام بهـا إلى عكس الغرض المطلوب منها ، فالصدق واجب ، ما دام في مصلحة الانسان، فإذا تولد منه ضرر كإخبار العدو بالأسرار العسكرية ، أو نقل الكلام بقصـد الفتنة كان محرماً ، والكذب محرم إلا في حرب عدو الدين والوطن ، وفي الصلح بين اثنين ، وفي صيانة نفس بريئة ، ومال محرم ، والوفاء باليمين واجب ، ما دام الحالف لا يجد خيراً من يمينه ، وإلا تركها لحديث : « إذا وجدت خيراً من يمينك فدعها » . وبذل المال في سبيل الله حسن إلا إذا احتاج اليه صاحبه ، والصبر راجح إلا على الظلم والعوز ، والعفو فضيلة إلا إذا كان سبباً للفوضى ونشر الجرائم .

وبهذا يتبين ان قيم الأخلاق في الإسلام تقاس بمدى ما تحققه للانسان من جلب مصلحة ، أو دفع مفسدة ، ومعنى هذا انها وجدت من أجل الإنسان.ولم يوجد هو من أجلها ، كي يجب عليه التعبد بهـا على كل حال . فالقيم الأخلاقيـة – إذن -- هي التي تحصر تصرفات الإنسان في إطار مصلحته ومصلحة الجماعة ، أو عدم الإضرار به أو بغيره على الأقل .

وتسأل : ما هو الضابط لتمييز النافع من الضار ؟.

ونجيب باختصار ان الضابط هو الاحساس والشعور العام بأن هذا ضار ،وذاك نافع، ومتى انتهى الأمر إلى هذا الاحساس والشعور ينقطع الكلام،ولا يبقى مجال للسؤال والجواب لأن الشعورالعام هو البديهة بالذات.

يؤتون الزكاة وهم راكعون الآية ٥٥ – ٥٦ :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ★ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ★

الاعراب :

الذين يقيمون الصلاة صفة للذين آمنوا ، لأنها بمعنى (المصلون) . وجملـة وهم راكعون حال من واو يؤتون الزكاة .

المعنى :

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء الدين أولياء بيّن من الذي يجب اتخاذه

ولياً ، فقال : (انما وليكم الله ورسوله) ولا يختلف اثنان في المراد بولاية الله والرسول وانها التصرف في شؤون المسلمين ، وليس مجرد المحبة والنصرة ، قال تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم - ٦ الأحزاب » ، والولاية في هذه الآية تفسير وبيان للولاية في الآية التي نحن بصددها .

(والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) . أي ان الولاية التي لله والرسول ثابتة أيضاً لمن جمع بين الزكاة والركوع ، ونقل الطبري عن مجاهد وعتبة بن أبي حكيم وأبي جعفر ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وفي كتاب غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري - من السنة - ما نصه بالحرف : « الآية نازلة في علي باتفاق أكثر المفسرين » . وفي تفسير الرازي ما نصه بالحرف أيضاً :

« روي عن أبي ذر رضوان الله عليه انه قال : صليت مع رسول الله (ص) يوماً صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم يعطه أحد ، وعلي كان راكعاً ، فأومأ اليه بخنصره اليمنى ، وكان فيها خاتم ، فأقبل السائل ، حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي (ص) ، فقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري إلى قوله : وأشركه في أمري ، فأنزلت قرآناً ناطقاً سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً . اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري . قال أبو ذر : فوالله ما أتم النبي (ص) هذه الكلمة ، حتى نزل جبريل ، فقال : يا محمد اقرأ انما وليكم الله ورسوله.. الى آخر الآية » .

ولكن الرازي فسر الولاية هنا بمعنى الناصر ، لا بمعنى المتصرف ، وقال الشيعة : إن لفظ الجلالة والرسول ومن جمع بين الزكاة والركوع جاء في آية واحدة ، وولاية الله والرسول معناها التصرف فيجب أيضاً أن يكون هذا المعنى بالذات مراداً من ولاية من جمع بين الوصفين ، وإلا لزم أن يكون لفظ الولاية مستعملاً في معنيين مختلفين في آن واحد ، وهو غير جائز .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) . هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل بحال على أن المعنى المراد من ولاية الله والرسول

والمؤمنين واحد لا اختلاف فيه ، وان من حافظ على هذه الولايـة ، ولم يفرق بين الله ورسوله ومن جمع بين الزكاة والركوع فهو من حزب الله الغالب بمنطق الحق وحجته .

اتخذوا دينكم هزواً ولعباً الآية ٥٧ ـ ٥٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ★ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ★

الاعراب :

من الذين أوتوا الكتاب متعلق بمحذوف حال من واو اتخذوا . والكفار قرىء بالجر عطفاً على (من الذين أوتوا الكتاب) وبالنصب عطفاً على (لا تتخذوا الذين) . والمصدر المنسبك من (ان آمنا) مفعول تنقمون، أي تنقمون إيماننا . والمصدر المنسبك من أن أكثركم فاسقون معطوف على (ما) أي آمنا بما أنزل الينا وبفسق أكثركم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا

الكتاب والكفار أولياء) . مرة ثانية نهى سبحانه عن اتخاذ أعداء الله أولياء ، ولكنه بيّن هنا سبب النهي ، وهو أنهم يتخذون من دين الإسلام ، وصلاة المسلمين مادة للهزء واللعب ، شأن السفيه العاجز عن مجابهة الحجة بمثلها ، ولا يليق بالعاقل أن يوالي السفهاء، بخاصة الذين يهزأون من دينه وأشرف مقدساته .. وأيضاً زاد سبحانه في هذه الآية انه عطف الكفار على أهل الكتاب ، وهو من باب عطف العام على الخاص ، والقرآن يعطف العام على الخاص كهذه الآية ، والخاص على العام كقوله : « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى - ٢٣٨ البقرة » . ويعطف النظير على نظيره كقوله : « فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ١٧٥ النساء » .

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) . فيه إشعار بأن من يوالي ويؤاخي من يهزأ بالدين فهو أبعد الناس عن الإيمان ، لأن شبيه الشيء منجذب اليه .

(وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) . تدعو كنائس النصارى أتباعها إلى الصلاة بضرب الناقوس ، وتدعو بيع اليهود أتباعها إلى الصلاة بالنفخ بالبوق ، أما المسلمون فيدعون إلى الصلاة بصوت المؤذن ينادي بالاستجابة إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى العمل الصالح الفالح : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. حي على الفلاح .. حي على خير العمل .. وكان بعض أهل الكتاب ، وما زالوا يسخرون من هذا الأذان ، وهذه الدعوة .. والأولى أن يسخروا من نواقيسهم وأبواقهم .. على أن المعتدلين من النصارى يستحسنون الأذان ، ويفضلونه على ضرب الأجراس ، قال صاحب المنار :

« سمعنا من بعض النصارى المعتدلين في بلدنا -- أي لبنان -- كلمات الثناء على الأذان وتفضيله على الأجراس .. وقد كان جماعة من نصارى طرابلس يصطافون في بلدنا (القلمون) ، فكان النساء والرجال يقفون في النوافذ لاستماع صوت المؤذن ، وكان ندي الصوت .. وكان بعض صبيانهم يحفظون الأذان ، ويقلدون المؤذن تقليد استحسان ، فتغضب والدته وتنهاه، أما والده فكان يضحك ويسر لأذان ولده ، لأنه كان على حرية وسعة صدر » .

(ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) . قال المفسرون بما فيهم الرازي وصاحب

المنار : ان المراد من قوله تعالى (لا يعقلون) انهم لا يدركون حقيقة الإسلام، ولو أدركوا حقيقته لم يتخذوه هزواً .

أما نحن فنرى انهم قد عقلوا الاسلام ، وأدركوا أهدافه ، وأن الذين حاربوه إنما حاربوه لأنهم أدركوا خطره على منافعهم وامتيازاتهم .. فلقد أدركوا ان الاسلام ثورة على الظلم والاستغلال ، وعلى الفقر والتخلف ، وعلى تقسيم الناس إلى سيد ومسود ، وانه لا فضل لمخلوق على غيره إلا بخدمة الناس ، والعمل لصالحهم ومنافعهم .. هذا هو ذنب الإسلام عندهم ، ومن أجله حاربوه بجميع ما يملكون من وسائل ، حتى الهزء والسخرية .

وتتجلى دعوة الإسلام هذه بأكمل معانيها في نداء المؤذن : الله أكبر .. لا إله إلا الله .. فإن معنى الله أكبر انه لا كبير ولا عظيم إلا هو وحده لا شريك له ، ومعنى لا إله إلا الله: ان المال والجاه والأنساب ليست آلهة تعبد ، ولا قوة تخضع لها ، وإنما الخضوع للحق وحده ، والناس فيه سواء ، وان ما من أحد على وجه الأرض له أن يمس حرية إنسان كائناً من كان .. وكفى بهذا ذنباً للاسلام عند ألد أعداء الانسان ، ومن أجل عداوتهم هذه ، لا من أجل جهلهم بحقيقة الإسلام وصفهم العليم الحكيم بأنهم قوم لا يعقلون .

(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما انزل من قبل وان أكثركم فاسقون) . أجل ، انهم لا يرضون إلا عمن يؤمن بهم وبامتيازهم واستغلالهم .. ان هذا في مقاييسهم قدس الأقداس ، وان كفر بالله ، وجميع الأنبياء والمرسلين .. أما من يكفر بظلمهم وطغيانهم فإنه عندهم شر الأولين والآخرين ، وان كان ولي الأولياء .. ولا شيء أصدق في الدلالة على ذلك من أنهم يتهمون الوطنيين الأحرار منهم ، ويرمونهم بالمروق من الدين، لا لشيء إلا لأنهم يستنكرون السياسة الاستعمارية ، والتفرقة العنصرية .. ومع هذه التهمة الظالمة يزعمون أنهم حماة الدين ، وحراسه من الالحاد والملحدين .

وتسأل : ان قولك هذا هو الواقع الذي نراه ونشاهده ، ولكنه لا يصلح تفسيراً للآية ، لأن الظاهر منها انهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون يؤمنون بالله والقرآن والتوراة والانجيل ؟.

الجواب : ان ظاهر الآية يدل صراحة عـلى أن الله سبحانه أمر نبيّه الكريم أن يقول لهم : هل لنا من ذنب يستوجب منكم هذا العداء إلا أننا على حق ، وأنتم على باطل ، تماماً كما يقول ـ الوطني المخلص لخصمه العميل الخـائن هل تنقم مني إلا أني وطني ، وانك عميل ؟.

وليس من شك ان هذا المعنى يتفق مع تفسيرنا للآية ، بل هو أظهر مصاديقها وأفرادها . وقد تنبه إلى ذلك صاحب مجمع البيان ، حيث جـاء في تفسيره : « معنى الآية هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم ، أي انما كرهتم إيماننـا وأنتم تعلمون انّا على حق ، وانكم اقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة ، وكسبكم بهـا الأموال ـ ثم قال ـ ومعنى فاسقون خارجون عن أمر الله طلباً للرياسة » .

وجعل منهم القردة والخنازير الآية ٦٠ ـ ٦٣ :

قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ★ وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ★ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ★

اللغة :

المثوبة من ثاب اليه إذا رجع ، والمراد بها هنا الجزاء والثواب . والطاغوت من الطغيان . والسحت الدنيء المحرم . والفرق بين الإثم والعدوان ان الإثم هو الجرم ، وقد يكون مع التعدي على الغير ، وقد لا يكون معه تعد على أحد ، أما العدوان فهو الاعتداء على الغير ، والصنع العمل مع الاشعار بالجودة، يقال : صنع الله لفلان إذا أحسن اليه .

الاعراب :

مثوبة تمييز من شر . ومن لعنه (من) في محل جر بدلاً من شر ، أي هل أنبئكم بمن لعنه الله ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، أي هو من لعنه الله . وعبد الطاغوت (عبد) فعل ماض معطوف على من لعنه الله ، والتقدير هل أنبئكم بشر الناس من لعنه الله ، ومن عبد الطاغوت . وجملة وقد دخلوا حال من الواو في قالوا . وجملة وهم قد خرجوا حال ثانية . والسحت مفعول لأكلهم . ولولا أداة تحضيض ، وتختص بالمضارع مثل لولا تستغفرون. أو ما في معناه نحو لولا اخرتني .

المعنى :

(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) . ذلك إشارة إلى حال المنتقمين ، والمثوبة تستعمل في الجزاء بالخير ، والعقوبة في الجزاء بالشر ، وقد وضعت المثوبة هنا موضع العقوبة من باب تحيتهم السباب ، والمعنى قل يا محمد لأعداء الدين والحق الذين يستهزأون من الإسلام والأذان ، قل لهم : إن كان الإيمان بالله وكتبه شراً يوجب النقمة فأنا أخبركم بشر من هذا ، إن كان هذا شراً .. وهو (من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) وهذه الأوصاف كلها من أوصاف اليهود ، حيث سجل الله عليهم

لعنته وغضبه في أكثر من آية ، ووصفهم بعبادة الجبت والطاغوت ، وقال لهم: كونوا قردة خاسئين ، ومن هذه الآيات :

١ ــ الآية ٤٦ من النساء : « كما لعنا أصحاب السبت » .

٢ ــ الآية ٩٠ من البقرة : « فباءوا بغضب على غضب » .

٣ ــ الآية ٦٥ البقرة : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . وما قال الله لشيء كن إلا كان .

٤ ، الآية ٥١ ــ النساء: «يؤمنون بالجبت والطاغوت ». وقيل المراد بالطاغوت الشيطان . وقيل : العجل . والصحيح أن كل من أطاع عبداً في معصية الله فهو عبدٌ له .

وقال الرازي : « احتج أصحابنا ــ أي الأشاعرة ــ بهذه الآية على ان الكفر بقضاء من الله ، لأن التقدير وجعل الله منهم من عبد الطاغوت » . والصحيح ان عبدَ معطوف على لعنه الله ، لا على جعل منهم القردة ، وان التقدير هل أنبئكم بشرّ الناس ، أو بشرّ من ذلك من لعنه ومن عبدَ الطاغوت ، كما قلنا في فقرة (اللغة) ، وعليه فلا يصح الاستدلال بهذه الآية على أن الكفر من الله، لا من العبد .

(أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيــل) . أولئك إشارة إلى اليهود ظاهراً وتشمل كل من حاد عن الحق واقعــاً ، ولا يجديه قول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. اذ لا إيمان بلا تقوى .

(وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا بــه) . كان منافقو اليهود يدخلون على النبي (ص) ، ويقولون له : نحن بلك من المؤمنين ، وهم كاذبون في أقوالهم ، وقد عبر سبحانه عن نفاقهم هذا بأنهم دخلوا عــلى النبي بالكفر ، وخرجوا من عنده بالكفر .. ويشعر هذا التعبير بأنهم لو كانوا طلاب حق لخرجوا مؤمنين من عند الرسول بعد أن سمعوا ورأوا البينات والدلائل.
(والله عليم بما يكتمون) من الكفر والنفاق ويجازيهم عليه بما يستحقون .

(وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس مـا كانوا يعملون) . المسارعة مفاعلة وتومىء إلى التسابق والتنافس في الأثم والعدوان

وأكل السحت ، أي الحرام ، وهذه سمة لا تفارق اليهود ، ومن أجلها مقتهم الناس قديماً وحديثاً ، إلا من يتخذ منهم أداة للشر ، تماماً كالسم القاتل .. حتى في الولايات المتحدة وكر الصهاينة يوجد جماعة كُثر يناهضون اليهود .

(لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) . هذا التوبيخ الذي دلت عليه لولا وبئس موجه في الظاهر لرؤساء الأديان من أهل الكتاب .. وفي الواقع موجهٌ لكل من عرف الحق ، وسكت عنه.. ان العالم بالله حقاً المخلص له وحده يحتج على المظالم بشتى الوسائل، وإذا تيقن أن موته في هذه السبيل ينبه الغافلين ، ويردع الظالمين أقدم عليه ، وعبر عن احتجاجه بالاستشهاد ، وتاريخ الشهداء جميعاً هو تاريخ الاحتجاج على جرائم الظلم والعدوان .

قالت اليهود يد الله مغلولة الآية ٦٤ — ٦٦ :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ★ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ★ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ★

اللغة :

لليد معانٍ ، منها الجارحة،أي هذه اليد العادية التي أكتب بها هذه الكلمات، ومنها النعمة ، تقول لفلان عندي يد اشكرها ، ومنها القدرة ، ومنها الملك . وتستعمل في البذل والإمساك حسبما تنسب اليها،تقول بسط يده إذا أردت البذل ، وتقول غلّ يده إذا أردت الإمساك . واقامة التوراة والانجيل العمل بما فيهما . ومقتصدة ، أي معتدلة .

الاعراب :

كيف في محل نصب على الحال ، أي ينفق على أي حال يشاء . وكثيراً مفعول أول ليزيدن، وطغياناً مفعول ثان . وكلما نصبت على الظرف لأنها مضافة إلى ما المصدرية الظرفية . وفساداً مفعولٌ لأجله ليسعون .

المعنى :

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) . هذه صورة من الصور العديدة التي يرسمها القرآن لليهود ، ومثلها قولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء » .. وعلى قياسهم ينبغي أن يكونوا هم الآلهة ، والله جلت عظمته (...) وقد تجلت هذه الغطرسة والوقاحة بأقبح معانيها في تحديهم للرأي العام العالمي باحتلال القدس سنة ١٩٦٧ .

وفي بعض الروايات ان الذي نطق بكلمة الكفر هذه رجل منهم ، اسمه فنحاص .. وقد تكون الرواية صحيحة ، وصحيح أيضاً ان الواحد لا يعبّر عن رأي الطائفة والجماعة ، وان بعض ضعاف المسلمين يقول هذا حين تحاصره المصائب ، ولا يجد له مهرباً .. هذا صحيح ، ولكن من اطلع على سيرة اليهود يعلم انهم يقولون هذا بلسان الحال ، وإن لم ينطقوا به بلسان المقال .. إنهم يريدون من الله أن يهب الأرض ومن عليها اليهم وحدهم،وإلا فهو بخيل مغلول

اليد (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) . وبما فعلوا من المسارعة إلى الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام .

الصهاينة تواطأوا مع النازيين :

قال صاحب تفسير المنار : (غلت أيديهم) هو دعاء من الله عليهم بالبخل وما زالوا أبخل الأمم ، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا درّ عليه ربحاً .

وقد كان الربح الوحيد عندهم هو المال ، ومن أجله يحل كل محرم ، أما اليوم فلا ربح أفضل من قتل عربي ، حتى ولو كان طفلاً ، والشعار الديني المقدس لهيئاتهم (الخيرية) « ادفع دولاراً تقتل عربياً » مسلماً أو نصرانياً .. بل إنهم يسخون بأرواحهم رجالاً ونساء وأطفالاً ليخرجوا الفلسطينيين من ديارهم ويحلّوا محلهم .. وأغرب ما قرأت ان زعماء الصهاينة ، ومنهم وايزمان وموسى شاريت ودافيد بن غوريون تواطأوا مع النازيـــة وزعماء الجستابو على ذبح اليهود والتنكيل بهم لهدفين : الأول دفع اليهود للهجرة إلى فلسطين . الثاني اصطناع المبررات لقيام دولة إسرائيل . (عن كتاب اطلاق الحمامة ٥ يونيو للمؤلفين : بيليايف وكوبستيشنكو وبريماكوف . ترجمة ماهر عسل) .

وإذا تواطأ اليهود مع أعدى أعدائهم، وضحوا بمئات الألوف منهم من أجل دولة اسرائيل فهـــل يكثر منهم القول : ان الله فقير ونحن أغنياء ، وأن يده مغلولة عن البذل والعطاء ؟ وأية غرابة في قولهم : نحن حمامة السلام ، والعرب دعاة الحرب والدمار بعد أن قالوا : ان الله فقير ونحن أغنيـاء ؟. وإذا كانت يد الله مغلولة لأنه لم يهبهم الأرض ومن عليها فبالأولى أن يكون العرب طغـــاة معتدين ، لأنهم لم يعتذروا لليهود عن التقصير ، وعدم عرفان الجميل .. وليس قولي هذا كلاماً شعرياً ، أو إحساساً عاطفياً .. ألم يلح اليهود على اعتراف العرب بإسرائيل ؟. وأي معنى لهذا الاعتراف في هذا الظرف بالذات إلا الاعتذار وطلب العفو ؟.

(بل يداه مبسوطتان) . المراد باليد هنا عين المراد بيمينه في الآية ٦٧ من

الزمر : « والسموات مطويات بيمينه » أي بقدرته،وقال يداه بالتثنية لا بالأفراد لأنها أبلغ شكلاً ، وأقوى محتوى (ينفق كيف يشاء) بإيجاد السبب الموجب : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور — ١٥ الملك » .

أجل ، قد لا تسعف الظروف أحياناً ، ويخيب المسعى . وقوله : « وإليه النشور » تهديد ووعيد لمن يطلب العيش على حساب غيره .

(وليزيدن كثيراً منهم مـــا أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً) . المراد بالكثير الرؤساء والمترفون الذين خافوا على مناصبهم من دعـوة الحق ، وزادتهم هذه الدعوة حقداً على صاحبها محمد (ص) لأنـــه كشف عن عوراتهم وسيئاتهم التي منها تحريف كلام الله عن مواضعه ، وأكلهم المال الحرام ، وعدم التناهي عن المنكر .. ومن شأن الدعي الصلف أن يزداد عتواً وفساداً إذا نُبه الى عيوبـه ومآثمه .

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) . قال صاحب تفسير المنار : لا نعرف في التفسير المأثور عن السلف إلا أن الضمير في قوله (بينهم) يرجع إلى اليهود والنصارى في قولـــه تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)..وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم.

ونحن عـــلى رأي السلف أولاً : لأنهم أعرف بما يراد من مفردات القرآن والحديث من المتأخرين ، لأنهم أقرب إلى عهد الرسالة ونزول القرآن . ثانيـاً : لأن العداء بين اليهود والنصارى عداء ذاتي ، فاليهود يعتقدون ان المسيح مشعوذ محتال وابن سفاح — نعوذ بالله — والنصارى يعتقدون أنه ابنه تعـــالى الله ، بينما يعتقد المسلمون أنه نبي منزه عن الجهل والمعصية .. ومحال أن يزول العداء بين اليهود والنصارى : ما دامت كل طائفة على عقيدتها ، وقد حاول بابا روما عام ١٩٦٥ أن يقرب بين الطائفتين ، ولكن اليهود مـــا زالوا مصرين عـلى رأيهم بالسيد المسيح (ع) .. أجـــل ، ان الأطماع المشتركة قربت ، بل وحدت بين أرباب الشركات لكلتـــا الطائفتين ، ولكن على أساس تجاري ، لا على أساس ديني .

اليهود ونار الحروب :

(كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأهـا الله) . إن كلمة الحرب وضعت أول ما وضعت للقتال ، واستعملت في هـذا المعنى قروناً طوالاً ، وبمرور الزمن تطورت ، حتى أصبحت تدل الآن على ضد السلم والأمن والرخاء ، فأي بلد يخشى على نفسه من احتلال دولة أقوى منه ، أو ارتفعت أسعار المعيشة فيه لقتال في بلد من البلدان فهو في حالة حرب ، وإن لم تسل الدماء على أرضه ، لأنه قد تأثر بذاك القتال ، وأفقده الكثير من أمنه وراحته .

وبعد هذه الإشارة نتساءل : هل المراد بالحرب في الآية خصوص القتال أو ما يشمل الأمن والرخاء ؟ ثم إذا كان المقصود هم اليهود كما قال المفسرون فبماذا يُجاب عن حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ التي أوقد اليهود نارها ، ولم تخمد ، حتى الآن ؟

الجواب : أما كلمة الحرب في الآية فإن المراد منها خصوص القتال ، لأن هذه الكلمة لم تحمل غير هذا المعنى يومذاك . أما حرب ٥ حزيران فنجيب عنها عما يلي :

١ – اتفق المفسرون على أن المراد باليهود خصوص من كان يهم بالكيد لرسول الله والمسلمين ، فقد جاء في كتب السيرة النبوية إن يهود المدينة تحالفوا مع المشركين ضد النبي وصحابته ، وأن منهم من سعى لتحريض الروم عليهم ، كما ان بعضهم كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم .

٢ – لو سلمنا – جدلاً – ان المراد كل اليهود في كل عصر أخذاً بظاهر العموم فان حادثة ٥ حزيران لم تكن حرباً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، وإنما كانت اغتيالاً وغدر جبان ، فحتى ليلة الغدر كانت تؤكد اسرائيل وواشنطن انهما لم تبدآ بالهجوم ، بل وبعد الغدر أذاعت اسرائيل ان العرب هم البادئون ، ثم ظهرت الحقيقة .. على أن حرب ٥ حزيران لم تكن بين العرب واليهود ، وإنما كانت في واقعها بين العرب والولايات المتحدة ، فهي مهندس العدوان ، والآمر به ، ومصدر السلاح والمال ،وصانع الخديعة السياسية ، والمحامي والحارس ، أما إسرائيل فقد مثلت دور الجندي المطيع .

قال مؤلفو كتاب اطلاق الحمامة الذي أشرنا اليه منذ قريب : « نشرت الصحف الفرنسية وألمانيا الغربية أن المخابرات الأمريكية سلمت اسرائيل قبل العدوان كل ما تجمع لديها من معلومات بالإضافة إلى الدوسيه الخاصة بالشرق الأوسط لدى قيادة الحلف الأطلسي .. وان الذي أصدر الأمر لاسرائيل بالهجوم على العرب باسم الرئيس جونسون هو مستشاره اليهودي الصهيوني « والت روستو » .. وكان الأميرال الأميركي يحمل في جيبه أمراً بتنفيذ الاستعداد للقتال في جميع الوحدات الخاضعة له .. أما عملية ليبرتي سفينة التجسس فقد كانت مدبرة بين الأميركيين والاسرائيليين » .

٣ — ان نار الحرب التي أوقدتها واشنطن أو عميلتها اسرائيل قد أخمدها الله ما في ذلك ريب .. فلقد اعترف الذين أوقدوها أكثر من مرات ، وأعلنوا بالصحف والاذاعات انها لم تحقق الهدف المطلوب منها ، وهو ضرب القيادة التحررية للعرب ، واستسلامهم دون قيد وشرط ، وبالتالي حل مشكلة إسرائيل من الناحية السياسية .. وفي الوقت نفسه كانت حادثة ٥ حزيران امتحاناً قاسياً للعرب ، وتأكيداً لضرورة الاصلاح الجذري ،وتنبيهاً لهم الى أصدقائهم وأعدائهم.. ولو لم يكن لتلك الحادثة من فائدة إلا افتضاح المتآمرين على بلادهم وأمتهم لكفى.

(ويسعون — أي اليهود — في الأرض فساداً) . لأن أهدافهم الأثيمة محال أن تتحقق إلا بالتخريب وإثارة الفتن ، وقد صرح المسؤولون في إسرائيل ان بقاء دولتهم وحياتها رهن بالخلافات القائمة بين زعماء العرب .. فهل من مذكر؟

(والله لا يحب المفسدين) . ومن ثم تكون عاقبتهم إلى وبال،وإن طال الزمن .

(ولو ان أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) . هذه دعوة من الله سبحانه لليهود والنصارى أن يتوبوا ويدخلوا في الإسلام ، وإن استجابوا لدعوته صفح عن جميع ذنوبهم ، وإن عظمت ، لأن الإسلام يجُبّ ما قبله ، كما جاء في الحديث ، وان اتقوا بعد إسلامهم أدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

وفساد الاوضاع :

انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم) . إقامة التوراة والانجيل العمل بهما، والمراد بما أنزل اليهم التعاليم التي كانوا يسمعونها من الأنبياء ، وهي المعروفة عند المسلمين بالأحاديث النبوية ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم كناية عن السعة في الرزق ، تماماً كما تقول : فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه .

وفي معنى هذه الآية آيات كثيرة ، منها الآية ٩٥ من الاعراف : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » . والآية ١٢ الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . والآية ٤١ الروم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . والآية ٣٠ الشورى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . وترشدنا هذه الآيات إلى أمرين :

١ ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، إنما هو من حكم الأرض ، لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس الذين أماتوا الحق ، وأحيوا الباطل ، لا من قضاء الله وقدره ، وان أية جماعة عرفوا الحق ، وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء يستند إلى فساد الأوضاع ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئاً ما دام بين قوم فاسدين ، بل يجر صلاحه عليه البلاء والشقاء ، قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ٢٥ الأنفال » ، أي ان الآثار السيئة لمجتمع سيء تعم جميع أفراده الصالح والطالح .. وليس من شك ان الشعب الكسول الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان . وعلى هذا يكون المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكامه ومبادئه ، لا إقامة الصلاة فقط ، بل واداء الزكاة ، وجهاد المستقلين والمحتكرين ، وإقامة العدل في كل شيء ، وليس من شك ان العدل متى عم وساد صلحت الأوضاع ، وذهب الفقر والشقاء ، وهذا ما يهدف اليه القرآن .

لقد كشف الإسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع ، وبين التخلف وآلام الانسانية بشتى أنواعها ، وسبق إلى معرفة هذه الحقيقة كل عالم من علماء الاجتماع ، وكل قائد من قادة الاشتراكية والديمقراطية وغيرها .. وإذا كان لدى

هؤلاء شيء يذكر فعن الاسلام أخذوا ، ومنه اقتبسوا .. ولكن ما الحيلة فيمن ينفر من كل ما يمت إلى الدين بسبب ، لا لشيء إلا لأن اسمه دين .

(منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) . الضمير في منهم يعود إلى أهل الكتاب المذكورين في الآية صراحة ، وهم اليهود والنصارى ، والمراد بالأمة الجماعة ، ومعنى مقتصدة معتدلة ، والذين أطلق الله عليهم وصف الاعتدال هم من اعتنق الاسلام من اليهود والنصارى بعد أن ظهرت لهم دلائل الحق ، وبينات الصدق . وقد ذكر أهل التاريخ والسير أسماءً كثيرة لمن أسلم من أهل الكتاب ، أما الذين أصروا على الكفر بعد أن استبان لهم الحق فهم المقصودون بقوله تعالى : (وكثير منهم ساء ما يعملون) .

بلغ ما أنزل اليك الآية ٦٧ :

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ★

المعنى :

يدل ظاهر الآية على ان هناك أمراً هاماً نزل على النبي (ص) ، وقد أمره الله بتبليغه إلى الناس ، فضاق النبي به ذرعاً ، لأنه ثقيل على أنفسهم ، فتريث يتحين الظروف والمناسبات تجنباً للاصطدام مع المنحرفين .. ولكن الله سبحانه حثه على التبليغ حالاً ، ودون أن يحسب حساباً لأي اعتبار ، والله سبحانه يتولى حمايته وعصمته من كل مكروه .

وتسأل ؛ إن قوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) لا يفيد شيئاً يحسن السكوت عليه ، حيث جعل جواب الشرط عين فعله ، تماماً مثل قول القائل : إن لم تفعل فما فعلت ، وإن لم تبلغ فما بلغت .. فما هو الوجه ؟

الجواب : إن قوله تعالى : (فما بلغت رسالته) يُشعر بأن هذا الأمر الذي تريث النبي (ص) في تبليغه خوفاً من الناس قد بلغ من الأهمية حداً يوازي تبليغه تبليغ الرسالة كلها ، بحيث إذا ترك تبليغه فكأنما ترك تبليغ جميع الأحكام ، تماماً كما تقول لمن كان قد أحسن اليك : إذا لم تفعل هذا فما أنت بمحسن إليّ اطلاقاً ،وعليه يكون المعنى إن لم تبلغ هذا الأمر فكأنك لم تؤد شيئاً من رسالتي ، وجازيتك جزاء من كتم جميع أحكامها .

سؤال ثان : ما هو هذا الأمر الذي بلغ من العظمة هذا المبلغ ، حتى أناط الله تبليغ الرسالة جميعاً بتبليغه ، وجعل الرسول يتوقف أو يتريث في تبليغه ، وهو الحريص على أن يصدع بأمر الله مهما كانت النتائج ؟

الجواب : بعد أن اتفق المفسرون الشيعة منهم والسنة على تفسير الآية بالمعنى الذي ذكرناه ، بعد أن اتفقوا على هذا اختلفوا في تعيين هذا الأمر الذي تريث النبي (ص) في تبليغه ، والذي لم يذكره الله صراحة .

قال الشيعة : إن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، وان هذا الأمر الهام هو ولايته على الناس، وان النبي (ص) تريث في التبليغ لا خوفاً على نفسه، كلا . فلقد جابه صناديد قريش بما هو أعظم ، فسفه أحلامهم،وسب آلهتهم ، وعاب أمواتهم ، وهم الأشداء الأقوياء ، وأهل العصبية الجاهلية .. أقدم النبي على هذا ، ولم يخش فيه لومة لائم يوم لا حول للإسلام ولا طول،فكيف يخشى من تبليغ حكم من الأحكام بعد أن أصبح في حصن حصين من جيش الإسلام ومناعته ؟ وإنما خاف النبي (ص) إذا نص على علي بالخلافة أن يتهم بالمحاباة والتحيز لصهره وابن عمه ، وأن يتخذ المنافقون والكافرون من هذا النص مادة للدعاية ضد النبي (ص) والتشكك في نبوته وعصمته .. وبديهة ان مثل هذه الدعاية يتقبلها البسطاء والسذج .

هذا ملخص ما قاله الشيعة ، واستدلوا عليه بأحاديث رواها السنة في ذلك ، ونقل بعضها الرازي وصاحب تفسير المنار .

أما السنة فقد اختلفوا فيما بينهم ، فمن قائل : إن النبي سكت عن بعض الأحكام التي تتعلق باليهود ، ومن قائل : إن الحكم الذي سكت النبي عنه يتصل

بقصة زيد وزينب بنت جحش ، وقال جماعة من السنة ان الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب ، لا في خلافته ، ونقل هذا القول الرازي وصاحب تفسير المنار .

قال الرازي : « العاشر — أي القول العاشر — : نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب ، ولما نزلت هذه الآية أخذ النبي بيد علي ، وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه » فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ،وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي » .

صاحب المنار وأهل البيت :

وقال صاحب تفسير المنار : « أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فقد رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والنسائي ، والضياء في المختار ،وابن ماجة ، وحسّنه بعضهم ، وصححه الذهبي بهذا اللفظ ، ووثّق سند من زاد فيه: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه الخ » ، وفي رواية انه خطب الناس ، فذكر أصول الدين ، ووصى بأهل بيته ، فقال : « إني قد تركت فيكم الثّقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ،فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، الله مولاي ، وأنا ولي كل مؤمن ، ثم أخذ بيد علي وقال — الحديث — أي من كنت مولاه فعلي مولاه .

ثم أطال صاحب تفسير المنار الكلام ، وقال فيما قال : المراد بالولاية في الحديث ولاية النصرة والمودة [1] .. ولكنه أتبع هذا التفسير بقوله : « إن مثل هذا الجدل فرق بين المسلمين ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء،وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلا رجاء في تحريهم الحق في مسائل الخلاف » . هذا صحيح يقره كل عاقل ، ولولا التعصب للباطل لم يقع الخلاف بين المسلمين ،

---

[1] انظر تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة .

وعلى افتراض حصوله فإنه لا يستمر هذا الأمد الطويل،ولم تؤلف عشرات الكتب في مسألة واحدة .

ثم قال صاحب تفسير المنار : « أما حديث من كنت مولاه فعلي مولاه فنحن نهتدي به ، ونوالي علياً المرتضى ، ونوالي من والاهم ، ونعادي من عاداهم ، ونعد ذلك كموالاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ونؤمن بأن عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وأن الكتاب والعترة خليفتا الرسول ، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير ، فإذا أجمعوا على أمر قبلناه واتبعناه،وإذا تنازعوا في أمر رددناه إلى الله والرسول » .

اقامة التوراة والانجيل الآية ٦٨ ـ ٦٩ :

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ★ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ★

الإعراب :

الصابئون مبتدأ والخبر محذوف ، أي والصابئون كذلك . ومثله : « فاني وقيارٌ بها لغريب » أي اني لغريب ، وقيارٌ كذلك ، أو غريب ، والنصارى عطف على الصابئين . من آمن بالله بدل بعض من كل ما تقدم من الأصناف .

المعنى :

(قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) من دين الحق ، ولا تنفعكم هـذه المظاهر الدينية (حتى تقيموا التوراة والإنجيل إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٤ من هذه السورة) .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا إلخ .. تقدم تفسيره في الآية ٦٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١١٦ وما بعدها .

ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ — ٧١ :

لقدْ أخذْنا ميثاقَ بني إسْرائيل وأرْسلْنا إليْهمْ رُسُلاً كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بما لا تَهْوَى أنْفُسُهُمْ فريقاً كَذَّبُوا وفريقاً يَقْتُلُون★ وحَسِبُوا ألَّا تكُونَ فِتْنَةٌ فعَمُوا وصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وصَمُّوا كَثِيرٌ منْهُمْ واللهُ بَصِيرٌ بما يَعْمَلُونَ★

اللغة :

المراد بالفتنة هنا العقوبة .

الإعراب :

لقد اللام واقعة في جواب القسم المحذوف ، أي والله لقد . ولا تكون تامة. وفتنة فاعل ، والمصدر المنسبك من أن وما بعدها مفعول حسبوا ، أي حسبوا عدم الفتنة . وكثير بدل من واو عموا وصموا .

المعنى :

(لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل) . سبق تفسير قوله تعالى في الآية ١٢ من هذه السورة : « ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » . والآية ١٣ : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم » . وقال المفسرون : ان الله سبحانه كرر أخذ الميثاق من اليهود ، ونقضهم إياه بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم – كرر ذلك تأكيداً لعتوهم وشدة تمردهم .. ونضيف نحن إلى ذلك ان الله جل ثناؤه قد أراد أيضاً من هذا التكرار – وهو أعلم بما أراد – أن يحذر ذراري المسلمين من ذراري اليهود ، حيث سبق في علمه تعالى ان المسلمين سيفترقون إلى طوائف وينقسمون إلى دويلات ، وان اليهود سيستغلون هذا الانقسام لإنشاء دولة لهم في قلب البلاد الإسلامية ، ويكون منها ما كان .

(وأرسلنا اليهم رسلاً) بينوا لهم طريق الحق والهداية ، ولكن (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون) . فهوى النفس وحده هو الآمر الناهي عند اليهود ، ولا جزاء لمن خالفهم – وان كان نبياً – إلا القتل ان قدروا عليه ، أو التكذيب ان عجزوا عن القتل .. وهذا الوصف لا يختص باليهود ، وان كان الحديث عنهم ، فكل من انخدع لهواه يفعل مثل ما فعلوا ، يهودياً كان ، أو مسلماً ، أو نصرانياً .

(وحسبوا الا تكون فتنة) . المراد بالفتنة هنا شدائد الأمور ، كتسلط الأقوياء عليهم بالقتل والتخريب والتشريد ، أي ظن اليهود أنهم لا يُغلبون أبداً لأنهم شعب الله المختار بزعمهم .. وقد اعتمدوا على هذا الزعم فيما مضى ، أما اليوم فإنهم يعتمدون على القوى الاستعمارية ، والعناصر الرجعية ، والشركات الاحتكارية ، وعلى إثارة الفتن والخلافات ، ونشر الفساد والانحلال .

(فعموا وصموا) . كل من كره شيئاً عمي عن محاسنه ، وقد كره اليهود كل شيء إلا ما تهوى أنفسهم ، لذا تعاموا عن منهج الحق ، وتصاموا عن صوت العدل ، فسلط الله عليهم البابليين ، فقتلوا رجالهم ، ونهبوا أموالهم ، وسبوا نساءهم وأطفالهم (ثم تاب عليهم) بعد أن تابوا ، لشدة ما أصابهم في أسر بختنصر من المذلة والمهانة (ثم عموا وصموا كثير منهم) . أي أن الله سبحانه

بعد أن أنجاهم من عــذاب الأسر عاود كثير منهم الكرة إلى البغي والفساد ، قتلوا زكريا ويحيى ، وكذبوا السيد المسيح (ع) وحاولوا قتله ، وقالوا فيه وفي أمه قولاً عظيماً . فسلط الله عليهم الفرس والروم ، وفعلوا بهم ما فعله بختنصر . (والله بصير بما يعملون) من سفك الدماء، وتزييف الحقائق ، وتدبير المؤامرات وتنفيذ الخطط التي بضع تصميمها كل طاغٍ وباغ .. ان الله سبحانـه يعلم ذلك منهم ، وهو مجازيهم عليه بالخزي والخذلان في الدنيا قبل الآخرة .

وهذا الوصف الذي حكاه الله عن اليهود ينطبق تماماً على من يتظاهر بالإسلام، ثم يدور في فلك الذين يساندون اسرائيل ، ويناصرونها عـلى العرب والمسلمين .

دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ ــ ٧٥ :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ★ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ★ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ★

اللغة :

الصديقة مبالغة في الصدق . والافك الكذب .

الاعراب ؟

ثالث خبر إن . وثلاثة مجرور بالاضافة ، ولا يجوز ثلاثةً بالنصب على انه مفعول لثالث ، كما يجوز لك أن تقول : ضاربٌ زيداً على أن يكون زيد مفعولاً لضارب ، لا يجوز ذلك في ثلاثة ، إذ يصير المعنى الثالث جعل الثلاثة ثلاثة ، وهذا باطل وغير مراد ، لأن المعنى المراد واحد من ثلاثة ، لا جاعل الثلاثة ثلاثة .. أجل ، إذا قلت : رابع ثلاثة يجوز أن تجر ثلاثة بالاضافة ، وأن تنصبها مفعولاً لرابع على معنى جاعل الثلاثة أربعة . ما من إله (من) زائدة . وإله مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي ما إله موجود إلا الله . ولفظ الجلالة بدل من إله ، أو من الضمير في موجود . ليمسن اللام واقعة في جواب قسم محذوف ، ويمسن ساد مسد جواب القسم وجواب ان الشرطية. ومنهم متعلق بمحذوف حالاً من الذين . وجملة كانا يأكلان الطعام مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، ولا يصح أن تكون صفة للمسيح وأمه ، لأن كلاً منهما جاء في جملة مستقلة ، ولو قال : المسيح وأمه مخلوقان كانا يأكلان لصح إعراب الجملة وصفاً . وكيف نبين (كيف) مفعول مطلق لنبين ، لأن المعنى أي بيان نبين ، ولا يجوز أن تكون كيف مفعولاً لأنظر، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وأنى بمعنى كيف ، وهي مفعول مطلق ، والمعنى أي افك يؤفكون .

المعنى :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) . غالى اليهود في تحقير عيسى وأمه ، وغالى النصارى في تعظيمها ، حتى ارتفعا بهما إلى مكان الآلهة ، والغلو في نظر الإسلام كفر بشتى صوره وأشكاله . قال الإمام علي (ع) : « سيهلك فيّ صنفان : محبّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق ، وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فالزموه» .

(وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) . المسيح من بني إسرائيل

وأنذر أول من أنذر قومه ، فأمرهم بعبادة الله وحده معترفاً بأنه ربه وربهم ، ومنذراً من يشرك بالله بأليم العذاب،ولكن النصارى أبوا إلا القول بربوبية عيسى (ع) ومن جحد بها فقد جحد بخالق الكون في عقيدتهم .

(لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) . أنكر سبحانه على النصارى أولاً تأليه السيد المسيح (ع) ، ثم أنكر عليهم في هذه الآية جعلهم الله واحداً من ثلاثة ، وقولهم : إن الله هو الأب والمسيح هو الابن ، ثم حل الأب في الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة هو عين الآخر،وهو غيره . وتقدم الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة، والآية ١٧٠ من سورة النساء .

(ما من إله إلا الله) . سئل الإمام علي (ع) عن التوحيد والعدل ، فقال: التوحيد ان لا تتوهمه ، والعدل أن لا تتهمه . أي من توحيد الله ان لا تتصوره بوهمك ، لأن كل موهوم محدود والله لا يُحد بوهم ، والعدل ان لا تتهم الله بحكمته ، وانه فعل ما لا ينبغي أن يفعل .

(وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) . وتسأل: ان (منهم) في الآية تدل بظاهرها ان النصارى فيهم الكافر والمؤمن ، مع العلم بأنهم جميعاً يقولون بألوهية عيسى والله سبحانه يقول : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) ؟

وأجاب المفسرون بأن (منهم) أخرجت من تاب وأسلم ، وأبقت من أصر على الكفر .. ويلاحظ بأن من أسلم لا يُعد منهم ، والصحيح ان النصارى ظلوا على عقيدة التوحيد ، والإيمان بنبوة عيسى أمداً غير قصير ، ثم انقسموا إلى طائفتين : إحداهما تؤمن بالتوحيد ، والأخرى تقول بالتعدد .. وعلى طول الأمد اتفقت كلمة الجميع على التثليث ، وعلى هذا فلفظ (منهم) اخرج الطائفة البائدة التي كانت تؤمن بنبوة عيسى ، لا بألوهيته . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧ من هذه السورة .

(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) . ما أوضح هذا الكلام. ورغم هذا الوضوح أبى بعض المفسرين إلا أن يفسره ويقول : « هنا فعل

محذوف ، والتقدير أفلا يسمعون ما قلنا فيتوبون ، وهكذا يأتي الشيء جامداً بارداً إذا كان في غير محله .

(ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) . كنوح وابراهيم وموسى وغيرهم ، وقد أظهر الله المعجزات على أيديهم كما أظهرها على يد عيسى ، فالقول بربوبيته من دونهم ترجيح بلا مرجح (وأمه صدّيقة) . وبيّن الله معنى الصديقة بقوله : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين -- ١٢ التحريم » .

(كانا يأكلان الطعام) . كل من افتقر إلى شيء ، أي شيء ولو إلى مكان أو زمان فهو مخلوق ، لأن الافتقار وصف لازم له ، ولا ينفك عنه بحال ، وإلا كان خالقاً غير مخلوق .. كما ان الغنى عن كل شيء وصف لازم للخالق ، ومحال أن ينفك عنه ، وإلا كان مخلوقاً .. وبديهة أن من يأكل الطعام فهو في أشد الحاجة اليه .. إذن ، هو مخلوق وليس بخالق .. وغريبٌ أن تخفى هذه البديهة الواضحة على عاقل .. ولهذا المنطق ونصاعته عقّب سبحانه على موقفهم بقوله -- مستنكراً -- (انظر كيف نبيّن لهم الآيات) . ومن هذه الآيات ان المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، فكيف يكونان إلهين ؟ . (ثم انظر انّى يؤفكون) . أي معرضين عن الحق مكذبين له تمرداً وعناداً .

لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً الآية ٧٦ -- ٨١ :

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ★ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ★ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ★ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ

عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ★ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ★ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ★

اللغة :

التناهي تفاعل ، أي كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً ، ويستعمل في الكف عن الشيء ، يقال تناهى عن كذا ، أي كف عنه .

الاعراب :

غير الحق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا تغلوا غلواً غير الحق . ومن بني اسرائيل متعلق بمحذوف حالاً من الذين كفروا . وبئس ما كانوا (بئس) فعل ماض بمعنى الذم ، و (ما) اسم نكرة بمعنى شيء محل نصب على التمييز. وفاعل بئس مستتر يفسره ما ، أي الشيء شيئاً فعلهم ، وقد تصيدنا من يفعلون مصدراً جعلناه المخصوص بالذم . وهو مبتدأ وخبره بئس وما بعدها ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو فعلهم .

المعنى :

(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) . يستعمل القرآن الكريم (ما) فيما لا يعقل ، قال تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى » . وفيمن يعقل : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » .

وفيهما معاً : « له ما في السموات وما في الأرض » . ومنه قوله تعالى في هذه الآية « ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً » فإن المراد من (ما) كل ما اتخذ معبوداً من المخلوقات فيندرج فيه عيسى ومريم والأصنام .. أجل ، ان استعمال (ما) فيما لا يعقل أكثر من استعمالها فيمن يعقل . على العكس من استعمال (من).

أما وجه الاحتجاج على النصارى بهذه الآية فلأن الإله المعبود هو الذي يملك لعباده ضراً ونفعاً ، أما العاجز فمحال أن يكون إلهاً .. وقد ذكرت الأناجيل ان عيسى الذي يدعون له الألوهية قد أهين وصُلب ودُفن بعد أن وضعوا اكليل الشوك على رأسه ، ومن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فبالأولى أن لا يملكهما لغيره .. ومن كان هذا شأنه لا يعبده عاقل ، قال ابراهيم (ع) لأبيه : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ٤٢ مريم ». وكان لاعرابي صنم يقدسه ويعبده ، وجاءه ذات يوم ليسجد له كعادته فرأى ثعلباً بالقرب منه ، فظن ان الثعلب قصده ليتبرك به ، وحين أراد السجود له رأى قذارة الثعلب على رأسه ، فثاب اليه رشده ، وأخذ يحطم الصنم ، ويقول :

ارب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

(قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) . هذا الخطاب موجه بظاهره إلى أهل الكتاب،وفي واقعه يشمل أهل الأديان جميعاً .. والمظهر الأصيل المميز للاسلام انه يحصر النفع والضر بيد الله وحده ، ويضع الإنسان أمام خالقه دون وسائط روحية أو مادية : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً – ١٢٢ النساء » .

(ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) . المراد بالقوم رؤساء الدين الذين يتاجرون به،ويحرّفونه كما يشتهون.. وقد وصفهم جل ثناؤه بالضلال في أنفسهم أولاً ، وبإضلال أتباعهم ثانياً ، ثم بيّن نوع الضلال والإضلال بأنه انحراف عن قصد السبيل (وضلوا عن سواء السبيل) . وسواء السبيل هو الاعتدال وترك الغلو في الدين .. وهذا هو الإسلام في واقعه ، دين قويم ، وصراط مستقيم ، وكيلا يقول المسلمون في محمد(ص)

ما قاله النصارى في المسيح (ع) أمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين به : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان منكم يرجو لقاء الله فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً – ١١١ الكهف ».

ودخل رجل على رسول الله ، فارتجف من هيبته، فربت على كتفه في حنان وقال : « هوّن عليك ، أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

(لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم). قال المفسرون : نهى داود بني إسرائيل عن صيد الحيتان يوم السبت بوحي من الله ، ولما عتوا عن أمره لعنهم ، ودعا عليهم ، فصاروا قردة . أما عيسى فقد طلب منه خمسة آلاف رجل ان ينزل عليهم مائدة من السماء ، فيأكلوا منها، ويؤمنوا به ، ولما نزلت أكلوا ونكلوا ، فقال عيسى : اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت .

ولا شيء في الآية يومىء إلى هذه التفاصيل ، والمعنى الظاهر ان داود وعيسى لعنا من كفر من بني إسرائيل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . وسكت الله سبحانه عن نوع العصيان والاعتداء ، ولم يسكت عنه جهلاً ولا نسياناً ، ونحن نسكت عما سكت الله عنه ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن لعنة الله ونقمته تصيب كل من عصى واعتدى ، سواء أكان إسرائيلياً ، أو هاشمياً .

(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) . تشعر هذه الآية بأن عمل المنكر لم يكن عملاً فردياً في المجتمع اليهودي ، وإنما كان عمل الجماعة كلها ، وان المنكر قد تفشى بينهم ، حتى صار عادة من عاداتهم المألوفة التي اصطلح عليها الكبير والصغير ،ولذا لم يوجد فيهم من يستنكر المنكر ،وينهى عنه.

وعن صحيح مسلم والبخاري ان رسول الله قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذّة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » القذة إحدى ريش السهم .

(ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا) . ضمير منهم يعود إلى اليهود ، والمراد بالذين كفروا – هنا – مشركو العرب ، وكان كثير من اليهود يقفون مع المشركين ضد النبي (ص) ، ويحرضونهم عليه ، بل كانوا أشد منهم عداوة

له ، مع ان النبي (ص) يؤمن بالله ، وبنبوة موسى (ع) ، وما أنزل اليه من ربه، والمشركون يعبدون الأوثان، ولا يؤمنون بموسى ، ولا بكتاب من كتب الله، فكان الأولى باليهود ، وهذه هي الحال ، أن يقفوا مع المؤمنين ضد الوثنيين ، لا مع الوثنيين ضد المؤمنين .

ولكن اليهود كانوا وما زالوا يعملون على أساس الربح والتجارة، لا على أساس الدين، كان يهود المدينة يسيطرون على التجارة الداخلية ، ومشركو العرب يسيطرون على التجارة الخارجية ، فعمل النبي على تحرير الناس من السيطرتين ، فالتقت مصلحة اليهود مع مصلحة المشركين فتكاتفوا معهم وتضامنوا ضد المؤمنين ، تماماً كما التقت اليوم مصلحة اليهود مع مصالح أرباب الشركات الاستعمارية من المسيحيين ضد الشعوب والمستضعفين .. وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥١ من هذه السورة .

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون). هذه نتيجة فسادهم واعتدائهم ، سخطه وعذابه ، وكل امرىء مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدم ، مسلماً كان أو مشركاً .

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي — موسى — وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء) . ذكر سبحانه في الآية السابقة أن اليهود، أو الكثير منهم كانوا يتولون المشركين ، ويؤلبونهم على المسلمين ، مع ان المسلمين أقرب اليهم ديناً من المشركين . ثم بيّن سبحانه في هذه الآية ان أولئك اليهود لم يؤمنوا بالله ، ولا بموسى ، ولا بما أنزل في التوراة كما يدعون ، ولو صدقوا في دعواهم ما اتخذوا المشركين أولياء من دون المؤمنين ، لأن ذلك محرم في شريعة التوراة ، (ولكن كثيراً منهم فاسقون) . أي ان المسألة عندهم ليست مسألة دين وعقيدة ، وإنما هي مسألة مصلحة ومنفعة ، كما قدمنا .

الجزء السابع

عداوة اليهود ومودة النصارى الآية ٨٢ – ٨٦ :

لَتجدَنَّ أشدَّ النَّاس عداوةً للَّذين آمنوا اليهودَ والَّذين أشركوا
ولَتجدنَّ أقربَهم مودَّةً للَّذين آمنوا الَّذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ
منهم قسِّيسين ورهباناً وأنَّهم لا يستكبرون★ وإذا سمعوا ما أُنزل
إلى الرَّسول ترى أعينهم تفيض من الدَّمع ممَّا عرفوا من الحقِّ
يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين★ وما لنا لا نؤمن بالله وما
جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصَّالحين★
فأثابهم الله بما قالوا جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها
وذلك جزاء المحسنين★ والَّذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك
أصحاب الجحيم★

اللغة :

الفرق بين القسيس والراهب ان القسيس من أهل العلم بدين النصارى وكتبهم. والراهب المنقطع في دير أو صومعة للعبادة ، مع الزهد بالزواج والولد وسائر ملذات الدنيا .

الإعراب :

عداوة تمييز ، ومثلها مودة . واليهود مفعول ثان لتجدن . وجملة تفيض حال من أعينهم ، ولا يصح أن تكون مفعولاً ثانياً لترى ، لأن ترى هنا من

رؤية العين لا تعمل إلا في مفعول واحد . وما لنا مبتدأ وخبر . وجملة لا نؤمن حال من ضمير الخبر المحذوف الذي تعلق (لنا) به . وما جاءنا (ما) في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة . والمصدر المنسبك من أن يدخلنا مجرور بفي محذوفة ، أي في أن يدخلنا ، والمجرور متعلق بنطمع .

المعنى :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) . أي إن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للمسلمين .. وكثيراً ما يستشهد بهذه الآية على أن دين النصارى أقرب إلى الإسلام من دين اليهود .. وهذا خطأ إن أريد دين اليهود والنصارى قبل التحريف ، لأن الدين عند الله وأنبيائه واحد من حيث العقيدة وأصولها ، وان أريد دينهما بعد التحريف فهما فيه سواء : « ان الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم - ١٩ آل عمران » .

والصحيح ان عداوة اليهود والمشركين تتصل اتصالاً وثيقاً بالتصادم بين طبيعة الدعوة الإسلامية ، وطبيعة النظام الذي كان سائداً في جزيرة العرب أول البعثة .. كان هذا النظام يقوم على أساس التسابق لاقتناء المال والعبيد عن طريق السلب والنهب ، والربا والغش ، وما إليه من أسباب القهر والمكر ، وقد انعكست طبيعة هذا النظام على الكبار من مشركي مكة الذين كانوا يسيطرون على التجارة الخارجية ، كما انعكست على زعماء اليهود في المدينة الذين كانوا يسيطرون على الصناعة والتجارة الداخلية .

وانطلقت دعوة محمد (ص) تنادي بالعدل ، وترفض الظلم والاستغلال بشتى صوره وأشكاله . وتصدت للمستغلين من اليهود والمشركين بالذات ، وعلى هذا الصعيد التقت مصلحة الطرفين ، وتحالفوا على ما بينهما من التباعد في الدين والعقيدة ، تحالفوا وتكاتفوا يداً واحدة على حرب محمد (ص) العدو المشترك .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)

وبتعبير أوضح ان عداوة اليهود والمشركين للمسلمين كانت بدافع دنيوي ، لا بدافع ديني ، ولكن تستر اليهود باسم الدين رياءً ونفاقاً ، تمـاماً كما يفعل اليوم أصحاب الكسب غير المشروع .. هذا ، إلى أن كلاً من اليهود والمشركين يشتركون في العصبية الجنسية ، والحمية القوميـة .. ولكن مشركي العرب كانوا على جاهليتهم أرق قلباً ، وأكرم يداً ، وأكثر حريـة في الفكر ، ومن هنـا آمن أكثرهم برسول الله (ص) ، وما آمن به من اليهود إلا قليل .

من هم أقرب مودة للمسلمين ؟

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) . يتخذ البعض من هذه الآية وما بعدها مادة للتمويه بأن القرآن الكريم يرجح أحـد المعسكرين المتطاحنين -- في أيامنا هذه - على المعسكر الآخر .. وهـذا ما يدعونا إلى أن نشرح هذه الآيات الأربع ، ونوضحها بما لا يترك مجالاً لاستغلال الانتهـازيين والمنحرفين .

ان من تأمل هذه الآيات لا يعتريه أدنى ريب بأنها متكاملة يتمم بعضها بعضاً، وانه لا يصح بحال أن تُفسر واحدة منها مستقلة عن أخواتها ، وانها صريحـة واضحة في ان الله سبحانه لم يفاضل بـين النصارى على وجه العموم ، وبين غيرهم من الطوائف في البعد أو القرب من المسلمين ، وإنما أراد سبحانه فئـة خاصة من النصـارى بدليل انه تعالى لم يقف عند القـول : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون) بل عقبه بقوله :

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . ومعنى هذا ان من النصارى من عرفوا الاسلام ، ودخلوا فيه طوعاً ، وعن قناعة وإيمان ، والتـاريخ يثبت ذلك ، كما شهد التاريخ أيضاً بالأحقاد الصليبية على الإسلام والمسلمين، وبإبادتهم من الأندلس ، وبفظائع الايطاليـين في طرابلس الغرب ، والفرنسيين في الجزائر وتونس والمغرب وسورية ، وبفظائع الانكليز في مصر والعراق والسودان وغيرها .. واليوم تتحالف الولايات المتحدة مع اليهود على إبادة شعب فلسطين،وتسلح هؤلاء

القراصنة بأحدث الأسلحة فيعتدون،ثم يزعمون انهم المعتدى عليهم فتدعم الولايات المتحدة هذا الزعم ، وتذب عنه بحماس في مجلس الأمن وهيئة الأمم ، ويهاجم اليهود ويبطشون ، ثم يدعون انهم معرضون للبطش والهجوم ، وتقول الولايات المتحدة : نعم هذا هو الصدق والعدل .. فهل بعد هذا ، وكثير غير هــذا يقال : ان النصارى ، كل النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين ؟. ان مثل هذا لا يفوه به إلا جاهل أو مضلل ، ثم ماذا يصنع هذا المضلل بقوله تعالى :

(وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) . ان الحق الذي جاءهم وآمنوا بــه هو الذي بشر به عيسى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ـ ٦ الصف » . ويؤكد هــذا ، وينفي عنه كل ريب قوله تعالى بلا فاصل : (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) . فشهادة الله لهــذه الفئة من النصارى بالاحسان وجزاؤها بالجنان ـ دليل قاطع على اسلامها ، وانها هي وحدها المقصودة بوصف الاحسان والثواب عليه .

أما النصارى الذين أنكروا الحق بعد أن عرفوه ، أو أعرضوا عنه ، دون أن ينظروا إلى دلائله وبيناته،أما هؤلاء فقد هددهم الله سبحانه وتوعدهم بقوله : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . وتسأل : ان قوله : (والذين كفروا وكذبوا الخ)يشمل كل من كفر وكذّب فما هو وجه التخصيص بالنصارى ؟.

الجواب : ان سياق الكلام يــدل على ان الله سبحانه بعد أن وعد من آمن من النصارى بالجنة توعد من أصر على الكفر منهم بالنار ، وأطلق اللفظ ليشمل التهديد كل من خالف الحق وعانده ، وهذا لا يتنافى مع ما قلناه .

والخلاصة ان هذه الآيات صريحة في ان المقصود منها فئة خاصة من النصارى وهم الذين عرفوا الحق ، وآمنوا به ، وان الله سبحانه قد أدخلهم الجنة بسبب إيمانهم وصالح أعمالهم ، وإذا افترضنا ـ جدلاً ـ ان قوله تعالى : (ولتجدن أقربهم مودة الخ) يشمل كل من قالوا إنا نصارى ، إذا افترضنا هذا فيجب أن نصرف الآية عن ظاهرها ، ونخصصها بمن آمن منهم لأمرين :

الأول : إن الله سبحانه ذكر في العديد من آياتــه أن النصارى جعلوا لله

شركاء ، وكتموا اسم محمد (ص) عن علم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم آلهة من دون الله ، ثم نهى جل ثناؤه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . وإذا عطفنا هذه الآية وما اليها على قوله : (ولتجدن أقربهم مودة) يكون المعنى ان النصارى « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » كما جاء في الآية ٦٧ من سورة المائدة .

الثاني : إن أهل التفاسير قالوا : إن الآيات التي نحن بصددها نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، وكان نصرانياً ، لأن النبي (ص) لما رأى ما حل بأصحابه من أذى المشركين في بدء الدعوة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فذهبوا اليه ، وكان من بينهم جعفر بن أبي طالب ، فوجدوا عند النجاشي الأمان ، وحسن الجوار ، وكان ذلك في السنة الخامسة من مبعث الرسول (ص) .

وقد تواترت الأخبار ان النجاشي وبطانته من رجال الدين والدنيا أسلموا على يد جعفر بن أبي طالب بعد أن تلا عليهم آيات من الذكر الحكيم ، وذكر محاسن الإسلام . وان أعينهم فاضت من الدمع عندما سمعوا آيات الله .

وبعد ، فإن من يستشهد بقوله تعالى : (ولتجدن أقربهم مودة) على أن النصرانية والنصارى بوجه عام أقرب من غيرهم إلى الإسلام والمسلمين . ويسكت عن الآيات المتممة لهذه الآية ، ان من يفعل هذا فهو جاهل بكتاب الله ، أو مراء يتزلف إلى النصارى على حساب الإسلام والقرآن ، أو خائن يسمم أفكار السذج من المسلمين ليصدقوا مزاعم أعداء الدين الذين يناصرون إسرائيل ويباركون عدوانها على العرب والمسلمين .

لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ – ٨٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا

إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ★ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ★

الإعراب :

حلالاً حال من (ما) ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف،أي رزقاً حلالاً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) . قالوا : إن هذه **الآية** نزلت في قوم من الصحابة غلب عليهم الخوف من الله ، فحرموا على أنفسهم النساء وطيبات الطعام واللباس ، وانقطعوا إلى قيام الليل ، وصيام النهار. فدعاهم رسول الله (ص) وتلا عليهم **الآية** ، وقال : أما أنا فأقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقوله تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) يشعر بأن تحريم الحلال ، تماماً كتحليل الحرام ، كل منهما ظلم واعتداء .

(وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) . تقدم تفسيره في **الآية ١٦٨** من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٨ .

اللغو في الإيمان الآية ٨٩ :

لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ

أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ★

اللغة :

اللغو في اللغة ما لا يعتد به ، ولغو اليمين الحلف من غير قصد ، كما لو سبق اللسان بقول : لا والله ، وبلى والله . وعقد الإيمان قصدها . والكفارة من الكفر بفتح الكاف ، وهو الستر والتغطية ، ثم استعملت الكفارة في الأعمال التي تكفّر الذنوب ، أي تغطيها وتخفيها . والمراد بالطعام الأوسط الأغلب من المأكول .

الإعراب :

الضمير في كفارته يعود إلى (ما) في قوله (بما عقدتم الإيمان) . وكذلك (الكاف) بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يبين الله لكم تبياناً مثل ذلك ، وذلك مجرور بالاضافة .

المعنى :

(لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) . يعني اللغو هي ان ينطلق اللسان بها من غير قصد ، مثل قولك : لا والله . لمن سألك : هل رأيت فلاناً ؟. أو قولك: بلى والله . لمن قال لك : لا تريد كذا وكيت .. وهذه لا عقاب عليها ، ولا كفارة لها ان خالفت الواقع لقوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) . ولازمُ ذلك ان قائلها لا يعد كاذباً فيها ، وليس لأحد أن يقول : حلفت بالله

كاذباً إذا تبين العكس . وبكلمة ان هذه لا يترتب عليها شيء من آثار اليمين لأنها ليست منها في شيء إلا في الصورة ، ومع ذلك فإن الأولى تركها مع التنبيه وعدم الغفلة .

(ولكن يؤاخذكم الله بما عقدتم الأيمان) . أي ان اليمين الشرعية التي يجب الوفاء بها ، ويؤاخذ الحالف على حنثها هي التي يحلفها البالغ العاقل عن قصد وتصميم ، وارادة واختيار .

واتفقوا على ان اليمين تتم وتنعقد إذا كان الحلف بالله ، أو باسم من أسمائه الحسنى ، كالخالق والرازق . وقال الشيعة الإمامية وأبو حنيفة : لا تنعقد اليمين بالمصحف والنبي والكعبة ، وما اليها ، لحديث : « من كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليذر » . وقال الشافعي ومالك وابن حنبل : تنعقد بالمصحف . وتفرّد ابن حنبل بأنها تنعقد بالنبي أيضاً .

(فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) . إذا حلف وحنث ، أي فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، إذا كان كذلك وجبت عليه الكفارة مخيراً بين خصال ثلاث :

الأولى : أن يطعم عشرة مساكين وجبة واحدة لكل واحد بالجمع بينهم ، أو التفريق ، على أن تكون الوجبة من الطعام الغالب الذي يأكله هو وأهله ، ويجوز أن يعطي المسكين مداً من الطعام بدلاً من الوجبة، والمراد بالمسكين الفقير الذي تحل له الزكاة ، والمد أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل .

الثانية : أن يكسو عشرة مساكين،ويجزي كل ما يسمى كسوة في العرف ، لأن الشرع ورد بها مطلقاً ، فتحمل على المعنى المعروف من غير فرق بين الجديد والعتيق ، ما لم يكن الثوب بالياً أو ممزقاً .

الثالثة : أن يعتق عبداً ، ولا عبيد اليوم .

(فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) . أي فإن عجز عن الخصال الثلاث المتقدمة صام ثلاثة أيام ، وإن عجز عن الصوم استغفر الله ورجا عفوه . (ذلك كفارة ايمانكم إذا حلفتم) . ذلك إشارة إلى الطعام والكسوة والعتق والصوم بعد العجز

عن الخصال الثلاث ، وبديهة إنما تجب على النحو المتقـدم إذا حلف وحنث . (واحفظوا ايمانكم) من الابتذال ، فإن لليمين بالله حرمتهـا وعظمتها ، قال تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم — ٢٤٢ البقـرة » . وفي الحديث : « إن نبي الله موسى أمر أن لا يحلفوا بالله كاذبين ،وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين » .

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) . قال الرازي : « المعنى ظاهر » . أجل ، ولكن الله سبحانه أراد أن ينبهنا إلى نعمة المعرفة بأحكامه ، كيلا تصدر عن غيرها .

الخمر والميسر الآية ٩٠ _ ٩٢ :

يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ★ إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ★ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ★

اللغة :

الميسر القمار . والأنصاب الأصنام . والأزلام قطع من الخشب على هيئة السهام كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وتقدم شرحها في الآية ٣ من هذه السورة . والرجس الشيء المستقذر .

الإعراب :

من عمل الشيطان متعلق بمحذوف صفة لرجس . وفي الخمر والميسر متعلق بيوقع . وفهل أنتم منتهون أمر من صيغة الاستفهام ، وهو أبلغ من الأمر بصيغة أفعل

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) . تكلمنا مفصلاً عن تحريم الخمر والقمار عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨ . وعن الأنصاب والأزلام عند تفسير الآية ٣ من هذه السورة : « وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام » . ونسب سبحانه شرب الخمر ، ولعب القمار ، وعبادة الأصنام ، والاستقسام بالأزلام ، نسب هذه إلى الشيطان لأنه يحبذها ويغري بها . (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . ضمير اجتنبوه يعود إلى الرجس ،وهو أمر بالاجتناب ، والأمر يدل على الوجوب ، بخاصة عند بيان السبب ، وقد بيّن هنا ان سبب وجوب الاجتناب هو الفلاح .. ولو لم يكن من دليل على تحريم الخمرة إلا مساواتها مع عبادة الأصنام لكفى . فكيف إذا عطفنا عليها الآية ٢١٩ من سورة البقرة ، والآية ٣٢ من الاعراف ، والأحاديث المتواترة ، وإجماع المسلمين من عهد الرسول (ص) إلى اليوم ، وإلى آخر يوم .

(إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) . بعد أن أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ، وقرنهما بعبادة الأصنام ، وجعلها رجساً من عدو الانسان ، وبيّن ان اجتنابهما سبيل إلى الفلاح — بعد هذا أشار جل ثناؤه الى أن فيهما مفسدتين : احداهما اجتماعية ، وهي قطع الصلات ، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس . وثانيهما دينية ، وهي الصد عن ذكر الله وعبادته ، ثم طلب سبحانه الانتهاء عن الخمر والميسر بأبلغ تعبير : (فهل أنتم منتهون) . والإسلام يحرص كل الحرص على أن يصل

الانسان بخالقه وبمجتمعه ، وأن يكون عند الله والناس في مكان الرضا والتكريم.

(وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) في ترك الخمر والميسر وغيرهما من المحرمات (واحذروا) ما يصيبكم من عـــذاب الله إذا خالفتم أمره وأمر رسوله . قال الإمام علي (ع) : انصح الناس لنفسه أطوعهم لربه ، وأغشهم لنفسه أعصاهم لربه . (فإن توليتم فاعلموا انما على الرسول البلاغ المبين) . وقد أداه كاملاً ، وأقام الحجة على الناس ، وخرج عن عهدة التبليغ ، ومن خـــالف فهو وحده المسؤول .

اتقوا وآمنوا الآية ٩٣ :

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ★

المعنى :

اتفق المفسرون على انـــه لما نزل تحريم الخمـــر قال بعض الصحابة لرسول الله (ص) : كيف باخواننا الذين ماتوا ؛ وقد شربوها ؟ فنزلت هذه الآية ، وهي تدل بمجموعها على أن من شرب الخمرة قبل بيان حكمها فلا بأس عليه إذا كان من المؤمنين المتقين ، ومن هنا اتفق الفقهاء على ان كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي .

وبعد أن اتفق المفسرون على أن هذا المعنى هو المقصود من الآية ، اختلفوا في السبب الموجب لتكرار التقوى ثلاث مرات ، حيث ذكرت أولاً مع الايمان والعمل الصالح ، وثانياً مع الايمان فقط ، وثالثاً مع الإحسان .. ونقل الرازي

في ذلك خمسة أقوال . وقال صاحب مجمع البيان : المراد بالاتقاء الأول اتقاء شرب الخمر بعد تحريمها ، وبالاتقاء الثاني الدوام على ذلك ، وبالاتقاء الثالث اتقاء جميع المعاصي مع ضم الإحسان . وقال بعض المفسرين الجدد : لم تسترح نفسي لشيء من التفاسير ، ولم يفتح الله عليّ بشيء .

والذي نحتمله ، والله أعلم ، ان الغرض من هذا التكرار أن يبين الله سبحانه ان المتقي حقاً هو من اتقى الله في جميع أطواره وحالاته ، شاباً وكهلاً وشيخاً، وفي السراء والضراء ، وان من مات على ذلك فهو في أمن وأمان .

لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ – ٩٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ★ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ★

اللغة :

الابتلاء الاختبار . والغيب ما غاب عن الحواس الخمس . والحرم جمع حرام للذكر والأنثى ، تقول : رجل حرام ، وامرأة حرام بمعنى محرم ومحرمة. والنعم الإبل والبقر والضأن . والعدل بفتح العين المساوي للشيء قيمة من غير جنسه ، وبكسرها المساوي له مثلاً ، أي من جنسه . والوبال الثقيل المكروه ، ومنه طعام وبيل وماء وبيل . والبحر الماء الكثير بحراً كان أو نهراً أو غديراً أو بئراً أو بركة . والسيارة جماعة المسافرين .

الإعراب :

ليعلم منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور بها ومتعلق بيبلوكم . وبالغيب في موضع الحال من فاعل يخافه ، أي يخاف الله حال غيابه عن الناس . وأنتم حرم الجملة حال من واو لا تقتلوا . وفجزاءٌ مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي فعليه جزاء . ومثل صفة لجزاء . وهدياً حال من الضمير في (به) . وبالغ صفة لهدي . وكفارة عطف على جزاء . وطعام بدل من كفارة . وصياماً تمييز من عدل ذلك . والمصدر المنسبك من أن يذوق مجرور باللام ، ومتعلق بصيام . ومتاعاً مفعول لأجله لأحلّ لكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) . المراد بشيء من الصيد نوع منه ، وهو صيد البر فقط ، وقوله : تناله أيديكم ورماحكم كناية عن صيده بلا مشقة ، والمعنى إن الله سبحانه حرّم صيد البر في الحرم ، وحال الاحرام ، وهو سهل التناول ، تماماً كما حرم على بني إسرائيل صيد الحيتان يوم السبت ، وهي بمرأى منهم (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أي إن الله ابتلاكم بتحريم الصيد في هذه الحال ليميز بين من يخافه ويطيعه في السر

كما يطيعه في العلانية ، وبين من يتظاهر بطاعته والخوف منه أمام الناس،ويعصيه في الخفاء (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) أي من خالف أمر الله بالصيد بعد هذا البيان وإقامة الحجة – استحق عذاب الله وعقابه .

معنى الاختبار من الله :

وتسأل : إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فما هو الوجه لقوله تعالى : ليبلونكم الله . وقوله : ليعلم الله من يخافه ؟

الجواب : إن الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا ، فانه أعلم به من نفسه ، وإنما يمتحنه لأمور :

« منها » : أن يترجم العبد ما هو كامن في نفسه إلى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته جل ثناؤه أن لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم من القوى والغرائز ، وإنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال .. إن الغرائز النفسية من حيث هي لا تستدعي حساباً ولا عقاباً ، ما دامت كامنة في باطن الانسان ، ولا يظهر لها أثر يرى بالعين ، أو يسمع بالأذن . قال الإمام علي (ع) : يقول الله : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » . ومعنى ذلك إنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .

و « منها » : أن يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته أمام الناس ، فيعاملونه بما يستحق : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ١٤٠ آل عمران » . وكثيراً ما يقع هذا في حياة الناس – مثلاً – أنت تعلم ان زيداً من أهل العلم والمعرفة ، وصادف وجوده بين قوم لا يعرفون منه ما تعرف ، وأردت أن يعلموا مكانه من الوعي والعلم ، فتسأله بمحضر منهم ليتكلم ويُعرف.. أو تعلم انه سخيف جاهل ، وهم يظنون انه عالم حكيم ، فتمثل نفس الدور لتظهر لهم سخفه وجهله .

و « منها » : إن كثيراً من الناس يجهلون حقيقة أنفسهم ، ويقولون : لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت ، فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقي الحجة عليهم ، ويُعرفهم بحقيقتهم وواقعهم : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدَّقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون - ٧٧ التوبة » .

وطلب بنو إسرائيل من موسى (ع) أن يجعل لهم يوماً للراحة والعبادة ، فجعل الله لهم يوم السبت ، وأخذ عليهم العهد أن لا يفعلوا فيه شيئاً ، كما طلبوا .. ولكن ساق اليهم الحيتان في هذا اليوم ، حتى إذا ذهب السبت اختفت الحيتان ، فاحتال بنو اسرائيل لصيدها ونقضوا العهد .

وعلى الوجه الأول ، أي ظهور الأفعال التي بها يُستحق الثواب والعقاب ، على هذا يحمل قوله تعالى: ليبلونكم الله .. وقوله : ليعلم الله من يخافه .. وقوله: وليعلم الله الذين آمنوا ، ونحو هذه من الآيات .

(يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) . اتفق الفقهاء على ان الصيد في الحرم لا يجوز للمحل ولا للمحرم على السواء ، أما خارج الحرم فيجوز للمحل ، دون المحرم ، ولو ذبح المحرم الصيد يصير ميتة ، ويحرم أكله على جميع الناس .

وجاء في كتاب فقه السنة للسيد سابق : ان حد الحرم المكي من جهة الشمال مكان يدعى « التنعيم » وبينه وبين مكة ٦ كيلومترات . ومن الجنوب « ارضاه » وبينها وبين مكة ١٢ كيلومتراً . ومن جهة الشرق « الجعرانة » وبينها وبين مكة ١٥ كيلومتراً .

(ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً) . إذا قتل المحرم أو المحل في الحرم شيئاً من الصيد البري ، وكان للمقتول مثلٌ من الأنعام الأهلية الثلاثة ، وهي الإبل والبقر والضان ، ان كان الأمر كذلك تخير القاتل بين أن يذبح مثل المقتول ويتصدق به ، وبين أن يقوّم المثل بدراهم يشتري بها طعاماً ، ثم يتصدق بالطعام على المساكين لكل مسكين مدان ، أي ١٦٠٠ غرام

على التقريب ، وقيل : مد ، وبين أن يصوم يوماً عن كل مدّين ، أو عن كل مد على قول . ومعنى قوله : « يحكم به ذوا عدل » أن يشهد اثنان من أهل العدالة بأن هذا الحيوان الأهلي هو مثل الحيوان الوحشي المقتول . ومعنى « هدياً بالغ الكعبة » ان يذبح المماثل في جوار الكعبة، ويفرق لحمه على المساكين. وان لم يوجد المماثل من النعم قوّم المماثل الأهلي من غير النعم ، واشترى بثمنه طعاماً ، وتصدق به ، أو صام على التفصيل المتقدم .

(ليذوق وبال أمره) ان الصيد في الحرم ، أو في حال الاحرام هتك لحرمات الله فعوقب الصائد عليه بالكفارة المذكورة ، ومعنى وبال أمره عاقبة فعله السيء (عفا الله عما سلف) من الصيد قبل التحريم (ومن عاد) إلى الصيد (فينتقم الله منه) لاصراره على الذنب .

(أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) . الضمير في طعامه يعود إلى البحر ، لأن فيه ما يؤكل غير الصيد ، ويجوز أن يعود الى الصيد ، ويكون المعنى ان الله سبحانه أحل صيده ، وأحل أكله أيضاً .

والمراد بالسيارة المسافرون غير المحرمين (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً) . أي ان صيد البحر حلال مطلقاً ، أما صيد البر فهو حلال في غير الحرم ، وغير حال الاحرام . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : لا تستحلن شيئاً من الصيد – أي البري – وأنت حرام ، ولا أنت حلال في الحرم ، ولا تدلن عليه محلاً ، ولا محرماً ، فيصطاده ، ولا تشر اليه ، فيستحل من أجلك ، فان فيه فداء لمن تعمده . (واتقوا الله الذي اليه تحشرون) . أي اجتهدوا في طاعته وطلب مرضاته ، ليجزيكم يوم الحشر بالإحسان احساناً .

البيت الحرام الآية ٩٧ ـ ٩٩ :

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ★ إِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ★

اللغة :

القيام والقوام بمعنى واحد وفعله قام ، والمراد به هنا تأدية العبادة ومناسك الحج . والهدي ما يُذبح في الحرم من الأنعام . والقلائد أي ذوات القلائد لأنهم كانوا يقلدون الهدي بما يدل عليه .

الإعراب :

البيت الحرام بدل من الكعبة . وقياماً مفعول ثانٍ لجعل . وذلك مبتدأ ، والمصدر المنسبك من لتعلموا متعلق بمحذوف خبر ، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً لفعل محذوف ، أي فعلنا ذلك من أجل اعلامكم .

المعنى :

(وجعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد). قياماً للناس ، أي محلاً للعبادة ومناسك الحج،والشهر الحرام جنس يشمل الأشهر الأربعة ، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وقد حرم سبحانه القتال فيها وفي حرمه إلا دفاعاً عن النفس أو المال ، قال تعالى : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه – ١٩٠ البقرة » . وقال: « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم – ١٩٣ البقرة » .

والهدي ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام ، والقلائد الهدي الذي وضعت في عنقه علامة تدل على انه للكعبة ، كي لا يتعرض أحد له . وعلى هذا يكون عطف القلائد على الهدي من باب عطف الخاص على العام ، والقصد من ذكر الهدي مع البيت الحرام والأشهر الحرم ان الهدي يجب أن يكون آمناً هو ومن يسوقه.لأنه قاصد الحرم الشريف، بل ان الله سبحانه قد أمّن الطيور والحيوانات، حرمة ما دامت في حرمه إلا الحدأة - نوع من الطير - والغراب والفأر والعقرب والكلب العقور .. وكل مؤذٍ في رأينا .

(ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وان الله بكل شيء عليم) . بعد أن بيّن سبحانه حرمة الكعبة والأشهر الحرم والهدي أشار إلى أن الحكمة من هذا التشريع ان يعلم الناس ان الله يعلم تفاصيل الأمور في الأرض والسماء ، ومنها التي تصلح الناس في دينهم ودنياهم ، وأية مصلحة أعظم من تأمين الانسان على حياته وماله ، ولو في وقت من الأوقات ، أو في زمن من الأزمان .. وقد رأينا الدول الكبرى المتطاحنة في هذا العصر تتفق فيما بينها على أن تكون بعض البلاد منطقة محايدة،لا يجوز للدول المتنازعة أن تشركها في أحلافها العسكرية ، ولا أن تتخذ من أرضها مقراً لقواعدها الحربية،ولا ممراً لجيوشها المقاتلة .

(اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم) . قرن سبحانه العذاب بالرحمة والمغفرة ليكون العبد خائفاً من نقمته ، راجياً لرحمته . لأنه إذا خاف ابتعد عن المعصية ، واذا رجا اجتهد في الطاعة . قال الرازي ونعم ما قال : « ذكر سبحانه أنه شديد العقاب ، ثم عقب بوصف الرحمة والمغفرة . وهذا تنبيه على دقيقة ، وهي ان ابتداء الخلق والايجاد كان لأجل الرحمة ، والظاهر ان الختم لا يكون الا على الرحمة » .. هذا هو الصحيح .

(وما على الرسول الا البلاغ) ولا يُطلب منه أكثر من ذلك ، حيث لا عذر بعد البلاغ لمن أهمل وفرط ، أما الحساب والعقاب فعلى الله وحده: « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب – ٤١ الرعد » . (والله يعلم ما تبدون) من الأقوال والأفعال (وما تكتمون) . هذا تهديد لمن يسكت عن الحق ، وبالأولى لمن يتاجر به مستتراً باسم الدين والوطنية .

كثرة الخبيث الآية ١٠٠ :

قُلْ لا يَسْتَوي الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ ولوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فاتّقوا اللهَ يَا أُولي الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ★

المعنى :

هذه الآية ترادف قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون - ٢٠ الحشر » . وكثرة الخبيث ما يملكه من جاه ومال . والعاقل لا يستوي لديه الخبيث والطيب ، وان كثر ماله ، واتسع جاهه، لأن الجاه والمال لا يجعلان الخبيث طيباً ، ولا الفقر وخمول الذكر يجعلان الطيب خبيثاً .

والرجل الخبيث في مقياس الدين من عصى أحكام الله في كتابه وسنة نبيه ، والخبيث في عرف الناس من يخافون من شره،ولا يأمنونه على أمر من أمورهم، ولا يصدقونه في قول أو فعل .. وبديهة ان من كانت هذه صفاته فهو خبيث عند الله أيضاً ، قال رسول الله : أشرف الايمان أن يأمنك الناس . أما الطيّب فعلى عكس الخبيث في جميع أوصافه .

هل الرزق صدفة أو قدر ؟

وتسأل : إذا كان الخبيث مغضوباً عليه عند الله،والطيب مرضياً لديه تعالى ، فلماذا ينجح الخبيث في هذه الحياة ، وينعم بالجاه والثراء ، ويرسب الطيب ، ولا يكاد يتحقق لـه مطلب ، حتى قال من قال : « هذا الذي ترك الأوهام حائرة » ؟

الجواب : إن للحياة سنناً وقوانين يجري عليها ، ولا تتخطاها بحال ، لأن تصور الفوضى في الكون يرفضه الحس والمشاهدة .. وهذه السنن والقوانين من

صنع الله تعالى ، لأنه هو خالق الطبيعة وما فيها . وبديهة ان قوانين الطبيعة تأبى أن تمطر السماء مالاً وصحة وعلماً ، وإنما تأتي هذه وأمثالها من طرقها وأسبابها الطبيعية .. فالعلم من التعلم ، والصحة من الغذاء والوقاية ، والمال من العمل ، فمن تعلم علم ، ومن اتقى أسباب الداء سلم ، ومن انتحر مات ، ومن زرع حصد ، سواء أكان طيباً أم خبيثاً ، مؤمناً أم كافراً . فالطيبة أو الايمان لا ينبت قمحاً ، ولا يشفي داء ، ولا يجعل الجاهل عالماً .. كل هذه وما أشبه تجري على سنن الطبيعة ، وسنن الطبيعة تجري على مشيئة الله ، ما في ذلك ريب ، لأنه هو الذي جعل التعلم سبباً للعلم ، والوقاية سبباً من أسباب الصحة ، والزراعة سبباً للحصاد .. انه خالق كل شيء ، واليه ينتهي كل شيء .

أجل ، ان لكسب المال سبلاً وأبواباً كثيرة ، وقد أحل الله بعضاً ، وحرم بعضاً ، أحل الله سبحانه التجارة والزراعة والصناعة ، وحرّم الربا والغش والرشوة والسلب والنهب والاحتكار والاتجار بالمبادىء فمن يكسب المال من حله ينسب كسبه اليه ، لأنه قد جد واجتهد في طلبه ، وأيضاً ينسب إلى الله ، لأنه هو الذي أوجد هذه الأسباب ، وأباحها لكل راغب طيباً كان أو خبيثاً ، أما من يكسب المال من غير حله كالربا والسلب فان كسبه يُنسب إلى كاسبه ، وإلى الأوضاع التي مهدت له ، ولا يُنسب إلى الله ، لأنه تعالى قد حرّم هذه السبل على الطيب والخبيث .

وتقول : هذا صحيح ، ولكنه لا يجيب عن السؤال ، ولا يحل المشكلة .. فلقد رأينا كلاً من الطيب والخبيث يسلك الطريق المشروع للرزق ، ويطلبه من السبيل الذي أحله الله ، وأمر به ، ومع ذلك يتسع الرزق على الخبيث ، ويضيق على الطيب ، وربما بذل هذا من الجهد أضعاف ما بذله ذاك ، بل قد يأتي الرزق للخبيث من حيث لا يتوقعه ، ولا يؤهله له استعداده وجهاده .. ويمتنع عن الطيب من حيث يتوقعه ، ويؤهله له جهاده واستعداده .

الجواب : إن بعض الناس يلجأون في تفسير ذلك إلى الصدفة أو الحظ ، وإن دل هذا على شيء فانما يدل على عجزهم عن التفسير الصحيح ، وإلا لم يلجأوا إلى ما يخبط خبط عشواء ، ويرمي عن غير قصد وتصميم .

لذلك نعفي نحن الحظ والصدفة من كل المسؤوليات والتبعات .. ونؤمن إيماناً قاطعاً بأن هناك إرادة عليا قد تدخلت لأسباب نجهلها ، لأن العلم فيها وفي أمثالها لا يزال في مراحل طفولته ، وجهل العلم بها لا يعني انها غير موجودة .. والذي يؤكد إيماننا هذا قوله تعالى : « والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق — ٧١ النحل » . وقوله : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر — ٢٧ الرعد » . وجاءت هذه الآية بنصها الحرفي أحياناً في سورة الإسراء رقم ٣٠ . وفي القصص ٨٢ . وفي العنكبوت ٦٢ . وفي الروم ٣٧ . وفي سبأ ٣٦ و ٣٩ . وفي الزمر ٥٢ . وفي الشورى ١٢ .

ولكن ليس معنى يبسط الرزق ، ويفضل في الرزق،انه تعالى يمطر من السماء مالاً على من يشاء .. كلا ، بل يبسط الرزق من طريقه المعروف المألوف ، ويقدر أيضاً عن هذا الطريق ، فيمهده ويوسعه على بعض ، ويجعله عسيراً ضيقاً على البعض الآخر .. ولكن لا علاقة بين الضيق في الرزق،وبين الخبث ومعصية الله ، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يربط على بطنه حجر المجاعة ، وقال موسى : « ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير » .. وأيضاً لا علاقة بين السعة في الرزق ، وبين الطيبة وطاعة الله ، فقد نادى فرعون في قومه : أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم — أي بل — أنا خير من هذا الذي هو مهين — يشير إلى موسى - ولا يكاد يبين،فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب . ٥٣ الزخرف .

وعلى هذا ، فمن قال أو يقول : إن الله أغنى فلاناً لأنه طيب فانه يتكلم بمنطق فرعون ، ويزن بميزان الشيطان .. لقد شاءت حكمته جل ثناؤه أن يثيب على الحسنة ، ويعاقب على السيئة في الدار الباقية ، لا في هذه الدار الفانية ، إن هذه دار أعمال ، وتلك لنقاش الحساب عليها .. هذا ، إلى أن كثرة الخبيث قد تكون وبالاً عليه ، وسبباً لشدة عذابه وعقابه : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون — ٣ الحجر » . « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم — ١٢ محمد » .

والخلاصة ان الرزق يستند الى أمرين : السعي وارادة الله معاً ، فمن ترك

السعي عاش كلاً على الناس ، ومن سعى رزّقه الله من سعيه ان شاء كثيراً ، وان شاء قليلاً ، وتكمن هذه الحقيقة في فطرة الانسان ، ويمارسها تلقائيـاً ، ودون أن يلتفت اليها .. فالتاجر يسأل الله سبحانه أن يرزقه برواج بضاعته واقبال الناس عليها ، والفلاح يسأله أن ينزل الغيث على زرعه ، ولا يسألـه أن ينبت له الزرع بلا غيث ، وها أنا أدعو الله لولدي بالتوفيق في دراسته والنجـاح في امتحانه ، ولا أدعوه أن يلهم الجامعة لتقدم له الشهادة بلا دراسة وامتحـان .. وفي الأمثال « من سعى رعى » وربما خاب المسعى وطاش السهم .. ومع ذلك ينبغي إحكام التخطيط ، ومضاعفة الجهد ، لأن مضاعفة الجهد ، واتقان العمل، والصبر على المشاق سبب لمشيئة النجاح منه جل وعلا .

لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ - ١٠٢ :

يا أيُّها الّذين آمنُوا لا تسألُوا عن أشياء إنْ تُبْد لكُمْ تسُؤكُمْ وإنْ تسألوا عنْها حين يُنزّلُ القُرْآنُ تُبْد لكُمْ عفا اللهُ عنْها واللهُ غفُورٌ حليمٌ ★ قدْ سألها قوْمٌ منْ قبْلكُمْ ثمّ أصْبحُوا بها كافرين ★

الإعراب :

قال أبو البقـاء : الأصل في أشياء عند الخليل وسيبويه شيئاء بهمزتين بينهما ألف ، وهي فعلاء من لفظ شيء ، وهمزتها الثانيـة للتأنيث ، وهي مفردة في اللفظ ، ومعناها الجمع ، مثل قصباء وطرفاء ، ولأجل همزة التأنيث منعت من الصرف ، ثم ان الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة قدمت ، فجعلت قبل الشين كراهية وجود همزتين بينهما ألف ، فصارت أشياء .

ونحن لا نؤمن بالتعليلات النحوية والصرفية، ولا نقلد أهل التفسير فيما يقولون..

ولكن قد يرغب بعض القراء في معرفة ما قاله النحاة في أشياء ، فرويننا له ما روي عنهم .. والصحيح عندنا ان أشياء ممنوعة من الصرف لأنها وردت كذلك في كتاب الله وعلى لسان العرب .. ومن المفيد أن نشير الى أن كلمة شيء تطلق على المذكر والمؤنث ، وانها تجمع أيضاً على أشاوى وأشايا وأشياوات .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) . ان قوله تعالى : (لا تسألوا) يومىء الى أن بعض الصحابة كانوا يلحفون في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها ، وربما أدى الجواب عنها الى ما يسوء السائلين . وفي رواية : ان رجلاً قال للنبي (ص) : من أبي ؟ قال له : أبوك فلان . فقال آخر : يا رسول الله أين أبي ؟. قال : في النار . فنزلت الآية . وفي رواية ثانية : ان النبي قال : كتب الله عليكم الحج . فحجوا ، فقالوا : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فسكت . فأعادوا السؤال ، فقال : لا . ولو قلت : نعم لوجبت . فنزلت الآية . وهذه الرواية أرجح من تلك لقوله تعالى :

(وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) . أي لا تتكلفوا السؤال عن أشياء الا بعد أن ينزل فيها القرآن ، فمتى ابتدأكم ، واقتضى الأمر الشرح والتوضيح سألتم النبي (ص) فيبدي لكم ما سألتم عنه . وبهذا يتضح ترجيح رواية السؤال عن الحج في سبب النزول على رواية السؤال عن آباء الصحابة وسلفهم ، لأن القرآن يبتدأ النزول بالعقيدة والشريعة ، ولا يبتدىء بآباء الصحابة وسلفهم .

وفي الحديث : « ان الله حدد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء في غير نسيان ، ولكن رحمة منه بكم فاقبلوها ، ولا تبحثوا عنها » .

(عفا الله عنها) . أي عن مسائلكم السابقة ، فلا تعودوا إلى مثلها . وقيل : عفا الله عنها ، أي أمسك وكف عن ذكر الأشياء التي سألتم عنها ، فكفوا أنتم ، ولا تتكلفوا السؤال عنها ، وكلٌ من التفسيرين محتمل ، لا يأباه ظاهر

اللفظ . (والله غفور حليم) يصفح عن المخطىء إذا رجع عن خطأه .

(قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) . بعد أن نهاهم سبحانه عن السؤال عن أشياء هم في غنى عنها ضرب لهم مثلاً بمن كان قبلهم، سألوا وشددوا على أنفسهم بالسؤال، ولما بيّن الله لهم كرهوا وتمردوا فاستحقوا العذاب ، ولو تركوا السؤال لكان خيراً لهم .. وقد أطال المفسرون الكلام في بيان المراد من القوم الذين سألوا ثم أصبحوا كافرين بسبب السؤال ، ولكن الآية ابهمت ولم تبين .. ومع ذلك لنا أن نقول : إن القوم الذين سألوا وكفروا هم بنو إسرائيل لقوله تعالى حكاية عنهم : « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة — ١٥٢ النساء » .

لا بحيرة ولا سائبة الآية ١٠٣ — ١٠٥ :

ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ وَلٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ★ وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلَى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ★ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ★

الاعراب :

من بحيرة (من) زائدة ، وبحيرة مفعول جعل التي هـي بمعنى شرع .

وحسبنا مبتدأ ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي كافينا، والخبر (ما وجدنا).
وعليكم أنفسكم (عليكم) اسم فعل بمعنى احفظوا ، وأنفسكم مفعول .

المعنى :

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) . البحيرة بفتح الباء الناقة المشقوقة الأذن ، وكان أهل الجاهلية يفعلون بها ذلك إذا أنتجت عشرة أبطن ، وقيل : خمسة ، ويدعونها لا ينتفع بها أحد . والسائبة الناقة ينذرونها للآلهة ، ويتركونها ترعى حيث تشاء ، لا قيد لها ، ولا راعي عليها ، تماماً كالبحيرة . والوصيلة الشاة تلد ذكراً وأنثى معاً ، وقد كان من عادتهم إذا ولدت ذكراً يجعلونه للآلهة ، وإذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإذا ولدتهما معاً لم يذبحوا الذكر ، ويقولون: وصلت أخاها . والحامي الفحل يولد منه عشرة أبطن فيدعونه لا يمنع من ماء ولا مرعى ، ويقولون : حمى ظهره .

وقد بيّن سبحانه أن ذلك ليس من دينه في شيء ، وان الفحل والناقة والشاة يفعلون بها ما يفعلون تبقى على الحل ، كما كانت من قبل ، ولا تحرم بهذه الأباطيل والأساطير .

(ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) . كان أهل الجاهلية يعترفون بوجود الخالق بدليل انهم نسبوا اليه تحريم الحامي والسائبة والبحيرة والوصيلة ، ومع ذلك فقد نعتهم الله بالكفر ، لأنهم نسبوا اليه التحريم كذباً وافتراء . وعليه فكل من نسب إلى الله ما لا دليل عليه من كتابه أو سنة نبيه فهو كافر ، شريطة أن يتعمد النسبة مع علمه بعدم الدليل ، ويسمى هذا بلسان أهل الشرع بدعة ، وفي الحديث : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . والحق ان هذا الافتراض بعيد الوقوع ، ومن الذي ينسب إلى الله حكماً من الأحكام ، مع علمه بعدم الدليل عليه ؟.. أجل ، قد يظن الشيء دليلاً ، وما هو بدليل .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا

عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) . قال الرازي : « المعنى معلوم ، وهو رد على أصحاب التقليد » . وتكلمنا مفصلاً عن التقليد عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥٩ .

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون) . ذكر الرازي ثمانية أوجه لتفسير هذه الآية . وكتب بعض المفسرين الجدد ٣٣ صفحة عند تفسيرها .. والذي دعا هذين ، وغيرهما من المفسرين إلى التطويل والتأويل هو ان الأمر بالمعروف واجب ، وظاهر الآية يدل على عدم وجوبه ، وان على المرء أن يهتم بنفسه لنفسه ، أما غيرها من الأنفس فصاحبها وحده هو المسؤول عنها، ولا يجب على أحد ردعه ولا إرشاده .

والصحيح في تفسير الآية ان على المرء أن يأمر بالمعروف ، فان نفع أمره فذاك هو المطلوب ، وإلا فقد أدى الآمر ما عليه ، ولا يضره ضلال من ضل، والمسؤول بعد الأمر هو الضال ، وليس الآمر .. وهذا التفسير يؤكد وجوب الأمر بالمعروف ولا ينفيه .

في آيات الوصية الآية ١٠٦ – ١٠٨ :

يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أَحدَكُمُ المَوْتُ حينَ الوَصيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصيبَةُ المَوْتِ تَحْبِسونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ باللهِ إنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَري بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ إنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمينَ★ فَإنْ عُثِرَ على أَنَّهُما اسْتَحَقَّا إثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ باللهِ

لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ★ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ★

اللغة :

ضربتم في الأرض سافرتم . وتحبسونهما تمنعونهما من الهرب . وارتبتم شككتم في صدقهما . وعثر على الشيء اطلع عليه .

الإعراب :

شهادة مبتدأ ، وخبره اثنان على حذف مضاف ، أي شهادة بينكم شهادة اثنين . وذوا عدل صفة لاثنين . ومنكم متعلق بمحذوف صفة للعدلين . ولا نشتري به الضمير في (به) يعود الى القسم بالله ، وجملة لا نشتري جواب يقسمان بالله . وجواب ان ارتبتم محذوف ، والتقدير ان ارتبتم فاحبسوهما . ولو كان ذا قربى اسم كان محذوف ، وجواب لو محذوف ، والتقدير ولو كان المشهود له ذا قربى لم نشتر به ثمناً . فآخران خبر لمبتدأ محذوف ، أي فشاهدان آخران ، أو فاعل لفعل محذوف ، أي فليشهد آخران . والأوليان تثنية الأولى بمعنى الأحق أي الأحقان بالميت ، وهما أي الأوليان فاعل استحق ، وقيل : خبر لمبتدأ محذوف ، أي هما الأوليان . والمصدر المنسبك من أن يأتوا مجرور بإلى محذوفة متعلق بأدنى . وعلى وجهها متعلق بمحذوف حالاً من الشهادة .

المعنى :

هذه الآيات الثلاث من آيات الاحكام ، وتدخل في باب الوصية والشهادة ،

وفيها الأحكام التالية :

١ – (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) . يريد جلت عظمته ان من أحس بدنو أجله . وأراد أن يوصي بما أحب استحضر عدلين من المسلمين ، وأشهدهما على وصيته .. وتجدر الاشارة إلى أن الوصية مستحبة ، ولا تجب إلا على من كان عليه حقوق لله أو للناس ، وظهرت له دلائل الموت ، وخاف ضياعها من بعده .

٢ – (أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الارض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنّا اذاً لمن الآثمين) . قال الشيعة الإمامية والحنابلة: إذا أوصى رجل مسلم في السفر ، ولم يكن أحد من المسلمين عنده فله أن يُشهد اثنين من أهل الكتاب ، على أن يُستحلفا بعد الصلاة بين جمع من الناس انهما ما خانا ، ولا كتما ، ولا اشتريا بشهادتهما ولا بقسمهما ثمناً قليلاً ، وعندها تقبل شهادتهما كما تقبل من المسلمين ، وتجب عليهما اليمين مع الشك في صدقهما ، أما الأمين فلا يمين عليه . لقوله تعالى : (ان ارتبتم) .

هذا ما أفتى به الإمامية والحنابلة معتمدين على هذه الآية . وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : لا تقبل شهادة غير المسلم على المسلم بحال ، وأولوا الآية بمعنى آخر ، وقال المالكية والشافعية: لا تقبل شهادة غير المسلمين اطلاقاً ، ولو كانت من بعضهم على بعض . (المغني باب الشهادات) .

٣ – (فان عثر على انهما استحقا اثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا إذاً لمن الظالمين) . جاء في صحاح الشيعة والسنة ان هذه الآية نزلت في ثلاثة نفر خرجوا في سفر للتجارة ، أحدهم مسلم والآخران من النصارى ، وفي الطريق تمرض المسلم ، وأحس بدنو أجله ، فكتب وصيته وذكر فيها كل ما يحمل معه ، ودسها في بعض متاعه ، دون أن يعلم صاحباه بذلك ، ثم أوصى اليهما أن يدفعا متاعه الى أهله ، ولما مات أخذا شيئاً منه ، ودفعا الباقي الى أهله .

ولما عثر أهله على وصيته رأوا فيها ذِكْر الشيء الذي أخذاه ، فسألوهما

فأنكرا ، وقالا ما دفعه الينا دفعناه اليكم ، وحلفا على ذلك .. وبعد حين رأى أهل الميت ذاك الشيء مع ثالث ، فقالوا : من أين لك هذا ؟ قال : اشتريته من فلان وفلان ، أي من المتهمين ، فترافعوا الى النبي (ص) .. وقيل : ان المتهمين حين فوجئا بذلك قالا : اشتريناه منه . فنزل قوله تعالى : (فان عثر على انهما الخ) . والمعنى فان ظهرت امارات تستدعي الريبة بالمتهمين فالواجب حينئذ أن يقوم رجلان من ورثة الميت ، ويحلفا بالله انهما أصدق من المتهمين ، وأن يقولا في اليمين : وما اعتدينا انا اذاً لمن الظالمين ، وبعد الحلف يحكم على المتهمين .

وتسأل : لقد طال كلام المفسرين وتضارب حول قوله تعالى : « من الذين استحق عليهم الأوليان » حتى نُقل عن بعض القدامى انه قال : هذه أشكل جملة في كتاب الله من حيث التركيب ، فما هو القول الصحيح في تفسيرها ؟.

الجواب : ان الذي أوقع المفسرين في الارتباك هو ان ضمير (عليهم) الى من يعود ؟ والذي نراه انه يعود الى ورثة الميت ، لأن ما كان مستحقاً عليه من الديون ونحوها يصير بعد موته مستحقاً على ورثته ، وعليه يكون المعنى يحلف اثنان من الذين وجب عليهم ما كان واجباً على مورثهم ، والسياق يؤكد هذا ، لأن الآخرين اللذين يقومان مقام المتهمين في اليمين لا بد أن يكونا من ورثة الميت باتفاق المفسرين ولا يجوز أن يكونا من غيرهم بحال ، اذن ، يتعين أن يكون ضمير (عليهم) عائداً اليهم بالذات .

(ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا ان ترد ايمان بعد إيمانهم). ذلك إشارة إلى الحكم السابق ، وقوله : (أدنى أن يأتوا .. الخ) بيان لعلة الحكم ، أي ان القصد مما شرعناه أن لا يحرّف الشهود شهادتهم ، ويحلفوا اليمين الكاذبة ، أو يمتنعوا عن اليمين بالمرة خوفاً أن ترد — بعد الحلف — على الورثة .

وتسأل : إن الله سبحانه حين بيّن الحكم ثنّى ، وقال : شهادتهما .. ويقسمان. وحين أشار إلى علة الحكم جمع ، وقال : أن يأتوا بالشهادة ، فما هو الوجه ؟

الجواب : إن الشهود أربعة ، اثنان يشهدان ابتداء ، واثنان يقومان مقامهما إذا ظهر الإثم على الشاهدين الأولين .. هذا ، إلى أن المفروض في علة الحكم

أن تكون عامة تشمل المورد المذكور وغيره .

الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ ـ ١١١ :

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ★ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ★ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ★

اللغة :

روح القدس جبريل . والأكمه من وُلد أعمى ، ويطلق أيضاً على من عمي بعد الولادة . والحواريون جمع حواري ، وهو من أخلص في المودة .

الاعراب :

يوم يجمع (يوم) منصوب بفعل محذوف ، أي اتقوا يوم يجمع . وماذا كلمة واحدة بمعنى أي شيء ، وهي هنا مجرورة بحرف جر محذوف ، أي بأي شيء أجبتم ؟ وإذ قال بدل من يوم يجمع . ويجوز أن يكون على ألف عيسى

فتحة إذا أعرب ابن مريم صفة له ، ويجوز أن يكون عليها ضمة إذا أعرب ابن بدلاً من عيسى ، لا وصفاً . وفي المهد متعلق بمحذوف حالاً من ضمير تكلم ، وكهلاً عطف على الحال المحذوف ، أي كائناً في المهد وكهلاً . وإن آمنوا (ان) للتفسير بمعنى أي .

المعنى :

(يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) . قال الرازي : « إن عادة الله تعالى جارية في كتابه الكريم انه إذا ذكر أنواعاً من الأحكام أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء ، وإما بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم .. ولما ذكر هنا أحكاماً من الشريعة اتبعها أولاً بوصف أحوال القيامة ، ثم أحوال عيسى » .

والمشهد الذي ذكره هنا سبحانه مشهد رهيب ، يحشر فيه الخلائق للحساب والمحاكمة قبل صدور الحكم بالعفو أو الادانة .. انه تعالى يجمع رسله الذين كان قد فرقهم ووزعهم في محافظاته وأقاليمه وقراه .. وبديهة ان قراه تعالى وأقاليمه غير قرانا وأقاليمنا .. انها الأمم والأجناس والأقوام ، ثم يجابه كل أمة وكل قوم برسولهم ويقول له : ماذا قال لك هؤلاء ؟.. يريد بهذا السؤال أن يلقي الحجة على عباده ، ويمهد للحكم وحيثياته . ويجيب الأنبياء في هذا المشهد : (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) ومن علم الغيوب فلا تخفى عليه الظواهر .

وتسأل : إن الأنبياء يعلمون من جحد رسالتهم ، وحاربهم من أجلها في حياتهم ، فما هو الوجه لقولهم : لا علم لنا ؟.

الجواب : ليس المراد من قولهم هذا نفي العلم اطلاقاً ، بل المراد ان علمهم ليس بشيء في جانب علمه تعالى ، لأنهم يعلمون من أمتهم ما أظهروا وهو يعلم ما أظهروا وأضمروا .

(اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) . بعد أن استجوب سبحانه أنبياءه بكلمة موجزة (ماذا أجبتم) خص عيسى (ع) من

بينهم بخطاب مطول ومفصل يذكره فيه بنعمته عليـــه وعلى والدته (اذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل (تكلم الناس في المهد) تنزيهاً لأمك من كل شبهة (وكهلاً) أي ان كلامه في المهد كان مثل كلامه ، وهو كهل (واذ علمتك الكتاب) قيل المراد به الخط لأن الكتاب مأخوذ من الكتابة (والحكمة) الشريعة (والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطـــين كهيئة الطير بأذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بأذني وتبرىء الاكمه والأبرص بإذني واذ تخرج الموتى بإذني) . مر تفسير نظيره في الآيـــة ٤٩ من سورة آل عمران . وكرر سبحانه بإذني أربع مرات للتأكيد على ان الخلق والأحيـــاء والابراء من الله ، لا من سواه ، وانما أظهر سبحانه هذه الأفعال على يد عيسى (ع) لتكون دليلاً على صدقه ونبوته .

عيسى ونبوة الأطفال :

قد يُظن أو يُموه ان عيسى (ع) نبي صغير .. لأنه تكلم في المهد ، أي في حجر أمه ، وهذا جهل أو تدليس .. لأن عيسى إنما تكلم في المهد تبرئة لأمه من قول الآثمين،لا لأنه رسول من المرسلين .. وإذا كان الله قد أسقط التكليف الخفيف عن الصبيان فهل يكلفهم بالأحمال والأثقال ؟.. « انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ـ ٥ المزمل » . ومن يسمع له ويطيع ، وهو في المهد ؟. وهـــل تقوم الحجة لله على عباده بطفل رضيع ؟ وأين التعاليم التي بلّغها للناس عن الله،وهو يلتقم ثدي أمه ؟.

إن الأناجيل المعتبرة عند النصارى تنص على ان عيسى بعث في سن الثلاثين ، فقد جاء في إنجيل لوقا الفصل الثالث رقم ٢٣ ما نصه بالحرف : « ولمـا ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة » . وفي شروح على الأناجيل المقدسة المطبوعـــة مع الأناجيل الأربعة في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٣٨ ص ٥١٩ ما نصه بالحرف : « ذكر الانجيلي ان عمر المسيح كان ثلاثين سنة لما ابتدأ حياته العلنيـــة والبشارة بملكوت الله » . وفي بعض كتب المسلمين ما يؤيد ذلك .

وغريبة الغرائب أن تقول أناجيـل النصارى : إن دعوة عيسى (ع) ابتدأت

في سن الثلاثين ، ثم يقول انتهازي محترف متزلفاً إلى وجوه النصارى ، يقول هذا المتزلف : « ان عيسى (ع) نبيء طفلاً صغيراً ، على العكس من محمد (ص) الذي بُعث بعد الأربعين[1] ويستدل على افترائه هذا بأن عيسى تكلم في المهد بنص القرآن ... متجاهلاً أنه إنما تكلم تبرئة لأمه الصديقة الطاهرة ، لا ليبلغ رسالة الله إلى عباده ، وهو متعلق بالثدي .

(واذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين) . جاء في خطبة من خطب نهج البلاغة : « كان عيسى يتوسد الحجر ويلبس الخشن ، ويأكل الجشب ، وكان أدامه الجوع ، وسراجه بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وريحانه ما تُنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه » .

ومع هذا لم يسلم من اليهود ، فحاولوا قتله ، ووصفوه بالكذب والسحر ، وألصقوا بأمه العار ، لا لشيء إلا لأنه نطق بالحق ، ودعاهم اليه ، وأمرهم به .. ولا يختص هذا باليهود ، فإن كثيراً من الناس ينصبون العداء لمن يرشدهم إلى الخير ، ويتمنى لهم الهداية .

(وإذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) . يطلق الوحي على معان ، منها الإلهام ، كما في قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً – ٦٨ النحل) . وقوله : « وأوحينا الى أم موسى ان ارضعيه فأذا خفت عليه فألقيه في اليم ٧ القصص» . وهذا المعنى هو المراد بقوله : (أوحيت الى الحواريين) .

وتسأل : لماذا ذكر الله سبحانه عيسى بنعمه عليه من دون الأنبياء ، مع ان فضله ونعمه عليهم لا يبلغها الاحصاء ؟

الجواب : ان الله سبحانه أجمل الخطاب مع الرسل ، وفصله مع عيسى لأن

---

[1] أراد هذا المتزلف أن يفضل عيسى على محمد بطرف خفي .. ولكن الذين شاهدوا محمداً عرفوا من هو ؟. انظر فقرة بين حواريي محمد وحواريي عيسى عند تفسير الآية التالية ١١٢ .

أتباعه غالوا فيه . أما اتباع غيره فلم يدّعوا الالوهية لنبيهم . فجاء التفصيل لاقامة الحجة على الغلاة .

مائدة السماء الآية ١١٢ - ١١٥ :

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ★ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ★ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ★ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ★

الإعراب :

إذ قال (إذ) ظرف متعلق بفعل محذوف ، أي أذكر إذ قال . والمصدر المنسبك من أن ينزل مفعول يستطيع . وان صدقتنا (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي انه . ولنا عيداً (لنا) متعلق بمحذوف حال . وعيداً خبر تكون ، والجملة في محل نصب صفة لمائدة . لاولنا بدل من لنا . واعذبه الضمير يعود إلى من يكفر . وعذاباً مفعول مطلق بمعنى التعذيب . ولا أعذبه على حذف حرف الجر ، أي لا أعذب به أحداً ، وعليه يكون الضمير عائداً إلى العذاب .

المعنى :

لقد كثر الكلام حول المائدة وطلابها : هل كانوا مؤمنين أو مشككين ؟ وهل نزلت المائدة بالفعل ، أو انها لم تنزل ، لأن الحواريين عدلوا عن طلبها بعد أن هددهم الله بقوله : « فمن كفر منكم فاني معذبه عذاباً لا أعذبه أحداً » . ومع افتراض نزولها فعلى أية حال نزلت ؟ وما هي أصنافها وألوانها ؟ ثم هل مسخوا بعدها قردة وخنازير ، لأن بعضهم سرق منها ؟.. إلى غير ذلك من القول على الله من غير علم .

ونقف نحن في حديثنا عن هذه الآيات الأربع عند مدلول كلماتها وما يتصل به .

الآية الأولى : (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) . وتومىء هذه الآية إلى أن الحواريين ما كانوا مؤمنين بعيسى عندما طلبوا منه هذه المائدة ، لأنهم في غنى عنها مع التصديق والتسليم ، والذي يؤكد ذلك قولهم : (هل يستطيع ربك) فانه يشعر بالتشكيك في قدرة الله .. مع ان الآية السابقة قد شهدت لهم بالايمان (وإذ أوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا) .. هذا ، إلى أن لفظ الحواريين يدل بنفسه على إيمانهم بعيسى واخلاصهم له ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟

وأجاب كثير من المفسرين بأن سؤالهم هذا لا يتنافى مع إيمانهم ، لأن القصد منه الايمان عن طريق الحس والعيان بعد الايمان عن طريق العقل والبرهان ، وبكلمة القصد تقوية الايمان وتثبيته ، تماماً كما قال ابراهيم الخليل (ع) : « ولكن ليطمئن قلبي » .. وقد أفصح الحواريون عن هذا القصد بدلالة قوله في الآية الثانية : « وتطمئن قلوبنا » جواباً على قول عيسى لهم : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . أما قولهم : « هل يستطيع ربك » فمعناه هل يستجيب ربك إن سألته أن ينزل علينا مائدة السماء .

الآية الثانية : (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) . يريدون أن يأكلوا ليؤمنوا ويعلموا ، أو يريدون أن يأكلوا ليقوى ويرسخ الايمان في قلوبهم ، والعلم في عقولهم ، كما قدمنا ، ثم

يخبروا من لم يحضر المائدة من قومهم ، فيؤمن الجاحد ، ويطمئن المؤمن – وإن لم يأكل .

بين حواري محمد وحواري عيسى :

كان لمحمد (ص) حواريون ، كما كان لعيسى (ع)،ولأي نبي من الأنبياء، ولكن صحابة محمد ما سألوه أن يطعمهم من جوع بآياته ومعجزاته كما فعل أصحاب عيسى الذين قالوا له : نريد أن نأكل منها،ولا أن يؤمنهم من خوف كما فعل أصحاب موسى،بل قالوا له في بعض معاركه بلسان المقداد بن الاسود : « امض يا رسول الله لما أرادك الله ، فنحن معك ، ولا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون،ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه » .

وكانوا يتساقطون شهداء بين يديه ، وهم يقولون : فزنا ورب الكعبة ، وروى عنهم التاريخ في ذلك ما يشبه الأساطير . قاتل عمارة بن يزيد يوم أحد ، حتى أثخنته الجراح ، ولما أيقن بالموت رمى برأسه على قدمي رسول الله ، ولم يرفعه ، حتى فارق الحياة سعيداً بهذه الخاتمة .

وسقط سعد بن الربيع شهيداً في أحد ، فقال لأحد أصحابه : قل لرسول الله يقول لك سعد بن الربيع : جزاك عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وابلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان ابن الربيع يقول لكم : انه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ، ومنكم عين تطرف .

وكان عمرو بن الجموح أعرج ، وأراد الخروج مع النبي إلى حرب أحد ، فحاول أولاده أن يمنعوه من الخروج ، فاشتكى لرسول الله ، وقال : اني أرجو أن أعرج الليلة إلى الجنة . فأذن رسول الله له ، وقتل هو وأولاده الأربعة ، وشقيق زوجته ، فجاءت أرملته بعد المعركة ، وحملت زوجها وأخاها وأولادها الأربعة على جمل ، وذهبت بهم إلى المدينة،فقابلتها النساء يسألنها عن الأخبار .

قالت : أما رسول الله فبخير ، وكل مصيبة بعده تهون . فسألتها : وما هذه الجثث ؟ قالت : هؤلاء أولادي وزوجي وأخي أكرمهم الله بالشهادة ، وأحملهم لأدفنهم .

هذه أمثلة نقدمها للدلالة على مدى الفرق بين حواريي محمد، وحواريي غيره من الأنبياء . ولا نبالغ إذا ما قلنا : ان ما من نبي على الاطلاق ظفر بما ظفر محمد رسول الله (ص) من أصحاب صدقوا ما عاهدوه عليه . أما السر فيكمن في شخصيته ، وعظمة رسالته .

الآية الثالثة : (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) . لما رأى عيسى منهم الاصرار ، وعلم انهم لا يقصدون العنت والتعجيز دعا الله سبحانه بدعاء العبد الخاضع المتضرع لسيده، منادياً : يا ربنا .. ومنك .. وانت .. الخ دفعاً لكل شبهة وتكذيباً لكل زاعم ان لعيسى فيها يداً ، وانها من صنعه ، لا من صنع الواحد الأحد .. والمراد بالآية المعجزة ، وبالعيد الفرحة والسرور .

الآية الرابعة : (قال الله اني منزلها عليكم فمن كفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) . استجاب سبحانه لتضرع عيسى ليزداد أصحابه ثقة به ، وإيماناً بنبوته ، وتلزمهم الحجة إذا خالفوا ، ويستحقوا أشد العقاب الذي لا يعاقب الله به أحداً ممن جحد وكفر ، لأنهم هم الذين اقترحوا المائدة، وطالبوا بالآيات، ومن استجيب الى طلبه تقوم عليه الحجة وتنقطع منه كل معذرة إذا خالف ونكص .

عيسى والناس الآية ١١٦ – ١١٨ :

وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ★ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ★ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ★

اللغة :

تستعمل النفس في معان ، منها ما به حياة الانسان والحيوان ، وهي التي عناها الله بقوله : « كل نفس ذائقة الموت » . ومنها ذات الشيء ، مثل هذا هو نفسه . ومنها الغيب ، تقول : انا أعلم نفس فلان ، أي غيبه ، وهذا هو المقصود من النفس في الآية ، أي تعلم ما أخفيه في نفسي ، ولا أعلم ما تخفيه من علومك .

الإعراب :

اتخذوني تتعدى الى مفعولين ، لأنها بمعنى صيروني ، والمفعول الأول الياء ، والثاني إلهين ، وأمي مفعول معه . ومن دون الله متعلق بمحذوف صفة لإلهين . وقال صاحب مجمع البيان : من زائدة هنا . وهذا اشتباه لأن من تزاد بعد النفي ، ولا نفي هنا . والمصدر المنسبك من ان أقول اسم يكون ، ولي متعلق بمحذوف خبراً ليكون . وبحق الباء زائدة وحق خبر ليس ، واسمها ضمير مستتر يعود الى ما . والمصدر المنسبك من ان اعبدوا الله بدل من ضمير (به) . ولا يجوز أن تكون (ان) هنا مفسرة لأن حروف القول قد صرح بها . وأنت ضمير فصل لا محل له من الإعراب .

المعنى :

(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) . ان الله سبحانه لم يقصد بهذا السؤال عيسى بالذات . لأنه يعلم ما قال عيسى للناس ، وإنما قصد به اقامة الحجة على من ادعى لعيسى وأمه هذه الدعوى الكافرة (قال سبحانك) أنت منزه عن الشريك (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأنه نبي ، والنبي معصوم عن الزلل ، وقد بعث لمحاربة الشرك ، والدعوة إلى التوحيد ، فكيف يدعي الألوهية لنفسه ، ويدعو الناس لعبادته .

(ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علاّم الغيوب) . استشهد على براءته من شركهم بعلم الله ، وكفى به شاهداً .

(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) . جاء في انجيل متى الفصل الرابع ما نصه بالحرف :

« حينئذ خرج يسوع الى البرية من الروح ليُجرب من إبليس ، فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وأخيراً جاع فدنا اليه المجرب — أي إبليس — قائلاً ان كنت ابن الرب فمر أن تصير هذه الحجارة خبزاً . فأجاب قائلاً مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله ، حينئذ أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأقامه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فألق بنفسك إلى أسفل لأنه مكتوب انه يوصي ملائكته بك فتحملك على ايديها لئلا تصدم بحجر رجلك فقال له يسوع : مكتوب أيضاً لا تجرّب الرب إلهك ، فأخذه ابليس أيضاً الى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ، وقال له : أعطيك هذه كلها ان خررت ساجداً لي ، حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان » .

هل يصوم الإله ؟ ولمن يصوم ؟ وهل يجوع ، وهو الرزاق ؟ وكيف يجربه ابليس ، وهو علاّم الغيوب ؟ وكيف استطاع حمله ينتقل به من جبل الى جبل وهو خالقه ، وخالق الكون بكامله ؟.

(إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) . جاء في بعض التفاسير ان قول عيسى (ع) لله جل وعز : (ان تعذبهم فانهم عبادك) يومىء إلى أن عيسى طلب لهم من الله المغفرة بتأدب ورجاء ، لأن قوله: فانهم عبادك، يتضمن هذا الطلب ، تماماً كما تقول لمن أراد القسوة على ولده : انه ولدك . أي ارفق به .. ولكن بعض المتزمتين أبى إلا أن يتمحل ويقول : « ان المعنى ان تغفر لهم بالتوبة » .

ونجيب هذا القائل بأن المغفرة مع التوبة لا تحتاج إلى شفاعة ووساطة ، لأن الله قد كتبها على نفسه لكل تائب .. ثم أي مانع يمنع عيسى ومحمداً أن يطلبا من الله الرحمة والمغفرة لعباده ، فقد طلبها ابراهيم من قبل لمن عصاه : « فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم – ٣٦ ابراهيم » . هذا ، إلى أن العفو عن المسيء حسن على كل حال : « أهم يقسمون رحمة ربك – ٣٢ الزخرف » .

صدق الصادقين الآية ١١٩ – ١٢٠ :

قَالَ اللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ★ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★

الاعراب :

هذا مبتدأ ، ويوم خبر ، والجملة مفعول قال ، وجملة ينفع مجرورة باضافة يوم ، ويجوز نصب يوم على انه ظرف متعلق بمحذوف ، والمحذوف خبر هذا ، والتقدير هذا واقع يوم ينفع .

المعنى :

(قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) . بعد أن حكى عن عيسى انه قال لقومه : (اعبدوا الله ربي وربكم) ، بعد هذا عقب بالثناء على الصادقين بوجه العموم ، وان من صدق في هذه الحياة ينتفع بصدقه في الحياة الثانية ، ويجازى بجنات تجري من تحتها الأنهار،وفي هذا التعقيب شهادة منه تعالى بصدق عيسى في أقواله وأفعاله ، وانه أدى رسالة ربه على وجهها الأكمل ، وان من كفر وأشرك فعليه وحده تقع التبعة والمسؤولية .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) . ورضى الله عن عبده جنات ونعيم ، ومقام كريم ، ورضى العبد عن ربه أن يفرح بما آتاه الله من فضله . قال الرازي : « في رضى الله أسرار عجيبة تخرس الأقلام عن مثلها ، جعلنا الله من أهلها » . ولن يكون أحد من أهلها إلا بعد أن يدفع الثمن ، والثمن أن يكون شعار المشتري « لا إله إلا الله » في كل شيء ، أي أن لا يغضبه في شيء ، حتى ولو قرض بالمقاريض ، ونُشر بالمناشير ، تماماً كما قال سيد الكونين : إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، وكما قال سبطه الحسين الشهيد : رضى الله رضانا أهل البيت،نصبر على بلائه ، ويوفينا أجور الصابرين.
(لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير . ومن كانت له هذه المقدرة ، وهذا الملك أعطى من يرضى عنه بغير حساب .

سُورَةُ الأَنْعَامِ

سورة الأنعام

١٦٥ آية مكية ، ما عدا بضع آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

خلق السموات والارض الآية ١ — ٣ :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ★ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ★ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ★

اللغة :

للعدل معـــان شتى ، تختلف باختلاف الموارد ، تقول : عدل القاضي في حكمه ، أي لم يظلم المحكوم عليه ، وعدلت الشيء فاعتدل ، أي قومته فاستقام، وعدلت عنه ، أي أعرضت ، وعدلت به غيره ، أي جعلته مساوياً له ، وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى : (بربهم يعدلون) . والأجل الوقت المضروب. وقضاء الأجل انتهاؤه ، والمرية والامتراء الشك .

الإعراب :

خلقكم من طين على حذف مضاف ، أي خلق أصلكم ، وأجل مبتدأ ، ومسمى صفة له . وعنده متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ . وهو مبتدأ أول ، والله مبتدأ ثان ، وجملة يعلم خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منه ومن خبره خبر المبتدأ الأول . وفي السموات والأرض متعلق بيعلم .

المعنى :

(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) . هذه الآيات الثلاث من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وعظمته ، وتشير الآية الأولى الى خلق السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والثانية الى خلق الانسان وبعثه بعد الموت ، والثالثة إلى علم الله واحاطته بكل شيء .

ومعنى الحمد الثناء ، وقوله تعالى : الحمد لله يريد به التعليم ، أي قولوا يا عبادي الحمد لله ، والثناء على الله حسن على كل حال ، حتى عند الضراء ، لأنه أهل للتقديس والتعظيم .. فان أصابتك مصيبة ، وقلت عندها : الحمد لله فانك تعبر بذلك عن صبرك على الشدائد، وإيمانك القوي الراسخ الذي لا يزعزعه شيء ، ويتأكد حسن الحمد ورجحانه عند السراء ودفع البلاء ، لأنه شكر لله على ما أسبغ وأنعم .

ووصف الله سبحانه نفسه بخالق السموات والأرض والظلمات والنور لينبه العقول إلى أنه لا شريك له في الخلق والألوهية ، فيكون هو وحده الجدير بالحمد والاخلاص له في العبودية (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) . ومحل التعجب والغرابة ان هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه ، وهذه البينات الواضحة، والدلائل القاطعة لم تخترق ذاك الظلام الكثيف على عقل المشرك وقلبه الذي أعماه عن الحق، وصور له ان لله مساوياً في استحقاق الحمد والعبادة .

(هو الذي خلقكم من طين) . أي خلق أصلكم ، وهو آدم ، وآدم من تراب وماء ، أو خلق مادة كل فرد من البشر من طين ، لأنه من لحم ودم،

وهما من النبات ولحم الحيوان المتولد من النبات ، والنبات من الطين (ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده) . للقضاء معان ، منهـا الحكم والأمر : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » أي أمر .. ومنها الإخبار والإنهاء : « وقضينا إلى بني اسرائيل » أي انهينا . ومنها الحتم الذي لا مفر منـه : « واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » وهذا المعنى هو المراد هنا .

والله سبحانه قضى لكل فرد من عباده أجلين : أحدهما ينتهي بموته، وبعده يُعرف كم عاش . وثانيهما لاعادته وبعثه بعد الموت ، وعلم هذا عند الله وحده، ولا يُطلع عليه أحداً من خلقه ، كما دلت على ذلك كلمة (عنده) . (ثم أنتم تمترون) . أي تشكّون،والمعنى : أبعد ان قامت الدلالة على قدرة الله في الخلق الكبير ، وهو الكون ، وفي الخلق الصغير ، وهو خلق الانسان وموته وبعثه ، أبعد هذا تشكون في وجود الله ووحدانيته وعظمته !.. وخير تفسير لهذه الجملة قول علي أمير المؤمنين (ع) : عجبت لمن شك في الله ، وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن نسي الموت ، وهو يرى الموت ، وعجبت لمن أنكر النشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى .

(وهو الله في السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون). ذكر سبحانه في الآية الأولى انه خالق السموات والأرض ، والنتيجة الحتمية لهذا انه موجود في السموات والأرض ، ومعنى وجوده فيها وجود آثاره ، وذكـر في الآية الثانية انه خالق الانسان ومميته ومعيده ، واللازم القهري لذلك انـه يحيط علماً بسره وجهره ، وما يكسبه من إيمان وكفر ، وإخلاص ونفاق ، وأقوال وأفعال تعود عليه بالخير أو الشر .

الجحود بآيات الله الآية ٤ - ٦ :

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ★ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ★

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ★

اللغة :

جاء في تفسير الرازي : « قال بعضهم : القرن ستون سنة . وقال آخرون: سبعون . وقال قوم : ثمانون . والأقرب انه غير مقدر بزمان معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان ، بل المراد أهل كل عصر فاذا انقضى منهم الأكثر قيل : انقضى القرن ، والدليل قول الرسول الأعظم (ص) : «خير القرون قرني » . والتمكين في الشيء جعله متمكناً من التصرف فيه . وأرسلنا السماء ، أي المطر بالنظر الى انه ينزل من السماء ، والمدرار الغزير .

الاعراب :

من آية (من) زائدة ، وآية فاعل . ومن آيات متعلق بمحذوف صفة لآية. وكم استفهام في موضع نصب بأهلكنا . ومن قبلهم بيان لها . وجملة مكّناهم في محل جر صفة لقرن الذي معناه الجماعة . ومدرار حال من السماء .

المعنى :

أصول العقيدة ثلاثة : التوحيد والنبوة والبعث ، والآيات الثلاث السابقة تعرضت للتوحيد ودلائله ، وتعرضت هذه الآيات الى النبوة،وحال المكذبين بها .

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) . المراد بالآية هنا الحجة القاطعة على وجود الله ووحدانيته ، وعلى البعث ونبوة محمد ، والمعنى

ان الكافرين يرفضون دليل الحق ، ويعرضون عنه ، دون أن ينظروا اليه .. ولو كانوا من طلاب الحقيقة لنظروا إلى الدليل وتدبروه بإمعان ، وعملوا بمؤداه، أما الرفض والاعراض قبل النظر والدرس فعناد ومكابرة .

لا دكتاتورية في الأرض ولا في السماء:

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها ، واستهزأ بها المكذبون : هل هي القرآن ، أو غيره من معجزات رسول الله (ص) ، أو ان المراد بالآية جميع ما أتى به من المعجزات ؟. وتنبهت،وأنا أتابع هذا الاختلاف، إلى أن الآية التي نفسرها ، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أجل مما اهتم المفسرون بشرحه ، انها تتضمن الدلالة على ان الاسلام يقوم على حرية العقل والرأي ، وانه لا يحق لأحد ، كائناً من كان ، أن يطلب من غيره التسليم والاذعان لأقواله تسليماً أعمى ومن غير دليل ، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الإيمان به وبكتبه ورسله فرضاً ومن غير دليل ، انه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله ويدعو اليه ، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها ويتدبرها بإمعان ، شأنه في ذلك ، تعالى الله علواً عظيماً ، شأن كل عالم منصف وان بعُد القياس والتشبيه بين الخالق والمخلوق .

قال تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق — ٨ الروم » . وقال : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج — ٦ ق » . وقال : « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون — ٢٤ يونس » .

ان هذه الآيات وما اليها تدل دلالة قاطعة على انه تعالى يقيم الدلائل والبينات على دعوة الحق ، ويدعو الى تدبرها والنظر فيها ، فإذا أعرض من لا يؤمن إلا بما يريد فهو وحده المسؤول عن جحوده وانكاره .

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون). قد يتجاهل الانسان الحق غير مكترث به ، لا يؤمن به ، ولكن لا يؤيده ولا يحاربه ، كما هو شأن اللامبالي ، وقد يقف منه موقف المكذب ، وهذا مكابر ،

ان كذب عن علم بالحق ، وان كذب واستهزأ فهو محارب للحق . والأول أخف جرماً من الثاني ، لأنه أشبــه بمن يمتنع عن الاقتراع ، والثاني أخف ذنباً من الثالث ، لأنه ضم صوته إلى صوت المكذبين ، أما الثالث فقــد كذّب وأبدى نشاطاً ضد الحق ، وهــذا الثالث هو المقصود بالتهديد والوعيد ، وأنه سيلاقي جزاء عناده واستهزائه .

(أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مـــا لم نمكن لكم) . كان عرب الجاهلية يعرفون الكثير عن قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم ، وكانوا يمرون في رحلاتهم بآثارهم ، فيشاهدونها ويتحدثون عنهم وعنها ، ويعرفون ان الله سبحانه أهلكهم ، لأنهم كذبوا بالحق الذي جاء به أنبياؤهم من عند الله .

وهذه الآية تحض الذين كذّبوا محمداً (ص) ان يعتبروا بهلاك الأجيال الغابرة ، وقد كان لهم من أسباب الملك والقوة والسلطان ما لم يكن للمخاطبين من عرب الجاهلية .

(وأرسلنا السماء عليهم مدراراً) . أي المطر الغزير ينشيء الخصب في حياتهم ويفيض عليهم الأرزاق (وجعلنا الأنهار من تحتهم) كناية عن الرخاء وكــثرة الانتاج (فأهلكناهم بذنوبهم) ولم يغن عنهم المال والسلطان (وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين) والعاقل من اتعظ بغيره قبل أن يتعظ الغير به .

ولو نزلنا عليك الآية ٧ — ١١ :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ★ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ★ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ★ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ

بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ★ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ★

اللغة :

القرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه . واللبس الستر والتغطية . وحاق به ، أي أحاط به .

الاعراب :

لولا أداة طلب بمعنى هلا . وما يلبسون (ما) بمعنى الذي وهي مفعول لبسنا . وكيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، ولم تؤنث كان لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي .

المعنى :

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) . أقام النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة منذ نزول الوحي عليه إلى أن هاجر إلى المدينة ، وكان يدعو أهلها طوال هذه المدة إلى التوحيد والعدل ، وينهاهم عن الشرك والجور ، وكان أسلوبه في الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، فاستجاب له أقلهم ، وامتنع أكثرهم ، ولم يكتفوا بالامتناع ، بل تألبوا عليه ، وجعلوا يؤذونه بأيديهم تارة ، وبألسنتهم أخرى ، وكان يصبر على أذاهم ، ويحرص على إيمانهم . ولكن الله سبحانه قال له : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين – ١٠٣ يوسف » . وقال :

(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) . أي لو نزلنا عليك يا محمد الكتاب جملة واحدة في

صحيفة واحدة ، فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً لطعنوا فيه ، وقالوا : انه سحر. وهذا النموذج من الناس موجود في كل جيل ، بل في عصرنا الذي نعيش فيه فئة كبيرة لا تكتفي بانكار الملموس المحسوس،حتى تسمي هذه الأشياء بأضدادها فتعبر عن الذئب بالحمل ، وعن الأفعى بحمامة السلام ، فهذه الولايات المتحدة تقوم بعملية حرب الابادة في فيتنام ، وتقول : أنا أبني وأعمل للحياة .. وتلك إسرائيل تعتدي ، وتقول : أنا المعتدى عليه ..

(وقالوا لولا انزل عليه ملك) . لولا بمعنى هلا ، والضمير في (عليه) يعود إلى محمد (ص) وفي قالوا إلى مشركي قريش ، فقد سألوا النبي (ص) أن يبعث الله معه ملكاً يشهد بما يدعيه ، ويكون له عوناً على تنفيذ رسالته ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً - ٧ الفرقان » .

(ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون) . أي لو أن الله أنزل اليهم ملكاً لماتوا ، ولا يؤخرون طرفة عين . وتسأل : وأية ملازمة بين إنزال الملك اليهم ، وبين هلاكهم عاجلاً ؟.

وأجاب بعض المفسرين بأن الناس إذا شاهدوا الملك تزهق أرواحهم من هول ما يشهدون .. ولا يعتمد هذا القول على أساس .

وقال آخرون : لقد سبق في حكمة الله أن يهلك كل من يخالف الملك .. وهذا أسوأ من سابقه ، لأن الله سبحانه لم يهلك الذين يخالفونه في هذه الحياة ، وليس الملك بأعظم شأناً منه تعالى علواً كبيراً .

والصحيح في الجواب ان وجه الملازمة سر لم يظهره الله لعباده ، ولا يدرك هذا السر بالعقل ، فيجب السكوت عما سكت الله عنه .

(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) . لو أرسل الله إلى النـاس ملكاً فـلا يخلو : اما أن يبقى على صورته ، واما أن يتمثل في صورة البشر .. ومحال أن يبقى على صورته ، وفي الوقت نفسه يكون رسولاً إلى الناس،لأن طبيعة الملائكة غير طبيعة الانسان ، وتبليغ الرسالة يستدعي المعاشرة والمؤانسة ، وهي لا تحصل مع تباين الخلق والطباع .. هذا،إلى أن الملائكة لم يخلقوا للحياة على هذا الكوكب .

ولو تمثل الملك على صورة البشر لقالوا له نريد ملكاً رسولاً ، ولا نريده بشراً .. إذن ، فالملك بصورته لا يمكن أن يبلغ الرسالة ، وبصورة البشر لا يؤمن به مشركو مكة ، فتبقى مشكلتهم من غير حل .. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية صريحة الدلالة على ان الله سبحانه قد جادل المكذبين بالأسلوب والمنطق الذي يستعمله أهل المعقول لافحام خصومهم .

(وللبسنا عليهم ما يلبسون) . أي لو جعل الله الملك في صورة البشر لظن الناس أنه بشر في حقيقته ، وعليه يكون الله جل ثناؤه قد موّه في أفعاله ، تماماً كما يموّه الناس بعضهم على بعض ..

(ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون) . أي هوّن عليك يا محمد ما تلقى من استخفاف قومك ، فإن الاستخفاف بالأنبياء والمصلحين ليس وليد الساعة ، بل كان موجوداً منذ القديم ، والله سبحانه قد عاقب المستهزئين بأنبيائهم ، وسيحل بمن استهزأ بك ما حل بمن كان قبلهم ، وفعل فعلهم .. وهكذا كان ، فإن الله سبحانه قد أهلك من سخر بمحمد (ص) ، وامتنّ الله عليه بهلاكهم ، حيث خاطبه بقوله : « إنّا كفيناك المستهزئين ٩٥ الحجر » .

(قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . تقدم تفسيره في الآية ١٣٧ من آل عمران .

كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية ١٢ - ١٦ :

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ★ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ★

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ★ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ★ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ★

اللغة :

كتب على نفسه ، أي أوجب عليها ايجاباً . وفاطر السموات مبدعها على غير مثال سابق .

الإعراب :

لمن ما في السموات (لمن) متعلق بمحذوف خبر مقدم و (ما) مبتدأ مؤخر ، والجملة مفعول لقل . ولله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، أي قل هو كائن لله . الذين خسروا مبتدأ ، وفهم مبتدأ ثان ، ولا يؤمنون خبر للمبتدأ ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . أغير الله (غير) مفعول أول لاتخذ ، ووليا مفعول ثان . وفاطر صفة لله .

المعنى :

(قل لمن ما في السموات والأرض قل لله) . أمر الله نبيه الأكرم أن يسأل مشركي العرب : من يملك السموات والأرض ؟. ثم أمره أن يجيب عنهم بأن الله وحده هو مالك الملك ، وجاز أن يكون هو السائل والمجيب لأن كلاً من المسؤول والسائل متفقان على الجواب .. فان مشركي العرب كانوا يؤمنون بأن

الله خالق الكون ومالكـه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنّى يؤفكون - ٦١ العنكبوت » .

وتسأل : ما دام الأمر كذلك فأي جدوى من السؤال ؟.

الجواب : ان القصد من السؤال وجوابه استدراج الخصم إلى الاعتراف بإمكان النشر والحشر ، واقامة الحجة عليه ، لأن الله سبحانه إذا كان هو خالق الكون ومالكه فهو — إذن — قادر على التصرف فيه فناءً وإعادة .

(كتب على نفسه الرحمة) . وأعاد سبحانه هذه الجملة في الآية ٥٤ مـن هذه السورة . قال المفسرون : أوجب الله على نفسه الرحمة إيجاب فضل وكرم .. ونحن نؤمن بأن الله ذو فضل وكرم ، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن رحمته نتيجة حتمية لغناه في ذاته عن كل شيء ، وافتقار كل شيء اليه تعالى . لأن المخلوق مفتقر بطبعه الى عناية الخالق ورحمته افتقار المعلول الى علته . والمسبب الى سببه.. فرحمة الله بعباده لا تنفك عن ذاته وكماله . وعلى هذا يكون معنى (كتب على نفسه الرحمة) ان رحمته حتم لذاته القدسية ، تماماً كالقدرة والعلم .

(ليجمعنكم إلى يوم القيامة) . وهذا الجمع حتم أيضاً ، ولذا وصفه جـل ثناؤه بقوله : (لا ريب فيه) . لأن فيـه يقتص للمظلوم من الظالم ، ويجازى المسيء على السيئة بمثلها ، والمحسن على الحسنة بأضعاف مضاعفة من أمثالها ، ولولا هذا اليوم لذهب الحق هدراً ، وكان «الأقدر» هو صاحب الأمر والنهي ، وليس خالق الكون ومالكه .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) . قال الزمخشري : لقد اختـار الكافرون الخسران ، فهم لذلك غير مؤمنين . والزمخشري من أهـل الاعتزال القائلين : الانسان مخير ، لا مسير . وقال الـرازي : إن الله هو الذي قضى بخسرانهم ، ولهذا امتنعوا عن الايمان . والرازي من الأشاعرة القائلين : الانسان مسير ، لا مخير . وقال آخرون : امتنع الكفار عن الايمان تقليداً لآبائهم .

وفي تصورنا ان الآية تشير إلى حقيقة الانسان. وانها تتكون من نفسه وجسمه ، وان كلاً منهما جزء متمم للآخر ، وان الانسان لا يحيا حياة صحيحة إلا إذا عمل لهما معاً ، وان من عمل للروح دون المادة ، أو للمادة دون الروح فقد خسر

كيانه من الأساس ، ومن خسر كيانه لا يكون من الايمان في شيء .

(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العلـيم) . أي انه تعالى هو المالك لكل شيء . وتسأل : لقد دل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية المتقدمة: « قل لمن ما في السموات والأرض قل لله » فما هو الوجه لهذا التكرار ؟

وأجاب المفسرون بأن الآية الأولى استقصت الخلق من حيث الزمان ، والثانية من حيث المكان ، وهما ظرفان لكل موجود مادياً كان ، أو معنوياً ، فحصل العموم والشمول بالآيتين جميعاً ، وعقّب سبحانه بصفتي السمع والعلم تأكيداً لهذه الاحاطة .

وتقدم أكثر من مرة ان التكرار في القرآن غير عزيز ،ولكن المفسرين يحاولون أن يأتوا بشيء ، وإن لم تدعُ الحاجة اليه .

(قل أغير الله أتخذ ولياً) ؟ وكيف استعين بغيره ، وهو (فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) . ومن دونه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) . لأن محمداً (ص) هو الداعي الأول إلى الإسلام ، فيكون هو المسلم الأول من أمته ، والا كان من الذين يأمرون ولا يأتمرون .. حاشا من اصطفاه الله لرسالته . (ولا تكونن من المشركين). ومحال أن يكون منهم ، وإنما صح هذا النهي لأنه موجه من الأعلى إلى من هو دونه، كما قلنا أكثر من مرة .

(قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) . المعصية من النبي محال لمكان العصمة ، ولكن فرض المحـال ليس بمحال .. والغرض تقرير أو تأكيد مبدأ المساواة بين الناس جميعاً أمام الله ، وانه تعالى خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، والنار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً .. ويأتي الخوف من الله سبحانه على قدر العلم بعظمته : « إنما يخشى الله من عباده العلماء – ٢٨ فاطر » وبالأولى الأنبياء .

(من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز العظيم) . كـل من يخاف الهول الأكبر يرى النجاة منه رحمة كبرى ، وفوزاً لا شيء أعظم منه .

لا كاشف الا الله الآية ١٧ – ١٩ :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ★ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ★ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ★

الإعراب :

فلا كاشف (كاشف) اسم لا ، وله خبر ، والتقدير لا كاشف موجود له، وهو بدل من الضمير في موجود . وفوق عباده متعلق بمحذوف حالاً من القاهر ، أي هو القاهر مستعلياً فوق عباده ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً . وشهادة تمييز. ومن بلغ في محل نصب عطفاً على مفعول انذركم . وإنما (ان) مكفوفة عن العمل بما ، وهو مبتدأ ، وإله خبر ، وواحد صفة لإله .

المعنى :

(وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) . تدل هذه الآية على ان الضر كالفقر والمرض ونحوهما من صنع الله ، لا من صنع الناس ، وكذا كشفها والخلاص منها ، اذن ، لماذا السعي والعمل ؟.

الجواب : أولاً ان السعي واجب عقلاً ونقلاً ، أما العقل فلأن الحياة لا تتم

إلا بالعمل ، واما النقل فقد تجاوز حد التواتر ، من ذلك قوله تعالى: «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله – ١٠ الجمعة » . وقوله : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه – ١٥ الملك » . وفي الحديث : « سافروا تغنموا » .. « تداووا فان الذي أنزل الداء أنزل الدواء » . وعليه ، فمن قصر في السعي ، ومسه الضر فهو المسؤول ، ومن سعى من غير تقصير ومسه الضر تقع المسؤولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه وأحكامه ، وإن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحاً فقد تضرر بقضاء الله وقدره .

ثانياً : إن الله سبحانه لا يريد الضرر لأحد من عباده ، كيف ؟ وهو القائل : « وما أنا بظلام للعبيد ٢٩ ق » . والقائل : « والله رؤوف بالعباد ٢٠٧ البقرة » . وفي الحديث : « إن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » . وعلى هذا يكون المراد بالضر في الآية ما يُجازى به العبد على عمله، أو امتحاناً لمصلحته وما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل الله ورحمته . وتكلمنا عن الرزق مفصلاً عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة، فقرة « هل الرزق صدفة أو قدر » ؟

(وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) . أي لا رادّ لخيره وفضله . قال الرازي : ذكر الله في الخير انه على كل شيء قدير ، وفي الضر انه لا كاشف له إلا هو ، ذكر ذلك للدلالة على ان إرادة الله لإيصال الخيرات غالبة على إرادته لايصال المضار .

(وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) . والقاهر يشير إلى قدرة الله والخبير إلى علمه . وقهر الله عباده بايجادهم دون إرادة منهم ، وقهرهم أيضاً بالموت والفناء . قال ابن العربي في الفتوحات المكية : إن الله سبحانه قهر عباده لأنهم نازعوه وخاصموه في مخالفتهم لأحكامه. ومن خاصم الله فهو مقهور ومغلوب لا محالة .

(قل أي شيء أكبر شهادة) . جاء في بعض الروايات : ان مشركي مكة قالوا للنبي (ص) : إن اليهود والنصارى لا يشهدون لك بالنبوة ، فأرنا من يشهد لك بها ، فأنزل سبحانه (قل أي شيء أكبر شهادة) . أي سلهم يا محمد من

هو الذي تعلو شهادته كل شهادة ، ثم أمره تعالى بالجواب عنهم (قل الله شهيد بيني وبينكم) . ولا جواب في الواقع غير هذا الجواب باعتراف الخصوم ،وهو ان الشاهد بيننا هو الله .

(وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . القرآن هو الشهادة من الله على نبوة محمد ، وهو يتحداهم جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من شاءوا ، وقد حاولوا وعجزوا ، وهذا العجز أكبر شهادة على صدق النبي في رسالته . وقوله : (لأنذركم به ومن بلغ) معناه ان الله سبحانه أوحى إليّ القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ، وأنذر به كل من بلغه إلى يوم يبعثون .. قال بعض الصحابة : من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله (ص)، وتدل هذه الآية على أن من لم تبلغه دعوة محمد (ص) فهو معذور في ترك الإسلام . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١١٥ من آل عمران ، فقرة « حكم تارك الإسلام » .

(ائنكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى) . الاستفهام هنا للانكار والاستبعاد والمعنى كيف تجعلون مع الله إلهاً آخر بعد وضوح الأدلة على وحدانيته جل وعز، ثم أمر الله نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون : (قل لا أشهد) . ثم أمره بأمر آخر : (قل إنما هو إله واحد وانني بريء مما تشركون) بعبادة الأصنام وغيرها .

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ - ٢٤ :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ★ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ★ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ★ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ★ اُنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ★

الإعراب :

ويوم نحشرهم (يوم) مفعول به لفعل محذوف ، أي اذكر يوم نحشرهم . وجميعاً حال من ضمير نحشرهم . وأين خبر مقدم ، وشركاؤكم مبتدأ مؤخر . والذين بدل من شركاؤكم . وتزعمون تحتاج إلى مفعولين ، وهما محذوفان ، أي تزعمونهم شركاء،ودل على الحذف سياق الكلام . والمصدر المنسبك من ان قالوا خبر لم تكن . وكيف مفعول كذّبوا . وجملة كذبوا مفعول انظر .

المعنى :

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) . الذين آتاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى ، وضمير يعرفونه عائد إلى محمد (ص) ، والآية تجابه علماء أهل الكتاب بأنهم يعرفون خاتم الأنبياء حق المعرفة ، تماماً كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمون ما يعرفون وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ـ ١٤٦ البقرة » . وقوله : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ـ ١٥٧ الاعراف » . « أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ـ ١٩٧ الشعراء » . ومر الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، و ١٦٤ من النساء . فقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون ؟.

وليس من الضروري ليعرف أهل الكتاب صدق محمد (ص) أن يجدوا اسمه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل .. فكل من درس الإسلام دراسة جادة

وفاحصة يؤمن ايماناً لا يشوبه ريب بأنه الحق والصدق ، وانهما جوهر الإسلام وركيزته وهدفه من كلمة « لا إله إلا الله » التي تعني المساواة بين الناس الى تقييم الانسان على أساس العمل والاخلاص ، لا على أساس المال والجاه والنسب، ومن التكافل الاجتماعي ومسؤولية كل راعٍ عن رعيته الى دعوة الأمن والسلام، والتقدم والرخاء ، الى ما لا نهاية .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) مر تفسيره قريباً في الآية ١٢ من هذه السورة . (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . المراد بالظلم هنا الكفر، لأن كل من افترى الكذب على الله فهو كافر .. لا فرق اطلاقاً بين من جعل له شريكاً ، ومن حرف حكماً من أحكامه عن عمد وعلم ، ومن ادعى النيابة عن المعصوم ، أو الشفاعة للخلق عند الحق ، وهو يعلم انه مفترٍ كذاب – كل هؤلاء كفرة فجرة اجماعاً وكتاباً وسنة . (أو كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون). أشارت الجملة الأولى من الآية الى من يختلق ما لا وجود له ، كمن جعل لله شريكاً أو ولداً . وتشير هذه الجملة الى من ينكر الموجود ، كمن يجحده من الأساس ، وحكم الاثنين واحدٌ ، كلٌ منهما ظالم ، ومـا للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع .

(ويوم نحشرهم جميعـاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) . المؤمنون بالله على نوعين : منهم من يؤمن بألوهيته وتوحيـده ، ويسمون الموحدين ، ومنهم من يؤمن بألوهيته وألوهية غيره ، وهـؤلاء أفسدوا ايمانهم بهذه الضميمة ، وصاروا والجاحدين سواء ، لأن جعل المثيل لله معناه في الواقع انكار الله من رأس ، إذ المفروض ان الله سبحانه لا شبيه له ولا مثيل: « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير – ١١ الشورى » .

وسيواجـه الله المشركين بهذا السؤال : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، وتستعينون بهم كما تستعينون بالله ، سيواجههم بهـذا السؤال على سبيل التوبيخ والتقريع ، لا على سبيل الحقيقة .

وتسأل : لماذا قال تعالى : أين شركاؤكم ، ولم يقل أين شركائي ، مع العلم بأن الكافرين أضافوا الشركاء اليه ، لا اليهم ؟.

الجواب : إن الاضافة تصح لأدنى مناسبة ، والمشركون هم الذين ابتدعوا الشرك الذي لا عين له ولا أثر في حقيقة الأمر والواقع .

(ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) . المراد بالفتنة هنا شركهم وافتتانهم بالأوثان ، والمعنى كانت عاقبة الشرك الذي ابتدعوه هي عينهم الفاجرة انهم ما كانوا مشركين .

وتسأل : إن قوله تعالى حكاية عنهم : (والله ربنا ما كنا مشركين) يتنافى مع قوله : « ولا يكتمون الله حديثاً — ٤٢ النساء » . هذا ، إلى أن المعروف ان الانسان لا يستطيع الكذب يوم القيامة .

الجواب : إن في القيامة العديد من المواقف ، يستطيع الانسان في بعضها الانكار ، حيث لم يشهد عليه في هذا الموقف يداه ورجلاه بما كان يعمل ، وعلى هذا الموقف يحمل قوله تعالى : (والله ربنا ما كنا مشركين) . وفي بعض المواقف يعترف بما كان منه ، حيث لا مجال للانكار ، وعليه يحمل قوله : (ولا يكتمون الله حديثاً) .

أما القول : إن الانسان يعجز عن الكذب اطلاقاً يوم القيامة فتكذبه الآية ١٨ من سورة المجادلة : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون » .

سؤال ثان يتفرع من الجواب عن السؤال الأول ، وهو إذا قدر الانسان غداً على الكذب ، بل والقسم عليه بالله أيضاً ، تماماً كما هو شأنه في هذه الحياة، اذا كان الأمر كذلك فما هو الوجه لتسمية الآخرة بدار الصدق ، وتسمية دارنا هذه بدار الكذب ؟.

الجواب : المراد بهذه التفرقة بين الدارين ان الكذب في هذه الدار قد يدفع عن صاحبه ضراً ، أو يجلب له نفعاً ، أما في الدار الآخرة فلا يغنيه عن الصدق شيء .. وبكلمة ان العجز عن الكذب شيء ، والقدرة عليه مع عدم جدواه شيء آخر .

(انظر كيف كذبوا على أنفسهم) . الخطاب موجه للنبي (ص) ، والمراد به العموم ، وهو تعجب من انكارهم الشرك ، وقد ماتوا عليه .. وكل من

أنكر ما هو فيه، أو ادعى ما ليس فيه عامداً متعمداً فقد كذب على نفسه وعلى الله والناس . (وضل عنهم ما كانوا يفترون) . وضل عنهم عطف على كذبوا، والمعنى انظر يا محمد كيف غاب عن المشركين ما كانوا يرجون نصرته وشفاعته.

على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ ـ ٢٦ :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ★ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ★

اللغة :

الأكنة جمع واحدها كنان ، وهو الغطاء . والوقر بفتح الواو ثقل السمع . والأساطير جمع واحدها اسطارة واسطورة ، أي الشيء المسطور في الكتب ولا دليل على صحته ، ونأى عنه بعد وأعرض .

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن يفقهوه مفعول لأجله لجعلنا ، أي كراهية ان يفقهوه. وإذا شرط متضمن معنى الظرف ، وهو متعلق بيقول . وجملة يجادلونك حال من الواو في جاءوك . وان هذا (ان) نافية بمعنى ما ، ومثلها ان يهلكون .

المعنى :

(ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً) . خاطب الله نبيه بهذه الآية بعد ما أمره أن يقول للمعاندين ما تقوم به الحجة عليهم ، وبعد أن تحدث عن أحوالهم يوم القيامة ، والمعنى ان فريقاً من هؤلاء الجاحدين يستمعون إلى النبي ، وهو يتلو القرآن ، ولكنهم لا ينتفعون به ولا بغيره من الدلائل والبينات ، لأنهم صمموا منذ البداية على العناد والمكابرة ، حتى أعمى هذا التصميم عقولهم عن رؤية الحق ، وأصم آذانهم عن سماعه .

وتسأل : ان الآية بظاهرها ان الله هو الذي أعمى قلوبهم ، وأصم آذانهم ، وعليه فلا يستحقون ذماً ولا عقاباً ، لأنهم مسيرون غير مخيرين ؟.

الجواب : بما ان قلوب المعاندين لم تفقه القرآن ، وتنتفع بـه ، وآذانهم لم تستمع اليه سماع فهم وتـدبر صح القول مجازاً : ان على قلوبهم أغلفة ، وفي آذانهم صمم ، وبما ان الله سبحانه هو الذي خلق القلوب والآذان صحت نسبة الصمم والأغلفة اليه مجـازاً أيضاً ، أما بحسب الأمر والواقـع فالمشركون هم المسؤولون ، لأنهم عاندوا الحق عن تصميم وارادة .. وتقدم الكلام عـن ذلك عند تفسير الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص٥٣ .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تدل بوضوح على ان الإسلام لا يقيس الشيء بما هو في ذاته ، بل بما هو في نتائجه وآثاره ، فالسمع والبصر منفذان للعقل، والعقل مخطط للعمل ، فاذا لم يتحقق العمل يكون وجود الحواس وعدمها سواء ظاهرة كانت أو غير ظاهرة . وبكلمة ليس في الإسلام داخلي وخارجي ، ولا براني وجواني ، فالكل وسيلة إلى منفعة الناس في تدبير معاشهم،وحل مشاكلهم. قال الإمام علي (ع) : يدعي بزعمه انه يرجو الله ، كذب والعظيم ، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله ، فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله .

(وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . كشف محمد (ص) عن حقيقة المزيفين من أصحاب الجاه والمال ، فاضطربوا وأحسوا بالخطر على مصالحهم ، فلجأوا إلى الأكذوبة الكبرى ، وقالوا عن آيات الله : أساطير الأولين ، وهم على يقين ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم،ولكنهم كانوا يلتمسون أوجه الشبهات والمغالطات،

ليصرفوا الناس عن أضاليلهم وأباطيلهم ، تماماً كما يفعل اليوم أرباب الأنظمة الفاسدة ، والقوانين الجائرة .

(وهم ينهون عنه وينأون عنه) . ضميرهم يعود إلى الذين عاندوا الحق حرصاً على مصالحهم ، وضمير عنه يعود إلى النبي (ص) .. نهى المزيفون عن اتباع محمد (ص) وأعرضوا عنه ، بل حاولوا إثارة النقمة عليه، وجمعوا الجيوش لحربه ، لا لشيء إلا لأنه كشف عن أسوائهم ووبائهم . (وان يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) . أرادوا الكيد للاسلام ونبيه ، فدارت دائرة السوء على رؤوسهم ، حيث هلك بعضهم يوم بدر ، واستسلم آخرون أذلاء صاغرين يوم الفتح .. وهذا مصير كل من لج وتمادى في الغي والعناد .

وقفوا على النار الآية ٢٧ – ٣٢ :

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ★ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ★ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ★ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ★ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ★ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ★

اللغة :

وُقفوا على النار الفعل مبني للمجهول ، والمراد به هنا العرض ، أي عرضوا على النار ، وقيل : يجوز اوقف ، ولكنه نادر . والساعة الزمن القصير ، والمراد بها هنا يوم القيامة لسرعة الحساب فيه . وبغتة فجأة . والحسرة الندامة. والتفريط التقصير . والوزر لغة الحمل الثقيل : ودينا الإثم والذنب .

الاعراب :

ولو ترى جواب (لو) محذوف ، تقديره لشاهدت أمراً عظيماً . ولا نكذب منصوب بأن مضمرة بعد الواو ، ومثله ونكون ، والمصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من نرد ، والتقدير يا ليت لنا الـــرد وعدم التكذيب وكوننا من المؤمنين . ان هي إلا حياتنا الدنيا ان نافية ، وهي مبتدأ ، وحياتنا خبر ، والدنيا صفة للحياة ، لأنها بمعنى الأولى أو الدنيّة أو القريبة . وبغتة مصدر في موضع الحال من الساعة ، أي باغتة . وساء فعل ذم والفاعل مستتر ، و (ما) تمييز بمعنى شيء ، والمخصوص بالذم محذوف . والتقدير ساء الشيء شيئاً وزرهم .

المعنى :

(ولو ترى إذ وُقفوا على النـــار) . عاد سبحانه إلى الحديث عن أحوال المكذبين يوم القيامة ، وانهم حين يرون ما أعـد لهم من العذاب ، وما أعـــد للمؤمنين من الثواب يقولون : (يا ليتنا نرد) إلى الدنيا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين). أي نتوب ونعمل صالحاً .. ولكن الحسرات والعبرات لا تغني شيئاً إلا إذا كانت خوفاً من الله وعذابه قبل أن يقع ، أما بعد الوقوع فهي بكاء على الأموات ولهفة على ما فات .

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) . لا ينجو غداً من عذاب الله إلا من كان واضحاً صريحاً في هذه الحياة ، تنسجم أقوالـــه مع أفعاله ، وهما معاً

انعكاس عن ذاته وواقعه ، حتى كأن الجميع شيء واحد عند الله والناس ، أما الغامض المبهم الذي يعرف الخالق منه ما لا يعرفه المخلوق من الرياء والنفاق ، أما هذا فسوف يبدو له جزاء ريائه ونفاقه ، وتذهب نفسه حسرات على اساءته، ويتمنى الخلاص بالرد إلى الدنيا ، ولكن هيهات . (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) في قولهم : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .. ولقد قرأنا عن عشرات المجرمين انهم تابوا وهم في غياهب السجن، حتى إذا خرجوا عادوا إلى اجرامهم وآثامهم ، « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا اياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً ٦٦ الإسراء » .

(وقالوا ان هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) . أي لو ردوا الى حياتهم الأولى لقالوا ما قالوه من قبل : لا بعث ولا حساب ولا جزاء .

وتسأل : كيف ينكرون ، وقد شاهدوا الهول الأكبر ، وعُرضوا عليه ، وتوسلوا للخلاص منه،وقطعوا عهداً على أنفسهم ان لا يعودوا الى ما كانوا عليه.

الجواب : انهم يعرفون جيداً ان الحساب والعذاب واقع لا محالة ، ولكنهم يعرفون أيضاً أنهم لوأعلنوا الحق وخضعوا له لفاتتهم المغانم والمكاسب ، قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ١٤ النمل » .

(ولو ترى اذ وُقفوا على ربهم) بعد أن كذبوا بلقائه (قال أليس هذا بالحق) ؟. قلنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة : ان الله يدعو الى الايمان بالحق ، مع إقامة الدليل عليه ، فإن جحده جاحد لزمته الحجة ، وهذه الآية تؤكد ذلك ، وتُذكر بالدلائل والبينات التي أنكروها وكذبوا بها (قالوا بلى وربنا) . الآن ، وقد فات ما فات ، ولم يبق إلا الجزاء العادل ، والعذاب لمن كفر وأنكر (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) . هذا جزاء كل من آثر العاجلة على الآجلة ، وكتم الحق لهوى في نفسه .

وتسأل : ان قوله تعالى للكافرين:أليس هذا بالحق ، وقوله : ذوقوا العذاب لا يتفق مع الآية ١٧٤ من سورة البقرة : « ولا يكلمهم الله يوم القيامة » ؟.

الجواب : المراد ان الله لا يكلمهم بما يسرهم ، بل بما يسوءهم ، كما في

هذه الآية ، وكما في الآية ١٠٩ من المؤمنين : « قال اخسأوا فيها ولا تكلمون» .

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) وفاز من آمن به (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) . قال الإمام (ع) : ثمرة التفريط الندامة ، وثمرة الحزم السلامة (وهم يحملون أوزارهم الا ساء ما يزرون). الأوزار الذنوب والآثام ، وحملها على الظهر كناية عن ملازمتها لأصحابها ، يقال ركبه الشيطان ، أي لا يفارقه . والمعنى ان المكذبين بالحق هم أسوأ الناس حالاً في الآخرة ، قال بعض المفسرين الجدد :

« بل الدواب أحسن حالاً ، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال ، ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ، والدواب تحط عنها أوزارها ، فتذهب وتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم الى جهنم مشيعين بالتأثيم » .

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) . تقدم نظيره في الآية ١٨٥ من آل عمران ج ٢ ص ٢٢٤ .

قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ ـ ٣٧ :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ★ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ★ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ★ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ★ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ★

اللغة :

النبأ الخبر ذو الشأن العظيم . والنفق حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . والسلّم الدرج مأخوذ من السلامة .

الاعراب :

قد نعلم مضارع بمعنى الماضي ، أي قد علمنا . وحتى بمعنى إلى ، وان مضمرة بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، متعلق بصبروا . وفاعل جاءك محذوف ، والتقدير جاءك نبأ من نبأ المرسلين . وجواب (ان كان كبر) فان استطعت . وجواب (ان استطعت) محذوف أي فافعل . والموتى الواو للاستئناف والموتى مبتدأ وخبره جملة يبعثهم . ومن ربه متعلق بمحذوف صفة لآية .

المعنى :

(قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون) . الخطاب للنبي (ص) ، وقد للتحقيق، ونعلم بمعنى علمنا ، وضمير يقولون راجع إلى الذين كذبوا النبي (ص) ، أما الذي يقولون،بل قالوه بالفعل فهو ما أشار اليه سبحانه في الآية ١٤ من الدخان: « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . والآية ٢ من يونس : « قال الكافرون ان هذا لساحر مبين » إلى غير ذلك من الآيات .

(فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . كل من حارب

محقاً ، لأنه على حق فقد حارب الحق بالذات ، وكل من استخف برسول ، لأنه يحمل رسالة المرسل فقد استخف بمن أرسله ، لا بشخص الرسول .. وكان مشركو مكة يسمون محمداً (ص) الصادق الأمين قبل الرسالة، ولما جاءهم برسالة الله ، وأقام عليهم الحجة تصدوا لحربه ، وقالوا : ساحر مجنون .. فتكذيبهم له ، والحال هذه ، تكذيب لرسالة الله وآياته ، ولا شيء أدل على ذلك من قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم — ١٠ الفتح » .

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى أتاهم نصرنا) . يقول سبحانه لنبيه : ان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، واوذوا في سبيل رسالته ، فصبروا على الايذاء ، حتى أتاهم النصر ، فاصبر أنت كما صبروا ، والله ينصرك كما نصرهم ..

هذا هو المحور الذي تدور عليه الحياة ، صراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، ومحال أن يناصر الحق مناصر ، ولا يلقى الأذى من أعداء الحق .. وأيضاً لا ينتصر الحق إلا إذا وجد أنصاراً يصبرون على الجهاد في سبيله، ويدفعون ثمنه من أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهذا هو معنى قوله تعالى : (ولا مبدل لكلمات الله) .

ولا أعرف عصراً بلغ فيه المبطلون من القوة كهذا العصر الذي نعيش فيه ، فقد أقاموا في كل بقعة قواعد للحرب ، وأوكاراً للتخريب ، وتسلحوا بأشد الأسلحة فتكاً ، وأكثرها دماراً ، وسيطروا على مقدرات الشعوب المستضعفة ، والبنوك والمصارف ، والصحف والمطابع ، ودور النشر والتوزيع إلا ما ندر ، حتى وجد المخلص الأمين نفسه معزولاً منبوذاً لا يستطيع أن ينشر مقالاً حراً ، أو يذيع من وسائل الاذاعة كلمة حق ، أما الخائن فأين اتجه يجد الترحيب والإكبار .

(ولقد جاءك من نبأ المرسلين) . أي لقد قصصنا عليك من قبل ما لاقى الأنبياء من أقوامهم ، وكيف صبروا على التكذيب والأذى ، وان النصر في

النهاية كان لهم على المكذبين ، وهذه السنة تجري عليك. تماماً كما جرت عليهم.. ولا مبدل لكلمات الله .

(وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية) . هذه الآية نظير قوله تعالى مخاطباً نبيه الأكرم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إنّ الله عليم بما يصنعون ٨ فاطر » ، كل منهما تصور الحرقة والألم الذي كان الرسول الأعظم يعانيه من اعراض المشركين عن دعوته ، وكل منهما يهدف الى التخفيف والتسرية عنه صلى الله عليه وآله.. لاقى النبي من قومه ما يذهب بحلم الحليم ، فصبر واحتسب ، ولم يدع عليهم ، بل دعا لهم ، وقال : « اللهم اغفر لقومي ، انهم لا يعلمون » ومع ذلك كان يتألم ويتوجع لكفرهم ، فخاطبه الله بهذه الآية ليخفف عنه . وييأس منهم ، ويصرف النظر عنهم ، ثم ينتظر قليلاً ليرى كيف تكون عاقبة المكذبين .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . قال الرازي : يدل هذا على انه تعالى لا يريد الايمان من الكافر ، بل يريد ابقاءه على الكفر .

ويلاحظ بأن هذا هو الظلم بعينه ، والله سبحانه ليس بظلام للعبيد، والصحيح في معنى هذه الجملة ان الله سبحانه لا يريد أن يلجيء أحداً الى الايمان بـه ، بل يدع الخيار له بعد أن يقيم الحجة عليه بالدلائل والبينات ، ولو أراد الايمان من عباده بإرادة « كن فيكون » ما كفر واحد منهم ، ولكن شاءت حكمته تعالى أن يتدخل في شؤون الناس كآمر وناصح ، لا كخالق وقـاهر . وسبق التفصيل والتوضيح عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ج ١ ص ٧٢ .

(فلا تكونن من الجاهلين) . وكيف يكون الرسول الأعظم من الجاهلين ، وأخلاقه أخلاق القرآن ؟. وإنمـا ساغ هذا الخطاب لأشرف الخلق ، لأنه من خالق الخلق ، لا من النظير والمثيل

(انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) . هذه الآية نظير قوله تعالى : « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ٨٠ النمل »، والمعنى ان الذين تحرص على هداهم يا محمد لا يسمعون

منك سماع فهم وتدبر ، لأن حب الدنيا جعلهم كالموتى .. والموتى لا ينبغي أن يخاطبوا بشيء ، بل يتركوا وشأنهم إلى يوم القيامة ، حيث يرون العذاب الذي لا يجدون عنه مهرباً .

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) . وتسأل : كيف قالوا هذا ، مع ان الله قد أنزل على محمد (ص) العديد من الآيات والبينات ؟.

الجواب : ان المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحوها ، وجعلوها شرطاً لإيمانهم بمحمد (ص) ، ولم يريدوا آية تقنع طالب الحق لوجه الحق ، ولو أرادوها لكانوا في غنى عن قولهم : لولا نزل عليه آية (قل ان الله قادر على ان ينزل آية) من النوع الذي اقترحوه ، ولكنه تعالى لا ينزلها تلبية للشهوات والأهواء، وانما ينزل الآيات على ما تقتضيه حكمته جل وعلا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله ينزل الآية حسب حكمته ، لا حسب أهواء الناس .

الدواب والطيور امم الآية ٣٨ - ٣٩ :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ★ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ★

اللغة :

الدابة كل ما يدب على الأرض من انسان وحيوان وحشرة . والأمم واحدها أمة ، وهي كل جماعة ذات خصائص واحدة ، والتفريط التقصير .

الاعراب :

وما من دابة (من) زائدة ، ودابة مبتدأ ، والخبر أمم ، وأمثالكم صفة لأمم . من شيء (من) زائدة وشيء مفعول مطلق لفرطنا ، لأنها واقعة موقع المصدر ، وهو التفريط . والذين كذبوا مبتدأ ، وصم خبر مبتدأ محذوف ، ومثله وبكم ، والتقدير بعضهم صم ، وبعضهم بكم ، والجملة خبر الذين . وفي الظلمات متعلق بمحذوف خبراً ثانياً .

المعنى :

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) . بيّن سبحانه في هذه الآية ان بيننا وبين الدواب والطيور نوعاً من الشبه ، ولكنه لم يصرح بهذا النوع : هل تشبهنا الدواب والطيور في أنها مخلوقة لله ، أو في ايمانها به ، وتسبيحها بحمده ، أو في أنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها ، كما تعرف الأسر والقبائل ، أو في تدبير معاشها ، وتصريف الأمور وفقاً لمصالحها؟

وعلى أية حال ، فقد تفرغ كثير من العلماء لدرس طبائع الحيوانات والحشرات والطيور . وغرائزها وأعمالها ، ووقفوا على أسرار غريبة تشهد بوجود مدبر حكيم ، نذكر منها على سبيل المثال ان الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها ، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيداً في عزلته .

والغراب إذا أحس بالخطر على الغربان أنذرها بصوت خاص ، أما في حال المرح فإنه يخرج صوتاً قريباً من القهقهة .

وتسأل : ما هي الفائدة في قوله تعالى : (يطير بجناحيه) مع ان كلمة طائر بذاتها تدل على ذلك ؟.

الجواب : لا فائدة – فيما نعلم – سوى فصاحة الكلام .

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) . قيل : المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ المشتمل على ما كان ويكون ، وقول ثانٍ : انه كناية عن علم الله بنوايا الانسان

وأقواله وأفعاله . وثالث : انه القرآن ، وان الله سبحانه بيّن فيه كل ما يجب بيانه للناس من أصول الدين وفروعه ، وما يتعلق بهما ، واخترنا هذا القول في ج ١ ص ٣٨ فقرة القرآن والعلم الحديث .

(ثم الى ربهم يحشرون) . ظاهر الكلام يدل على ان الله يحشر الدواب والطيور يوم القيامة ، تماماً كما يحشر الناس ، وكذلك الآية ٥ من التكوير : « وإذا الوحوش حشرت » . وقال كثير من العلماء بذلك استناداً الى ظاهر الآيتين ، وإلى حديث : « ان الله يقتص غداً للجماء من القرناء » .

ونحن مع ابن عباس الذي قال : المراد بحشر البهائم موتها ، كما ورد في حديث : « من مات فقد قامت قيامته » لأن الحساب والعقاب إنما يكون بعد التكليف ومخالفته ، ولا تكليف إلا مع العقل ، ولا عقل للدواب والطيور فلا تكليف ، وبالتالي فلا حشر للحساب . ولو حوسب الدواب لحوسب الأطفال بطريق أولى .

أما حديث « يقتص للجماء » فهو كناية عن عدل الله تعالى ، وانه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .. وإذا كان الله يعاقب القرناء إذا نطحت الجماء فبالأولى أن يحرم علينا ذبح الحيوان .. أما قول من قال : ان الله يعوض غداً الحيوان عن آلامه فهو قول على الله بغير علم .

(والذين كفروا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) . أي انهم كالصم ، لأنهم لا يستمعون إلى دعوة الحق ، وهم كالبكم ، لأنهم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم في ظلمات التقليد ، وظلمات الشرك والكفر والفسق والآثام . (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) . تقدم الكلام عن الضلال والهداية عند تفسير الآية ٢٦ من البقرة . فقرة « الهدى والضلال » ج ١ ص ٧٠ ، والآية ٨٨ من النساء فقرة « الاضلال من الله سلبي لا إيجابي » .

قل أرأيتكم الآية ٤٠ ـ ٤٥ :

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ★ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ★ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ★ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ★ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ★

اللغة :

البأساء من البؤس ، وهو المشقة . والبأس الشدة ، والمراد به هنا العذاب . والضراء من الضر ضد النفع . ومبلسون جمع مبلس ، وهو المتحسر الآيس . ودابر القوم آخرهم .

الإعراب :

أرأيتكم الصيغة للاستفهام ، والمعنى اخبروني ، والكاف حرف خطاب لا محل لها من الإعراب ، ومثلها أرأيتك وارأيتكما وأرأيتكن . وغير مفعول تدعون . وكذلك إياه . وإذ ظرف منصوب بتضرعوا . وبغتة حال من فاعل أخذناهم على معنى مباغتين ، ويجوز من المفعول على معنى مبغوتين . فإذا هم مبلسون اذا للمفاجأة ، وهم مبتدأ ومبلسون خبر .

المعنى :

(قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) . أمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يقول للمشركين : اخبروني ان أتاكم عذاب الله كالذي نزل بالذين كذبوا رسلهم ، أو جاءكم الموت بسكراته والقيامة بأهوالها ، أتدعون في هذه الحال ما كنتم تعبدون من الأصنام والأوثان التي زعمتم انها تكشف عنكم الخزي والعذاب ؟ والقصد من مجموع هذه الآية ان الكافرين يتبرأون غداً مما أشركوا ، ويلجأون إلى الله بعد أن يتبين لهم انه لا حول ولا قوة إلا به وحده لا شريك له .

الله والفطرة :

(بل اياه تدعون) . بعد أن سألهم : أغير الله تدعون يوم الهول الأكبر قرر الجواب بقوله : (بل اياه تدعون) وهذا هو الجواب الذي تؤمن به وتجيب دنياً وآخرة فطرة الله التي فطر الناس عليها .. وليس معنى فطرة الله ان الانسان يدرك الخالق تلقائياً ومن غير دليل . كلا ، وإلا لم يكفر أحد بالله ، وإنما معنى هذه الفطرة ان الله أودع في الانسان غريزة الاستعداد لتفهم الدلائل الدالة على وجوده، وهذا الاستعداد لا يفارق الانسان بحال ، ومن كفر فإنما يكفر مقصراً ومتهاوناً بالاعراض عن النظر في الدلائل والبينات ، فاستحق العذاب لهذا الاهمال ، إذ لا فرق أبداً في نظر العقل بين من ترك العمل بعلمه متعمداً ، وبين من ترك الحق واتبع الباطل جهلاً بهما ، مع قدرته على معرفتهما والتمييز بين الهدى والضلال، ولكنه ترك تهاوناً واستخفافاً . أجل قد تحتجب هذا الاستعداد ، وهذا الإدراك الفطري وراء ستار من التقليد والتربية والشهوات ، تماماً كما تحتجب الشمس وراء السحاب ؛ فيُخيّل للجاهل المحجوب انه كافر بالله لعدم الدليل ، والدليل كامن في ذاته وفطرته التي فطره الله عليها . ويوم القيامة تزول الحجب الطارئة،وتظهر الحقيقة واضحة للعيان ، ولا يبقى مجال للشك والانكار .

(فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) . ضمير اليه يعود الى الكشف ، **وهو**

مصدر متصيد من يكشف ، والمعنى انهم يدعون الله ان كشف العذاب عنهم : « اكشف عنا العذاب ... ١٢ الدخان ، والله سبحانه يكشف عنهم ان شاء ؛ وان لم يشأ لم يكشف (وتنسون ما تشركون) أي انكم أيها المشركون تتركون يوم القيامة دعوة الأصنام التي كنتم تعبدونها في الدنيا ، وتدعون الله وحده ، حيث يظهر كل شيء على حقيقته .

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون). ان الله سبحانه لا يعاقب عباده إلا بعد أن يرسل اليهم رسولاً يرشدهم الى طريق الهداية ، فإن لم يهتدوا منحهم الفرصة ليراجعوا أنفسهم . وامتحنهم بالبلاء ليتضرعوا ويتوبوا ، ولكنهم أصروا على المعصية ، كما قال تعالى في الآية التالية:

(فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) . يقول جل ثناؤه : انهم لم يتضرعوا حين جاءهم بأسنا في الدنيا ، ولم يتذللوا لله ، وينزلوا عن عنادهم ، بل أصروا على الكفر ، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من ضلال وفساد .

وتدل هذه الآية على ان الله سبحانه يقبل كل من لجأ اليه ، حتى ولو كان التجاؤه لضغط الشدائد والنوازل .. وهذا هو شأن الكريم والعظيم ، لا يرد سائلاً ولا يخيب أملاً ، مهما كانت دوافعه .

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) . أنذرهم أولاً بالقول على لسان الأنبياء وثانياً بالفعل ، حيث امتحنهم بالبلاء والضراء ، ولما أصروا على الكفر والعناد فتح عليهم أبواب الرزق والرخاء لالقاء الحجة والاستدراج بالنعم بعد الامتحان بالنقم ، ولما فرحوا بالرخاء ، وازدادوا بطراً وكبراً ، ولم يأوبوا إلى رشد أخذهم الله بالعذاب ، من حيث لا يحتسبون ، فتحسروا على التفريط ، وآيسوا من النجاة .

والخلاصة ان الله سبحانه عاملهم بالضراء تارة ، وبالسراء أخرى حباً بهدايتهم تماماً كما يفعل الوالد الشفوق بولده طلباً لصلاحه .. ولكنهم لم يشكروا الرخاء ، ولم يتعظوا بالبلاء ، فاستأصلهم عن آخرهم ، ولم يُبق منهم واحداً ، ليعتبر بهم

من يأتي من بعدهم (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) على انعامه على المؤمنين ، ونصرهم على أهل الكفر والفساد .

ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم الآية ٤٦ ـ ٤٩ :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ★ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ★ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ★ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ★

اللغة :

نصرّف الآيات نكررها على وجوه مختلفة . ويصدفون يُعرِضون .

الاعراب :

من مبتدأ ، وإله خبر ، وغير الله صفة لإله ، وجملة يأتيكم صفة ثانية . والضمير في (به) يعود إلى معنى المأخوذ ، وهو السمع والبصر . وكيف حال من ضمير نصرّف . وبغتة حال من ضمير أتاكم . ومبشرين ومنذرين حال من المرسلين . وبما كانوا (ما) مصدرية والمصدر المنسبك مجرور بالباء متعلق بيمسهم .

المعنى :

(قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) . الانسان بسمعه وبصره وقلبه ، فلو زالت هذه عنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، وكان الحيوان خيراً منه .. وليس من شك ان الله قادر على أخذها لأنه خالقها، والقصد من هذه الإشارة أن يذكر سبحانه الكافرين ان ما يتخذون من دونه آلهة وأولياء لا يدفعون عنهم ضراً ، ولا يجلبون لهم نفعاً : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ١٢ الرعد » .

(أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون) . أي أقمنا عليهم الحجة تلو الحجة بأساليب شتى ، ليتعظوا ويعتبروا ، وقطعنا لهم كل معذرة ليذعنوا ويؤمنوا ، فما زادتهم الدلائل القاطعة إلا تمادياً في الكفر والغي والعناد .

(قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون). مرة ثانية يعظهم الله ويهددهم باتيان العذاب الذي لا يستطيعون له دفعاً ، سواء أجاءهم بغتة ومن حيث لا يحتسبون ، أو جهرة من حيث هم متأهبون له ، مرة ثانية في هذه الآيات يعظهم الله ويهددهم ليتقوا العذاب قبل وقوعه،ويثوبوا إلى رشدهم ، ولكن قست القلوب ، فلم تعِ لحق ولا هداية .

(وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) . هذه هي وظيفة الرسول ، يبشر الطائع ، وينذر العاصي ، وهذه الوظيفة على بساطة تحديدها ، ووضوح مفهومها هي من أشق الوظائف ، وأكثرها صعوبة ، لأنها تمس حياة الطغاة مباشرة ، وتعارضهم في مصالحهم ومنافعهم . وتنتهي وظيفة الرسول بثواب من آمن وعمل صالحاً ، وعقاب من كفر وكذب بآيات الله (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . لأن المجرم هو الذي يخاف ويحزن،أما البريء فهو في أمان واطمئنان. (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون). الفسق أعم من الكفر ، فكل كافر فاسق ، ولا عكس ، والمراد بالفسق هنا الكفر بدليل قوله تعالى : (كذبوا بآياتنا)

ان اتبع الا ما يوحى إلي الآية ٥٠ ــ ٥٥ :

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ★ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ★ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ★ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ★ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ★

اللغة :

الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . والعشي من المغرب إلى العشاء . وفتنا ابتلينا . والسلام من أسماء الله تعالى ، وسلام عليكم تحية بالدعاء لمن تحييه أن يسلم من كل سوء ، ويأمن من كل أذى . والجهالة السفه .

الإعراب :

جملة يريدون حال من الواو في يدعون . ومن شيء (من) زائدة، وشيء مبتدأ ، وعليك خبر ، ومن حسابهم حال من شيء ، ومثله: ومـا من حسابك عليهم من شيء . وفتطردهم منصوب بأن مضمرة لأنه جواب للنفي ، وهو ما عليك . وفتكون مثله لأنه جواب للنهي ، وهو لا تطرد . سلام عليـكم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول القول . والمصدر المنسبك من انه (من عمل) بدل من الرحمة، أي كتب انه من عمل . وكذلك (الكاف) بمعنى مثل في محل نصب صفة لمصدر محذوف ، أي نفصل الآيات تفصيلاً مثل ذلك .

المعنى :

(قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان اتبع إلا ما يوحى إليّ) . طلب المشركون من النبي (ص) أن يخبرهم بالغيب ويفجر الينابيع . ويأتي بالملائكة ، ويرقى إلى السماء ، ويسقطها عليهم، وما إلى ذلك مما لا يمت إلى موضوع الرسالة بصلة ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيـة ، وأمره النبي أن يقول لهم : انه ليس بإله ، ولا ملك ، وإنما هو بشر يوحى اليه وكفى .

وبتعبير ثان ان للإله صفات تخصه ، ومنها انه قادر على كل شيء ، عالم بكل شيء ، وأيضاً للملك صفات تخصه ، ومنها انه يرقى إلى السماء، ولا يأكل الطعام ، ولا يمشي في الأسواق ، أما الرسول فهو بشر كسائر الناس ، وإنما يمتاز عنهم بنزول الوحي عليه من ربه ، مبشراً من استجاب له بحسن الثواب ، ومنذراً من أعرض بسوء العقاب ، وليس من موضوع الرسالة واختصاصها أن يتنبأ بالغيب ، ويأتي بالخوارق ، فالخلط بين صفات الله وصفات ملائكته ورسله جهل وعمى .

(قل هل يستوي الأعمى والبصير) . أي فرقٌ بعيد بين الجاهل الضال الذي لا يفرق بين صفات الله وصفات الرسول ، وبين من يعرف ان الرسول بشر

يجري عليه ما يجري على غيره من الناس إلا انه يوحى اليه (أفلا تتفكرون) في ان الرسول ليس إلهاً ولا ملكاً ، وانه بشير ونذير ، فتنتصفوا من أنفسكم ، وتؤمنوا بلا إله إلا الله محمد رسول الله ؟.

(وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا إلى ربهم) . الضمير في (به) يعود إلى القرآن الذي تقدمت اليه الإشارة في قوله تعالى : (ان أتبع إلا ما يوحى إلي). واختلف المفسرون في المراد من قوله : (الذين يخافون ان يحشروا إلى ربهم) : هل هم المؤمنون ، أو الكافرون بالنظر إلى أن بعضهم كان يتأثر من تخويف النبي وإنذاره ، كما جاء في تفسير الرازي .

وفي رأينا ان النبي (ص) بعد أن أنذر الناس بما تقوم به الحجة عليهم أمره الله سبحانه في هذه الآية أن يستمر ويتابع إنذار المؤمنين بالقرآن ليزدادوا إيماناً وعلماً بالدين وأحكامه ، وأيضاً أن ينذر به غير المؤمنين ممن ترجى هدايته بمتابعة الانذار وتكراره .

(ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) . أي حين تنذرهم يا محمد يستمعون اليك . وينتفعون بانذارك لهم ، ويدركون انه لا ولي ينصرهم من دون الله . ولا شفيع يشفع عنده إلا باذنه .

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) . الغداة والعشي كناية عن مداومة ذكرهم لله وعبادتهم له ، كما تقول : الحمد لله بكرة واصيلاً . ووجه الله كناية عن الله ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء . وضمير حسابهم وعليهم وتطردهم يعود الى المؤمنين الذين يدعون ربهم ، ومعنى ما عليك من حسابهم ان حسابهم وحساب غيرهم لا يدخل في موضوع النبوة ، ولا هو من شؤونها ، وانما حسابهم على الله وحده ، تماماً كحسابك أنت يا محمد ، لا فرق بينك وبينهم من هذه الحيثية .

ان المسلم يؤمن إيماناً قاطعاً بأن محمداً (ص) أشرف الخلق على الاطلاق ، وفي الوقت نفسه يؤمن بأن عظمة محمد لا تخول له أن يحاسب أحداً ، أو يعاقبه أو يثيبه ، ان الحساب والجزاء لله ومن الله وحده لا شريك له ، وبهذه الفضيلة

امتاز الاسلام عن جميع الأديان ، بنفي السبيل للانسان على انسان كائناً من كان وبها نعتز نحن المسلمين ونفاخر الاشتراكيين والشيوعيين والقوميين والديمقراطيين ، وجميع أهل الأديان والمذاهب

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان المترفين من قريش مروا برسول الله (ص) ، وعنده عمار بن ياسر وخباب وبلال وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء ؟ أهؤلاء نكون تبعاً ، فنحّهم عنك ، حتى نخلوا بك ، ثم إذا انصرفنا فأعدهم إلى مجلسك ان شئت .. وقيل ان النبي (ص) أراد أن يجيبهم إلى ما طلبوا فنزلت الآية .

وظاهر اللفظ لا يأبى ذلك ، خاصة قوله : (فتطردهم فتكون من الظالمين) لهم حيث انهم أولى بمجلسك والاستفادة منك ، وبتعبير ثان ان النبي أراد أن يقرب الأغنياء ليستفيدوا منه ، فقال له الجليل : الفقراء أولى بالاستفادة ، فإن تركت هذا الأولى ظلمت الفقراء المؤمنين من حيث الاستفادة .

وتسأل : الا يتنافى ترك الأولى والأرجح مع العصمة ؟.

الجواب : ان ترك الأولى جائز ، وليس محرماً ، حتى يتنافى مع العصمة.. هذا ، إلى أن النبي لم يحاول طرد الفقراء استنكافاً من فقرهم ، بل حرصاً وطمعاً في اسلام الرؤوس ، فنبه سبحانه النبي الى أن الاسلام غني عن هؤلاء المتكبرين الطغاة،وان لهم يوماً يستسلمون فيه أذلاء صاغرين ، كما حدث بالفعل.

(وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) . معنى الفتنة هنا الاختبار ، واختبار الله لعبده أن يظهره للملأ على حقيقته عن طريق أفعاله وأعماله ، كما بينا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة ، فقرة:معنى الاختبار من الله . واللام في ليقولوا للعاقبة ، أي اختبرنا الأغنياء بالفقراء ، ليشكروا الله على نعمته عليهم ، فآل أمرهم الى التكبر والاستعلاء، قال الإمام علي (ع) :

« لا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلاً بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والاقتدار ، وقد قال سبحانه : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ـــ ٥٦ المؤمنون » . فان الله سبحانه

يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم . ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (ع) على فرعون ، وعليهما مدارع الصوف، وبايديهما العصي ، فشرطا إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه ، فقال : ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك ، وهما بما ترون من حال الفقر والذل ؟. فهلا القي عليهما اسارة من ذهب ؟. - إلى قوله - : ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم ، وضعفة فيما ترى الأعين من حالهم».

السلام عليكم ورحمة الله :

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة). قال رسول الله (ص) : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . وأي أدب كأدب خالق السموات والأرض ؟. وأية نفس ينمو ويثمر فيها الأدب الإلهي كنفس محمد؟. لقد أدب سبحانه هذه النفس الطيبة الزاكية ، ليؤهلها لرسالته ، رسالة الرحمة للعالمين التي بها وبصاحبها تمت مكارم الأخلاق .. أدّب الله محمداً في العديد من آياته ، ومنها هذه الآية ، وهي تُعلّم رسول الله وخير خلق الله كيف يسلك ويعامل الضعفاء والمساكين .. فكان يلقاهم بالبشاشة والترحاب ، ويقول : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، ويحبس نفسه معهم ، ما داموا في مجلسه ، حتى يكونوا هم الذين ينصرفون .

وإذا كان النبي مقصود الله بهذا التأديب فنحن مقصودون بالتأسي والاقتداء به ، فلا نكرم أحداً لمال أو جاه أو جنس ولون ، وإنما نكرم ونحترم للدين والخلق الكريم ،قال بعض المفسرين الجدد : « كانت الحياة البشرية قبل محمد(ص) في الحضيض ، فرفعها محمد إلى القمة ، وتراجعت الآن عن القمة السامقة ، وانحدرت في نيويورك وواشنطن وشيكاغو ، حيث العصبيات النتنة ، عصبيات الجنس واللون » .

أجل ، لا جنس ولا لون ، ولا جاه ولا ثراء ، لا فضل في الإسلام إلا بالتقوى ، وفي هذا المبدأ الإسلامي الإلهي يكمن السر لتواضع المراجع الكبار من

علماء المسلمين .. يصل اليهم الصغير والكبير على السواء ، دون بواب وحجاب ، ويخاطبهم على سجيته بما شاء ، ودون تكلف وتحفظ .. أما البابا ومن اليه من رؤساء الأديان فلا يحلم بمجالسته ومخاطبته إلا وزير وكبير ، على أن يُحدَّد له من قبل وقت المقابلة وأمدها .

وعوداً إلى قوله تعالى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) . السلام عليكم ورحمة الله،هذه هي تحية الإسلام ، دعاء بالنجاة لمن تحييه من كل سوء ، والعيش بأمان واطمئنان ، وبرحمة الله ورضوانه ، إذ لا نجاة ولا أمان مع غضبه جل وعلا ، أما إذا عطفت بركات الله على رحمته فقد دعوت لصاحبك بالرزق الواسع ، والعطاء الجزيل .. وأين « مرحباً وصباح الخير ونهارك سعيد » من هذه التحية الإلهية الإسلامية ؟!. وسبق قوله تعالى : (كتب على نفسه الرحمة) في الآية ١٢ من هذه السورة ، وقلنا في تفسيرها : ان رحمته تعالى لا تنفك عن ذاته القدسية ، تماماً كقدرته وعلمه .

(انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم). المراد بالجهالة هنا السفاهة ، أما التوبة فقد عقدنا لها فصلاً خاصاً بعنوان « التوبة والفطرة » عند تفسير الآية ١٨ من سورة النساء (فانه غفور رحيم) هذا هو الرب الذي نعبده ، يغفر لمن أناب ، ويرحم العباد ، وكل من رحم الناس وعمل لصالحهم فقد عبد الله في عمله ، وان جحده بلسانه ، وكل من اعتدى على حق من حقوقهم فقد كفر بالله — عملياً — وإن هلل وكبّر .

(وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) . ذكر سبحانه في كتابه صفات الصالحين ، وأيضاً ذكر صفات المجرمين ، ليظهر كل فئة بسماتها .. هذا،إلى أن معرفة إحدى الفئتين تستدعي معرفة الأخرى،تماماً كالهداية والضلالة .

لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ — ٥٨ :

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ★ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ★ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ★

اللغة :

القصص تتبع الأثر ، أو ذكر الخبر ، وهذا المعنى هو المراد هنا . والفصل القضاء والحكم .

الاعراب :

اذاً معناها الجزاء ، أي ان اتبعت أهواءكم فقد ضللت . وضمير به يعود إلى ربي . وكذبتم به يجوز أن تكون الواو للاستئناف ، ويجوز للحال على اضمار قد قبل كذبتم ، لأن المقرون بالواو لا يكون حالاً إلا مع قد ظاهرة أو مضمرة.

المعنى :

(قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) . في الآية السابقة أشار سبحانه إلى سبيل المجرمين ، وفي هذه بيّن هذا السبيل ، وانه عبادة غير الله (قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين) . لأن دعوتهم لا مصدر لها إلا الهوى والضلال . فكيف يتبعها الرسول الأعظم ؟ . (قل اني على بينة من ربي وكذبتم به) . أي اني أعبد الله عن علم ، وأنتم كفرتم به، وعبدتم الأصنام عن جهل ، وفي أي منطق يكون العالم تابعاً للجاهل ، والمبطل قائداً للمحق .

(ما عندي ما تستعجلون به) . لما دعاهم رسول الله إلى الايمان قالوا له : « فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » فأمـــره الله سبحانه أن يقول لهم : (ما عندي ما تستعجلون به) بل هو عند الله ينزله في الوقت الذي يريد ، ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره (ان الحكم إلا لله) في تنزيل العذاب وتقديمه وتأخيره ، وفي كل شيء (يقص الحق) أي يقول الحق (وهو خير الفاصلين) لا يظلم أحداً في فصله وقضائه .

(قل لو كان عندي مـــا تستعجلون به) من العذاب (لقضي الأمر بيني وبينكم) باهلاك من ظلم منكم غضباً لله تعالى (والله أعلم بالظالمين) يعجـل أو يؤجل العذاب على ما تقتضيه حكمته .

وعنده مفاتح الغيب الآية ٥٩ - ٦٢ :

وعِنْدَهُ مفاتِحُ الغيْبِ لا يعْلمُها إلّا هُو ويعْلمُ ما في الْبرّ والْبحْرِ وما تسْقُطُ منْ ورَقةٍ إلاّ يعْلمُها ولا حبّةٍ في ظلُمـاتِ الأرْضِ ولا رطْبٍ ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مُبينٍ★ وهُو الّذي يتوفّاكُمْ باللّيْلِ ويعْلمُ ما جرحْتُمْ بالنّهارِ ثُمّ يبْعثُكُمْ فيهِ ليُقْضى أجلٌ مُسمّى ثُمّ إليهِ مرْجِعُكُمْ ثُمّ يُنبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تعْملُون★ وهُو الْقاهِرُ فوْق عبادهِ ويُرْسِلُ عليْكُمْ حفظةً حتّى إذا جاءَ أحدكُمُ الموْتُ توفّتْهُ رُسُلُنـــا وهُمْ لا يُفرّطُون★ ثُمّ رُدُّوا إلى اللهِ موْلاهُمُ الحقِّ ألا لهُ الْحُكْمُ وهُو أسْرعُ الْحاسبين ★

اللغة :

مفاتح جمع مفتح بفتح الميم ، وهو المخزن ، وبكسرها المفتاح الذي تفتح

به الأقفال ، ومَفاتيح جمع مِفتاح . وجرحتم أي كسبتم من جوارح الانسان ، وهي أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال . والأجل المسمى الأمد المعلوم . والمراد بالحفظة الملائكة الذين يحفظون على الانسان أعماله .

الاعراب :

جملة لا يعلمها إلا هو حال من مفاتح . ومن ورقة (من) زائدة وورقة فاعل تسقط . إلا في كتاب مبين لا يجوز أن يكون استثناء من وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . إذ يصير المعنى انه تعالى يعلم كل شيء إلا الموجود في كتاب مبين فإنه لا يعلمه، تماماً كما تقول : لا شيء إلا أنا عالم به إلا ما في الصندوق، وعليه يتعين ان يتعلق في كتاب مبين بخبر محذوف لمبتدأ محذوف ، تقديره إلا هو موجود في كتاب مبين . بالنهار الباء بمعنى في . ومولاهم صفة لله . والحق صفة ثانية .

المعنى :

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) . مفاتح الغيب خزائنه ، والمعنى ان الله يعلم الكون وما حدث ويحدث فيه كلياً كان أو جزئياً ، مادياً كان أو معنويا ، ولا يتقيد علمه تعالى بزمان أو مكان أو بحال دون حال ؛ لأن علمه ذاتي لا كسبي ، وليس لذاته زمان ومكان ، ولا هي تتغير بتغير الأحداث والأحوال . وفي الحديث : « ان مفاتح الغيب خمس : « ان الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت – ٣٤ لقمان » .

وقال الفيلسوف الملا صدرا : « إن جميع الأشياء الكلية والجزئية فائضة عنه، وهو مبدأ لكل موجود عقلياً كان أو حسياً ، ذهنياً كان أو عينياً. وفيضانها عنه لا ينفك عن انكشافها لديه » .

وقال العلامة الحلي المتكلم : « كل موجود سوى الله فهو ممكن مستند اليه ، فيكون عالماً به ، سواء أكان جزئياً أم كلياً ، وسواء أكان موجوداً قائماً بذاته أم عرضاً قائماً بغيره ، وسواء أكان في الأعيان أم في الأذهان ، لأن وجود الصورة في الذهن من الممكنات أيضاً ، فيستند اليه ؛ وسواء أكانت الصورة الذهنية صورة أمر وجودي،أم عدمي ممكن أم ممتنع ، فلا يعزب عن علمه شيء من الممكنات ولا من الممتنعات » .

(وهو الذي يتوفاكم بالليل) . الوفاة والموت بمعنى واحد في مفهوم العرف ، وهو عدم الحياة ، وتستعمل كل من الكلمتين في النوم مجازاً ، لأن الحواس تتعطل عن أعمالها بسببه ، ومنه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى — ٤٢ الزمر » ، أي ان الله يقطع صلة الأرواح بالأبدان ظاهراً وواقعاً حين الموت ، ويمسكها عنده ، ويقطع هذه الصلة ظاهراً لا واقعاً حين النوم ، وعند اليقظة ترجع الصلة كما كانت وتبقى إلى الوقت المضروب للموت الحقيقي .. فالنائم ميت وحي في آن واحد ، والمراد بالوفاة في الآية الموت المجازي ، قال الإمام علي (ع) : « تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها في الجسد ، وبذلك يرى الرؤيا فاذا انتبه من النوم عادت الروح بأسرع من لحظة » .

(ويعلم ما جرحتم بالنهار) . يريد ما كسبت جوارحكم من أعمال (ثم يبعثكم فيه) . ضمير فيه يعود إلى النهار ، ومعنى يبعثكم يوقظكم من النوم . وقال المفسرون : إن هذا الكلام دليل على صحة البعث والقيامة ، لأن النوم يشبه الموت ، واليقظة تشبه الحياة بعده . (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) من خير وشر في ليلكم ونهاركم .

والخلاصة ان كل إنسان يموت بانتهاء أجله المكتوب ، ثم يبعثه الله بعد الموت ، تماماً كما يوقظه من النوم ، ثم يجزي يوم البعث كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون .

وإذا قال قائل : لماذا خصت الآية النوم بالليل ، والعمل بالنهار ، مع ان الانسان قد ينام نهاراً ، ويعمل ليلا ؟ قلنا له : إن الآية وردت مورد الغالب .

(وهو القاهر فوق عباده) . وكفاهم قهراً ان يأتوا إلى هذه الحياة مسيرين ويتركوها مكرهين .. قال الإمام علي (ع) : « لا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور بلا قدرة منها كان ابتداء خلقهـا ، وبغير امتناع منها كان فناؤها » .

(ويرسل عليكم حفظة) . وهؤلاء الحفظة من الملائكة ، قال تعالى : « وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ١٣ الانفطار » . ونحن نؤمن بذلك ، لأن الوحي أخبر عنه ، والعقل لا يأباه ، ولم يرد في كلام الله ، ولا في كلام الرسول بيان لصفة الكاتب والكتابة ، والعقل لا يُلزم بالبحث والسؤال عنها ، فندعها لعلم الله تعالى . أما من شبّه الملائكـة الكاتبين برجال البوليس السري ، كما في تفسير المنار والمراغي ، أما هـذا التشبيه فهو من قياس الغيب على الشهادة ، والسماء على الأرض ، مع وجود الفارق البعيد .

(حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) . وتجد تفسيره في قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ١١ السجدة » ، وهذا أيضاً من الغيب الجائز عقلاً ، الثابت وحياً ، تمامـاً كالحفظة الكاتبين . (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) ليقضي فيهم بحكمه (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) يحاسب ويحكم وينفذ في أقصر أمد ، لأن الحق جلي ، والحكم مبرم، والجزاء معد ، وكل شيء يتم بمجرد الارادة .

قل من ينجيكم الآية ٦٣ - ٦٧ :

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ★ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ★ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ★ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ★ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ★

اللغة :

المراد بالظلمات هنا الشدائد والأهوال ، يقال لليوم الذي فيه شدة يوم مظلم . ولبس عليه الأمر إذا لم يبينه ، وخلط بعضه ببعض . والشيع الفرق ، وكل فرقة شيعة على حدة . والفقه فهم الشيء بدليله . والمستقر مكان استقرار الشيء أو زمانه .

الاعراب :

جملة تدعونه حال من مفعول ينجيكم . وتضرعاً مصدر في موضع الحال،أي متضرعين . ومن فوقكم متعلق بمحذوف صفة لعذاب . وشيعاً حال من مفعول يلبسكم . وكيف مفعول نصرف . وبوكيل الباء زائدة ، ووكيل خبر ليس ، وعليكم متعلق بوكيل . ولكل خبر مقدم ، ومستقر مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفية) . ظلمات البر والبحر كناية عما يلاقيه الانسان من الشدائد والآلام في حله وترحاله براً وبحراً ، ونعطف عليها جواً بعد أن صرنا في عصر الفضاء ، وهو أكثر خطراً من البر والبحر ، والمعنى: سل أيها الرسول المشركين والجاحدين ، سلهم : لمن

يلجأون في ساعة العسرة ، ويتضرعون في سرهم وعلانيتهم ، هل يلجأون الى الله ، أو إلى من يعبدون من دونه ؟.

وقلنا عند تفسير الآية ٤١ من هذه السورة : ان الفطرة تدرك خالقها تلقائياً، ولكن حجاب التقليد والأهواء يمنع شعاعها عن العيان ، وعند الشدائد يتقشع هذا الحجاب ، وينطق الانسان بفطرته النقية الصافية . ولا أحد ينجو من هذه الشدائد كائناً من كان ، حتى المعافى يخشى الغوائل ، ويخاف من سوء العاقبة إذا كان عاقلاً ، قال الإمام علي (ع) : ما المبتلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء .

(لئن أنجانا من هذا لنكونن من الشاكرين) . أي انهم يخلصون لله وحده عند الشدة والخوف ، ويقطعون العهود على أنفسهم أن يوحدوا الله ويشكروه إذا انجاهم من ظلمات البر والبحر ، فإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية اشركوا وبغوا ، وقد أثبت العلم ان ضعف الشخصية والارادة يتكيف مع الظروف، تماماً كالماء يتلون بلون الاناء .

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) فكان عليكم أن تعظموا نعمة الله وتشكروها (ثم أنتم تشركون) ولكنكم بعد أن انعم عليكم بالنجاة بدلتم نعمة الله كفراً وشركاً .

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) كالصواعق والطوفان (أو من تحت أرجلكم) كالخسوف والزلازل (أو يلبسكم شيعاً) أي يخلطكم أو يجعلكم أحزاباً متطاحنة لا تقوم لكم معها قائمة ، أو يجعل الواحد منكم في حرب وخصام مع نفسه يرضى مساء عما غضب عليه صباحاً ، وبالعكس ، فتضطرب حاله ، ولا يستقيم له أمر (ويذيق بعضكم بأس بعض) . أي يقتل بعضكم بعضاً (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) . ان الله سبحانه يقيم للناس الحجج والدلائل الواضحة على الحق من الحس والعقل والوجدان ، ويضرب الأمثال من هذه بشتى الأساليب،ليعرفوا الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه، ومن خالف قامت عليه الحجة ، واستحق العذاب .

(وكذب به قومك وهو الحق) . الخطاب للنبي (ص) ، وضمير به يعود

إلى القرآن الناطق بالدلائل والبينات ، وبعذاب من كذّب بها (قل لست عليكم بوكيل) . بل بشير ونذير يبلغ ما أرسل به ، ويترك أمر الحساب والعقاب لله وحده .

(ولكل نبأ مستقر) . يجوز أن يكون المستقر موضع استقرار الشيء ، أو وقت استقراره ، والمعنى ان لكل خبر يخبره الله زماناً أو مكاناً يقع فيه من غير خلف (ولسوف تعلمون) أوان وقوعه ، وفيه تهديد ووعيد على تكذيب الحق .

حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ٦٨ — ٧٠ :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ★ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ★ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ★

اللغة :

خاض في الماء دخل فيه ، وخاض في الحديث استرسل في قول الباطل .

والذكرى تُستعمل في التذكر ، وهو المراد من (بعد الذكرى) وتستعمل في التذكير ، وهو المراد من (ولكن ذكرى) . والبسل الحبس والمنع ، يقال شجاع باسل ، أي يمنع نفسه ويحبسها عن خصمه ، وان تبسل نفس ، أي تحبس وترتهن بما كسبت . وان تعدل العدل بمعنى الفداء . والحميم الشديد الحرارة .

الاعراب :

الضمير في غيره يعود إلى معنى الآيات ، وهو القرآن . ومن شيء (من) زائدة ، وشيء مبتدأ وخبره على الذين ، ومن حسابهم متعلق بمحذوف حالاً من شيء ، والتقدير شيء كائناً من حسابهم ، وضمير حسابهم يعود إلى الخائضين الذين دل عليهم يخوضوا ، وذكرى مفعول مطلق ، أي ذكروا تذكيراً . ودينهم مفعول أول لاتخذوا ، ولعباً مفعول ثان . والدنيا صفة الحياة . وتبسل ان وتبسل بمصدر مفعولاً من أجله لذكر به . وولي اسم ليس ، ولها خبرها ، ومن دون الله في موضع الحال من ولي . وكل عدل مفعول مطلق ، لأن كلاً تُعطى ما تضاف اليه . وأولئك الذين أبسلوا مبتدأ وخبر ، وجملة لهم شراب حال من الواو في أبسلوا .

المعنى :

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . مر تفسيره في الآية ١٣٩ من سورة النساء .

(واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) . الخطاب للنبي ظاهراً ، والمقصود غيره واقعاً ، لأن النبي معصوم عن المعصية والخطأ والنسيان ، والا لم يكن قوله وفعله وتقريره حجة بالغة ، ودليلاً قاطعاً،لا يقبل الجدال والنقاش .

(وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون) .

أي ليس على المؤمنين المتقين شيء من تبعة الكافرين الذين يخوضون في آيات الله ولكن يذكّرونهم وينهونهم لعلهم يجتنبون الخوض في آياته تعالى .

أما الآية التالية ففيها أمور :

١ — (وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا) وذر الأمر موجه ظاهراً للنبي ، وواقعاً له ولمن تبعه من المؤمنين ، أمرهم الله سبحانه أن يتركوا معاشرة الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ،ولم يأمرهم بإهمالهم وعدم انذارهم ، لأن قوله تعالى : (وذكّر به) أمر بالانذار .

وكل من انتسب الى دين من الأديان،ولم يحترم ويقدس جميع مبادئه وأحكامه فقد اتخذ دينه لعباً ولهواً ، فمن تكسّب بالدين ، أو وصف حكماً من أحكامه بما يدعو إلى الهزء والسخرية فهو من المعنيين بقوله تعالى : (اتخذوا دينهم لعباً ولهواً) . وليس من شك ان من لا يدين بدين خير ممن ينتسب الى دين يهزأ بأحكامه ومبادئه ، لأن هذا في واقعه قد اتخذ اللعب واللهو بالدين ديناً له .

٢ — (وذكر به ان تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) . بعد أن أمر سبحانه النبي والمؤمنين أن لا يعاشروا الذين اتخذوا دينهم لعباً ، أمرهم أن يذكّروا بالقرآن أولئك الذين يخوضون في آيات الله ، ويتلاعبون بالدين كيلا يؤخذوا بما كسبت أيديهم من الجرائم والآثام في يوم لا يجدون فيه فيه ناصراً ينصرهم من دون الله ، ولا شفيعاً يشفع لهم عند الله (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) . العدل هنا الفدية ، والمعنى انه كما لا يجد الكافر ولياً ولا شفيعاً يوم القيامة كذلك لا تُقبل منه الفدية بالغة ما بلغت ، قال الرازي : « إذا تصور الانسان كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد اذا أقدم على معاصي الله » .

٣ — (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم) . أولئك اشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعباً ، وأبسلوا بما كسبوا ، أي صاروا مرتهنين بأعمالهم ، أما قوله : (لهم شراب من حميم وعذاب أليم) فهو بيان للعقاب على كفرهم وعصيانهم .

قل ادعوا من دون الله الآية ٧١ ـ ٧٣ :

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ★ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ★ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ★

اللغة :

الاعقاب جمع عقب ، وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة : نكص أو ارتد على عقبيه . والحيران التائه الذي لا يدري ما يصنع ؟. والصور في اللغة القرن ، وقد ثقب الناس قرون الوعول وغيرها ، وجعلوا منها أبواقاً ينفخون فيها .

الإعراب :

كالذي الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي نُرد رداً مثل رد الذي استهوته . وحيران حال من ضمير استهوته . وله أصحاب مبتدأ وخبر ، والجملة صفة لحيران . ولنسلم اللام بمعنى كي ، وان مضمرة

بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها متعلق بأمرنا ، والتقدير أمرنا بذلك للإسلام. وان اقيموا الصلاة عطف على لنسلم . ويوم يقول (يوم) منصوب بمعنى « قوله الحق » . وفاعل كن فيكون ضمير مستتر يعود على الشيء المحـــذوف ، أي يقول للشيء كن فيكون . وعالم الغيب خبر مبتدأ محذوف ، أي هو عالم الغيب، ويجوز أن يكون صفة للذي خلق السموات والأرض .

المعنى :

(قل اندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا).دعا الرسول الأعظم(ص) المشركين الى عبادة الله ، فدعوه بدورهم الى عبادة أصنامهم ، وقيل : اقترحوا عليه أن يعبد معهم آلهتهم ، ويعبدوا معه ربه لقاء عبادته لأصنامهم ، ومهما كان، فإن الله سبحانه أمره في هذه الآية ان يقول لهم مستنكراً : كيف نترك عبادة الله النافع الضار الى عبادة ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ؟. (ونرد عـــلى أعقابنا بعد أن هدانا الله) . الرد على الأعقاب كلمة تقال لمن يرجع القهقرى، ولا أحد أكثر تأخراً ، ورجوعاً إلى الوراء ممن أعرض عن الحق الى الباطل ، وعن التوحيد الى الشرك .

(كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا) . هذا مثال ضربه سبحانه لمن أعرض عن التوحيد الى الشرك أو الالحاد، ويتلخص بأن مثل هذا كمثل رجل كان مع قافلة تسير على طريق الأمن والسلامة فتركها ، وهام عـــلى وجهه في الفلوات ضالاً ، لا يهتدي إلى شيء ، تماماً كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، فأشفق رفاقه عليه ، ونادوه : هلم الينا .. هذا هو طريق النجاة ، ولكنه لم يستجب لذهوله وحيرته ، فكانت نهايته الوبال والهلاك .

(قل ان هدى الله هو الهدى) . هذا التركيب البياني يفيد ان هدى الله لا يتطرق اليه الشك ، كما يفيد حصر الهداية بالله وحده في كل شيء ، في العقيدة والتشريع والأخلاق والأوضاع .. وأية عقيدة أو فكرة ، أو أي عمـل لا يلتقي مع هدى الله فهو جهالة وضلالة (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . هذا من باب

ذكر الخاص بعد العام ، لأن هدى الله يدخل فيه كل ما أمر الله به ، ونهى عنه ، والقصد من ذكر الاسلام بالخصوص التنبيه الى عظمته (وان اقيموا الصلاة) . اذ لا هداية ، بل ولا اسلام إلا بها ، فانها عمود الدين ، ان قبلت قبل ما سواها ، وان رُدت رُد ما سواها،(واتقوه) : الضمير يعود إلى رب العالمين ، وأمر سبحانه بالتقوى بعد الأمر بالصلاة ، لأنه لا صلاة ولا إيمان صحيحاً بلا تقوى ، فعبادة الله حقاً هي السير على منهاجه ، وطاعته في جميع أحكامه ، لا في بعض دون بعض .

(وهو الذي اليه تحشرون) . قال تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد – ٢١ ق » ، سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بما أعدت لهذا اليوم .

(وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) . الحق هنا إشارة إلى أن للكون قوانين تحكمه ، وسنناً يسير عليها باطراد ، تحول دون الفوضى التي لا يستقيم معها شيء على الاطلاق .. وفي هذا دلالة بالغة على وجود من يدبر الأمر ، ويجزي كل نفس بما كسبت .

(ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) . في الكلام حذف وتقديم وتأخير ، وأصله هكذا : وقوله الحق يوم يقول للشيء كن فيكون ، ومعناه ان قول الله واقع لا محالة ، ويظهر ذلك جلياً واضحاً للعيان يوم يقول للشيء كن فيكون ، سواء أقال هذا القول يوم بدأ الخلق ، أم يوم يعيده ، وبكلمة : ان قول الله عين فعله في إيجاد الشيء من لا شيء ، وفي إعادته إلى ما كان عليه بعد انحلاله وتفرق أجزائه (وله الملك يوم يُنفخ في الصور) . والنفخ في الصور كناية عن بعث من في القبور ، ومعنى ملكه لهذا البعث انه هو الذي يعيد الموتى إلى الحياة .

مع أهل التصوف :

(عالم الغيب والشهادة) . الغيب هو الشيء الخفي المستور، كالملائكة والبعث وما يضمره الانسان في نفسه ، والشهادة ما كان ظاهراً كالأرض والسماء ، وما

يفعله الانسان علانية ، وهذا التقسيم صحيح بالنسبة إلى الانسان ، أما بالنسبة اليه تعالى فلا غيب عنه ، لا في الأرض ولا في السماء .

أجل ، ان أهل التصوف يدعون لأنفسهم الكشف عن الغيب،قال ابن العربي في الفتوحات المكية ، الباب الثاني وثلاثمئة : « إن لأهل الله أعيناً يبصرون بها ، وآذاناً يسمعون بها ، وقلوباً يعقلون بها ، وألسنة يتكلمون بها غير هذه الأعين والآذان والقلوب والألسنة ؛ فبتلك الأعين يشهدون ، وبتلك الآذان يسمعون ، وبتلك القلوب يعقلون ، وبتلك الألسن يتكلمون ، فكلامهم مصيب » .. (وهو الحليم الخبير) وحده لا شريك له في تدبير الخلائق على مقتضى حكمته ، وفي العلم بالخفايا والأسرار .. فليتق الله من يزعم ان له قلبين ولسانين وأربعة أعين ومثلها من الآذان .

ابراهيم مع ابيه وقومه الآية ٧٤ - ٧٩ :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ★ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ★ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ★ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ★ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ★ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ★

اللغة :

ملكوت الله سلطانه وعظمته . وجنه الليل ستره . والأفول غياب الشيء بعد ظهوره . وبزوغ الشيء ابتداء طلوعه . وفطر السموات والأرض أخرجهما الى الوجود على غير مثال سابق . والحنيف المائل عن الضلال .

الإعراب :

واذ قال ابراهيم ، أي اذكر اذ قال . وآزر بدل من أبيه ، وهو ممنوع من الصرف لوزن الفعل والعجمة أو العلمية . وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب مفعولاً مطلقاً لنري ابراهيم ، أي نري ابراهيم مثل ما رأى أباه وقومه . وليكون الواو للاستئناف ، ويكون منصوبة بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام ، ومتعلق بفعل محذوف ، والتقدير وجعله من الموقنين أريناه . وبازغاً حال من القمر ، ولا يصح أن يكون مفعولاً ثانياً لرأى ، لأن الرؤية هنا بصرية ، وليست قلبية ، ومثله بازغة .

المعنى :

(وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين) . ظاهر الآية يدل صراحة على ان آزر أب حقيقي لإبراهيم الخليل (ع) وانه كان مشركاً يعبد الأصنام،وان ابراهيم نهاه عن الشرك ودعاه إلى التوحيد .. هذا هو مدلول الآية الذي يتبادر إلى فهم العالم والجاهل على السواء ، من غير شرح وتفسير ، ومع هذا فقد أطال المفسرون الكلام واختلفوا : هل آزر أبٌ حقيقي لابراهيم ، أو أب مجازي ؟ وهذا الاختلاف يتفرع عن اختلاف آخر هو : هل جميع آباء محمد (ص) وأجداده يجب أن يكونوا موحدين ، ولا يجوز أن يكون فيهم مشرك واحد ، أو يجوز أن يكون فيهم المشرك والموحد؟ وبعض العلماء ألفوا رسائل خاصة في ذلك .

قال الشيعة : جميع آباء محمد وأجداده موحدون لحديث : « ما زلت انتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات ، حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا» . وقالوا : الأب الحقيقي لابراهيم اسمه تارح ، وان آزر أخو أبيه ، أو جده لأمه ، وأطلق عليه لفظ الأب مجازاً[١] . وقال الألوسي في تفسيره : وعلى هذا جم غفير من السنة ، أي انهم يقولون بمقالة الشيعة .

ولكن صاحب تفسير المنار والرازي قالا : ان السنة لا يوافقون الشيعة على رأيهم هذا، ويجيزون أن يكون في أجداد النبي مشرك أو ملحد .. وظاهر القرآن مع السنة ، بخاصة قوله : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً - ٤٢ مريم » .

وعلى أية حال ، فلا جدوى من هذا النزاع ، وبسط الكلام فيه تكثير له من غير طائل ، لأنه لا يمت إلى عقيدة الإسلام بصلة ، فإن المطلوب من المسلم الإيمان بنبوة محمد (ص) وعصمته ، وأنه سيد الأنبياء وخاتمهم ، أما الإيمان بأن جميع آبائه وأجداده موحدون ، وانه آزر عم ابراهيم لا أبوه ، أما هذا فليس من عقيدة الإسلام في شيء .

(وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السموات والأرض). المراد بكذلك ان الله سبحانه كما كشف لابراهيم عن ضلال قومه في عبادتهم الأصنام فقد كشف له أيضاً عن عجائب السموات والأرض ليستدل ببديع نظامها وغريب صنعها على وجود الله ووحدانيته وعظمته (وليكون من الموقنين) فيؤمن عن حجة ودليل ، وتدل هذه الآية على أمرين :

الأول : ان عقيدة الاسلام تقوم على حرية الرأي والعقل ، لأن الله سبحانه ما أوجب الإيمان به إلا بعد أن أقام الدليل عليه ، ودعاهم الى النظر فيه .

الثاني : ان الدليل الذي أقامه على وجوده ميسور وسهل على جميع الافهام

---

١ لقد تواتر ان عبد المطلب جد النبي (ص) حلف اذا رزق عشرة بنين أن يضحي بواحد منهم ، وان السهم خرج على عبدالله أبي محمد (ص)، وهذا يتنافى مع القول: ان جميع أجداد النبي كانوا على دين ابراهيم .

لا يحتاج الى جهد ، ولا إلى علم وفلسفة ، فيكفي أن ينظر الانسان إلى عجائب الكون والنظام الذي يحكمه ليهتدي إلى خالقه وصانعه المبدع .

(فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي) . كان قوم ابراهيم يعبدون الكواكب من دون الله ، فأراد أن يستدرجهم إلى الحق ، ويلفتهم الى منطق العقل والفطرة برفق ولين ، فانتظر حتى جن عليه الليل ، وستر الأرض بظلامه ، ورأى كوكباً مما يعبدون ، فقال محاكاة لزعمهم : هذا ربي . فاطمأنوا اليه ، ولما أفل الكوكب وغاب تحت الأفق أيقظ عقولهم ، ولفت نظرهم إلى أن الآلهة لا تتقلب وتتغير ، ولا يحجبها شيء .

(فلما رأى القمر بازغاً قال) استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم :(هذا ربي) لأنه أسطع نوراً وأكبر حجماً من الأول (فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) ، يشير إلى أنه غير مطمئن النفس لهذه الكواكب ، وانه لم يهتد بعد الى الطريق ، وطلب من الله أن ينقذه من هذه الحيرة .

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون) . لقد مضت التجربة الأولى والثانية والثالثة ، وبقي الشك كما كان ، اذن ، لا بد من البراءة من عبادة الكواكب ، لأنها لا تستأهل العبادة ، ولا تستحق الاكبار ، وبعد أن أعلن البراءة من آلهتهم توجه بقلبه إلى خالق الكون ، وقال : (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) . هذه هي النتيجة الحتمية للنظرة الفاحصة ، والتفكير الحنيف في أي شيء من أشياء هذا الكون ، نظرة واحدة لا غير بتجرد وتدبر إلى أية صورة من صور هذا العالم تؤدي حتماً إلى اليقين الجازم بأن الله وحده هو فاطر السموات والأرض .

اتحاجوني في الله الآية ٨٠ - ٨٣ :

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ

بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ★ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ★ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ★ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ★

اللغة :

تطلق الحجة على الدليل المثبت للحق ، وتطلق على مـا يحتج به المدعي على اثبات دعواه ، أمـا المحاجّة فهي المجادلة والمبالغة في اقامة الحجة . والسلطان البرهان . ولم يلبسوا لم يخلطوا .

الاعراب :

ما تشركون به ضمير به يعود إلى الله . وتسبك ان يشاء ربي بمصـدر في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، أي لا أخاف إلا مشيئة الله . وعلمـاً تمييز . وكيف تكون خبراً للمبتدأ إذا وقعت قبل ما لا يستغنى عنه نحو كيف أنت ، وحالاً أو مفعولاً مطلقاً إذا كانت قبل ما يستغنى عنه ، كما في الآية ، وعليه يكون محلها النصب على انها مفعول مطلق على معنى أي خوف أخاف ، أو حال أي على أي حال أخاف والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك مبتدأ ثان ، والأمن مبتدأ ثالث ، ولهم خبره،وهو مع خبره خبر الثاني ، وهذا مع خبره خبر الأول . وتلك حجتنا مبتدأ وخبر . وجملة آتيناها حال . ودرجات مجرورة بإلى محذوفة .

المعنى :

(وحاجه قومه) بعد أن أورد ابراهيم (ع) على قومه الحجة الدامغة من منطق العقل والفطرة ، وأثبت به فساد عبادتهم للأوثان والكواكب ، بعد هذا أوردوا عليه حججهم الواهيــة ، وقالوا له فيما قالوا : « وجدنا آباءنا لها عابدين » وخوفوه من بطش آلهتهم به ، فأجابهم ابراهيم (قـال أتحاجوني في الله وقــد هدان) . أي ما هذا الحجاج في الله ، وقد هداني إلى معرفته من نفسي ومن الكون ، وتقدم في الآية ٧١ (ان هدى الله هو الهدى) الذي لا يتطرق اليـه الشك ، وان ما عداه جهالة وضلالة .

أما التخويف من آلهتهم فقد أجاب عنه بقوله : (ولا أخاف ما تشركون به) من دون الله ، لأنــه لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع (إلا أن يشاء ربي شيئاً) وذلك بأن يسقط الله صنماً على رأسي يشجه ، أو كسفاً من شهب الكواكب يحرقني .. اذن ، فيجب أن أخاف من الله وحده ، لا من الأصنام والكواكب . (وسع ربي كل شيء علماً) فلا أخاف أن يصيبني مكروه من غير علمه وارادته (أفلا تتذكرون) ان آلهتكم ليست بشيء ، وان الله وحـده هو الضار النافع ، لأنه خالق كل شيء .

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) . المراد بما أشركتم الأوثان والكواكب التي يعبدون ، والمراد باشركتم بالله جعلهم لله شركاء ، والمعنى أتريدونني أن أخاف آلهتكم المخلوقة العاجزة ، وأنتم لا تخافون زعمكم وجعلكم لله شركاء .. هذا الزعم الذي هو افتراء محض ، لا حجة له ، ولا دليل عليه !.. وبتعبير أوضح ان ابراهيم قال لهم: أتخوفونني مما لا حول له ولا قوة ، وتأمنون أنتم ، وقد افتريتم واعتديتم على من له القوة والعزة جميعاً !.. (فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون) الفريـق الذي يؤمن بالله القــوي العزيز ، ويكفر بالشريك الضعيف ، أو الفريق الذي يؤمن بالضعيف الذليل ، ويكفر بالقوي العزيز !..

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . هذا بيان للفريق الناجي من الفريقين ، وانهم الذين أخلصوا لله في إيمانهم ولم يخلطوا

بهذا الايمان شركاً في عقيدة ، ولا في طاعة هوى مخلوق كائناً من كان .. هؤلاء وحدهم هم الآمنون المهتدون .

(وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه) . أي ان تلك الحجج الدامغة التي أفحم بها ابراهيم قومه — نحن ألهمناه اياها .. وفي هذه الآية دلالة واضحة على ان الأنبياء ، ومن اهتدى بهديهم من العلماء هم لسان الله وبيانه ، وان الراد عليهم راد على الله بالذات ، كما جاء في الحديث . (نرفع درجات من نشاء) تجد تفسيره في قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات — ١١ المجادلة » . فالسبب لرفعة الانسان عند الله هو الايمان والعلم ، ولكل منهما درجات ، رفيع وأرفع ، وقد بلغ ابراهيم (ع) أرفعها ، حتى صار للرحمن خليلاً (ان ربك حكيم عليم) حكيم منزه عن العبث والشهوة ، عليم بما يستحقه كل انسان من المراتب والدرجات .

ووهبنا له اسحق ويعقوب الآية ٨٤ — ٩٠ :

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ★ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ★ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ★ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ★ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ *

الإعراب :

كلاً هدينا (. كلاً) مفعول هدينا . ونوحاً مثله . وضمير ذريته يعود إلى نوح ، لأنه أقرب ذكراً من ابراهيم ، ولأن من جملة الأنبياء الآتية أسماؤهم لوط ، وهو ابن أخي ابراهيم ، وليس من ذريته . وداوود مفعول لفعل محذوف ، أي ومن ذريته هدينا داوود وسليمان الخ . وكذلك نجزي مثل صفة لمصدر محذوف ، أي ونجزي جزاء مثل ذلك . وكل من الصالحين مبتدأ وخبر ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب . وكلاً مفعول لفضلنا . ومن آبائهم عطف على كلاً ، أي وفضلنا كلاً من آبائهم . والباء في بكافرين زائدة ، وكافرين خبر ليسوا . وبهداهم متعلق باقتده ، والهاء في اقتده للوقف ، وتسمى هاء السكت .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات ١٨ نبياً بما فيهم ابراهيم ، وأشار إلى بعض آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، ووصف الجميع بالاحسان والصلاح والهداية ، وانه تعالى منّ على الأنبياء المذكورين بالحكمة والنبوة ، ومنّ على بعضهم بتنزيل الكتاب ، والقصد من ذلك أن يحتج محمد (ص) على العرب بأن جدهم ابراهيم وكثيراً من أبنائه كانوا موحدين ، وأيضاً أن يتخذ الرسول الأعظم ممن تقدمه من الأنبياء قدوة في الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى في سبيلها. هذا ملخص ما تضمنته الآيات السبع ،وهي واضحة لا تحتاج إلى التطويل في البيان والشرح ،ولكن

بعض المفسرين أبى إلا التطويل ، فخرج عن موضوع التفسير إلى مـا لا يمت اليه ولا إلى الحياة بصلة .

وتجدر الإشارة إلى أن أسماء الأنبياء المذكورين في الآيات لم تأت على حسب الترتيب في الزمان أو الفضل ، كما انهم ذكروا على سبيل المثال ، دون الحصر.

(ووهبنا له اسحق ويعقوب) الضمير في (له) يعود الى ابراهيم ، واسحق ابنه لصلبه مباشرة ، وامـه سارة ، ويعقوب ابن اسحق ، وابن الابن ابن ، قال تعـالى : « فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب – ٧١ هود » . (وكلاً هدينا) من اسحق ويعقوب (ونوحاً هدينا من قبل) لأنـه أقدم من ابراهيم،(ومن ذريته) الضمير عائد الى نوح لأنه أقرب في الذكر ، وقيل : إلى ابراهيم . (وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون) أي وهدينا هؤلاء كما هدينـا نوحاً واسحق ويعقوب (وكذلك نجزي المحسنين) لأن الله سبحانه يجزي المحسن بالحسنى ، نبياً كان أو غير نبي ،كما يجزي المسيء بعملـه أبيض كان أو أسود .

(وزكريا ويحيى وعيسى والياس) وهؤلاء أيضاً ممن هداهم الله (كل من الصالحين) وكل من استغل مواهبه لخيره وخير الناس فهو صالح،ومصلح أيضاً .

الحسن والحسين ابنا رسول الله :

قال الرازي في تفسير هذه الآية : « انها تدل على ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله (ص) لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية ابراهيم ، مع انه لا ينتسب الى ابراهيم إلا بالأم ، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله، وان انتسبا اليه بالأم .. ويقال : ان أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج ابن يوسف » .

وقال صاحب تفسير المنار : « أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً : (ان ابني هذا سيد) يعني الحسن ، ولفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات ، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً :

(وكل ولد آدم فان عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم) وقد جرى الناس على هـــذا ، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص) وأبناؤه وعترته وأهل بيته » .

ومعنى هذا الكلام ان ولد فاطمة (ع) ليسوا أبناء رسول الله (ص) لغة ، ولكنهم أبناؤه شرعاً لقول الرسول : « أنا أبوهم وعصبتهم » وأيضاً هم أبناؤه عرفاً ، لأن الناس قد جروا على القول : ان ولد فاطمـة هم أولاد رسول الله وابناؤه وعترته وأهل بيته .. وقد أجمع علماء السنة والشيعة قولاً واحداً عـلى ان الشرع في مداليل الألفاظ مقدم على العرف واللغة ، وان العرف مقدم على اللغة ، لأن الحكيم يخاطب الناس بما يتبادر الى افهامهم ، لا بما هو مسطور في قواميس اللغة ، فإذا أوردت كلمة في آية أو رواية ، ووجدنا لمعناهـــا تفسيراً خاصاً في كتاب الله أو السنـــة النبوية فتحمل الكلمة على هذا المعنى الخاص ، ويسمى بالمعنى الشرعي ، ويهمل المعنى اللغوي والعرفي ، وإذا لم نجد لها تفسيراً في الكتاب والسنة فتحمل على ما يفهمه الناس منها ، ويسمى بالمعـنى العرفي ، فإن لم يفهم الناس منها معنى معيناً فتحمل على المعنى الموجود في قواميس اللغة .

وعلى هذا يأتي المعنى الشرعي في الدرجة الأولى، والعرفي في الثانية، واللغوي في الثالثة ، وقد ثبت شرعاً وعرفاً ان الحسن والحسين ابنا رسول الله فيتعين ذلك ، وتهمل اللغة ، لأنها محكومة بالشرع والعرف .

أما السر في ان الحسن والحسين ابنا رسول الله ، مع انهما ليسا من أبنائـــه لغة ، أما هذا السر فيجده الباحث في صفات الحسنين وشمائلهما، انها عين صفات الرسول الأعظم وشمائله .. وحسب الباحث من سيرة الحسن ان معاوية بن أبي سفيان لم يسعه الملك الذي كان فيه ، وفي الحسن عرق ينبض ، وحسب الباحث من سيرة الحسين ان يزيد بن معاوية ضاقت به الدنيا مـــع وجود الحسين ، كما ضاقت بأبيه معاوية من قبل ، مع وجود الحسن .

(واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً) هديناهم أيضاً (وكلاً فضلنـــا على العالمين) في زمانه (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) من ، هنا للتبعيض ، أي وفضلنا البعض من كل صنف من هؤلاء ، لأن من ذرياتهـــم واخوانهم كانوا

كافرين،بل لم يكن لعيسى ويحيى نسل وذرية (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) هذا المديح والثناء تمهيد لقوله تعالى : (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) . أي ان الهدى الذي يجب اتباعه هو ما جاء به الأنبياء ، ولا يتبع هذا الهدى إلا من شمله الله بلطفه وتوفيقه (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) . أي ان هؤلاء الأنبياء على فضلهم وعظيم قدرهم لو صدر منهم أدنى شيء يشعر بالشرك لبطلت جميع أعمالهم ، وذهبت سدى ، والغرض من هذه الاشارة التنبيه إلى أن الله سبحانه يعامل الناس بأعمالهم لا بمناصبهم ، وبالنهاية التي عليها يموتون ، لا بالسابقة التي ابتدأوا بها حياتهم .

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) . أولئك إشارة إلى من تقدم ذكرهم من الأنبياء ، والكتاب جنس يشمل جميع الكتب السماوية السابقة على القرآن ، كصحف ابراهيم والتوراة والزبور والانجيل ، والمراد بالحكم معرفة القضاء وكل ما شرعه الله من الحلال والحرام (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) . هؤلاء، إشارة إلى مشركي قريش الذين أنكروا نبوة محمد (ص) ، ونصبوا له العداء ، وضمير بها يعود إلى النبوة ، والمراد بالقوم الذين ليسوا بها بكافرين المهاجرون والأنصار الذين آمنوا بمحمد وناصروه.

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده).أولئك إشارة إلى الأنبياء الذين تقدم ذكرهم،وقد أمر الله نبيه الأكرم محمداً (ص) أن يسير على طريقهم في الدعوة إلى الحق ، والصبر على الأذى في سبيلها (قل لا أسألكم عليه أجراً) لأن الدين لم يشرع للكسب والاتجار به (ان هو إلا ذكرى للعالمين) ضمير هو يعود إلى القرآن ، وفي الكلام دلالة واضحة على ان محمداً أرسل للناس كافة في كل زمان ومكان .

وما قدروا الله حق قدره الآية ٩١ ـ ٩٢ :

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ★ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ★

اللغة :

قدر الشيء بسكون الدال مبلغه ومقداره . وقراطيس جمع قرطاس ، وهو ما يكتب فيه من ورق وجلد وغيرهما . وأم القرى مكة .

الاعراب :

حق صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي وما قدروا الله قدراً حق قدره . واذ في محل نصب بقدروا . ومن شيء (من) زائدة وشيء مفعول لأنزل . ونوراً حال من الكتاب ، أي منيراً. وجملة أنزلناه صفة كتاب ، وكذا مبارك ومصدق. وأم القرى على حذف مضاف ، أي أهل ام القرى .

المعنى :

(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء). تدل هذه الآية على انه كان في عهد رسول الله (ص) قوم ينكرون الوحي من الله على أحد من الناس : ويقولون ما بعث الله بشراً رسولاً .. ولكن الله سبحانه

لم يبين مَن الذين أنكروا وقالوا ذلك ، ومن أجل هذا اختلف المفسرون فيمن هو المعني بقوله تعالى : (اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء) هل المراد بهم مشركو العرب أو يهود الحجاز ؟.

قال فريق من المفسرين : انهم مشركو العرب . ويرد هذا القول أولاً : ان الله أمر رسوله محمداً أن يواجه المنكرين بهذا السؤال : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس) . وبديهة ان هذا السؤال انما يتجه لمن يعترف بنبوة موسى والتوراة ، والمعروف ان مشركي العرب لا يعترفون بموسى وتوراته ، وإلا كانوا من أهل الكتاب .

ثانياً : ان الله سبحانه وبّخ المنكرين بقوله : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) . أي انكم حرفتم التوراة ، فأبديتم ما يتفق مع أهوائكم ، وأخفيتم ما لا يتفق معها، ومعلوم ان الذين حرفوا التوراة هم اليهود ، لا مشركو العرب .

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء هم اليهود ، واستدلوا بأمرين : الأول ان الله أمر رسوله محمداً أن يرد على من قال هذا بنبوة موسى والتوراة .. وهو رد صحيح ومفحم ، ثم أكد هذا الرد بلفتهم الى تحريفهم التوراة ، وخاطبهم تعالى موبخاً : (تجعلونه – أي كتاب التوراة – قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) .

وهذا القول أقرب الى ظاهر الآية من القول الأول . (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) . هذا الخطاب موجه إلى اليهود أيضاً ، والمعنى كيف تقولون – أيها اليهود – ما أنزل الله على بشر من شيء ، مع انكم تعتقدون ان موسى بشر ، وان التوراة نزلت عليه ، وقد علمتم منها ما كنتم تجهلونه من قبلُ انتم وآباؤكم ، ومن ذلك انكم كنتم تقرأون في التوراة صفة محمد قبل مبعثه ، ولا تعرفون بالتفصيل من هو المقصود ، ولما بعثه الله ، وعرفتم انه هو المقصود بالذات حرفتم وحذفتم ما يدل عليه مكابرة وعناداً

(قل الله) . هذا جواب عن السؤال السابق ، وهو (قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى) . وهذا الجواب هو المتعين ، ولا مفر منه، لأن

اليهود يعترفون بأن التوراة من عند الله ، ومن أجل اعترافهم هذا تقوم الحجة والرد على قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) . أي قل الحق - يا محمد - ودع اليهود في باطلهم ، ولا تهتم بعنادهم ومرائهم .. وفي هذا تهديد لهم ووعيد، كما فيه استخفاف بهم واستهانة.

وتسأل : ان اليهود يعترفون بنبوة موسى (ع) وانزال التوراة عليه ، كما قدمت - اذن - كيف نسب الله اليهم انكار الوحي والبعثة من الأساس ؟.

الجواب : انهم انكروا الوحي والبعثة في الظاهر ، دون الواقع عناداً ومكابرة لمحمد (ص) : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً - ١٤ النمل » .

أنبياء الله وعلماء الطبيعة :

وبالمناسبة نشير إلى أن أكثر علماء الطبيعة في هذا العصر ، أو الكثير منهم يؤمنون بوجود الله لأنهم رأوا ان هذا الكون الذي يتعاملون معه يسير وفقاً لقوانين ثابتة وصريحة تتحكم به ، ولا تحيد عنه بحال ، ومن أجل هذا أمكن رصدها وقياسها والاستفادة منها ، وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الكون تهندس وتبني وهذه القوة هي الله .

وبتعبير ثان ليس من الضروري ليكون الانسان عالماً بوجود الشيء أن يجربه في المعمل ، ويراه رأي العين ، بل يكفي أن يعلم علماً لا يتطرق اليه الشك والاحتمال ، سواء أجاءه هذا العلم والجزم من التجربة والعيان ، أم من الاستنتاج العقلي البديهي . وصاحب الفكر والنظر اذا تأمل هذا الكون تأملاً علمياً مجرداً عن كل شائبة ينتهي حتماً إلى العلم بوجود الله .. ولكن علماء الطبيعة الذين آمنوا بالله عن علم نفوا أن يكون له رسل من بني الانسان يوحى اليهم ، وقالوا : ان الطبيعة وحدها هي كتاب الله ، وليس التوراة والانجيل والقرآن .

ولست أشك ان هؤلاء العلماء لو أعطوا لدراسة القرآن قليلاً من الوقت الذي أعطوه لدراسة الطبيعة لاقتنعوا بأن لله كتابين : الكون والوحي ، وانه لا غنى للانسان بأحدهما عن الآخر ، فمن كتاب الكون يعلم ملكوت الله ، ويؤمن به ،

ومن كتاب الوحي يعلم شريعة الله التي تنير له طريق الحياة ومدارج التقدم فيها ، وتجنبه المهالك والمشاكل التي تعرقل سيره إلى الأمام .

لقد خُلق الانسان ليعمل في هذه الحياة ، ولا بد لكل عامل من منهج يسير عليه في عمله ، لأن الفوضى لا تؤدي الى خير ، والله سبحانه خلق الانسان ، ويعلم سره وجهره ، وقوتـه وضعفه ، وما ينفعه ويضره ، فيتحتم ، والحال هذه ، أن يكون هو المرجع الأول للمنهج الذي يجب أن يسير عليه في عمله ، تماماً كما هو الشأن في مخترع السيارة والطائرة وغيرهما من الأدوات والآلات ، حيث يتحتم الرجوع اليه في استعمالها وطريق الاستفادة منها ، لأنه أعلم بما يصلحها ويفسدها ، وليس من شك ان تبليغ المنهج الإلهي لعباده واعلامهم بـه ينحصر بالأنبياء والرسل ، لأنهم لسان الله وبيانه ، وهذا هو الوحي بالذات . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا : الإسلام والعقل ، قسم النبوة والعقل .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه). هذا اشارة الى القرآن الكريم ، والمعنى كما أنزلنـا التوراة على موسى كذلك أنزلنا هذا القرآن على محمد (ص) ، وهو كثير النفع والفائدة لمن علم أحكامه وأسراره ، وعمل بها ، وهو أيضاً يصدق الكتب السماوية التي نزلت من قبل على أنبياء الله . قال الإمام علي (ع) : « تعلموا القرآن ، فانه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه ، فانه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فانه شفاء الصدور ، واحسنوا تلاوته ، فانه أحسن القصص » .

(ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وأم القرى هي مكة ، وسميت بذلك ، لأن فيها أول بيت وضع للناس لعبادة الله .. وزعم بعض المستشرقـين ، ومن قبلهم اليهود ان محمداً (ص) أرسل للعرب فقط ، واحتجوا بهذه الآية ، وتجاهلوا الآية ١٠٧ الأنبياء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . والآية ٢٨ سبأ: « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . ومصدر القرآن واحد ، وكلامه يفسر بعضه بعضاً ، وهاتان الآيتان بيان لقوله تعالى : (ولتنذر ام القرى ومن حولها) وان المراد به أن تبدأ دعوة الإسلام أول ما تبدأ في بلد صاحبها مكة ، حتى إذا صار لها أتباع وأنصار بشروا بها في أرجاء

العالم ، كأية دعوة عامة تبتدىء ، حيث تولد ، ثم تنطلق الى سائر الأقطار .

هذا ، إلى أنه قد ثبت بطريق التواتر ان رسول الله (ص) قد كتب الى جميع الملوك والرؤساء يدعوهم الى الاسلام ، وفي طليعتهم كسرى ملك الفرس ، وقيصر امبراطور الروم ، والمستشرقون يعلمون ذلك،ولكن البعض منهم يكتمون ما يعلمون .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) . الضمير في (به) يعود الى القرآن.. وما قرأ القرآن أحد بتجرد وإمعان إلا خرج منه بشيء ، فإن كان مؤمناً بالله ورسوله واليوم الآخر ازداد ايماناً،وإن كان مؤمناً بالله فقط آمن بالوحي والبعث، وان كان مؤمناً بالله والبعث دون الوحي آمن بالأنبياء والكتب المنزلة من السماء، بخاصة نبوة محمد والقرآن ، وان كان كافراً بالله آمن به ، لأن القرآن يعرض الدلائل على ذلك ، ويحث على النظر فيها ، وهي بطبعها تؤدي بالباحث المنصف الى العلم والإيمان (وعلى صلاتهم يحافظون) . ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله .. وخص الصلاة بالذكر ، دون العبادات لأنها عمود الدين ، وقوام الإيمان، ومن شأنها ان تردع المصلي الخاشع عن الفحشاء والمنكر .

الافتراء على الله الآية ٩٣ ـــ ٩٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ★ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ★

اللغة :

الغمرات جمع غمرة ، وهي الشدة . والهون بضم الهاء بمعنى الذل والهوان ، وبفتحها بمعنى اللين الهين .

الاعراب :

افترى على الله كذباً (كذباً) مفعول مطلق مثل جلست قعوداً. ومن قال سأنزل معطوف على ممن افترى ، أي وممن قال سأنزل . وإذ الظالمون (اذ) ظرف في محل نصب بترى ، والظالمون مبتدأ ، وفي غمرات متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ . والملائكة مبتدأ ، وباسطو أيديهم خبر . وجملة اخرجوا أنفسكم مفعول لقول محذوف ، أي يقولون اخرجوا . وفرادى حال من الواو في جئتمونا ، وهو ممنوع من الصرف تشبيهاً له بثلاث ورباع . وكما خلقناكم الكاف في (كما) بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي مجيئاً مثل مجيئكم أول مرة . وتقطع فاعلها محذوف دل عليه سياق الكلام ، أي تقطع الوصل ، وبينكم ظرف منصوب بتقطع .

المعنى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . وافتراء الكذب على الله أن يختلق عليه تعالى أشياء لا مصدر لها من كتاب الله ، أو سنة نبيه ، أو من العقل البديهي ، ويكون ذلك بأمور : منها أن يحلل ما حرم الله ، أو يحرم ما أحل،

ومنها أن يصف الله – متعمداً – بما ليس فيه ، أو يجعل له شركاء وأنداداً ، وبنين وبنات ، ومنها أن يدعي النبوة وما هو بنبي ، واليه أشار سبحانه بقوله: (أو قال أوحي إليّ ولم يوح اليه شيء) وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: (افترى على الله كذباً) وهي من باب عطف الخاص على العام ، ومثلها قوله سبحانه : (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) . أي ان هـذا اللعين يدعي القدرة على تأليف كتاب يضاهي القرآن في عظمته ، وقيـل : هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وقال آخر : بل هو النضر بن الحارث .

والخلاصة ان كل من نسب إلى الله شيئاً ، دون أن يستنـد إلى قول الله والرسول ، أو بديهة العقل فهو مفترٍ كذاب يستحق التوبيخ والعذاب .

(ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) . غمرات الموت سكراته وآلامه ، واختلف المفسرون في المراد ببسط أيدي الملائكة : هل المراد به مدها حقيقة إلى الانسان حين الاحتضار ، أو هو لمجرد التمثيل والكناية عن أهوال الموت ؟ ونحن لا نرى مبرراً لهذا النزاع ، لأن العقل لا ينفي وجود الملائكة ، ولا أن يكون لهم أيدٍ يبسطونها ، وألسنة يتكلمون بهـا ، وقد ورد الوحي بذلك فيجب التصديق . وهذا الأصل يعتمد عليه جميع علماء المسلمين في اثبات العقيدة والشريعة .

(اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) . هذا كله من كلام الملائكة يخاطبون بـه المفترين ساعة فراقهم لهذه الحياة ، وهو تأنيب وتوبيخ على افترائهم وتنكرهم للحق .. وفي الحديث : « من مات فقد قامت قيامته » . ومن هنا قال بعض العارفين : ان للانسان قيامتين : صغرى ، وهي الموت ، وكبرى ، وهي البعث . وتوبيخ الملائكة لمن افترى على الله كذباً عند القيامة الصغرى انذارٌ له عمـا سيلاقيه من الأهوال في القيامة الكبرى . قال الإمام عـلي (ع) : « الموت للمؤمن كنزع ثياب وسخة ، وفك قيود وأغلال إلى أفخر الثياب ، وآنس المنازل ،وهو للكافر كخلع ثياب فاخرة إلى أوسخها وأخشنها ،ومن المنازل الأنيسة إلى أوحشها وأعظم العذاب » .

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) . جئتمونا بصيغة الماضي ، ومعناها المستقبل ، أي تجيئوننا ، والمعنى ان الانسان يلقى ربه غداً كما خرج من بطن أمه ، لا يحمل معه شيئاً .. ويا حبذا لو دخل في جوف الأرض كما خرج منها ، لا له ولا عليه .. انه خرج منها ، لا سائلاً ولا مسؤولاً ، ويعود اليها مسؤولاً عما قدمت يداه ، ولكن السائل ، والحمد لله ، عادل لا يظلم أحداً ، ويعامل كل واحد بما عامل الناس في حياته الأولى ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

واختلف القائلون بالحشر : هل يحشر الانسان بروحه فقط ، أو بروحه وجسمه معاً ، وظاهر قوله تعالى : (كما خلقناكم أول مرة) يدل على الحشر روحاً وجسماً ، لأنه خلق بهما معاً : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين ١٠٤ الأنبياء » .

(وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) . يعود الانسان الى الأرض تاركاً الأهل والأصحاب ، والمال والسلطان . (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء) لله كالأصنام والكواكب وغيرها مما كنتم تعبدون وتوالون من أهل الفساد والضلال . (لقد تقطع بينكم) ، أي لم تبق لكم أية صلة بشيء من أشياء الدنيا (وضل عنكم ما كنتم تزعمون) من الدعاوى الكاذبة للذين توهمتم انهم شركاء أو شفعاء عنده ، وخاب أملكم بعد أن تكشفت لكم الحقيقة .. والسعيد من فاز برضوان الله ومغفرته .

يخرج الحي من الميت الآية ٩٥ - ٩٩ :

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذٰلِكُمُ اللهُ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ★ فَالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ★ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ

لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ★ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ★ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ★

اللغة :

فلقه فَلْقاً ، وفرقه فَرْقاً ، وفتقه فَتْقاً بمعنى واحد ، أي شقه شقاً . والإصباح مصدر سمي به الصبح ، ومعنى فلقه أخرجه من الظلمات . والسكَن المسكون فيه كالبيت مأخوذ من السكون ضد الحركة . والحسبان بضم الحاء لعد الأشياء والأوقات . والمستقر موضع القرار ، والمستودع موضع الوديعة . ومتراكب أي بعضه فوق بعض مأخوذ من الركوب كتراكب حبوب القمح والشعير في سنابلها ، وحبوب الرمان والصنوبر في ثمارهما . والطلع أول ما يخرج من النخلة في اكمامه . وقنوان جمع قنو ، وهو العنقود من الثمر . ودانية قريبة سهلة التناول . والمشتبه والمتشابه بمعنى واحد ، وهو ان بعض النبات يشبه بعضاً في اللون والطعم والصورة ، ومنه ما ليس كذلك . والينع النضج ، يقال : أينعت الثمرة إذا أدركت ونضجت .

الاعراب :

الشمس مفعول أول لفعل محذوف ، وحسباناً مفعول ثان ، أي وجعل الشمس والقمر حسباناً ، ومستقر مبتدأ والخبر محذوف،أي فنها مستقّر ، ومثله ومستودع. وضمير (منـــه) الأولى يعود الى النبات ، وضمير (منه) الثانية الى الخضر . ومتراكباً صفة للحب . ومن النخل متعلق بمحذوف خبراً لقنوان . ومن طلعهـا بدل من النخل بإعادة الخافض . ودانية صفة لقنوان . وجنات منصوبة عطفاً على نبات كل شيء ، أي وأخرجنا جنات من أعناب . ومن أعناب متعلق بمحذوف صفة لجنات . والزيتون والرمـــان عطف على نبات ، أي وأخرجنا بـــه الزيتون والرمان . ومشتبهاً حال من كل ما تقدم من النبات .

المعنى :

في هذه الآيات أمثلة من عجائب الخلق التي لا يملك صنعها إلا الله وحده ، ولا تنفك عن الدلالة على وجود الله وعظمته ، وجاء ذكر الأمثلة على الترتيب التالي :

١ ـ (ان الله فالق الحب والنوى) . إذا وضعت حبة من الحنطـــة ، أو نواة من نوى التمر في الأرض ـ مثـــلاً ـ انفلقت كل من الحبة والنواة من أسفلها وأعلاها ، وخرج من الشق الأسفل عروق تهبط في الأرض ، ومن الشق الأعلى شجرة تمتد في الهواء ، ثم تذهب الحبة والنواة ، ويصير المجموع جسماً واحداً ، بعضه في الأرض وبعضه في الهواء ، وليس من شك ان هـذه العملية تستند مباشرة إلى أسبابها الطبيعية ، كالتربة والماء ، والشمس والهواء ، ولكنها تنتهي الى الله وحده ، لأنه خالق الطبيعة ، ومسبب الأسباب ، وموجـد المادة الأولى بكلمة « كن فيكون » .

من أين جاءت الحياة ؟

(يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلـكم الله فأنى تؤفكون) .

لا غرابة أن يتولد من الكائن الحي حي مثله ، وأن ينفصل من الجماد جماد ، وإنما العجب أن يتولد الجماد من الحي ، وبالعكس . وقال قائل : إن الحياة تتولد من القوى الطبيعية .

ونسأل هذا القائل ، ومن الذي أوجد الطبيعة وقواها وتفاعلها ؟ واذا كان مجرد التفاعل كافياً وافياً لايجاد الحياة ، دون أن تتدخل العناية الإلهية،فلماذا عجز علماء الطبيعة أن يصنعوا الحياة في معاملهم ، كما يصنعون أدوات المطبخ وما اليها مع انهم قد حاولوا وأوجدوا ألف تفاعل وتفاعل ، وبعد اليأس أعلنوا ان صنع الحياة أصعب منالاً من رجوع الشيخ إلى صباه وطفولته .

ولنسلم جدلاً انهم ينجحون في خلق خلية حية ، فهل ينجحون في صنع حشرة تعمل بنظام كما تعمل أتفه الحشرات ؟ ولندع الانسان ودماغ الانسان ، والحيوان وعجائبه في خلقه ، ونضرب أمثلة من الحشرات التي ننفر منها،ونستعمل المبيدات لها .. يقول المتخصصون بدراسة الحشرات :

« إن بعضها يعيش في درجة ٥٠ مئوية تحت الصفر ، وبعضها يعيش هذه الدرجة فوق الصفر ، وبعضها يعيش في الهواء السام ، وبعضها في آبار البترول، ولها نظم متقنة في حياتها وأعمالها ، وإذا اخترع الانسان الصواريخ والأقمار الصناعية والعقول الألكترونية فمن المؤكد انه لا يستطيع أن يصنع في المعمل جناح بعوضة ، ولا خلية من جناحها ، فالعقل الانساني عظيم ، ولكن عظمته تصبح عجزاً مطلقاً أمام القدرة الهائلة التي خلقت بعوضة أو نملة أو نحلة !! وكل هذه بديهيات .. ولكن المصيبة الكبرى اننا ننسى فلا ننظر إلى ما في أعماقنا ، إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية الحكيمة ، فاذا نظرنا ازددنا ايماناً بما هو أكبر ، ومن هو أكبر ، وكل ما نحتاج اليه هو الايمان ، وكل ما يحتاج اليه ايماننا هو العقل ، لأن الايمان بغير عقل كالوجه بلا عينين » .

أجل،نحن بحاجة إلى الايمان بقدرة الله لنفسر بها ما تعجز عن تفسيره عقول العباقرة .. وقد اعترفت هذه العقول بالعجز عن تفسير الحياة بالطبيعة ، والتجأ الكثيرون من أربابها إلى ما وراء الطبيعة ، إلى قدرة حكيمة عليمة يفسرون بها أصل الحياة (ذلكم الله فأنى تؤفكون) . قال اينشتين : « ان بصيرتنا الدينية

هي المنبع الموجه لبصيرتنا العلمية » . وعلّق الأستاذ توفيق الحكيم على هذا في كتابه « فن الأدب » بقوله : « هذا الاعتراف ولا شك كسب للدين ، فما من أحد فيما مضى – أي منذ قرن من الزمان – يتصور العلماء يقولون عن الدين مثل هذا القول » .

ونعلق نحن على قول الحكيم بأن السر الوحيد لاعتراف علماء القرن العشرين من أمثال اينشتين بأن البصيرة الدينية هي الأصل والمنبع للبصيرة العلمية، ان السر لهذا الاعتراف هو تقدم العلم في هذا القرن ، وتأخره فيما مضى ، وكلما تقدم العلم اكتسب الدين أنصاراً من أمثال اينشتين يعترفون بعظمته، ويؤمنون بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم) . ذكر سبحانه في الآية المتقدمة مثالاً على عظمته بوجود الحياة على الأرض ، وذكر في هذه الآية ثلاثة أمثلة سماوية : الأول انه تعالى أخرج الصبح من الليل ، وهو كناية عن وجود النهار الذي يسعى فيه الانسان لرزقه وتدبير شؤونه . الثاني انه تعالى أوجد الليل الذي يسكن فيه ، ويستريح من العمل بالنهار . الثالث انه سبحانه أوجد الشمس والقمر بمقدار مخصوص من السرعة والبطء بحيث يكون للأرض حركتان : حركة تتم في ٢٤ ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم في سنة ، وبها توجد الفصول الأربعة ، وعليها مدار حساب السنة ، قال تعالى : « هو الذي خلق الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب – ٥ يونس » .

وتسأل : على هذا يكون وجود الليل والنهار نتيجة لدوران الأرض ، فما هو الوجه لاسنادها إلى الله ؟.

الجواب : لأنه هو خالق السموات والأرض ، واليه تنتهي الأسباب بكاملها، وعلى أية حال ، فان المقصود الأول من كل ما جاء في هذه الآيات انه لا شيء من أشياء الكون قد وجد صدفة وجزافاً ، وإنما صدر عن عليم حكيم أعطى كل شيء خلقه ، وقدره تقديراً (ذلك تقدير العزيز العليم) .

٤ – (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد

فصلنا الآيات لقوم يعلمون) . النجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات، كما يدل عليه سياق الكلام ، وفي كتاب : القرآن والعلم الحديث ، يقول حجة الفلك في العالم السير جيمس جينز : انه إذا أردنا أن نعرف مكان بيت في المدينة فاننا نسأل عن اسم الشارع الذي يحتويه ، ثم رقمه ، فيقال رقم كذا بشارع كذا ، وكذلك الحال في النجوم ، فإن منها ما هو معروف بأسماء خاصة.. وهي أهم علامات يهتدي بها الملاح في سفينته ، والراكب في سيارته ، والمرتحل على دابته ، وكم قوافل في البحر سارت على خريطة السماء ومواقع النجوم عندما تعطلت البوصلة » .

٥ - (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . والنفس التي نشأ الكل منها هي الانسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس ، وهو آدم ، وتكلمنا على ذلك مفصلاً عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء . وذكر الرازي لتفسير قوله تعالى: فمستقر ومستودع ستة أقوال: وأكثر المفسرين على ان المستقر هو استقرار النطفة في أصلاب الذكور، والمستودع جعلها في أرحام الأناث .. وليس في الآية ما يدل على هذا المعنى ، ولا على واحد من بقية المعاني التي نقلها الرازي .

ورُوي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قسّم المؤمن الى قسمين : مؤمن إيماناً صادقاً مستقراً حتى الموت ، وهو الذي تتفق أقواله مع أفعاله ، ومؤمن إيماناً متزلزلاً ومستودعاً يفارقه قبل الموت ، وهو الذي تخالف أقواله أفعاله (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) . ومن لا يفقه ويفهم هذه الدلائل الكونية على عظمة الخالق المبدع فهو من الذين عناهم الله بقوله : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) .

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) . المطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة ، وأسند سبحانه انزال الماء اليه لأنه مسبب الأسباب ، منه تبتدىء ، واليه تنتهي مهما امتدت حلقاتها (فأخرجنا منه خضراً) ضمير منه يعود الى النبات ، والمراد بالخضر الغض والطراوة ، أي تتشعب من النبات أغصان غضة طرية .

وقيل الخضر هنا بمعنى الأخضر (نخرج منه حباً متراكباً) ضمير منه يعود الى الخضر ، أي يخرج من الأغصان سنابل كسنابل القمح ونحوها كثمر الرمان الذي يركب بعض حبوبه بعضاً (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) طلعها بدل اشتمال من النخل بإعادة حرف الجر ، أي ونخرج من طلع النخل قنواناً.والقنوان جمع قنو بالكسر ، وهو من النخل كالعنقود من العنب ، ودانية سهلة التناول، أو ان بعضها قريب من بعض لكثرتها .

(وجنات من أعناب والزيتون والرمان) . أي ونخرج من النبات هذه الأصناف الثلاثة، وذكرها سبحانه على سبيل المثال ، ومنها تعرف البواقي (مشتبهاً وغير متشابه) ان من النبات والشجر ما يشبه بعضه بعضاً في الشكل والطعم ، ومنه ما لا يشبه بعضه بعضاً فيهما (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه). أي اعتبروا كيف يخرج الثمر أول ما يخرج صغيراً لا ينتفع به ، ثم ينتقل من حال إلى حال ، حتى يبلغ النضوج ، فيصير لذيذاً نافعاً (ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون).ليس المراد بقوم يؤمنون المؤمنون بالفعل فقط ،بل والذين يستجيبون لدعوة الايمان، وينتفعون بالدلائل والبينات ، أما أصحاب القلوب المغلقة فيمرون بها مرور البهائم والسوائم .

والخلاصة ان المقصود الأول من هذه الأمثلة الأرضية والسماوية هو التنبه إلى أن أشياء هذا الكون ، وما فيها من ابداع وتدبير محال أن تأتي صدفة و « فلتة » في نظر الفطرة والعقل،فهما يحكمان حكماً قاطعاً بأن كل ما في الوجود قد صدر عن ارادة وتصميم ، ولحكمة بالغة يعرفها العالم والجاهل ولا شيء أدل على بطلان الصدفة،كمبدأ،من تكرار الحادثة الواحدة كلما تكرر سببها .

وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ - ١٠٧ :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ★ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ

لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ★ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ★ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ★ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ★ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ★ إِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ★ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ★

اللغة :

خرقوا له بنين أي ابتدعوا له كذباً . وبديع السموات والأرض خالقها على غير مثال سابق . والوكيل الحافظ . والادراك اللحاق والوصول ، يقال : أدرك الغلام إذا بلغ ولحق الرجال ، وأدركته ببصري لحقه بصري . وبصائر جمع بصيرة ، ولها عدة معان ، والمراد بها هنا البينة والحجة التي يبصر بها الشيء على ما هو عليه . ونصرّف الآيات نأتي بها بأساليب شتى . ودرست أي قرأت وتعلمت .

الاعراب :

شركاء مفعول أول لجعلوا والجن مفعول ثان . وبغير علم متعلق بمحذوف حالاً من الواو في خرقوا . وبديع السموات خبر لمبتدأ محذوف أي هو بديع

السموات . وأنى بمعنى كيف، وهي في محل نصب حالاً من ولد ، ويكون تامة والفاعل ولد . وذلك مبتدأ والله بدل وربكم خبر ، وجملة لا إله إلا هو خبر ثان ، وخالق كل شيء خبر ثالث . وفلنفسه متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، أي فإبصاره كائن لنفسه ، ومثله فعليها أي فعماه كائن عليها . وكذلك الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف،أي نصرّف الآيات تصريفاً مثل ذلك . وليقولوا : اللام للعاقبة أي ان أمرهم يصير الى هذا القول . ولنبينه اللام للتعليل ، وان مضمرة بعدها والمصدر المنسبك معطوف على المصدر المنسبك من ليقولوا أي للقول وللبيان .

المعنى :

(وجعلوا لله شركاء الجن) . المشركون على أنواع،منهم من جعل الأصنام آلهة مع الله ، وآخرون أشركوا معه الكواكب ، ومنهم من عبد ابليس ، ومنهم من ألّه الظلمة ، وفريق جعلوا الجن شركاء لله ، والله سبحانه أخبر عن وجود الجن ، كما أخبر عن وجود الملائكة ، وانه خلقهم من مارج من نار ، وفي الآية التي نحن بصددها أخبر الله سبحانه عن الفريق الذين جعلوا الجن شركاء له جل ثناؤه ، ولكنه لم يبين نوع هذا الجن المعبود للمشركين : هل هو جن الوهم والخيال ، أو غيرهم ، ولأجل هذا اختلف المفسرون ، فمنهم من قال : انه ابليس . وقال آخر : هو الظلمة،إلى غير ذلك مما لا يستند إلى أساس من علم .

وأياً كان ، فان الله قد رد على هؤلاء المشركين بكلمة واحدة هي : (وخلقهم) . وضمير خلقهم عائد الى الجن لأنه أقرب ، ويجوز الى المشركين واليهما معاً ، لأن الله خالق الجن والانس ، والمعنى كيف يكون لله شركاء ، وهو خالق كل شيء .

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) . خرقوا أي اختلقوا وابتدعوا كذباً وافتراء .. قال مشركو العرب : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : عزير ابن الله . وقالت النصارى : المسيح ابن الله . وكل هذه الأقوال رجم بالغيب،

وزعم بلا علم (سبحانه وتعالى عما يصفون) من المستحيلات عليه .

(بديع السموات والأرض) . أي خالقها على غير مثال سابق (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) ، من جنسه ، ولا من غير جنسه ، لأنه ليس كمثله شيء ، وهو الغني عن كل شيء ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء (وخلق كل شيء) . والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق (وهو بكل شيء عليم) ومع هذا لا يعلم بأن له ولداً ، ولو كان لعلم به ، فعدم العلم بالشيء لا يدل على عدم وجوده واقعاً بالنسبة الى غير الله ، أما بالنسبة اليه تعالى فان علمه لا ينفك عن وجود المعلوم .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) . الخطاب موجه للمشركين ، والمعنى ان الله استجمع صفات الوحدانية ، وخلق الكون بما فيه ، وتدبير الأمور كلها فهو جدير بأن تفردوه بالعبادة ، ولا تشركوا معه أحداً من الانداد ، ولا تنسبوا له الصاحبة والأولاد .

(لا تدركه الأبصار) . تكلمنا عن رؤية الله مفصلاً عند تفسير الآية ٥٥ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٧ (وهو يدرك الأبصار) وغيرها ، لأنه بكل شيء محيط (وهو اللطيف الخبير). لطيف بعباده ، خبير بأعمالهم ومقاصدهم .

(قد جاءكم بصائر من ربكم) . المراد بالبصائر هنا الدلائل والبينات على وجود الله ووحدانيته ، ومنها ما سبق ذكره تعالى فالق الحب والنوى ، وخالق الليل والنهار ، والناس من نفس واحدة ، ومنزل الماء الذي أحيا كل شيء .. واطلاق البصائر على الدلائل من باب اطلاق المسبب على السبب ، لأن البصائر جمع بصيرة : وهي الادراك الحاصل بالقلب ، وهذا الادراك ينشأ من الأدلة والبراهين .

(فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) . بعد أن أقام الدليل القاطع على الحق قال : من اتبعه فإلى نفسه أحسن : ومن خالفه فإليها أساء : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها – ٧ الاسراء » . (وما أنا عليكم بحفيظ) بل بشير ونذير ، والله وحده هو الوكيل والرقيب .

(وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه للناس) . كان العرب

في الجاهلية أمة أمية ، لا شيء عندهم من العلم ، ولما استمعوا الى القرآن ، ورأوا فيه من فنون البيان ، وأنواع الأدلة والبراهين الدامغة لهم ولما يقدسون ، ومع ذلك رفضوا الايمان والهداية ، لما كانت هذه حالهم لجأوا الى التعليلات الكاذبة ، وقالوا : يا محمد هذا القرآن الذي جئتنا به قد درسته وتعلمته من غيرك ، وليس هو وحياً من الله .

وبهذا التمهيد يتبين معنا ان قوله تعالى : (وكذلك نصرف الآيات) معناه لقد أنزلنا في القرآن ألواناً من الدلائل والبينات بقصد أن يهتدي بها المشركون ، ويرجعوا عن غيهم ، فكانت عاقبة ذلك ان قالوا للنبي : انك درست هذه الآيات وتعلمتها من غيرك ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ليقولوا درست) . أما قوله : (ولنبينه لقوم يعلمون) فمعناه اننا صرفنا الآيات في القرآن لينتفع بها الذين يعلمون معانيها ، فتقودهم الى الايمان بالحق، أما أهل الجهالة والضلالة فلا رجاء بهدايتهم ، وغاية الأمر ان هذه الآيات تقطع معذرتهم ، وتكون حجة عليهم .

(اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين) . هذا أمر من الله لنبيه الأكرم أن ينذر ويبشر بالقرآن ، ويداوم على ذلك ، ولا يبالي بجحود المشركين وتكذيبهم واستهزائهم .. وغريبٌ قولُ من قال : ان هذه الآية منسوخة بآية القتال ، ان هذا القول غريب لأن الله سبحانه لم يأمر النبي (ص) بترك قتال المشركين في هذه الآية كي يقال : انها منسوخة بالآية الآمرة بقتالهم ، وانما أمره بمتابعة الدعوة الى الحق ، وعدم المبالاة بتكذيب المشركين .. وبديهة ان الأمر بمتابعة الدعوة مع عدم المبالاة شيء، والأمر بالقتال شيء آخر .. وأول شرط للنسخ أن يتحد الموضوع .

(ولو شاء الله ما أشركوا) . أي انه تعالى لم يرد إلجاءهم الى الايمان ، وقهرهم على ترك الشرك بكلمة « كن فيكون » الذي خلق بها الكون ، ولو أراد ايمانهم بارادته التكوينية هذه ما أشركوا . أنظر تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، فقرة « التكوين والتشريع » ج ١ ص ٧٢ . (وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل) . الجملة الأولى والثانية بمعنى واحد ، أو متقاربتان في

المعنى ، ولا نفهم أي غرض من ذلك سوى التأكيد ، بل وهذا التأكيد تأكيد أيضاً لقوله تعالى : (واعرض عن المشركين) لأنه لو كان وكيلاً وحفيظاً عليهم لما جاز الاعراض عنهم : « ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم ـ ٢٥ الغاشية » .

لا تسبوا الآية ١٠٨ ـ ١١٠ :

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ★ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ★

اللغة :

عدواً أي ظلماً وعدواناً . والجهد بفتح الجيم المشقة ، والمراد به المبالغة ، وبضمها الطاقة . والعمه التردد والحيرة .

الإعراب :

عدواً مفعول من أجله ليسبوا . والكاف من كذلك بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف ، أي زينا لكل أمة مثل ما زينا لهؤلاء . وجهد مفعول مطلق لاقسموا

لأنه مضاف الى الايمان ، وهي بمعنى القسم . وما يشعركم (ما) استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ويشعركم خبر . وأول مرة ظرف زمان متعلق بلم يؤمنوا به .

المعنى :

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) . قالوا: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيجيبهم الكفار بسب الله جل ثناؤه، وهذا القول ليس ببعيد ، فكثيراً ما يقع ذلك بين المختلفين في الدين ، ولفظ الآية لا يأباه،بل رُوي عن الإمام جعفر الصادق (ع) : انه سئل عن قول النبي (ص) : ان الشرك أخفى من دبيب النمل على صفوانة سوداء في ليلة ظلماء ؟. قال: كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله ، فكان المشركون يسبون من يعبد المؤمنون ، فنهى المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين، فكأنّ المؤمنين قد اشركوا من حيث لا يعلمون.. وقوله تعالى : بغير علم . اشارة إلى جهالة المشركين وسفاهتهم .. وفي الآية دلالة واضحة على ان ما كان ضره أكثر من نفعه فهو محرم ، وان الله لا يطاع من حيث يعصى .

(كذلك زينا لكل أمـــة عملهم) . المعنى الظاهر من هذه الجملة ان الله سبحانه كما زين للمسلمين أعمالهم كذلك زين لغيرهم أعمالهم ، حتى المشركين.. وليس من شك ان هذا المعنى غير مراد ، لأن الشيطان هو الذي يزين للمشركين والعاصين الشرك والعصيان بنص الآية ٤٣ من الأنعام : « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » . بالاضافة إلى أن الله سبحانه لا يأمر عبده بالكفر ويزينه اليه، ثم يعاقبه عليـــه ، بل العكس هو الصحيح ، قال تعالى : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبـــكم وكرّه اليـــكم الكفـــر والفسوق والعصيان — ٧ الحجرات » .

ومن أجل هذا نرجح حمل الآية على ان الله خلق الانسان على حال يستحسن معها ما يأتيه من أعمال ، ويجري عليه من عادات ، ووهبه عقلاً يميز به بـين الأعمال الحسنة والقبيحة ، ولو خلقه على حال يستقبح معها جميع أعماله لما عمل

شيئاً .. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : (زينا لكل أمة عملهم تماماً كمعنى قوله : (كل حزب بما لديهم فرحون – ٥٣ المؤمنون » . وقولنا : كل انسان راض عن عمله .

(ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) . اذن ، فليدع المؤمنون سب آلهة المشركين ما دام الله سيعاقبهم عليه .

وتسأل : ان من سب الله أو رسوله يجب قتله ، وهذه الآية تشعر بأن أمره متروك الى حسابه وعذابه يوم القيامة ؟.

الجواب : ان هذه الآية نزلت بمكة يوم كان المسلمون ضعافاً لم يؤذن لهم بقتال ، لأن القتال كان آنذاك بالنسبة اليهم أشبه بعملية الانتحار ، أما مع قوة الاسلام وسلطانه فيجب تنفيذ حكم الاعدام بالساب ، ولا يجوز وقفه وتعطيله .

(واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) . أيّد الله سبحانه رسوله محمداً (ص) بالأدلة الكافية على نبوته بما لا يدع مجالاً للشك عند من يطلب الحق لوجه الحق، ولكن مشركي قريش اقترحوا على محمد (ص) معجزات خاصة ، وجعلوها شرطاً لإيمانهم به ، وأقسموا أغلظ الإيمان أن يصدقوا محمداً إذا استجاب لاقتراحهم ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : (انما الآيات عند الله). ينزل منها ما تقوم به الحجة على الجميع ، وما زاد فينزله أو يمنعه بحكمته وقضائه .. وتمنى المؤمنون ان يستجيب الله لطلب الكافرين رغبة منهم في سلمهم وايمانهم ، فخاطب الله المؤمنين بقوله : (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) أي من أين علمتم ان الله سبحانه اذا أنزل الآية المقترحة يترك الكافرون كفرهم وعنادهم ؟ وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣٤ – ٣٧ من هذه السورة ، وفي ج ١ ص ١٨٩ .

(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) . نقلب أفئدتهم وأبصارهم كناية عن علم الله تعالى بحقيقتهم ، وضمير به يعود الى محمد أو الى القرآن ، والمعنى ان الله يعلم بأن المشركين لا يؤمنون بعد نزول الآية التي اقترحوها ، وانهم يبقون مصرين على ضلالهم الأول الذي كانوا عليه قبل نزول

الآية المقترحة .. انهم طلاب باطل وضلال ، وليسوا طلاب حق وهداية .

(ونذرهم في طغيانهم يعمهون) . أي بعد أن أصروا على الضلال رغم إقامة الحجة عليهم ندعهم وشأنهم،حتى يأتي اليوم الذي يلاقون فيه جزاء عملهم، وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون – ٨٣ الزخرف » .

الجزء الثامن

وكلمهم الموتى الآية ١١١ – ١١٣ :

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ★ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ★ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ★

اللغة :

القبل بضم القاف والباء ، والمراد به هنا المواجهة والمعاينة ، وقيل : هو جمع قبيل بمعنى الجماعة والصنف أي حشرنا عليهم من كل صنف جماعة . والزخرف الزينة . يقال : زخرفه إذا زينه . والغرور الخداع بالباطل . واقترف المال اكتسبه ، والذنب اجترحه .

الإعراب :

قبلاً حال من كل شيء ، ولا يلتفت إلى قول النحاة : ان صاحب الحال يجب أن يكون معرفة ، لأن العبرة بصحة المعنى ، لا بالتعليلات النحوية . إلا ان يشاء الله المصدر المنسبك في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، أي ما كانوا ليؤمنوا إلا مع اكراه الله لهم على الايمان . وجعلنا متعدية إلى مفعولين : الأول عدواً ، والثاني لكل نبي ، وشياطين بدل من عدو ، وكلمة عدو تطلق على

المفرد والجمع والمثنى والمذكر والمؤنث . وغروراً مفعول من أجله ليوحي . والهاء في فعلوه عائد إلى زخرف القول . وما يفترون (ما) بمعنى الذي مفعولاً معه لذرهم . والمصدر المنسبك من لتصغى معطوف على غرور، ومثله لير ضوه وليقترفوا، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول للغرور بزخرف القول ، والاصغاء اليه والرضا به واقتراف ما هم مقترفون .

طراز من الناس :

(ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله) . قلنا في تفسير الآيات السابقة : ان جماعة من المشركين اقترحوا على النبي (ص) أن يأتيهم بآية معينة ، وان المؤمنين تمنوا لو استجاب الله الى طلبهم ، وان الله سبحانه أجاب المؤمنين بقوله : (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) وبعد هذه الاشارة أوضح جل ثناؤه لنبيه الأكرم بأن هؤلاء المشركين الذين اقترحوا عليك يا محمد ما اقترحوا من الخوارق لا يؤمنون بك بحال ، حتى ولو أنزلنا عليهم الملائكة من السماء ، وأحيينا الموتى وشهدوا لك جميعاً بلسان عربي مبين انك نبي مرسل ، بل لو شهد لك الكون بأرضه وسمائه ما صدقوك ولا اتبعوك (الا أن يشاء الله) أي يلجئهم إلى الايمان بك بالقوة والغلبة .

وتسأل : هل هذا الفرض صحيح ، وهذا الطراز من الناس يمكن أن يوجد – بحسب المعتاد – ؟ وكيف تُكذب فئة قليلة الكون بما فيه ؟ وهل من المتصور أن يكذّب الانسان سمعه وبصره ، فيرى الموتى تحيا وتقوم من قبورها الدارسة منذ آلاف السنين ، وهي تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويرى الملائكة تنزل من السماء أفواجاً ، تشهد لمحمد بالرسالة ، ويسمع الحيوانات والطيور والأسماك والأشجار والأحجار وجميع الكواكب تنادي بأعلى صوتها : أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، هل من المتصور أن يوجد انسان يكذّب بجميع هذه الخوارق والمعجزات ؟ ان هذا لشيء عجاب .

الجواب : إن هذا الفرض غير صحيح ، بل هو محال في حق الذين يتأثرون بالحق ودليله ، ويسيرون بوحي من منطق العقل وفطرة الله التي فطر الناس عليها لأن هذه الخوارق دلائل قاطعة لا تبقي مجالاً للريب ، أما هذا الفرض في حق الذين تسيطر على جميع مشاعرهم المصالح الخاصة ، ويرونها هي العقل والفطرة والحق والعدل ، أما هذا الفرض في حق هؤلاء فصحيح ، لأن هذا الطراز من الناس موجود بالفعل ، وهم المستعمرون والمحتكرون ، ومن اليهم من الذين يعيشون على السلب والفساد .

والذين يستبعدون هذا الفرض لم يتنبهوا إلى واقع هذه الفئة ، وخلطوا بين منطق العقل ، وبين الموجه الأول للمنتفعين والانتهازيين .. ان العقل من حيث هو ليس إلا مرشداً يأمر وينهى ، ولا يصغي اليه إلا من طلب الحق لوجه الحق ، أما الموجه والقائد للمنتفعين فهو النفع الشخصي ، وهو وحده الذي يقودهم في أعمالهم وسلوكهم ، وهو دينهم وعقلهم ، بل كيانهم وحياتهم ، ومن أجل هذا لا يجدي معهم أي منطق إلا منطق القوة الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (الا أن يشاء الله) .. (ولكن أكثرهم يجهلون) ولا ينتبهون إلى أنهم الفئة الباغية التي لا يجدي معها منطق العقل والفطرة ، ولا منطق الدين والانسانية ، ولا شيء إلا القهر والغلبة ، فمن الخطأ والضياع أن نخاطب هؤلاء بلغة العلم والانسانية .

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن). شيطان الإنس معروف، وهو كل من يغري الناس بالباطل ، ويلبسه ثوب الحق .. أما الجن فهو من غيب الله ، ونحن به من المؤمنين اجمالاً ، ومن حيث المبدأ،ولا تعنينا التفاصيل لأننا غير مسؤولين عنها ، تماماً كما هو الشأن في الملائكة ، ولا غرابة في عداء الأشرار للأنبياء السابقين واللاحقين ، لأنه من مظاهر العداء بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل .

وتسأل: إذا كان الله سبحانه هو الذي جعل للانبياء أعداء من الأشرار، كما يظهر من الآية ، فلماذا يعاقبهم على عدائهم للانبياء ؟ وأيضاً كيف أمر باتباع الأنبياء، ثم جعل لهم أعداء يقاومونهم ، ويغرون الناس بالكفر بهم وبرسالتهم ؟.

الجواب : ان الله سبحانه بعث الأنبياء ، وجعل مهمتهم الدعوة إلى التوحيد

والعدل ، ونبذ الظلم والوثنية ، وهذه المهمة بطبيعتها تستدعي التناقض والصراع بين الأنبياء وبين عبدة الأوثان والمستغلين ، فالله سبحانه سبب البعثة ، والبعثة سبب العداء ، وبهذا الاعتبار نسب العداء اليه مجازاً . جل ثناؤه . قال حكاية عن نوح : « رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً — ٥ نوح » . فالفرار يستند إلى دعوة نوح ، ودعوته تستند إلى أمر الله . وزيادة في التوضيح نضرب هذا المثال : رجل ترك ثروة لولده ، فسببت له عداوة الحساد ، فيقال مجازاً : خلق له والده حساداً .

(يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) . زخرف القول هو الكلام المموّه الكاذب ، ظاهره الرحمة ، وباطنه العذاب ، والمعنى ان الأشرار يوسوس بعضهم الى بعض بالباطل المموه بالحق بقصد الاغراء بعمل القبيح ، ومعاندة الحق وأهله (ولو شاء ربك ما فعلوه) ضمير فعلوه يعود الى عملهم القبيح ، أي عداوة الأنبياء ، وايحاء بعضهم الى بعض ، والمعنى ان الله لو أراد أن يمنعهم جبراً وقهراً عن القبيح ما كان منهم ذاك العداء ، ولا هذا الايحاء ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركهم وشأنهم ، وأن يكونوا مختارين غير مسيرين ، فيحاسبون على ما يفعلون ، ويعاقبون بما يستحقون (فذرهم وما يفترون) من الكذب ، فعليك البلاغ ، وعلينا الحساب والجزاء .

(ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي يوحي الأشرار بعضهم الى بعض زخرف القول ليستمع اليه الكفار (وليرضوه) بعد ان استمعوا اليه ، ويعملوا به بلا بحث وتمحيص . وهاء يرضوه تعود إلى ما عادت اليه هاء ما فعلوه . (وليقترفوا ما هم مقترفون) من المعاصي والآثام ، ويتميز المؤمن عن الكافر ، والمخلص عن المنافق .

والخلاصة ان الأبالسة الأشرار يزخرفون القول ليخدعوا به ضعاف النفوس ، ويميلوا اليه ، ويقترفوا الذنوب ، قال أبو حيان الأندلسي : هذا الكلام في غاية البلاغة ، لأنه أولاً يكون الخداع ، فيكون الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، وكأن كل واحد مسبب عما قبله .

أفغير الله أبتغي حكماً الآية ١١٤ – ١١٧ :

أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ★ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ★ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ★ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ★

اللغة :

الممترين المترددين الشاكين . والمراد بكلمة ربك هنا القرآن أو الاسلام . والخرص بفتح الخاء الكذب ، يقال : تخرص واخترص أي افترى وكذب ، والخراص الكذاب .

الاعراب :

غير مفعول أول لأبتغي ، وحكماً مفعول ثان ، لأن معنى أبتغي اتخذ،وهي تتعدى الى مفعولين . وصدقاً وعدلاً مفعول من أجله لتمت . واعلم من يضل (من) في محل نصب بنزع الخافض ، أي اعلم بمن يضل واعلم بالمهتدين ، ويجوز أن يكون أعلم بمعنى يعلم ؛ ومن مفعول : بل هو الأرجح عندنا .

المعنى :

(أفغير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً) . الحكم بفتح الحاء والكاف هو الحاكم الذي يحكم ويفصل بين الناس ، وتتصل هذه الآية بالصراع والعداء بين النبي والمشركين الذين اقترحوا عليه الخوارق ، والمعنى ان النبي (ص) قال للمشركين انكم تتحكمون في طلب المعجزات ، وتقترحون علي الاقتراحات، وليس لي أن أتعدى حكم الله ، وقد أنزل عليكم القرآن كافياً وافياً بما تحتاجون من معرفة الحق والحلال والحرام ، مغنياً عن غيره بعبادته وتعاليمه، مثبتاً لصدقه بأسلوبه المعجز ، وشريعته الخالدة ، وأخباره عن كثير من المغيبات ، فطلبكم المزيد ، والحال هذه ، إن هو إلا عناد ومكابرة .

(والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) . أي ان المنصفين من علماء اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين بصدق القرآن ونبوة محمد(ص). ومر نظيره في الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٣ (فلا تكونن من الممترين) معنى الامتراء الشك ، وقال كثير من المفسرين : الخطاب للنبي ، والمراد به غيره على طريق التعريض ، أما نحن فنرى ان الخطاب للنبي ، وهو المراد دون غيره ، مع علمنا بأن النبي لا يشك في القرآن ، بل ومحال عليه أن يشك ، وصح توجه الخطاب اليه على عصمته لأنه من الأعلى الى من هو دونه، من الله لا من سواه . وتقدم ذلك أكثر من مرة .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . المراد بكلمة الله هنا القرآن أو الإسلام الذي أظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون ، وهذا هو المراد بتمامه ، أما معنى (صدقاً وعدلاً) فهو ان القرآن صادق في كل ما قال ، عادل في كل ما حكم وشرع (لا مبدل لكلماته) لأنها صدق وعدل، وكل ما هو صدق وعدل فهو من صلب الواقع ، ولا شيء يقال له صدق وحق وعدل اذا لم يكن له أساس واقعي ، وهذا الأساس لا يتغير ولا يتبدل ، أي لا تنفك عنه الآثار والنتائج المترتبة عليه (وهو السميع) لما يقولون (العليم) بما يفعلون ويضمرون .

(وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن

وان هم الا يخرصون) . كل من دان بدين فانه يؤمن بصدقه ايماناً مطلقاً ، ويتعصب له تعصباً أعمى ، وكل من رأى رأياً فانه يعتقـد بصوابه ، وبأن ما عداه وهم وخيال ، وإذا أحصينا جميع الآراء والمعتقدات ، وقسناها بمقياس الله وميزانه جاءت النتيجة ان أكثر الناس يتبعون الظن الخاطىء، والحدس الكاذب .. ومن أجل هذا أمر الله نبيه ان لا يستمع إلى الناس ولا يقرهـم على عاداتهم وتقاليدهم ، وان عليه أن يتبع ما أوحاه الله اليه، لأنه هو طريق الحق والهداية .

وإذا كان أكثر الناس على خطأ فيما يرون ويدينون فلا وزن - اذن - لأقوالهم وأحكامهم على هذا بالهداية ، وذاك بالضلال ، وانما الحكم في ذلك لله وحده ، أي لما بينه من الأصول والضوابط في كتابه الحكيم ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ان ربك أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . ومن تلك الأصول الإلهية التي يتميز بها المحقون عن المبطلين قوله تعـالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين - ٣٣ فصلت » .

التسمية على الذبيحة ١١٨ - ١٢١ :

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ★ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ★ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ★ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ★

الإعراب :

ما لكم (ما) استفهام مبتدأ . ولكم متعلق بمحذوف خبر المبتدأ . والمصدر المنسبك من ألا تأكلوا مجرور بفي محذوفة ، والمجرور متعلق بما تعلق به لكم . وقد فصل الجملة حال من اسم الجلالة . وإلا ما اضطررتم (ما) في محل نصب بالاستثناء من (ما حرم عليكم) . وانكم لمشركون على حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط أي وان أطعتموهم فانكم لمشركون .

المعنى :

(فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم بآياته مؤمنين) . كان العرب في الجاهلية يأكلون الميتة ، ويذكرون على ذبائحهم أسماء ما يعبدون من الأصنام ، فحرم الله ذلك على المسلمين ، وأباح لهم أكل الذبائح ، شريطة أن يذكروا عليها اسم الله لا اسم سواه .

وتسأل : ان جواز الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها غير منوط بالإيمان بالله وآياته ، اذ يجوز للكافر أن يأكل منها ، كما ان الايمان بالله غير منوط بالأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، حيث يكون المؤمن مؤمناً وان لم يأكل منها .. وظاهر الآية يُشعر بأن الإيمان شرط لحلية الأكل من هذه الذبيحة ، لأن معناها كلوا منها إن كنتم مؤمنين .

الجواب : ان قوله تعالى : ان كنتم بآياته مؤمنين ليس شرطاً لحلية الأكل من الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها ، وإنما هو اشارة الى ان من يذكر اسم غير الله على الذبيحة فقد جعل لله شريكاً ، لأنه توجه في عمله هذا الى غير الله، كما كان يفعل مشركو العرب ، وان من ذكر اسم الله على الذبيحة فقد آمن بالله ونفى عنه الشريك ، لأنه توجه اليه وحده .

(وما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) . يظهر من هذا ان بعض المسلمين قد امتنع عن أكل الذبيحة التي ذكر اسم الله عليها لشبهة دخلت عليه، وهي كيف يجوز للانسان أن يذبح الحيوان بيده ويذكر اسم الله عليه ثم يأكل

منه ، ولا يجوز له أن يأكل من الحيوان الذي أماته الله حتف أنفه ! فأنكر الله ذلك على هؤلاء ، وقال : (ما لكم الا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) . يشير تعالى بقوله : وقد فصل لكم الخ ، يشير الى الآية رقم ١٤٥ من هذه السورة ، ويأتي الكلام عنها ، وإلى الآية ١٧٣ من سورة البقرة ، وتكلمنا في تفسيرها عن المحرمات، وعن حكم المضطر ج ١ ص ٢٦٤ .

(وان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) . أي يحللون ويحرمون من غير دليل ، ووفقاً لشهواتهم ، من ذلك ان مشركي العرب حللوا أكل الميتة وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام،وسبق الكلام عن ذلك في الآية ٣ من سورة المائدة (ان ربك أعلم بالمعتدين) الذين يحللون ويحرمون بأهوائهم وشهواتهم ، وانه سيعاقبهم بما يستحقون .

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه) . المراد بالإثم فعل الحرام الموجب له.وظاهره ارتكاب المعصية علانية ، وباطنه ارتكابها سراً ، وقد نهى سبحانه عن اقتراف جميع المعاصي ما ظهر منها ، وما بطن (ان الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) من اتباع الأهواء بغير علم ، ولا يتركون سدى من غير حساب وعقاب .

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) . ضمير انه يعود إلى الأكل ، وهو مصدر متصيد من لا تأكلوا ، والفسق المعصية .. بعد أن أحل سبحانه ما ذبح على اسمه تعالى حرم ما لم يذكر اسمه عليه . واستناداً إلى ذلك أجمع الفقهاء ، ما عدا الشافعية على ان الذابح إذا ترك التسمية عامداً حرمت الذبيحة ، تماماً كالميتة .. ويكفي مجرد اسم الله ، مثل : الله . الله أكبر . الحمد لله . بسم الله . لا إله إلا الله ، ونحو ذلك . واختلفوا إذا تركت التسمية سهواً . قال الحنفية والجعفرية والحنابلة : لا تحرم الذبيحة . وقال المالكية : تحرم . وقال الشافعية : لو ترك التسمية عمداً لا تحرم الذبيحة ، فبالأولى لو تركها سهواً .

(وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) . المراد بالشياطين هنا أبالسة

الأنس الذين يموهون الحقائق ، ويزخرفون الأقوال، يخدعون بها السذج البسطاء :. من ذلك ان بعض المشركين وأبالستهم كانوا يقولون لأتباعهم : اسألوا أصحاب محمد (ص) كيف تأكلون الحيوان الذي قتلتموه وذبحتموه بأيديكم ، ولا تأكلون الحيوان الذي قتله الله وأماته حتف أنفه ، مع ان قتيل الله أولى بالأكل من قتيلكم ؟ هذه هي مجادلتهم التي أوحى بها الشياطين لأوليائهم بقصد أن يلقوا الشبهة في قلوب ضعاف المسلمين ، ويفتنوهم عن دينهم .

فقال سبحانه لهؤلاء الضعاف من المسلمين : (وان أطعتموهم انكم لمشركون). أي من استمع إلى المشركين ، وأحل أكل الميتة كما أحلوها فهو مشرك مثلهم . وهذا الحكم لا يختص بأكل لحم الميتة ، فكل من جحد حكماً شرعياً، عالماً بثبوته فهو كافر .

أو من كان ميتاً الآية ١٢٢ – ١٢٤ :

أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ★ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اَللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ★

اللغة :

القرية المكان الذي يجتمع فيه الناس قلّوا أو كثروا ، ولكن كثر استعمالها في البلد الصغير فتغلبت عليه . والصغار بفتح الصاد للذل والهوان .

الإعراب :

أو من (من) بمعنى الذي مبتدأ ، وخبره كمن . ومثله مبتدأ وخبره في الظلمات ، والجملة صلة كمن . ليس بخارج منها الجملة حال من الضمير في مثله. وأكابر مفعول أول لجعلنا . وفي كل قرية متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، ومجرميها مجرور باضافة أكابر . الله أعلم حيث يجعل رسالته (أعلم) هنا بمعنى يعلم ، لأن التفاضل بين الله وغيره محال ، ومعنى حيث موضع الرسالة ، أي محمد (ص) ، وعليه تكون حيث في محل نصب مفعولاً به لأعلم . والمعنى ان الله يعلم ان محمداً أهل لرسالته .

المعنى :

(أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) . هذا مثل ضربه الله تعالى للمقارنة بين المؤمن والكافر ، وتوضيحه ان المقارنة بينهما تماماً كالمقارنة بين الموت والحياة ، والنور والظلام ، فالكافر ميت ، فإذا آمن بُعث من جديد وعادت اليه الحياة ، وإيمانه نور يمشي به في حياته على بصيرة من أمره ، ومن بقي على الكفر والشرك فهو كمن يتخبط في الظلمات ، يسير على غير هدى ، ولا يصل إلى خير مدى حياته كلها .

المسؤولية والسائل الأعلى :

قد يقول القائل : ان الآية شبهت الإيمان بالحياة ، والكفر بالموت ، مع أن

الكافرين والملحدين في هذا العصر أكثر ثراء ورفاهية من المؤمنين والعابدين ؟.

الجواب: ليس المراد بالحياة في هذه الآية أن يعيش الانسان في النعيم والرفاهية، فيأكل طيباً، ويلبس ثميناً، ويشرب سائغاً .. ان الرفاهية لا تناط بالكفر ولا بالإيمان، والا كان المؤمنون سواء في الشرق والغرب من حيث الحضارة والرفاهية، وكذلك الملحدون والكافرون . ان للرفاهية أسباباً وملابسات لا تمت إلى الإيمان والكفر بسبب .. وانما المراد بالحياة في الآية الايمان والشعور الديني الذي يدفع بصاحبه الى القيام بالواجب كإنسان مسؤول عن سلوكه، يحاسب عليه ويكافأ على إحسانه بالثواب، واساءته بالعقاب.

ولو كان الإنسان غير مسؤول عن شيء لكانت الشرائع والقوانين ألفاظاً بلا معانٍ .. ومتى سلمنا بأن الانسان مسؤول . ولا يترك سدى يلزمنا حتماً أن نسلم بأنه مسؤول أمام من لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .. ولو كان هذا السائل مسؤولاً لوجب وجود سائل له . وهكذا إلى ما لا نهاية .

ومن كفر بوجود السائل الأعلى الذي يسأل ولا يُسأل فقد كفر بالمسؤولية ونفاها من الأساس، لأنه لا مسؤولية من غير سائل، ومن كفر بالمسؤولية فقد كفر بالحياة الاجتماعية .

وتقول : أجل، ان الانسان مسؤول، ولكن ليس من الضروري أن يكون السائل هو الله، فللناس أن يختاروا هيئة منهم يكون الانسان مسؤولاً أمامها ..

ونسأل بدورنا : إذا أخطأت هذه الهيئة فمن يسألها ويحاسبها، وان قيل : الوجدان، قلنا : أولاً الوجدان أمر معنوي لا عيني . وثانياً : ان الوجدان مشاع يدعيه كل واحد، فلماذا يترك هذا لوجدانه دون ذاك ؟ اذن، لا سائل غير مسؤول إلا الله وحده، فمن آمن بالله وألزم نفسه بشريعته وأحكامه فقد سار على بصيرة من أمره في عقيدته وسلوكه وإلا كان مثله كمن يمشي في الظلمات ليس بخارج منها .

(كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون) . أي مثل ما زيّن للمؤمنين أعمالهم أيضاً زيّن للمشركين أعمالهم. والفرق أن تزيين أولئك انعكاس عن الواقع، وتزيين هؤلاء وهم وخيال .

(وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) . المراد بالقرية كل مجتمع من الناس قل أو كثر ، والمعنى انه كما وجد في مجتمعك يا محمد رؤوس للاجرام تمكر وتنصب العداء لدين الله كذلك وجد في المجتمعات السابقة ، ويوجد في اللاحقة أيضاً رؤساء يمكرون بأمتهم ، ويقفون موقف العداء للحق وأهله .

وتسأل : ظاهر الآية يدل على ان الله سبحانه هو الذي جعل أكابر المجرمين يجرمون ويمكرون بأهل الحق ، مع العلم بأنه تعالى ينهى عن المكر والإجرام ، ويعاقب عليهما . فما هو التأويل ؟.

الجواب : ان القصد من هذه النسبة اليه جل ثناؤه هو الاشارة إلى أن مشيئة الله قضت بأن تقوم السنن الاجتماعية على أساس التناقض بين المحقين والمبطلين ، بين أرباب السلطان المعتدين ، وبين الناس المعتدى عليهم . ولا مفر من هذا التناقض والصراع إلا بالقضاء على المجرمين ، ولا بد أن يتم ذلك . وتعلو كلمة الحق على أيدي دعاة العدل والصلاح ، مهما تضخم الباطل واستطال . وقد سجل سبحانه ذلك في كتابه ، حيث قال عز من قائل : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً – ٤٣ فاطر » . ان هذا التكرار تأكيد قاطع بأن العاقبة للمتقين على المجرمين ، مهما طال الزمن ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

(وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) . اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على قولين : الأول ان أكابر المجرمين من العرب اقترحوا على محمد (ص) أن يأتيهم من المعجزات مثل ما أوتي موسى من فلق البحر ، وعيسى من إحياء الموتى . القول الثاني : انهم قالوا له : لن نؤمن حتى ينزل علينا الوحي كما نزل على الأنبياء . وقال الرازي : « هذا القول مشهور بين المفسرين » . ونحن نرجحه على الأول لأن سياق الآية يدل عليه ، حيث رد سبحانه على أكابر المجرمين بقوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته). بالاضافة إلى أن طلبهم أن ينزل الله الوحي عليهم يتلاءم مع حسدهم لرسول الله.

قال تعالى في الآية ٥٤ من سورة النساء : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » . وفي مجمع البيان وغيره ، ان الوليد بن المغيرة قال للنبي (ص) : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأني أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالاً .

ومعنى قوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) واضح ، وهو انه تعالى يختار لرسالته من يصلح لها من خلقه ، ومحمد أكرم خلق الله وأشرفهم .

(سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله) لأنهم استعلوا وتعاظموا، فاستحقوا الجزاء بالاحتقار والاذلال ، وفي بعض الروايات : ان المتكبرين يحشرون في صورة الذر يطأهم الناس بأقدامهم جزاء على تعاظمهم في الدنيا (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) . فالصغار جزاء التكبر ، والعذاب جزاء المكر والخداع ، وبكلمة ان الله سبحانه يعامل أرباب النوايا الخبيثة ، والأهداف الفاسدة بعكس ما يقصدون ويهدفون .

يشرح صدره للاسلام الآية ١٢٥ - ١٢٧ :

فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ★ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ★ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★

اللغة :

الحرج أضيق الضيق . ودار السلام هي دار السلامة من المنغصات والكروب، والمراد بها هنا الجنة . والولي من يتولى الأمور .

الإعراب :

صدره مفعول أول ليجعل ، وضيقاً مفعول ثان ، وحرجاً صفة لضيق لأنه بمعنى شديد الضيق . ومستقيماً حال من صراط ربك ، والعامل فيه هاء التنبيه في هذا أو الاشارة لأنهما بمعنى الفعل . ولهم دار السلام مبتدأ وخبر ، وهو وليهم مثله ، وعند ربهم متعلق بمحذوف حالاً من الضمير في لهم .

المعنى :

(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) . قال الرازي : « تمسك أصحابنا يريد السنة الاشاعرة - بهذه الآية في بيان ان الضلال والهداية من الله تعالى».

أما أصحابنا فيقولون : لو كان الضلال والهداية من الله لسقط التكليف ، وبطل الحساب والجزاء ، لأنه تعالى أعدل من أن يفعل الشيء ، ويحاسب غيره عليه ، كيف ؟. وهو القائل : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أما الآية التي نحن في صدد تفسيرها فلا تدل على دعوى الرازي وأصحابه ، لأنها لم ترد لبيان مصدر الضلال والهداية ، وانه من الله أو من غيره ، وانما وردت لبيان ان الناس فريقان :

الفريق الأول : تتسع صدورهم للحق ، ويتفاعلون معه ، ويطمئنون اليه ، لوعيهم وتجردهم عن الأغراض والأهداف الشخصية ، وتحررهم من التقاليد والأهواء ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب -- ١٨ الزمر » . فقوله هم أولو الألباب يشعر بأن الله هداهم لأنهم من أولي الألباب ، وانه تعالى يمد العبد بهدايته لحكمة في ذات العبد نفسه .. وأيضاً هم المعنيون بقوله « وانا لما سمعنا الهدى آمنا به — ١٣ الجن » . وقوله : « ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا — ١٩٣ آل عمران » . ولما علم سبحانه الخير من هذا الفريق زادهم الله هدى ، وأمدهم بتوفيقه وعنايته . قال تعالى : « ويزيد

الله الذين اهتدوا هدى – ٧٦ مريم . وقال : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم – ١٧ محمد » . وهكذا يهتم الاستاذ بتلميذه ويشجعه إذا علم منه الذكاء والنشاط .

الفريق الثاني : لا تتسع صدورهم للحق لجهلهم وضيق أفقهم ، أو لتناقضه مع منافعهم وأرباحهم ، أو عاداتهم وتقاليدهم ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله – ٢٢ الزمر » . وقوله : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون – ٢ الأنبياء » . وقوله : «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون–٢٣ الأنفال». فالله سبحانه يعرض عن العبد ، ويوكله الى نفسه إذا لم يعلم الخير منه ، كما يهمل الاستاذ تلميذه بعد اليأس من نجاحه . انظر تفسير الآية ٨٨ من النساء ، فقرة: الاضلال من الله سلبي لا ايجابي ج ٢ ص ٣٩٩ .

(كأنما يصعد في السماء) . كان الناس فيما مضى يضربون المثل للممتنع بالصعود الى السماء ، حيث لا وسيلة اليه بحال ، والتشبيه في الآية يتفق مع العصر الذي نزلت فيه ، والقصد منه ان فريقاً من الناس – وهم الفريق الثاني الذي أشرنا اليه – يجدون الضيق والعسر لو كُلفوا باتباع الحق ، تماماً كما لو أمروا بالصعود الى السماء (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) . المراد بالرجس هنا العذاب ، لأنه جزاء الكافرين ، والمعنى ان الذين وقعوا في الضيق والحرج من اتباع الحق في الدنيا كذلك غداً يقعون في العذاب الذي هو أشد وأعظم عليهم ضيقاً وحرجاً من اتباع الحق : « وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً – ٨١ التوبة » .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . هذا إشارة إلى الإسلام الذي تنشرح له وتستريح به صدور الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، والإسلام هو الصراط الذي لا وعورة فيه ولا اعوجاج (قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) . أي أقمنا الدلائل والحجج الواضحة الكافية على صحة الإسلام وصدقه في القرآن وآياته ، وبها ينتفع الذين يعرفون دلائل الحق وبه يعملون (لهم دار السلام عند ربهم). والذين يقيمون في دار الله هذه لا يمسهم السوء ، ولا هم يحزنون ، لأن الله

كافلهم (وهو وليهم بما كانوا يعملون) من الخيرات والطاعات .

ويوم نحشرهم جميعاً الآية ١٢٨ – ١٣٢ :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ★ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ★ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ★ ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ★ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ★

اللغة :

المعشر مثل القوم جمع أو اسم جمع لا واحد له من لفظه . واستكثر من الشيء أخذ الكثير منه . والمثوى المكان . ويقصون عليكم أي يتلون عليكم .

الإعراب :

يوم مفعول لفعل محذوف ، أي أذكر يوم نحشرهم . وجميعاً حال . وخالدين

حال من ضمير المخاطب في مثواكم . والا مـــا شاء الله (ما) في محل نصب بالاستثناء من خالدين . وجملة يقصون في محل رفع صفة لرسل . وذلك خـبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك . وان لم يكن (ان) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف،أي لأنه لم يكن . ولكل درجات مبتدأ وخبر،أي درجاتٌ كائنة لكل واحد . ومما عملوا متعلق بمحذوف صفة للدرجات . وربك مبتدأ ، وغافل خبر والباء زائدة اعراباً .

المعنى :

(ويوم يحشرهم جميعاً) أي الانس والجن ، ونقول : (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أي استكثرتم من اغوائهم واضلالهم (وقال أولياؤهم من الانس) الضمير في (أولياؤهم) يعود الى الجن ، أي ان الانس الذين تولوا الجن وأطاعوهم قالوا لله تعالى : (ربنا استمتـــع بعضنا ببعض) أي ان الجن استمتعوا بالانس ، والانس استمتعوا بالجن ، وبيّن الرازي وجه هذا الاستمتاع بقوله :

« كان الانس يطيعون الجن ، فصار الجن كالرؤساء .. فهذا استمتاع الجن بالانس ، أما استمتاع الانس بالجن فهو ان الجن كانوا يدلون الانس على أنواع الشهوات والطيبات ، ويسهلونها عليهم » .

(وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) ما زال الكلام للانس الذين أطاعوا الجن ، والمعنى ان استمتاع بعضنا ببعض كان إلى أجل معين ، ووقت محدود ، وهـــو اليوم الذي كان فيه فراقنا للحياة الدنيا .. وها نحن بين يديك نعترف بذنوبنا ، فاحكم فينا بما تشاء . (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) هذا هو الحكم الفاصل ، والجزاء العادل (ان ربك حكيم عليم) يمضي قضــاؤه بالناس على أساس الحكمة والعلم .

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) . لما ذكر سبحانه في الآية المتقدمة ١٢٧ انه هو ولي المؤمنين ذكر هنا ان الكافرين من الجن والإنس

بعضهم أوليــاء بعض ، لأنهم شركاء في الكفر والظلم ، ويوم القيامة يكونون شركاء أيضاً في العذاب والعقاب .

(يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا . هذا السؤال يوجهه الله سبحانه غداً للأشرار من الجن والإنس ، وهو للتأنيب والتوبيخ ، وليس على وجهه وحقيقته ، لأن الله يعلم وهم يعلمون بأن الله قد أرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير – ٢٤ فاطر » . (قالوا شهدنا على أنفسنا) حيث لا مجال للانكار في هذا الموقف .. وفي موقف آخر أفسح لهم المجال فكذبوا ، و « قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » وسبق الكلام عن ذلك في الآية ٢٣ من هذه السورة .

(وغرتهم الحياة الدنيا) والمراد انهم هم اغتروا بالحياة الدنيا ، لأن الدنيا ما خبأت شيئاً من عظاتها وتقلباتها (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) ذكر سبحانه أولاً انهم قالوا شهدنا على أنفسنا ، ثم عقب على ذلك بأنهم شهدوا على أنفسهم ، والقصد من هذا التأكيد الردع والزجر عن الكفر والمعصية ،لأن من حاول أن يقترف ذنباً اذا أيقن انه سيضطر الى الاعتراف بــه أحجم ولم يقدم ، ان كان عاقلاً .

(ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غــافلون) . ذلك اشارة الى إرسال الرسل ، والمعنى ان الله عادل لا يظلم أحداً ، ولا يعاقب إلا بعــد أن يرسل رسولاً يأمر وينهى ، فان لم يأتمر العبد وينته أخبره الرسول بما يحل به إذا لم يتب ويرتدع ،فان أصر عاقبه الله بما يستحق (ولكل درجات مما عملوا) فللمسيئين درجات حسب أعمالهم من السخرية بالغمز الى نهب الشعوب أقواتهــا وإلقاء القنابل الذرية على الألوف ، وللمحسنين درجات وفق أعمالهم من التحية الى الاستشهاد في سبيل الحق والصالح العام (وما ربك بغافل عما يعملون) فكل شيء مسجل كبيراً كان أو صغيراً ، حسناً أو قبيحاً .

وتجدر الاشارة الى ما سبق مراراً من اننا نؤمن بوجود الجن اجمالاً ، لأن الوحي أثبته ، والعقل لا ينفيه ، تماماً كما هو الشأن بالنسبة الى الملائكة ، أمــا التفاصيل فما زالت في عالم الغيب .

وربك الغني الآية ١٣٣ – ١٣٥ :

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ★ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ★ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ★

اللغة :

يذهبكم أي يهلككم . والانشاء الابتداء ، انشأ الله الخلق ، أي ابتدأه . ومكانة الانسان الحال التي هو عليها .

الإعراب :

كما أنشأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يستخلفكم استخلافاً مثل انشائكم . ان ما توعدون (ما) اسم ان ولآت خبرها .

المعنى :

(وربك الغني ذو الرحمة) بعد أن ذكر سبحانه انه يحاسب الناس وفق أعمالهم « ولكل درجات مما يعملون » أشار إلى انه غني عن العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، وان العالم كله بحاجة إلى رحمته لأنه تعالى هو السبب الأول لوجوده (ان يشأ يذهبكم) لأنه غني عنكم (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) فيبدل بكم غيركم يكونون أطوع اليه منكم ، ولكنه أمهلكم

تفضلاً منه وكرماً (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أي كما هان عليه إيجادكم من جيل مضى يهون عليه إيجاد جيل جديد منكم أو من غيركم .. والقصد من هذه الآية أن ينذر جل ثناؤه الكافرين المعاندين بالهلاك والدمار ، تماماً كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود .

(ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) بعد أن خوّفهم سبحانه من عذاب الدنيا خوّفهم من القيامة وعذابها وانها آتية لا ريب فيها ، ولا مهرب منها إلا اليه وحده .

(قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) . بعد أن دعا النبي (ص) عرب الجاهلية إلى الإسلام ، واستجاب له منهم من استجاب ، وعاند من عاند أمره الله جل وعز أن يقول للمعاندين : اعملوا على شاكلتكم التي أنتم عليها ، وأنا عامل بهداية ربي ، وبعد حين تعلمون لمن تكون العاقبة الحسنى ، تماماً كما تقول لمن يرفض النصيحة : ابق على طريقتك ، وسترى عاقبة أمرك .

(انه لا يفلح الظالمون) لأنفسهم بالكفر ، أو لغيرهم بالعدوان ، ولو أفلح الظالم لكان العادل أسوأ حالاً من الظالم،وكانت ألفاظ القيم ترادف النفاق والرياء.

فقالوا هذا الله الآية ١٣٦ – ١٤٠ :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ★ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ★ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا

إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ★ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ★ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ★

اللغة :

ذرأ أي خلق على وجه الاختراع والابداع . ويلبسوا يخلطوا . وحجر أي محجور وممنوع .

الإعراب :

ساء ما يحكمون ، ساء فعل ماض ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل أي قبح حكمهم . وحجر صفة للانعام والحرث ، ويستوي فيه الواحد والكثير ، والذكر والأنثى . وافتراء مفعول لأجله ليذكرون . وما في بطون (ما) في محل رفع بالابتداء ، وخالصة خبر ، وانث لفظ خالصة على معنى الانعام ، وذكر لفظ محرم حملاً على لفظ (ما) . واسم يكن ضمير مستتر يعود إلى ما في بطون. وافتراء مفعول لأجله لحرموا .

المعنى :

(وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . الواو في جعلوا يعود إلى مشركي العرب ، وذرأ خلق ، والحرث الزرع ، والانعام المواشي ، والنصيب السهم ، والشركاء الأصنام .

ومحصل المعنى ان الله سبحانه بعد أن أبطل في الآيات السابقة عقيدة المشركين بمنطق العقل والفطرة تعرض في هذه الآيات الى بعض ما كان مشركو العرب يزاولونه في أموالهم وأولادهم،وهذه الآية التي نفسرها تعرضت لشأنهم وتقاليدهم في ثروتهم المالية ، وهي الزرع والماشية ، وكانوا — كما في كتب التفسير — يعينون شيئاً من زرعهم وانعامهم لله ، ويصرفونه الى الصبيان والمساكين ، وشيئاً لأصنامهم ، وينفقونه على سدنة الأصنام وحراسها ، وكانوا يبالغون ويجتهدون في تنمية نصيب الأصنام ، ليأتي نتاجه أكثر وأوفر من نصيب الله ، لأن الله غني ، وفي الاصنام فقر،وكانوا إذا خالط شيء مما جعلوه لله ما جعلوه للأصنام تركوه لها ، واذا خالط شيء مما جعلوه للاصنام ما جعلوه لله ردوه الى الأصنام، وأيضاً إذا أصابهم الجدب أكلوا من نصيب الله ، وتركوا نصيب الأصنام .. وهذه الصورة أوضح تفسير للآية الكريمة (ساء ما يحكمون) في ايثار أصنامهم على الله تعالى علواً كبيراً .

(وكذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم) . تقدم ان المراد بالشركاء في الآية السابقة الأصنام ، أما في هذه الآية فالمراد بهم الكهنة وسدنة الأصنام بطبيعة الحال ، لأن الأصنام لا تشعر ولا تنطق ، فكيف تزين وتغري ؟. والمعنى ان المشركين كما جعلوا في أموالهم نصيباً لله ، ونصيباً للأصنام كذلك زين لهم السدنة والكهنة ، ومن اليهم من الرؤساء ، زينوا لهم قتل أولادهم .

وتسأل : إن تصرف المشركين في أموالهم وأولادهم على النحو المتقدم كان بوحي من عرف الجاهلية ، ومعلوم ان العرف ، يضعه الناس للناس ، فإذا قتل واحد منهم ابنه خشية الفقر والاملاق ، أو وأد ابنته خوف

العار، كما نسب الى قيس بن عاصم، قلده من هم على شاكلته في السفاهة والجهالة .. اذن ، فما هو الوجه في نسبة ذلك إلى الأصنام ، أو القائمين عليها ؟.

الجواب : أجل ان تصرف المشركين كان بوحي من التقاليد ، ولكن السدنة والرؤساء قد زينوا هذه التقاليد وحبذوها ، وهم الناطقون باسم الأصنام فصحت النسبة اليها .

(ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم) الواو يعود الى الكهنة ومن اليهم، وضمير (هم) يعود الى المشركين ، والرد هنا معناه الهلاك ، واللبس الخلط ، واللام للعاقبة والمعنى ان الكهنة زينوا للمشركين أعمالهم ، فكانت نتيجة هذا التزين هلاك المشركين ، وضياعهم عن الحق والدين القويم (ولو شاء الله ما فعلوه) أي لو شاء الله أن يمنعهم عن ذلك جبراً وقهراً ما تصرفوا في أموالهم وأولادهم ذاك التصرف القبيح ، ولكنه تركهم وشأنهم بعد أن هداهم النجدين . (فذرهم وما يفترون) من اضافة ما يحللون ويحرمون الى الله .. والأمر بتركهم وافتراهم جاء لتهديد المشركين ووعيدهم ، وليس على وجهه وحقيقته ، تماماً كالأمر في قوله تعالى : « اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير — ٤١ فصلت » .

ثم ذكر سبحانه في الآية التالية ان المشركين قسموا زرعهم وانعامهم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) . الحجر الحرام ، أي ان المشركين كانوا يقتطعون قسماً من زرعهم وثمارهم وماشيتهم ، ويحرمون التصرف فيه إلا على من يختارون .. ولم يبين سبحانه الذين يختارهم المشركون لهذا القسم ، ولكن بعض المفسرين قالوا : هم الكهنة وخدم الأصنام ، وقال آخرون : هم الرجال دون النساء .

القسم الثاني (وأنعام حرمت ظهورها) فلا تركب ، ولا يحمل عليها ، وتقدم ذكرها في الآية ١٠٣ من المائدة .

القسم الثالث (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها) في الذبح ، بل يذكرون اسم آلهتهم ، وتقدم التفصيل عند تفسير الآية ١٢١ من هذه السورة (افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون) أي انهم نسبوا هذا التقسيم إلى الله كذباً وافتراء ، والله معاقبهم عليه .

(وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم) . قال الرازي : « هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة - وتقدم ذكر الأقسام الثلاثة في الآية السابقة - كانوا يقولون في اجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حياً فهو خالص للذكور ، لا تأكل منه الاناث، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والاناث. سيجزيهم وصفهم ، والمراد الوعيد (انه حكيم عليم) ليكون الزجر واقعاً على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق » .

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) . وأي شيء أكثر سفاهة من اقدام الوالد على ذبح ولده بمديته ، أو دفنه حياً تحت التراب ، وقوله بغير علم تأكيد للسفاهة ، أما خسارتهم في الدنيا فتتمثل في قتل أولادهم ، وفساد حياتهم الاجتماعية ، وخسارتهم في الآخرة أدهى وأمر (وحرموا ما رزقهم الله) من الأنعام والحرث التي زعموا انها حجر (افتراء على الله) لأن التحريم منهم وليس منه (قد ضلوا وما كانوا مهتدين) إلى شيء من الخير والرشاد .

قال الرازي : ذكر الله أموراً سبعة ، وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم ، وهي الخسران ، والسفاهة ، والجهل ، وتحريم ما أحل الله ، والافتراء عليه ، والضلال عن الرشد ، وعدم الاهتداء .. ثم قال الرازي : « فثبت انه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة » .

ونقول للرازي : إذا كان الله قد ذمهم على الضلال بأعظم أنواع الذم ونهايته فكيف تدعي ان الله هو الذي خلق فيهم الضلال ؟ وأي منطق يجيز أن يعاقب البريء ويُذم على شيء فعله الذي ذمه وعاقبه ؟. لقد تكرر ذلك من الرازي في تفسيره الكبير عدة مرات ، منها ما قاله منذ قريب عند تفسير الآية ١٢٥ من هذه السورة .

كلوا من ثمره الآية ١٤١ ـ ١٤٤ :

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ★ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ★ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ★ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ★

اللغة :

الجنات البساتين والكروم . والمعروشات التي تُرفع فروعها على دعائم، كالعنب، وغير المعروشات تُترك على الطبيعة كالنخل، والأكل بضم الهمزة والكاف ما يؤكل. ومتشابه بالنظر ونحوه، وغير متشابه بالطعم وغيره. والحمولة ما يحمل عليه الأثقال . والفرش ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل والبقر ، أو ما يُتخذ الفرش من صوفه وشعره ووبره .

الإعراب :

معروشات صفة لجنات ، والنخل الزرع أي وثمرة النخل ، وحب الزرع ، ومختلفاً حال منهما ، وأكله فاعل مختلفاً ، والزيتون والرمان عطف على جنات أي وأنشأ الزيتون والرمان ، ومتشابهاً حال ، ومن الأنعام حمولة أي وأنشأ من الانعام حمولة ، وثمانية أزواج بدل من حمولة وفرشاً ، واثنين بدل بعض من ثمانية ، والذكرين مفعول حرم ، ام كنتم شهداء (أم) بمعنى بل .

المعنى :

بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السابقة ان المشركين حرموا ما حرموا من الزرع والانعام افتراء على الله .. بيّن في هذه الآيات انه خلق الزرع والانعام ليتنعم الانسان بها ، قال عز من قائل : (وهو الذي أنشأ جنات معروشات) مرفوعة فروعها على دعائم (وغير معروشات) متروكة على الطبيعة (والنخل والزرع) عطف على جنات من باب عطف الخاص على العام (مختلفاً أكله) فالحبوب على أصناف ، ولكل صنف طعم ، والثمار أشكال ألوان طعماً ورائحة ، والبقول كذلك (والزيتون والرمان) أيضاً عطف على جنات (متشابهاً وغير متشابه) فثمر الرمان يشبه بعضه بعضاً ، ولكن منه الحلو ، ومنه الحامض ، وكذلك الليمون ، وثمر الزيتون منه الجيد ومنه الرديء (كلوا من ثمره إذا أثمر) لأنه خلق من أجلكم (وآتوا حقه يوم حصاده) قيل : المراد بحقه الزكاة . وقيل : الصدقة المستحبة ، وكلا القولين خلاف الظاهر ، والمتبادر الى الذهن أن يجمع ولا يترك عرضة للتلف والضياع (ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين) الاسراف تجاوز الحد ، وقد نهى الله عنه ، سواء أكان في الانفاق على النفس ، أم الاعطاء إلى الغير .

(ومن الانعام حمولة وفرشاً) أي وأنشأ من الانعام ما يحملكم ويحمل أثقالكم كالإبل والبقر ، وما تذبحونه وتنتفعون بلحمه وصوفه وشعره ووبره (كلوا مما رزقكم الله) كهذه الانعام وغيرها ، واشكروه على نعمه (ولا تتبعوا خطوات

الشيطان) بتحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحله ، وبالاسراف والتبذير (انه لكم عدو مبين) يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون .

(ثمانية أزواج) . كلمة الزوج تطلق على كل واحد له قرين ، كأحد الزوجين من الذكر والأنثى ، وأحد النعلين ، ويقال للاثنين معاً : زوجان (من الضأن اثنين) الذكر والأنثى ، وكلمة الضأن تختص بالغنم كما نص أهل اللغة ، ولا تشمل المعز بدليل عطفه على الضأن (ومن المعز اثنين) الذكر والأنثى ، والمعز جنس له واحد من لفظه ، وهو ماعز للذكر والأنثى ، ويقال للأنثى : ماعزة ومعزاة (قل الذكرين حرّم) الذكر من الضأن والذكر من المعز (ام الانثيين) الأنثى من الضأن والانثى من المعز (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم حرم الأجنة في بطن الانثى من الضأن ، وبطن الانثى من المعز (نبئوني بعلم ان كنتم صادقين) لا بحدس وهوى وتقليد . لأن التحريم يحتاج الى دليل قاطع ، فأين هو ؟.

(ومن الإبل اثنين) الذكر والأنثى ، الجمل والناقة ، والإبل اسم جمع كالقوم لا واحد له من لفظه . (ومن البقر اثنين) الذكر والأنثى (قل الذكرين حرم) من الإبل والبقر (ام الانثيين) منها (أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين) أم الأجنة في بطن الناقة ، وبطن البقرة . (أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا) زعموا ان الله هو الذي حرّم ما حرموا من الأنعام والحرث ، فقال لهم : ان الشيء لا يثبت إلا بواحد من اثنين : اما بالعيان ، وإما بشهادة الشاهد الصادق، وأنتم لم تأخذوا التحريم من الله مباشرة ، ولا بواسطة أنبيائه ورسله ، فمن أين أتيتم بهذه الأحكام ؟. (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) إذا لم تعاينوا ، ولم يشهد لكم شاهد أمين فأنتم اذن مفترون ، والمفتري ظالم آثم ، بل أنتم أظلم من كل ظالم ، لأنكم على الله . لا على سواه تفترون .. (ليضل الناس بغير علم) يصدهم عن سبيل الله ، وفي الوقت نفسه يزعم انه الهادي الى دين الله . شأن أكثر المعممين في هذا العصر (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) لأنهم قطعوا كل صلة بينهم وبين الله . بل حرموا حلاله ، وحللوا حرامه .

قل لا أجد فيما أوحي الي محرماً الآية ١٤٥ – ١٤٧ :

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ★ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ★ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ★

اللغة :

طاعم يطعمه ، أي آكل يأكله . والميتة ما مات حتف أنفه . والدم المسفوح يخرج بدفق كدم العروق ، وغير المسفوح يسح سحاً كدم الكبد . والرجس القذر . والاهلال رفع الصوت ، والمراد بأهل لغير الله ذُبح باسم غير الله . والباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة ، والعادي من يتجاوز الحد . وحملت ظهورها علقت بها . والحوايا جمع حاوية ، وهي المصارين والامعاء ، لأنها تحوي الفضلات وقيل : الحوايا كل ما تحويه البطن . وما اختلط بعظم قال الرازي : « هو شحم الألية في قول جميع المفسرين » . واختلاطه بالعظم هو اتصاله بالعصعص .

الإعراب :

محرماً صفة لمفعول محذوف ، أي مطعوماً محرماً أو طعاماً محرماً . واسم يكون

ضمير مستتر ، وميتة خبر ، والتقدير إلا أن يكون المحرم أو المأكول ميتة ، والمصدر المنسبك من أن يكون منصوب على الاستثناء المنقطع ، لأنه مستثنى من غير المحرم . أو فسقاً عطف على لحم الخنزير . إلا ما حملت (ما) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع من شحومها . وذلك مفعول جزيناهم .

المعنى :

(قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم) . الرجس القذر ، والفسق الحرام ، بعد أن بيّن سبحانه افتراء المشركين على الله فيما حللوا وحرموا من المأكولات - بيّن في هذه الآية المحرمات عند الله سبحانه مما يؤكل ، وهي أربعة : الميتة،والدم المسفوح، ولحم الخنزير ، وما ذبح على غير اسم الله ، ولا يجوز لأحد أن يتناول منها شيئاً إلا المضطر إلى أكلها ، فله ، والحال هذه ، أن يتناول منها ما يدفع به الضرر عن نفسه ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ . وأجبنا هناك عن سؤال من سأل ان ظاهر الآية يدل على حصر المأكولات المحرمة بهذه الأربعة ، مع انها كثيرة ، وأيضاً سبق الكلام عن ذلك بصورة أوسع في أول هذا المجلد عند تفسير الآية ٣ من سورة المائدة .

(وعلى الذين هادوا حرمنا) . الذين هادوا هم اليهود .. حرّم سبحانه الأصناف المذكورة في الآية السابقة على الناس جميعاً اليهود وغير اليهود ، أما المحرم في هذه الآية فيختص باليهود وحدهم بدليل قوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا » .

أولاً : (كل ذي ظفر) بجميع أجزائه ، دون استثناء ، وقال الطبري في تفسيره : « ذو الظفر من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع - يريد منفرج الأصابع - كالإبل والنعام والأوز والبط » .

ثانياً : (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) . لم يحرم على اليهود جميع أجزاء البقر والغنم ، بل اللحم الأبيض ، دون اللحم الأحمر ، بل استثنى من شحوم البقر والغنم ثلاثة أصناف : الأول ما أشار اليه بقوله : (إلا ما حملت ظهورهما) وهو الشحم الملتصق بالظهر . الثاني : (أو الحوايا) وهي المصارين والامعاء ، والمراد ان الشحوم الملتصقة بها غير محرمة . (أو ما اختلط بعظم) وهو شحم الألية في قول جميع المفسرين على عهدة الرازي ، أما العظم الذي اختلط به شحم الألية فهو العصعص .

(ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) هذا بيان لسبب حرمان اليهود من هذه الطيبات ، وانه جزاء على جرائمهم التي لا يبلغها الاحصاء ، ومنها قتل الأنبياء ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وقولهم : الله فقير ، ويده مغلولة .. وفي تفسير الآية ٩٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١١٤ ما يتصل بقوله تعالى : وعلى الذين هادوا حرمنا .

(فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين). أي ان كذبوك يا محمد فلا تؤيسهم من رحمة الله ، وقل لهم : ان الله يقبلكم ويصفح عنكم ان تبتم وأنبتم ، كما انه ينتقم منكم إذا أصررتم على ما أنتم عليه ، وفي هذه الآية وعد ووعيد ، رضا الله وغضبه ، رضاه عمن التجأ اليه طالباً المغفرة ، وغضبه على من أصر على التمرد والعناد : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد – ٧ ابراهيم » .

لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ - ١٥٠ :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ★ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ★ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ★

الإعراب :

ولا آباؤنا عطف على ضمير أشركنا . ومن شيء (من) زائدة ، وشيء مفعول حرمنا . وهلم معناها الدعاء كتعال ، وهي هنا متضمنة معنى الحضور أي احضروا شهداءكم . قال أبو البقاء : للعرب في هلم لغتان : احداهما أن تكون بلفظ واحد للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث ، فتكون اسم فعل ، وبنيت لوقوعها موقع فعل الأمر . اللغة الثانية أن تصرف، فيقال : هلما وهلمي وهلممن وهلموا ، فتكون فعلاً .

المعنى :

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء). الذين يتقبلون النصح ، ويتبعون أحسن القول قليلون جداً ، وأقل منهم من يرون عيوب أنفسهم ويعترفون بها .. فإن الأكثرية الغالبة يرون عيوبهم فضائل ، وسيئاتهم حسنات : « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون — ١٢ يونس » . فإن عجزوا عن تحسين قبائحهم تبرأوا منها ، وأحالوها إلى مشيئة الله ، أو إلى أي مصدر آخر .. والله سبحانه منزه عما يصفون .. انه يأمرهم وينهاهم، ويجعل لهم الخيار فيما يفعلون ويتركون ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة وما لأحد على غيره من سلطان ، حتى الشيطان يقول : « لما قضي الأمر

ان الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ٢٢ إبراهيم » .

وفي الآية التي نحن بصددها تحكي سبحانه ادعاء المشركين ان شركهم وشرك آبائهم ، وتحريم ما حرموا من الحرث والانعام إنما كان بمشيئة الله وأمره ، ولو شاء أن لا يشركوا لمنعهم عن الشرك (كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) أي لقد كذّب مشركو العرب محمد (ص) الذي نهاهم عن الشرك والافتراء على الله ، تماماً كما كذّب من كان قبلهم بأنبياء الله ورسله ، ولم يصدقوهم إلا بعد أن نزل بهم العذاب جزاء على تكذيبهم .

وبعد أن حكى سبحانه ادعاء المشركين وانه في الكذب كادعاء أسلافهم أمر رسوله ان يرد عليهم بسؤال يخرسهم ، ويبطل ادعاءهم ، وهو (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) المراد بالعلم هنا الدليل ، وهو من باب اطلاق المسبب على السبب ، لأن الدليل سبب لحصول العلم ، والقصد من هذا السؤال اظهار عجزهم وكذبهم ، لأن معناه لقد زعمتم أيها المشركون ان الشرك كان برضا من الله ، فمن الذي قال هذا ؟. ومن أين علمتم بمشيئته تعالى ؟. انها من غيبه ، ولا يُطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، والرسول لم يقل هذا لكم ولا لغيركم . اذن ... كيف تحيلونه على الله جل ذكره ؟.

(ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون) . ونحن لا نشك أبداً بأن أكابر المجرمين يعلمون انهم يخرصون ويكذبون فيما قالوا ، وانما قالوا عناداً للحق الذي يزهق أباطيلهم ، ويقضي على أغراضهم ومكاسبهم العدوانية .

(قل لله الحجة البالغة) بيّن سبحانه في الآية السابقة ان المشركين لا حجة لهم على ما يدعون سوى الظن والتخرص ، وفي هذه الآية بيّن ان الحجة القاطعة هي لله وحده عليهم وعلى غيرهم ، ومعنى بالغة انها قد بلغت من القوة ما تقطع بها كل عذر (فلو شاء لهداكم أجمعين) . في المجلد الأول ص ٧٢ ذكرنا ان لله إرادتين : ارادة الخلق والتكوين ، وهي عبارة عن قوله . « كن فيكون » وارادة الطلب والتشريع ، وهي عبارة عن أمره ونهيه ، وانه سبحانه يخلق الكون بإرادته التكوينية ولا يتدخل — ان صح التعبير ... بهذه الارادة في شؤون الناس

الاجتماعية ، بل بإرادة التشريع والارشاد ، وبهذا يتضح معنى قوله : (فلو شاء لهداكم أجمعين) أي لو أراد أن يتدخل في شؤونكم الاجتماعية بإرادة «كن فيكون» لآمنتم جميعاً ، ولكنه لا يفعل ، لأنه لو فعل لبطل التكليف ، وانتفى الثواب والعقاب .

وبتقرير ثان ادعى المشركون ان شركهم كان بمشيئة الله ، فأبطل سبحانه دعواهم هذه بأنها من غير دليل ، لأن الله لا يتدخل في شؤون عباده بإرادة التكوين سلباً ولا إيجاباً .. ولو سلّم — جدلاً — انه يتدخل بهذه الارادة التي تلجيء الانسان إلجاء ، لو افترض هذا لألجأهم سبحانه إلى الإيمان بوحدانيته بطبيعة الحال ، ولم يلجئهم إلى عصيانه والكفر به وجعل الشريك له .

(قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا) . افترى المشركون على الله الكذب في تحريم ما حرموا من الحرث والأنعام ، وأيضاً افتروا عليه في نسبة شركهم اليه ، فأمر نبيه محمداً في الآية الأولى أن يقول لهم : هل عندكم دليل على ما تدعون ، فتخرجوه لنا ؟. ثم أمره في الآية الثانية أن يقول لهم : ان الدليل القاطع لكل شبهة ملك لله ، لا لكم ، ثم أمره في هذه الآية أن يقول لهم : أروني من يشهد بأن الله أوحى اليه مباشرة ، أو بواسطة نبي من أنبيائه انه تعالى حرم ما حرمتم أيها المشركون ، لأن الشهادة الحقة يشترط فيها العلم القاطع للشك والاحتمال ، ولا وسيلة للعلم بحرام الله وحلاله إلا الوحي، فأحضروا من يشهد به (فان شهدوا) على سبيل الفرض (فلا تشهد معهم) هذا النهي كناية عن كذبهم في شهادتهم ، لأن النبي محال أن يشهد مع المشركين .. والكناية أبلغ من التصريح .

(ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) . بعد أن حكم الله عليهم بالكذب والافتراء بيّن علة حكمه بأمور ثلاثة : الأول انهم يتبعون الأهواء والشهوات ، وعبّر عن ذلك بقوله : « ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا » لأن النبي محال أن يتبع من كذّب بنبوته . الثاني انهم « لا يؤمنون بالآخرة » ومن لا يؤمن بالآخرة لا يخشى عاقبة الكذب . الثالث انهم « بربهم يعدلون » أي يجعلون له عدلاً يشاركه في الخلق ، ومن يشرك بالله فلا تُقبل له شهادة ، لأنه قد ارتكب أقبح القبائح .

ما حرم ربكم الآية ١٥١ – ١٥٣ :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ★ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ★ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ★

اللغة :

الإملاق الإفلاس ، ومنه الملق والتملق لأن المفلس يتملق لأرباب المال طمعاً في العطية . وأشد بضم الشين قال صاحب مجمع البيان : هو جمع شد ، مثل الأشر جمع شر ،والأضر جمع ضر. وأياً كان فان المراد به هنا الإدراك والبلوغ.

الإعراب :

اتل ما حرم (ما) مفعول اتل . وان لا تشركوا (ان) مفسرة بمعنى أي

ولا ناهية،ويجوز أن تكون (ان) ناصبة ولا نافية،والمصدر المنسبك بدل من (ما حرم) . وشيئاً مفعول مطلق لتشركوا لأن المراد به الاشراك . واحساناً مفعول لفعل محذوف أي احسنوا بالوالدين إحساناً ، أو أوصيكم بهما إحساناً . وما ظهر منها وما بطن بدل اشتمال من الفواحش . إلا بالحق في موضع الحال ، أي الا محقين . ذلكم وصاكم به مبتدأ وخبر . ولو كان ذا قربى اسم كان محذوف أي ولو كان المقول له . (وان هــذا) المصدر المنسبك من ان وما بعدها مجرور بلام محذوفة . والمجرور متعلق باتبعوه . ومستقيماً حال من صراطي .

المعنى :

أشار سبحانه في الآيات السابقــة الى ان المشركين حللوا وحرموا بالحدس والأهواء ، وانهم نسبوا الشرك اليــه جهلاً وافتراء ، ورد عليهم بمنطق العقل والفطرة ، وذكر من المحرمات الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، وفي هذه الآيات الثلاث ذكر طرفاً من المحرمات ، وهي التي لا تختص تحريمها بشريعة من الشرائع السماوية ، وذكر الى جانبها بعض الواجبات كالوفاء بالكيل والميزان ، وبعهد الله واتباع العدل .. وبديهة ان كل ما وجب فعله حرم تركه ، وكل ما حرم فعله وجب تركه ، وأطلق بعض المفسرين على محتويات هذه الآيات الثلاث الوصايا العشر .

الوصايا العشر :

١ - (قل تعالوا أتلُ ما حرم ربــكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) . ابتدأ سبحانه بالأصل الأول من العقيدة ، وهو نفي الشرك الذي يقابله ثبوت التوحيد، واليه ترجع جميع الأصول والفروع ، ومنه تستمد جميع الحقوق والواجبات ، وبه تُقبل الطاعات وعمل الخيرات . ويتلخص معنى التوحيد بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال .

٢ - (وبالوالدين إحساناً) . قرن سبحانه الوصية بالوالدين بربوبيته المتفردة

إشعاراً بأن الإحسان اليهما يجب أن يكون فريداً في بابه .. فكأنه قال : لا تشركوا بالله،ولا تشركوا بالإحسان إلى الوالدين إحساناً . وتكلمنا بشبهه عن البر بالوالدين عند تفسير الآية ٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ١٤١ .

٣ – (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) . بعد ما أوصى الأبناء بالآباء أوصى الآباء بالأبناء . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٧ من هذه السورة .

٤ – (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . كل ما تجاوز الحد في القبح فهو فحش ، ومنه الزنا واللواط والظلم والتهتك والتبرج ، والكذب والغيبة والنميمة واللؤم والحسد ، وأعظم الفواحش كلها الإلحاد والشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المحترمة ، وأكل مال اليتيم ، وإنما أفرد الله هذه بالذكر ، مع انها تدخل في الفواحش للتنبيه إلى انها قد بلغت الغاية والنهاية من القبح والفحش ، سواء اقترفت سراً أم علانية ، وعن ابن عباس ان أهل الجاهلية كانوا يكرهون الزنا علانية ، ويفعلونه سراً،فنهاهم الله عنه في الحالين.

وعن رسول الله (ص) انه قال : الا أخبركم بأبعدكم مني شبهاً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الفاحش المتفحش البذيء البخيل المختال الحقود الحسود القاسي القلب البعيد عن كل خير يرجى غير مأمون من كل شر يتقى .

٥ – (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) . الأصل في قتل النفس التحريم ، ولا يحل إلا بسبب موجب ، وهو واحد من أربعة : نصت السنة النبوية على ثلاثة منها ، وهي قوله (ص) : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد ايمان ، وزنا بعد احصان ، وقتل نفس بغير حق » . ونص الكتاب على السبب الرابع في الآية ٣٣ من سورة المائدة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » . (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) أي تعرفون قبح الشرك وقتل النفس والفواحش ، وحسن البر بالوالدين .

٦ – (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) . والنهي عن القرب

منه أبلغ من النهي عنه بالذات ، ويعم جميع وجوه التصرف ، كما ان التي هي أحسن أبلغ من التي هي حسنة ، والمعنى المقصود هو التشدد في شأن أموال كل قاصر عن التصرف في أمواله إلا على الوجه المألوف يتيماً كان أو مجنوناً أو سفيهاً أو غائباً أو صغيراً يتولى أبوه شؤونه المالية ، وان على أولياء هؤلاء أن يحافظوا على أموال القاصرين ويدبروها لمصلحتهم ، ومن هنا ذهب جماعة من كبار الفقهاء الى أن تصرفات الولي في مال القاصر لا تنفذ إلا مع الغبطة والمصلحة ، ونحن على هذا الرأي ، حتى ولو كان الولي أباً أو جداً لأب ، ودليلنا كلمة «أحسن» . أما حديث : «أنت ومالك لأبيك» فهو حكم أخلاقي لا شرعي بدليل كلمة «انت» فان الابن ليس سلعة يملكها الأب .

وتسأل : ان كلمة اليتيم يختص بمن مات أبوه، وهو صغير ، فكيف جعلتها عامة تشمل كل قاصر ؟.

الجواب : نحن نعلم علم اليقين ان السبب المبرر لوجوب التصرف بالتي هي أحسن هو القصور ، وليس اليتم بما هو يتم ، والقصور متحقق في الجميع من غير تفاوت .

(حتى يبلغ أشده) وتجد تفسيره في الآية ٥ من النساء : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » وتقدم تفسيرها في ج ٢ ص ٢٥٦ .

٧ (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) بعتم أو اشتريتم (لا نكلف نفساً إلا وسعها) هذه جملة معترضة ، والقصد منها التنبيه الى ان الوفاء المطلوب بالكيل والميزان هو الوفاء الممكن المعروف بين الناس ، وهم يتسامحون بزيادة ما قل أو نقصانه ، لأن مراعاة الحد العادل فيه نحو من العسر والحرج « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . وعلى أية حال ، فإن الأساس في شتى أنواع التجارة هو رضى الطرفين ، سواء أكانت السلعة مما يكال أو يوزن أو يُعد أو يُذرع ، أو يقدر بالفكر كالكتاب ، أو النظر كالقطعة الفنية .

٨ ــ (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) هذا هو المحك لمن يخاف الله ويخلص له ويشعر أمامه بالمسؤولية ، لا أمام زوجة أو أب أو أم أو ابن

أو صهر .. لا شيء إلا الحق والعدل ، أما من يتكلم باسم الدين ، ثم يميل به هواه مع قريب أو صديق فما هو من الدين في شيء .

٩ - (وبعهد الله أوفوا) . وكل ما أمر الله به ، ونهى عنه فهو عهد الله ، أما الوفاء به فامتثاله وطاعته (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) ولا تغفلون عن طاعة من لا يغفل عنكم .

١٠ - (وان هذا صراطي مستقيماً) هذا اشارة إلى كل ما ذكر ، وهو صراط الله المستقيم ، وليس بعده إلا الضياع والضلال (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) كالشرك والالحاد والأحزاب والأديان الباطلة (فتفرق بكم عن سبيله) . فأية سبيل غير القرآن والإسلام فهي من وضع الأهواء ، وليس للأهواء حد ولا ضابط ، فإذا اتبعها الناس تفرقوا شيعاً وأحزاباً متناحرة ، أما إذا اتبعوا جميعاً دين الله فتوحدهم العقيدة الحقة ، والإيمان القويم ، وفي الحديث: ان النبي (ص) خط خطاً بيده ، وقال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، وقال : هذه ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ : « وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .. (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) سبل الشيطان التي تميل بكم مع الأهواء والشهوات .

ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ - ١٥٧ :

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ★ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ★ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ★ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ★

الاعراب :

تماماً حال بمعنى متمم . ومبارك صفة لكتاب، والمصدر المنسبك من أن تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف ، والتقدير أنزلناه كراهية القول . وإن كنا (ان) مخففة من الثقيلة مهملة عن العمل . واللام في لغافلين هي اللام الفارقة بين إن المخففة وان النافية . وعن دراستهم متعلق بغافلين .

المعنى :

(ثم آتينا موسى الكتاب) حار المفسرون في (ثم) لأن الحديث في الآيات السابقة كان عن القرآن ، وهذه الآية تحدثت عن التوراة ، وقد نزلت قبل القرآن، و (ثم) تدل على التراخي وتأخير ما بعدها عما قبلها زماناً ، فكيف يُعطف المتقدم على المتأخر في الزمان ؟. وذكر الرازي لذلك ثلاثة وجوه، وزاد الطبرسي رابعاً .. ونحن لا نرى مسوغاً للاطالة في ذلك ، لأن الترتيب هنا في القول ، لا في الزمان ، والعطف من باب عطف خبر على خبر ، لا من باب عطف معنى على معنى .

(تماماً على الذي أحسن) تماماً بمعنى متمم ، وعلى هنا بمعنى اللام ، كما هي في قوله تعالى : « ولتكبروا الله على ما هداكم » أي لهدايتكم كما في مغني ابن هشام ، والمعنى آتينا موسى الكتاب ، وهو يتمم نقص الذي أحسن الانتفاع به ، كقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً – ٣ المائدة » . (وتفصيلاً لكل شيء) هذه صفة ثانية لكتاب موسى (ع) وانه يشتمل على جميع الأحكام التي يحتاج اليها ناس ذلك

العصر . قال تعالى : « وكتبنا لـــه – أي لموسى – في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء – ١٤٤ الأعراف » . (هدى ورحمة) وصفـــان آخران لكتاب موسى . وبالهدى يعرف الناس الحق والخـــير ، وبالرحمة يحيون حياة طيبة هادئة (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) ضمير يؤمنون يعود إلى بني إسرائيل والمعنى آتينا موسى كتاباً جامعاً لكل ما ذكرنا من أوصاف ، كي يؤمن قومه بالله وثوابه وعقابه . ولكنهم أصروا على العناد ، وقالوا فيما قالوا : « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة – ٥٥ البقرة » . وعلى فرض أن يروا الله جهرة – وفرض المحال ليس بمحال – فانهم يقولون : ما هذا بإله ، لأنه ليس جنيهاً ولا دولاراً .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك) هذا إشارة إلى القـرآن الكريم ، وهو مبارك لأنه كثير الخير والنفع (فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) اتبعوا مـا أمركم به ، واتقوا ما نهاكم عنه ، كي تشملكم رحمته دنياً وآخرة .

(أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنـا عن دراستهم لغافلين) . الخطاب في أن تقولوا موجه لمشركي العرب ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، وبطائفتين أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وضمير دراستهم يعود إلى أهل الكتاب ، والمعنى يا معشر العرب لقد أنزلنـا القرآن بلسانـــكم ، وعلى رجل منكم وفيكم ، لئلا تعتذروا عن شركـكم بأنه لم ينزل كتاب من السماء بلسانـكم ، وإنما نزل على اليهود والنصارى ، ونحن كنا غافلين عن دراسة كتابهم وتعاليمه لا ندري ما فيه ، لأن لسانهم غير لساننا .

(أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) . في الآية السابقة قال تعالى لمشركي العرب : أنزلنا القرآن بلسان عربـي مبين لئلا تقولوا غداً : ان التوراة والإنجيل نزلا بلغة كنا عنها غافلين ، لا نعرف شيئاً منها ، وفي هذه الآية قال لهم : أو تقولوا يا معشر العرب : لو نزل الكتاب علينا وبلغتنا لكنا أهدى وأسبق من اليهود والنصارى إلى الإيمان . وبالاختصار ان هذه الآية والتي قبلها أشبه بقول القائل : ان فلاناً يملك ثروة كبرى ، وأنا لا أملك شيئاً ، ولو ملكت لفعلت كذا وكيت . فرد الله عليهم بجواب قاطع لكل عذر : « فقد

جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، والمراد بالبينة القرآن ، وفيه الدلائل والبينات على صدق محمد (ص)،وفيه أيضاً الأحكام والتعاليم التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور .

(فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها) أبداً لا أحد أشد اثماً وظلماً لنفسه وللناس ممن كفر بالحق والخير ، وسعى في الأرض فساداً بصده عن سبيل الله (سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) صدف عن الشيء أعرض عنه ، وآيات الله حججه ودلائله ، والمعنى انه جل ثناؤه أقام البرهان القاطع على وحدانيته وعلى نبوة محمد وصدق ما جاء به من ربه ، ولكن المشركين أعرضوا وأبوا أن يتدبروا تلك الحجج عناداً منهم للحق وأهله ، فاستحقوا بذلك الخزي والعذاب الأليم .

لا ينفع نفساً الا ايمانها الآية ١٥٨ – ١٦٠ :

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ★ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ★ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ★

اللغة :

الشيع جمع واحدها الشيعة ، ومعناها الفرقة ، قال تعالى : ولقد أرسلنا من

قبلك في شيع الأولين ، أي في فرقهم ، وقال : ثم لننزعن من كل شيعة أي من كل فرقة .

الاعراب :

يوم يأتي (يوم) منصوب على الظرفية متعلق بلا ينفع . أمثالها صفة لمحذوف أي عشر حسنات أمثالها .

المعنى :

(هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) . الاستفهام هنا للانكار ، والمراد بينظرون ينتظرون .. بعد أن ذكر سبحانه ان المشركين أعرضوا عن دلائل القرآن ، ورفضوا أن يتدبروها قال في هذه الآية : انهم لا يؤمنون إلا بأحد أمور ثلاثة : الأول مجيء الملائكة . الثاني مجيء الرب . الثالث مجيء بعض الآيات . ولكنه سبحانه لم يبين أي الملائكة الذين يجب أن تأتيهم ، كي يؤمنوا : هل ملائكة الموت أو غيرهم ، ولا بيّن المراد بمجيء الرب : هل مجيئه هو بزعمهم ، أو مجيء أمره ، كما هو الواقع؟ وأيضاً لم يبين نوع بعض الآيات : هل الآيات التي اقترحوها ،أو علامات القيامة؟ وقال أكثر المفسرين أو الكثير منهم : ان المراد بالملائكة ملائكة الموت،وبمجيء الرب مجيء عذابه وانتقامه ، وببعض الآيات اشراط الساعة ، أي أولها والعلامات الدالة عليها .. وهذا التفسير غير بعيد ، لأن الكلام الذي عقب به سبحانه هذه الأمور الثلاثة يُشعر بقول المفسرين ويعززه ، وهو قوله تعالى :

(يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) . يقول عز من قائل : ان التوبة والإيمان عند مجيء أحد هذه الأمور لا يجدي شيئاً ، وانما الذي يجدي هو الإيمان والعمل الصالح الذي يكسبه المؤمن قبل أن يُلجأ إلجاءً إلى ذلك ، إذ لا تكليف حين النزع والاحتضار ، ولا عند اشتراط الساعة ، أو نزول العذاب ، ومع عدم التكليف

يكون الإيمان وعدمه سواء ، وقوله تعالى : (أو كسبت في ايمانها خيراً) يومىء إلى أن الإيمان بالله ينجي صاحبه من الخلود في النار ، لا من عذاب النار . أما من آمن وعمل صالحاً فلا تمسه النار اطلاقاً . (قل انتظروا) هذه الأمور الثلاثة (انا منتظرون) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم — ٣٩ هود .

(ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) . الخطاب في لست موجه للنبي (ص) . وكما اختلف الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كذلك ، المفسرون صاروا شيعاً في تفسير المراد بالذين فرقوا دينهم . قيل : هم المشركون بالنظر إلى أن بعضهم يعبد الأصنام، وبعضهم الكواكب ، وبعضهم النور والظلام. وقيل : هم أهل الكتاب فاليهود افترقوا إلى الصادوقيين والفريسيين والحسديين[1] أما النصارى فقسموا الكنيسة إلى شرقية وغربية . وقيل : هم الفرق الاسلامية . وقيل : كل أهل الملل والنحل بلا استثناء .. وخير ما قرأته في تفسير هذه الآية ما قاله صاحب تفسير المنار : « ان المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً هم أهل الكتاب ، والمراد ببراءة الرسول منهم تحذير المسلمين من مثل تفرقة أهل الكتاب وفعلهم ليعلموا انهم إذا فعلوا فعل أهل الكتاب فإن محمداً (ص) بريء منهم بطريق أولى » .

(انما أمرهم الى الله) فهو وحده يتولى حساب وعقاب من يعمل على التفريق بين عباده ، ويثير العداوة والبغضاء في الدين وغير الدين (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) من الاستجابة الى الدساسين المفتنين : « قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون — ٣٨ الاعراف » .

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون) . كل ما فيه لله رضا وللناس صلاح فهو حسنة ، وكل ما فيه

---

[1] من أقوال الفريسيين ان الأموات يرجعون الى هذه الدنيا ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي ، ومن أقوال الصادوقيين انه لا حياة بعد الموت اطلاقاً لا الى الدنيا ولا الى الآخرة ، ومن أقوال الحسديين المساواة بين الناس . الأسفار المقدسة لعلي عبد الواحد وافي .

سُخط لله وفساد للناس فهو سيئة ، والله سبحانه عادل وكريم ، ومن عدله ان يجزي فاعل السيئة بما يعادلها من العذاب ، ومن كرمه أن يعفو . وان يضاعف لفاعل الحسنة اضعافاً تزيد إلى عشرة أمثال ، أو إلى سبعمئة ، أو إلى ما لا يبلغه العد والاحصاء وفقاً لنوايا المحسن وصفاته وأوضاعه . انظر تفسير الآية ٢٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٤١٢ .

ومن أحاديث النبي (ص) في هذا الباب قوله : ان الله تعالى قال : الحسنة عشر أو أزيد ، والسيئة واحدة أو عفو ، فالويل لمن غلب آحاده أعشاره . وقال : يقول الله : إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وان لم يفعلها ، فان فعلها فعشر أمثالها ، وان همّ بسيئة فلا تكتبوها ، وان فعلها فسيئة واحدة.

قل انني هداني ربي الآية ١٦١ - ١٦٥ :

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ★ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ★ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ★ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ★ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ★

اللغة :

القيم الذي يقوم بأمر النـــاس .. والحنيف المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق . والنسك العبادة . والوِزْر الحمل الثقيل والمراد به هنا الذنب . وخلائف جمع خليفة ، وهو الذي يخلف من قبله . والابتلاء الاختبار .

الاعراب :

ديناً بدل من صراط مستقيم على المحل،لأن كل مجرور لفظاً منصوب محلاً، والمعنى هداني صراطاً مستقيماً ، مثل قوله تعالى : (ويهديك صراطاً مستقيماً) . وقيماً صفة لدين . وملة ابراهيم بدل من دين . وحنيفاً حال من ابراهيم . أغير الله (غير) مفعول أول لأبغي ، وربًّا مفعول ثـــانٍ ، لأن أبغي تتضمن معنى اتخذ ، وهي تتعدى إلى مفعولين . ودرجات مجرورة بإلى محذوفة .

المعنى :

(قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم) بعـــد أن ذكّر سبحانه الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً - أمر رسوله أن يعلن للمشركين وأهل الكتاب وغيرهم ان الله جل ثناؤه قد هداه بالفطرة الصافية ، والعقل السليم ، والوحي من عنده إلى السبيل الذي يبتعد به عن الباطل ، ويوصله إلى الحق (دينا قيماً ملة ابراهيم حنيفاً) الملة الدين ، والحنيف من ترك الأديان الباطلة ، واتبـــع دين الحق ، والمعنى ان الصراط الذي هدى الله به رسوله محمداً هو دين ابراهيم خليل الرحمن الذي يعظمه أهل الأديان جميعاً (وما كان من المشركين) بل من أعدى أعداء الشرك وأهله ، وهذا رد على مشركي قريش الذين زعموا انهم على دين ابراهيم.

(قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) . موضوع الآيــة السابقة أصول الدين والعقيدة بقرينة « وما كان من المشركين » وموضوع هذه الآية فروع الدين والشريعة لمكان الصلاة والنسك ، وعطف النسك عـلى الصلاة

من باب عطف العام على الخاص ، مثل قوله تعالى : « وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم – ٨٣ آل عمران » . والمحيا والممات هنا كناية عن الثبات والاستمرار ، والمعنى ان عبادة محمد (ص) وجميع ما هو عليه في حياته عقيدة ونية وعملاً يتجه به إلى الله وحده ، ولا يحيد عنه حتى الممات .

(لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . هذه الآية توضيح وتأكيد لما تضمنته الآية السابقة من التوحيد والاخلاص .. ومحمد (ص) أول المسلمين من أمته بطبيعة الحال ، لأنه صاحب الدعوة .

(قل أغير الله أبغي رباً) . ومن طلب هذا الرب فأين يجده ؟! : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ومن توهم وجهاً غير وجهه الكريم صدق عليه قول الشاعر :

سوف ترى إذا انجلى الغبار　　　أفرس تحتك أو حمار

(وهو رب كل شيء) . ورب كل شيء واحد لا ضد له ولا ند .

ولا تزر وازرة وزر أخرى :

(ولا تكسب كل نفس إلا عليها) . كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر فهو وليد غرائزه وظروفه وأوضاعه ، ومن نسب فعل الانسان إلى غيره فهو تماماً كمن ينسب الولد إلى غير أمه ، والثمرة إلى غير شجرتها (ولا تزر وازرة وزر أخرى) المراد بالوزر هنا الذنب ، قال تعالى : « ألا ساء ما يزرون » أي ما يفعلونه من الذنوب والآثام ، وهذه الجملة توضيح وتأكيد للجملة قبلها، ومعناها ان كل نفس (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) دون ما كسب أو اكتسب غيرها ، وهذا أصل ديني وعقلي لا يمكن نسخه ولا تعديله ، وقد فرع عليه علماء الكلام والفقهاء كثيراً من المسائل والأحكام .

وتسأل : ان هذه الآية تومىء إلى ان الانسان مسؤول عن نفسه وكفى ، اذن ، أين وجوب الجهاد ، وبذل النصح ، والتعاون على البر والتقوى ؟.

الجواب : ان موضوع الآية خاص بالمؤاخذة فقط ، وان الانسان لا يؤخذ

بجريرة غيره ، ولا صلة لها بالجهاد والنصح ، ولا بغيرهما من قريب أو بعيد ، لأن عدم المؤاخذة على ذنب الغير شيء، ووجوب الجهاد واصلاح الفاسد شيء آخر .

سؤال ثان : لقد اعتاد الناس أن يبذلوا المال والطعام عن أرواح أمواتهم ، وان يقرأوا سوراً من القرآن ، ويهدوا اليهم ثوابها ، فهل مثل هذا جائز شرعاً؟ وهل ينتفع به الأموات ؟ كيف ؟ والمفروض ان الأموات لا يعذبون بسيئات الأحياء ، فينبغي أن لا يتنعموا بحسناتهم ؟.

الجواب : قلنا : ان كلاً من العقل والشرع يأبى أن يؤخذ البريء بجرم المذنب ، وان يشاركه فيما يستحق من العقاب ، أما بالنسبة إلى الثواب فلا مانع في نظر العقل أن يشارك غيرُ المحسن المحسنَ في الثواب الذي استحقه على عمله، وقد ورد الشرع بذلك ، فوجب التصديق ، قال رسول الله (ص) : إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .. وقال : من مات وعليه صوم فليصم عنه وليه .. وقال : من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ، وكان له بعدد من فيها حسنات . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين و ين؟.

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على ان الميت ينتفع باهداء الثواب على عمل الخير والعقل لا يأبى ذلك اطلاقاً ، لأنه يتفق مع فضل الله وكرمه ، ولكن الناس توسعوا كثيراً ، وتجاوزوا الموارد المنصوص عليها ، وقد اتفق الفقهاء على ان كل من أتى بما لا نص فيه بقصد انه راجح شرعاً فقد ابتدع في الدين، وافترى على الله ورسوله .. فالأولى أن يُهدى الثواب إلى الميت رجاء أن ينتفع به من غير قصد الرجحان ديناً وشرعاً .

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) دون أن تستندوا إلى عقل أو وحي ، فاعترفتم بما هو معروف عندكم ، لا عند الحق ، وأنكرتم ما هو منكر عند أهوائكم وشهواتكم .

الأرض والبيت :

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم

فيما آتاكم) . خلق الله سبحانه هذه الأرض ، وجعلها مقراً صالحاً لنشأة الانسان بجوها وتركيبها، وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، وجهزها بجميع ما يحتاج اليه الانسان ، حتى وسائل الانس والترفيه . تماماً كالدار التي حوت خيرات كل شيء ، ثم اسكن الانسان فيها بعد أن زوده بالمؤهلات والاستعداد الكامل للانتفاع بخيرات الأرض وبركاتها ، وشاءت حكمته تعالى أن يتفاوت الناس في تلك المؤهلات ، وأن يكون بعضهم فوق بعض في العقل والعلم وقوة الجسم ، واختط لهم منهجاً قويماً ليختبر الأقوياء[1] : هل يؤدون شكر هذه النعمة ، ويتجهون بقوتهم ومؤهلاتهم الى صالحهم وصالح اخوانهم من بني الانسان ، أو يتخذون منها أداة للظلم والاستغلال والتعاظم والتكاثر ؟. وقد دلت هذه الآية ان الله سبحانه قد أوجد الانسان على هذه الأرض للعلم والعمل النافع .

وتسأل : كيف تجمع بين هذه الآية ، وبين الآية التي تقول : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ؟.

الجواب : لا تنافي بين الآيتين ، لأن العلم والعمل النافع عبادة لله ، بل من أفضل العبادات ، وأكمل الطاعات .

(ان ربك سريع العقاب) ابتلى عباده ليتميز الخبيث من الطيب ، فيعاقب هذا ، ويثيب ذاك (وانه لغفور رحيم) وليس لرحمته حد ، ولا لعفوه قيد .. أجل ، ان التوبة تجعل العفو جزاءً وفاقاً ، ويبقى عفو السخاء والكرم ، وعطاء الجود الذي لا موجب له إلا ذاته القدسية ، وهذا هو الدليل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير — ٣٠ الشورى) . أي كثير مما كسبت أيدينا .

اللهم انّا نستغيث بك من أنفسنا ، ونسألك العفو عن أوزارنا .

---

[1] عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة بينا معنى الاختبار من الله لعباده .

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

مكية ، وآياتها ٢٠٥ ، وفي مجمع البيان ان قوله تعالى : واسألهم عن القرية – إلى قوله – بما كانوا يفسقون نزل بالمدينة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

كتاب أنزل اليك الآية ١ – ٣ :

أَلمص★ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ★ إِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ★

اللغة :

الحرج الضيق . والمراد بالذكرى للمؤمنين التذكر النافع لهم مثل هدى للمتقين.

الاعراب :

كتاب خبر لمبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب . ولتنذر الفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق بأنزل ، وذكرى عطف عليه .

وأولياء مفعول تتبعوا ، ومن دونه متعلق بمحذوف حالاً من أولياء . وقليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي تذكرا قليلاً ما تذكرون ، وما حرف زائد يؤكد معنى القلة ، وتذكرون أي تتذكرون ، حُذفت إحدى التائين للتخفيف .

المعنى :

(ألمص) هكذا تُكتب وتُلفظ بأسماء حروفها : ألف . لام . ميم . صاد . ومضى الكلام عن هذه في أول سورة البقرة . (كتاب أنزلناه اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) . الخطاب لمحمد (ص) ، والمراد بالكتاب القرآن ، وبالمؤمنين من ينتفع بالقرآن ، سواء أكان سبباً لإيمانه أم لتثبيتهم واستمرارهم على الإيمان ، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن إلى النبي (ص) لينذر به الملحدين والمشركين وأهل الأديان الباطلة،ولينتفع به أصحاب الفطرة السليمة .. وهذه مهمة شاقة يلقى النبي (ص) صعاباً جساماً من الكافرين الذين يجابههم بالقرآن،لأنه يستهدف إبطال عقائدهم ، وتغيير تقاليدهم وأوضاعهم التي توارثوها أباً عن جد مئات السنين .. ومن ثم وجد النبي ضيقاً بما يلاقيه من عنادهم ومقاومتهم : « ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون ــ ٩٧ الحجر » . « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ــ ٥ المزمل » . وقد أمره الله سبحانه أن يصبر ويمضي يتذكر ويذكر .

(اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم) . في الآية السابقة أمره الله أن يبلغ ولا يحفل بمقاومة المعاندين ، وفي هذه الآية أمر الناس أن يتابعوا الرسول ، ويعملوا بالقرآن . قال علي المرتضى (ع) : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » والعكس صحيح أيضاً (ولا تتبعوا من دونه أولياء) لأنه ليس دون القرآن إلا الضلال والأهواء (قليلاً ما تذكرون) وتتعظون بمواعظ الله ونصائحه،لأنكم لا تتورعون عن شيء ولا تخشون العواقب: وإنما يتذكر من يخشى ، وقوله : (الا قليلاً) فيه ايماء إلى قلة من اتعظ وتذكر منهم .

وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ – ١٠ :

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ★ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ★ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ★ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ★ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ★ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ★ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ★

اللغة :

يطلق البأس على الشجاعة والقوة ، وعلى الضرر والحرج ، يقال : لا بأس به أي لا ضرر ولا حرج به ، والمراد به هنا العذاب . والبيات الليل . وقائلون من القيلولة في النهار : والمراد بالكلمتين ان الهلاك نزل بهم حين دعتهم واستراحتهم . فلنقصن أي نتلون . والوزن مقابلة أحد الشيئين بالآخر . ومعايش جمع معيشة ، وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب .

الإعراب :

كم في موضع رفع بالابتداء ، وجملة أهلكناها خبر . وقيل : ان بياتاً مصدر في موضع الحال،أي بائتين ، وهم قائلون عطف على بياتاً أي بائتين أو قائلين، والأرجح ان بياتاً مفعول فيه لأنها بمعنى (ليلاً) . ودعواهم اسم كان،والمصدر

المنسبك من ان قالوا خبرها . وبعلم في موضع الحال أي عالمين . والوزن مبتدأ، ويومئذ خبر ، والحق صفة للوزن . وبما كانوا (ما) مصدرية تسبك وما بعدها بمصدر مجرور بالباء متعلقاً بخسروا ، أي خسروا أنفسهم بسبب ظلمهم. ومعايش مفعول جعلنا . وقليلاً ما تشكرون (قليلاً) صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي شكراً قليلاً ، وما حرف لتأكيد القلة .

المعنى :

(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون) . بعد أن أمر جل ذكره النبي الأكرم أن ينذر بالقرآن ، وأمر الناس أن يتبعوه — ذكّرهم في هذه الآيـة بمصارع الغابرين الذين أهلكهم الله بسبب اعراضهم عن ذكره وتكذيبهم لأنبيائه ، وانه تعالى أنزل العذاب بهم في الليل أو وقت القيلولة في النهار ، حيث الراحة والأمان . ليكون العذاب أعظم وقعاً عليهم ، وأشد تنكيلاً بهم ، وقال كثير من المفسرين : ان قوم لوط جاءهم العذاب ليلاً .. ولا أدري من أين جاءهم هذا العلم ، والله سبحانه يقول : « ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب — ٨١ هود » .

وقال فريق من المفسرين : ان في الآية قلباً ، لأن الاهلاك يأتي بعد مجيء البأس ، ومن حق التعبير أن يكون هكذا : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها.. وذكر الرازي لتأويل الآيـة ثلاثة أوجه ، وزاد الطبرسي رابعاً . والصحيح انه لا يجب ترتيب الكلام حسب ترتيب المعنى في الواقع إذا كان الترتيب الواقعي واضحاً ، ومعروفاً للجميع ، كما هو في الآية ، والفاء كما تأتي للتعقيب فإنها تأتي أيضاً زائدة وفي صدر الكلام ومفسرة ، والبأس الذي دخلت الفاء على مجيئه مفسرة لنوع الاهلاك الذي حل بالمشركين .

(فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا إلا ان قالوا انا كنا ظالمين) . كان المشركون يهتفون باسم الأصنام ، وهم آمنون مطمئنون ، ولما رأوا العذاب تبرأوا من آلهتهم ، واتجهوا لله مقرين على أنفسهم بالكفر والشرك ، ولكن بعد أن انقطع التكليف ، وانسد باب التوبة .

(ولنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) . بعد أن أشار الى اهلاكهم في الدنيا أشار إلى أنهم يُسألون في الآخرة ، ويُسأل المرسلون اليهم ، ويشهدون عليهم (فلنقصن عليهم بعلم ومـــا كنا غائبين) ولا يكتفي جل شأنه بسؤالهم وسؤال المرسلين اليهم ، بل هـــو أيضاً يتلو عليهم كل شيء قالوه وفعلوه : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد – ٦ المجادلة » . والقصد من ذلك ان تشتد بهم المحنة ، ويشعروا بنقمة الله وغضبه عليهم جزاءً على عصيانهم وتمردهم .

ميزان الأعمال :

(والوزن يومئذ الحق) . كثر الكلام حول حقيقة الميزان الذي يزن الله فيه أعمال الناس ، حتى ان بعضهم قال : ان لهذا الميزان لساناً وكفتين .. والذي نفهمه من هذا الميزان – والله أعلم بمراده – انه المقياس الذي يميز الطائع من العاصي ، والخبيث من الطيب ، وهذا المقياس هو أمر الله ونهيه ، فإذا جاء أوانُ الحساب يُنظر إلى مـــا فعل الإنسان وما ترك ، ويُقارن بينهما وبين أمره ونهيه تعالى ، فإذا انطبق فعله وتركه على أمر الله ونهيه فهو من الذين ثقلت موازينهم ، وكان عند الله من المفلحين والراجحين ، وإلا فهو من الذين خفت موازينهم وكـــان من الظالمين الخاسرين أنفسهم بعذاب الحريق .

وبتعبير ثان : ان لكل شيء في هذه الحياة أصولاً ، وضوابط علماً كان أو أدباً أو فناً أو غير ذلك ، وبها يتميز الشيء عن غيره ، بل ويعرف جيده من رديئه ، وتسمى تلك الأصول والضوابط ميزاناً ومقياساً ومنهاجاً وحكماً ، وكذلك الحساب في الآخرة له أصول وضوابط ، وأطلق القرآن عليها كلمـــة الميزان ، وكلمة الصراط ، وهذه الأصول والضوابط ، أو الميزان لأعمال الناس وأهدافهم هو أمر الله ونهيه ، فشأنهما في محاكمة الانسان غدا كشأن الفقه والقانون في محاكمة المدعى عليه في هذه الحياة .

(فمن ثقلت موازينه) وهم الذين مُحصت أعمالهم عـــلى أساس أوامر القرآن ونواهيه فجاءت كاملة وافية (فأولئك هم المفلحون) لأنهم لم يعثروا في الامتحان

(ومن خفت موازينه) وهم الذين ظهر البعد والتباين بين أعمالهم ، وبين أحكام الله وتعاليمه (فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) . قال كثير من المفسرين : ان المراد بالظلم هنا الكفر ، والصحيح انه التكذيب بآيات الله مطلقاً ، كما هو ظاهر الآية ، سواء أدلت تلك الآيات على وحدانية الله ، أم على رسالة رسله ، أم البعث ، أم على حلاله وحرامه .

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون) . بعد أن أمر سبحانه المشركين بقوله : واتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، وخوفهم من عذاب الدنيا بقوله : « وكم من قرية أهلكناها » ومن عذاب الآخرة بقوله : « فلنسألن الذين أرسل اليهم » بعد هذا كله ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم ، وانه هو الذي مكنهم في هذه الأرض ، وأعطاهم القدرة على تطويعها واستخدامها في مصالحهم ، قال أحد المفسرين الجدد :

« لولا تمكين الله للانسان في هذه الأرض ما استطاع هذا المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة .. وإلا كيف يمضي ، والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ، وهي بزعم الملحدين والماديين التي تصرف نفسها بنفسها ، ولا سلطان وراء سلطانها » .

ولقد خلقناكم الآية ١١ - ١٨ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ★ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ★ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ★ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ★ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ★

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ★ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ★ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ★

اللغة :

الهبوط الانحدار والسقوط . والصغار الذلة والهوان ، والصاغر الذليل . والإنظار والإمهال والتأخير والتأجيل بمعنى واحد . وذأم الشيء عابه ، والذام والذيم أشد العيب . والمدحور المطرود .

الاعراب :

ما منعك (ما) استفهام انكاري ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة منعك خبر . وان لا تسجد (لا) زائدة ، والمصدر المنسبك من أن والفعل مجرور بمن محذوفة ، والتقدير ما منعك من السجود ؟ وقيل : صراطك منصوب بنزع الخافض ، أي لأقعدن لهم على صراطك . ومذؤوماً حال ، ومدحوراً مثله . لمن اتبعك اللام للابتداء ، ومن شرطية مبتدأ ، ولأملأن اللام واقعة في جواب قسم محذوف واملأن جواب القسم ، وسادة مسد جواب الشرط ، وهو «من» ، والجملة من القسم والجواب خبر المبتدأ .

حول أصل الانسان :

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) . الخطاب لبني آدم ، ومعنى خلقناكم انه جل

ثناؤه أنشأ أصلنا الأول من تراب،وأنشأنا نحن من النطفة التي تنتهي إلى التراب، والمراد بصورناكم انه جعل المادة الأولى التي خلقنا منها بشراً سوياً على الهيئة التي هو عليه : « أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً – ٣٧ الكهف ».فالفرق بين الخلق والتصوير ان خلق الشيء معناه ايجاده وانشاؤه ، أما التصوير فهو اعطاء الشيء صورة خاصة بعد إيجاده .

وتسأل : ان أتباع دارون يقولون : إن الإنسان وجد أول ما وجد على غير صورته هذه ، ثم انتقل من نوع إلى نوع ، حتى انتهى إلى ما هو عليه الآن؟

الجواب : نحن مع الدليل العلمي الذي لا يقبل الشك ، والاحتمال المضاد ، لأنه متى طرأ الاحتمال بطل الاستدلال ، وهذه حقيقة يقينية بديهية . لا ينكرها حتى التجريبيون الذين حصروا مصدر المعرفة بالخبرة الحسية .. وأهم الأدلة التي اعتمدها أصحاب نظرية النشوء والارتقاء هي الحفريات . حيث كشفت عن وجود أنواع من الحيوان بعضهـــا أرقى من بعض ، وان زمن الأرقى متأخر عن زمن الأدنى ، وان بينها وبين الانسان شبهاً في كثير من المزايا .

ونحن لا ننكر هذه الكشوف ، ولكنها لا تثبت نظرية دارون ، لأنها لا تحتم أن يكون الأرقى متطوراً من الأدنى في يقين لا يقبل الشك ، بل لا يجوز ذلك ويجوز أن يكون كل من الأرقى والأدنى نوعاً مستقلاً بذاته عن الآخر أوجدته ظروف ملائمة له ، ثم انقرض حين تغيرت ظروفه ، كما انقرض غـــيره من أنواع الحيوان والنبات .. وإذا جاز الأمران،فالأخذ بأحدهما دون الآخر تحكم .

وقرأت فيما قرأت ان كثيراً من العلماء ، وفيهم الملحدون ، كانوا يؤمنون بالنظرية الداروينية ، ولما تقدموا في ميدان العلم عدلوا عنها ، لما ذكرنا ، ولأن في الانسان خصائص عقلية وروحية تجعله مستقلاً عن جميع المخلوقات وأنواعها.

(ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين). تقدم نظيره في الآية ٣٤ سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ .

(قال ما منعك ان لا تسجد إذ أمرتك) . و (لا) هنا زائدة ، ويدل على زيادتها سقوطها من الآيـة ٧٥ من سورة ص : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » ولأن المعنى لا يستقيم مع وجودها اللهم إلا أن تكون

كلمة منعك متضمنة معنى حملك ، ويكون تأويل الكلام هكذا : ما حملك على ترك السجود ، والمراد بالسجود سجود التحية ، لا سجود العبادة. وهو طاعة لله تعالى ، لأنه بأمره .

(قال خلقتني من نار وخلقته من طين) . وما فعل ابليس فعلة إلا ابتدع لها مبرراً ، والشرط الأساسي لكل مبرر في منطقه أن يخالف إرادة الله ومرضاته ، هذا هو الأصل الأول الذي يعتمده ابليس في جميع أقواله وأفعاله .. يجتهد الفقيه في البحث ليهتدي الى ما شرع الله من أحكام، أما ابليس فيشرع أحكاماً ترتكز على « قال الله .. وأقول » .. أمره الله بالسجود لآدم فرفض ولم يعتذر . بل اعترض بجرأة وصلافة ، وقال : كيف اسجد لمن أنا خير منه ؟! وكأنه يقول لله تعالى علواً كبيراً : كان الأولى ان تأمر آدم بالسجود لي ، دون أن تأمرني بالسجود له .. وابتدع مبرراً لهذه الأولية ، وهو افتخاره بخلقه ، وتعصبه لأصله: « خلقتني من نار وخلقته من طين » .

فالعزة والكرامة في منطق ابليس بالتعصب للأصل ، لا بتقوى الله وطاعته ، وعند الله بالفعل والتقوى ، لا بالأصل ، والعلم عند ابليس هو القياس والأهواء ، وعند الله هو الوحي وحكم العقل الذي لا يختلف فيه اثنان لبداهته ووضوحه . فمن تعصب لأصله ، أو قاس الدين برأيه فقد اقتدى بإبليس ، من حيث يريد أو لا يريد ، قال صاحب تفسير المنار : « روي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده ان رسول الله (ص) قال: أول من قال قاس أمر الدين برأيه ابليس ، قال الله تعالى له : اسجد لآدم ، فقال : أنا خير منه الخ . ثم قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس » .

وتسأل : تدل هذه الآية على ان الحياة توجد من النار ، ومثلها الآية ١٥ من سورة الرحمن : « وخلق الجان من مارج من نار » . المارج الشعلة ذات اللهب الشديد .. وكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ؟.

الجواب : ان الكائنات الحية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم على أنواع ، منها عالم الملائكة ، ومنها عالم الجان ، ومنها ما يعيش في هذه الأرض ، وهذا

النوع الثالث منه ما تحيا بالماء كالحيوان والنبات والانسان ، وهو المقصود من التعميم بقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ومنه ما تحيا بالنار .. وبكلمة ان الماء ضرورة لحياة الانسان — بموجب طبعه وتكوينه — وكذلك سائر أفراد الحيوان وأنواعه.والنبات وأصنافه ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك مخلوقات تكون النار ضرورة لحياتها . قال أهل الاختصاص بعلم الحشرات : ان نوعاً منها لا تحيا إلا بالهواء السام ، وآبار البترول .

(قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين). قيل : ضمير منها يعود الى الجنة . وقيل : إلى السماء .. ونحن لا نهتم بالتفاصيل إذا لم يرد لها ذكر في الكتاب أو السنة ، ونكتفي بالاجمال ، وسياق الكلام يدل على ان الضمير يعود الى الدرجة الرفيعة عند الله ، والمعنى ان الله سبحانه طرد ابليس من رحمته الى لعنته جزاء على تكبره وامتناعه عن طاعته ، فان السجود لآدم بأمر الله هو طاعة لله ، وليس لآدم .. وكل من يرى لنفسه الحق في ان يرفض حكم الله فقد حقت عليه اللعنة الى يوم الدين .

(قال انظرني الى يوم يبعثون) . لحاجة في نفس ابليس — سيصرح بها — طلب الامهال إلى يوم يبعثون (قال — تعالى — انك من المنظرين) . قيل : ان ابليس طلب الامهال الى اليوم الذي تحيا فيه جميع الأموات للحساب والجزاء، فرفض الله طلبه هذا ، وأمهله الى اليوم الذي تموت فيه جميع الأحياء ، وهو المشار اليه بالآية ٣٨ من الحجر : « قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وهذا اليوم هو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض » .

(قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) . قطع ابليس عهداً على نفسه انه سينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة الله الى لعنته.وبيّن نوع هذا الانتقام بأنه سيقعد على الطريق المؤدية الى الله وطاعته، ويصد عنها آدم وذريته .

(ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) . واتيانه لهم من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته ،

وجده في اضلالهم واغوائهم ، بحيث لا يدع معصية إلا أغراهم بها ، ولا طاعة إلا ثبطهم عنها .. فان أمرهم الله بالجهـاد والتضحية بالنفس حبب إبليس اليهم الحياة ، وان حثهم سبحانه على بذل المال في سبيله خوّفهم اللعين من الفقر ، وان نهاهم الجليل عن الخمر والزنا والميسر ونحوه زيّن لهم الخبيث الملذات وحب الشهوات ، وان توعدهم الله بالنار ، ووعدهم بالجنة قال لهم عدو الله وعدوهم: لا جنة ولا نار .. وهكذا يعد لكل حق باطلاً ، ولكل قائم مائلاً .. وتنطبق هذه الصورة كل الانطباق عـلى الذين باعوا دينهم للشيطان . يبررون أعمـال المستعمرين : وقتل النساء والأطفال . وتشريد الآمنين من ديارهم .

(قال فاخرج منها مذؤوماً مدحوراً) . الذأم العيب والاحتقار ، والدحـر الطرد . وقد خص الله بهما إبليس ، حيث أنزله الله سبحانه من المقام الذي كان فيه ، أما جهنم فانها له ولحزبه الذين أطاعوه ، وعصوا أمر الله (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) ونحو هذه الآية قوله تعالى : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » .

وهنا تساؤلات تطلب أجوبتها ، وهي أولاً : هل كان خطاب الله لابليس بواسطة أو بلا واسطة ؟ ثانياً : ان قول إبليس : (فبما أغويتني) يدل عـلى ان اغواءه كان من الله ، فكيف يعاقبه عليه ؟ ثالثاً : لماذا أمهل سبحانه إبليس وهو يعلم فساده وافساده ؟.

ونجيب عن هذه التساؤلات الثلاثة بايجاز شديد .. فعن التساؤل الأول : نحن نؤمن بوجود هذا الحوار ، لأن الوحي دل عليه ، والعقل لا يأباه ، وما علينا أن نبحث عن هيئته وكيفيته ، ما دام الوحي لم يصرح به .

وعن التساؤل الثاني : ان الغواية من إبليس ، وليست من الله تعالى ، وقد اعترف إبليس بنفسه على انه هو الغاوي في الآية ٣٩ من الحجر : « ولأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » . وكيف يغوي الله العبد ، ثم يعاقبه على الغواية ؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . أما قول إبليس : (فبما أغويتني) فمعناه بما امتحنتني به من الأمر بالسجود لآدم الـذي أوقعني في الغي والعصيان فاني سأفعل كذا وكيت .. وبكلمة ان قول إبليس هذا هو تعبير ثانٍ عن قوله:

لأنك أمرتني وعصيتُ أمرك فسوف لا أدع أحداً يطيع لك أمراً .

وعن التساؤل الثالث : ان مشيئة الله اقتضت أن يمد الانسان بالعقل والتذكر على أيدي الرسل . وبالقدرة على فعل الخير والشر ، وأن يدع له الخيار ، وأن يبتليه بالشهوات والمغريات التي يوسوس بهـا إبليس وجنوده تمييزاً للطيب من الخبيث ، والمخلص من الخائن .. أنظر تفسير الآية ٩٤ من المائدة ، فقرة « معنى الاختبار من الله » ، والمجلد الثاني من تفسيرنا هذا ص ٣٢٤ ، فقرة « قرين الشيطان » .

ويا آدم اسكن أنت وزوجك الآية ١٩ - ٢٥ :

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ★ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ★ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ★ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ★ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ★ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ★ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ★

اللغة :

الوسوسة الصوت الخفي ، وقد يكون المراد بها هنا ما يجده الانسان في نفسه من الخواطر الضارة . ووُوري الشيء غُطي وستر . والسوءة ما يسوء الانسان ، والمراد بها هنا العورة ، حيث يسوؤه ظهورها . وقاسمهما أي أقسم لهما . ودلاهما استنزلهما . والغرور الخداع بالباطل . وطفقا أخذا وشرعا . ويخصفان أي جعلا يلصقان ورقة على ورقة . من قولهم خصف الاسكافي النعل .

الإعراب :

فتكونا يجوز الجزم عطفاً على لا تقربا ، والنصب بأن مضمرة بعد الفاء . والمصدر المنسبك من أن تكونا مجرور بإضافة مفعول لأجله محذوف ، أي ما نهاكما الا مخافة كونكما ملكين . تلكما المشار اليه الشجرة . والمخاطب بالاشارة اثنان ، ولذلك ثنى حرف الخطاب . وبعضكم مبتدأ وعدو خبر ، ولبعض متعلق بعدو . ولكم في الأرض مستقر مبتدأ وخبر .

المعنى :

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) . مر تفسيره مفصلاً عند الآية ٣٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٤ .

(فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوءاتهما) . وُوري من المواراة أي الستر . والسوءة العورة . وعنهما أي لا يرى احدهما عورته ، ولا عورة الآخر ، أما وسوسة الشيطان فلا ندري كيف كانت ، ولكننا نؤمن بأن أي خاطر أو قول أو عمل يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو من وحي الشيطان.. ومهما يكن ، فان الشيطان أظهر النصح لآدم وحواء ، وأبطن الغدر ، ويوحي ظاهر الآية بأن إبليس كان يعلم ان من أكل من هذه الشجرة تبدو عورته ،

وان من بـــدت عورته يطرد من الجنة ، ومن أجل هذا احتال لاخراجهما من الجنة ، (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما اني لكما من الناصحين) . عكس اللعين الآية رأساً عـلى عقب .. فحلف انه لهما من الناصحين ، وهو العدو اللـدود ، وحلف انهما إذا أكلا من الشجرة يكونان من الخالدين ، وهو على علم اليقين ان عاقبة الأكـل هو الطرد والشقاء والموت .. وهكـذا يفعل شياطين الإنس يوهمون البسطاء بأن السراب ماء ، والماء سراب .

(فدلاهما بغرور) دلاهما من التدلية أي اسقطهما ، والغرور الخداع بالباطل ، والمعنى ان الشيطان بعد أن حلف لآدم وحواء انه ناصح أمـين استجابا لاغرائه ظناً منهما انه لا أحد يجرأ على الحلف بالله كاذباً ، لأن اللعين هو أول من تجرأ على اليمين الكاذبة ، كما انه أول من تعصب لأصله ، وقاس برأيه (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . طفقا شرعا ، ويخصفان يضعان . والمعنى حين أكلا من الشجرة ظهرت لكل واحد منهما عورته وعورة صاحبه ، وكانت من قبل في حجاب ، فخجلا ، وشعـرا بالحاجة إلى سترها ، فشرعا يجمعان من ورق شجر الجنة ، ويضعانه على العورة .

(وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين) . هذا تقريع من الله لآدم وزوجه على اغترارهما بقول إبليس ، وضعفهما تجاه اغوائه وإغرائه ، وفي الوقت نفسه فيه تنبيه إلى وجوب التوبة والانابـة ، ولذا سارعا إلى الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) . وقد غفر الله ورحم بدليل الآية ٣٧ من سورة البقـــرة : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التوّاب الرحيم » .

(قال اهبطوا بعضــكم لبعض عدو) . الخطـــاب في اهبطوا لآدم وزوجه وإبليس ، والمراد ببعضكم إبليس وقبيله ، وببعض آدم وذريته ، وسبب هــذا العداء هو إبليس ، لأنه تعمد إغواء الانسان وإفساده انتقامـاً منه لمأساته ، أما الانسان فانه لا يرى إبليس كي يناله بأذى ، قال تعالى : « انه يراكم هو وقبيله

من حيث لا ترونهم – ٢٧ الأعـراف » . وقال : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً – ٦ فاطر » .

(ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) . وهكذا كتب الله علينا، بعد أن كان من آدم ما كان، ان نحيا ونموت في هذه الأرض ، ثم نخرج منها للحساب والجزاء بعد الذي قاسيناه من الشقاء والعناء .

قصة آدم كما هي في القرآن :

ذكر الله سبحانه قصة آدم في الآية ٣٣ وما بعدها من سورة البقرة ، وفي الآية ١٨ وما بعدها من سورة الأعراف ، وفي الآية ١١٥ وما بعدها من سورة طه ، وتتلخص القصة كما جاءت في هذه الآيات :

بأن الله جلت عظمته أنبأ ملائكته انه سينشيء خلقاً في هذه الأرض ، يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزقه ، وان الملائكة قالوا له : كيف تجعـل في الأرض من يفسدون ويسفكون الدماء تنافساً على خيراتها ، ونحن دائبون عـلى العبادة لك ؟! فأجابهم سبحانه بما اطمأنت له قلوبهم ، وطلب منهم أن يسجدوا لآدم إذا سواه بشراً . وبعد أن خلقه من تراب ، وأعطاه الصورة النهائية أقبل الملائكة على آدم معظمين له وساجدين إلا إبليس جهر بالعصيان ، وأعلن التمرد.

ولما سأله الله قال : أنا خير منه عنصراً .. فجازاه الله بالطرد واللعنـة .. وعلّم سبحانه آدم أسماء الكائنات كلها ، وكانت الملائكة تجهلها ، فأمر الله آدم أن ينبئهم بها بياناً لفضله ، واظهاراً لحكمة استخلافه في الأرض ، فأخبرهم آدم بما كانوا يجهلون ، وحينئذ تبينوا فضله ، وأدركوا حكمة الله في خلقه .

وجعل الله لآدم زوجة من جنسه ، وأسكنهما جنة من نعيمه ، وأطلق لهـما العنان في اجتناء ما يريدون من ثمارها، ونهاهما عن شجرة واحدة من أشجارها ، وضمن لهما إذا هما امتثلا أن لا يجوعا ولا يظمآ ولا يعريـا ، ثم حذرهـما من إبليس واغوائه .. وعز على اللعين أن يشقى هو، وينعم الذي كان السبب لشقائه

وطرده من رحمة الله ، فدلف إلى الجنة ، وجدّ في استمالة آدم وزوجه ، فافتتنا بزخرف قوله وزلا باغوائه ، وكان عليهما لباس يواري عورتهما لا يراهما من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر .. ولما أكلا من ثمر الشجرة تهافت اللباس عنهما وظهرت العورة منهما ، فبادرا إلى سترها بورق الجنة .

فناداهما الجليل معاتباً ومؤنباً على اغفال نصيحته ، ونسيان تحذيره من إبليس ، فتضرعا اليه بالاعتراف والندم ، وطلبا الرحمة والمغفرة ، فرحم وغفر ، ولكنه طردهما من نعيم ما كانا فيه ، وأسكنهما هذه الأرض التي جعل فيها طريقين : هدى وضلالاً ، ووعد من اتبع هداه بالجنة ، وتوعد من ضل بالنار ، وأنبأ آدم وذريته بأن العداوة بينهم وبين ابليس ستظل قائمة إلى آخر يوم ، وحذرهم من فتنته وغوايته .

هذا تلخيص ما في القرآن لقصة آدم وزوجه ، والناس فيها على قولين : بين جاحدين بالوحي ، وبين مؤمنين به ، وهؤلاء على فئتين : فئة تجاوزت ظاهر النص القرآني ، واعتمدت الاسرائيليات في تفسير جنة آدم وغيرها ، وان هذه الجنة كانت في الدنيا ، وتسمى جنة عدن ، وان الشجرة التي أكل منها آدم وحواء هي شجرة الحنطة ، وانهما سترا سوءاتهما بورق التين . وان ابليس دخل الجنة ، وهو في جوف حية ، إلى غير ذلك مما لا حديث فيه ، ولا وحي .. وفئة شطحت الى ما وراء الحس ، وفسرت الشجرة بالامتحان ، والشيطان بالشهوة ، والسوءة بالرذيلة ، إلى غير ذلك من فراسة الصوفية وأذواقهم .

ونحن نقف موقفاً وسطاً بين الفئتين ، فنؤمن اجمالاً بما أوحى به ظاهر النص من ان الشجرة والسوءة والورق ، كل ذلك كان من الكائنات الحسية ، لأنها هي المدلول الحقيقي للفظ ، ولا موجب للتأويل ، ما دام العقل يتقبل المعنى الظاهر ، ولا يرفضه .. ولا نتحدث عن حقيقة جنة آدم ، وانها كانت في هذه الدنيا أو في غيرها ، ولا عن نوع الورق الذي ستر به آدم وحواء عورتيهما ولا عن شخص الشجرة ، ولا كيف دلف ابليس الى الجنة ، لأن هذه التفاصيل من علم الغيب ، ولم ينزل بها وحي والعقل يعجز عن إدراكها .. وعن الإمام أحمد انه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي » يريد

التفسير بغير المعنى الظاهر من كلام الله تعالى ، لأنه من الذين يستدلون بهـذا الظاهر في الأصول والفروع .

اللباس الحسي والمعنوي الآية ٢٦ ـ ٢٧ :

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ★ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ★

اللغة :

المراد بالريش هنـــا ما كان فاخراً من اللباس والأثاث ، ومثله الرياش . والفتنة الابتلاء والاختبار . والقبيل الجماعة كالقبيلة .

الاعراب :

لباس التقوى مبتدأ أول ، وذلك مبتدأ ثان ، وخير خبره ، والجملـة خبر المبتدأ الأول . لا يفتننكم مضارع مبني على الفتح لفظاً لاتصاله بنـون التوكيد ، ومحله الجزم لمكان لا الناهية . كما أخرج الكاف بمعنى مثل ، صفة لمفعول مطلق محذوف ، وما مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور باضافة مثـل ، والتقدير لا يفتننكم فتنة مثل فتنة اخراج أبويكم . وجملة ينزع عنهما حال من أبويكم .

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية ١٤١ من الأنعام ما تفضل به على عباده من الطعام ، فقال : « وهو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر » . وذكر تعالى في الآية التي نحن بصددها ما أنعم به على عباده من اللباس ، فقال :

(يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً) . الخطاب لجميع بني آدم ، وأنزلنا عليكم ، أي أعطيناكم ، قال تعالى : « وأنزلنا من الأنعام ثمانية أزواج » . وقال : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » .. وقد امتن سبحانه على عباده بما أنعم عليهم من اللباس على اختلاف أنواعه ، من الأدنى الذي يواري السوءة إلى الريش ، وهو ما كان فاخراً من اللباس والأثاث (ولباس التقوى ذلك خير) وهو الخوف من الله والعمل الصالح ، وأطلق اللباس على التقوى ، لأنها تقي صاحبها من عذاب الله ، كما يقي اللباس من الحر والبرد ، قال تعالى : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم – ٨١ النحل » (ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) أي ان الله أعطاكم اللباس تفضلاً منه لتعملوا بطاعته ، وتنتهوا عن معصيته .

(يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما) . لا يفتننكم الشيطان أي لا تغفلوا عن فتنته وخداعه ، وينزع عنهما لباسهما ، أي كان الشيطان سبباً لنزع اللباس عنهما ، وإظهار عورتيهما .

أشار سبحانه في الآية السابقة إلى عداوة الشيطان لآدم ، وكيف كاد له ، حتى أخرجه وزوجه من حياة الراحة والهناء إلى حياة التعب والعناء ، وفي هذه الآية حذر جل ذكره أبناء آدم أن يوقعهم الشيطان في شباكه وفتنته ، ويحملهم على معصية الله ، ليصدهم عن دخول الجنة ، كما خدع أبويهم من قبل ، وكان سبباً لكشف عورتيهما ، واخراجهما من الجنة .. وبديهة ان المنع من دخول الجنة أيسر من الاخراج منها بعد الدخول ، فان طرد المحتل أكثر صعوبة من صد من يحاول الاحتلال ، قال بعض الواعظين : ان ذنباً واحداً أخرج آدم من الجنة بعد أن دخلها آمناً ، فكيف يدخلها أبناؤه ، وقد تراكمت عليهم الذنوب .

(انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . يرانا الشيطان وجنوده، ونحن لا نرى واحداً منهم ، بهذا خبر الوحي ، ونحن به من المؤمنين (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . تومىء هذه الجملة إلى جواب عن سؤال مقدر ، وتقرير السؤال : إذا كان الشيطان يرانا ولا نراه فمعنى هذا انه يقدر علينا ، ونعجز عنه ، وانه يستطيع اغتيالنا متى شاء ، ولا نستطيع التحفظ منه، فكيف صح الأمر بالحذر منه ، والنهي عن الاصغاء اليه ؟.

وتقرير الجواب بنحو من التفصيل : أجل ، نحن لا نرى الشيطان بشخصه، ولكنا نحس بآثاره ، وهي وسوسته ان لا جنة ولا نار ، ونحو ذلك .. فمن آمن بالله واليوم الآخر يعرض عن هذه الوسوسة ، ولا يستجيب لها ، ويتعوذ منها وممن يوسوس بها ، فينقلب الشيطان عنه خاسئاً خاسراً ، ومن كفر بالله واليوم الآخر يندفع مع هذه الوسوسة ، ويستولي الشيطان عليه ، فيقوده حيث شاء ، ومتى شاء ، وهذا معنى قوله تعالى: (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أما المؤمنون فلا ولاية للشيطان عليهم ، لأنهم أسلموا قيادهم لله وحده : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

وقال بعض المفسرين : ان الشياطين التي لا نراها هي المكروبات يحملها الذباب والبعوض إلى جسم الانسان، فتتوالد فيه وتنمو بسرعة ، وتسبب الأمراض المستعصية .. وهذا تفسير لمراد الله تعالى بالحدس والتخمين .. وما هو من منهجنا في شيء .

واذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ ـ ٣٠ :

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ★ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ★ فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ★

اللغة :

الفاحشة المعصية الكبيرة ، والفعلة المتناهية في القبح . والقسط العدل .

الإعراب :

واقيموا معطوف على معنى الأمر بالقسط ، أي اقسطوا واقيموا . ومخلصين حال من واو ادعوه . والدين مفعول لمخلصين . كما بدأكم الكاف بمعنى مثل صفة لمحذوف ، أي تعودون عوداً مثل بدئكم . فريقاً هدى وفريقاً حق . الفريق الأول مفعول هدى ، والفريق الثاني مفعول أضل المحذوفة ، ودل السياق على الحذف .

المعنى :

(وإذا فعلوا فاحشة) ضمير فعلوا يعود إلى الذين لا يؤمنون المذكورين في آخر الآية السابقة ، وقال جماعة من المفسرين : ان المراد بالفاحشة ما كان يفعله عرب الجاهلية من الطواف بالبيت عراة نساء ورجالاً . والصحيح انها تعم جميع المحرمات التي كانوا يقترفونها ، وإذا نهوا عنها (قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) وفعل الآباء حجة ودليل عند المشركين وغيرهم ، حتى عند أكثر علماء الدين ، ولكنهم لا يشعرون .. أما زعم المشركين بأن الله أمرهم بالفاحشة فقد استدلوا عليه بما حكاه سبحانه عنهم في الآية ١٤٩ من سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » . ورد الله عليهم

هناك بقوله « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون الا الظن » . وفسرنا كلاً من الزعم ودحضه .

أما هنا فقد رد عليهم سبحانه بقوله : (قل ان الله لا يأمـــر بالفحشاء) بل « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء — ٢٦٨ البقرة » . (أتقولون على الله ما لا تعلمون) . وكل من قال من غير علم فهو مفتر كذاب ، وقد خاب من افترى .

(قل أمر ربي بالقسط) وهو العدل والاستقامة ، وقال الطبرسي : القسط اسم جامع لجميع الخيرات ، وأياً كان معنى القسط فان الأمر به يكذّب زعمهم بأن الله أمرهم بالفاحشة (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) . المراد بأقيموا وجوهكم العبادة لله ، وكلمة المسجد اسم لمكان السجود وزمانه ، ولكن كثر استعمالها في البناء المعروف المختص بالعبادة ، حتى صار اسماً لا يشاركه فيه سواه ، وليس المراد بكل مسجد جميع المساجد ، بل المـــراد مسجد من المساجد أياً كان[1] ، والمعنى ان الله يأمركم باقامة العبادة في أي مسجد اتفق ، على أن تخلصوا له في دينكم وعبادتكم (كما بدأكم تعودون) اليه يوم القيامة للحساب والجزاء ، وفي هذا تهديد وانذار لمن يخالف ما أمر الله بـه من العدل واقامة العبادة والاخلاص .

(فريقاً هدى) وهم الذين اتخذوا الله ولياً ، وامتثلوا أمـــره ونهيه ، ولم تخدعهم زخارف الشيطان وأباطيله (وفريقاً حق عليهم الضلالة) ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ذلك (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) ومن يتخـــذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً (ويحسبون انهم مهتدون) في ارتكاب الفواحش ، وتقليد الآباء ، والافتراء على الله الكذب «قل هل نُنَبِّئكم بالأخسرين أعمالاً الـذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً — ١٠٥ الكهف » .

---

١ للعموم معنيان : استغراقي مثل جاء كل رجال البلد ، اي لم يتخلف منهم احد ، وعموم بدلي مثل اريد رجلا من البلد أي اي رجل كان ، وكلمة كل وضعت للاستغراق ، وقد تستعمل للبدل كما في الآية .

يا بني آدم خذوا زينتكم الآية ٣١ ـ ٣٤ :

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ★ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ★ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ★ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ★

الإعراب :

عند ظرف لخذوا . وكل على حذف مضاف أي قصد كل مسجد . ومن حرم مبتدأ وخبر . والطيبات عطف على زينة . وهي مبتدأ ، وللذين متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ ، والتقدير هي مستقرة للذين آمنوا . وخالصة حال من الضمير في الخبر المحذوف ، وهو مستقرة . ويجوز رفع خالصة على أن تكون خبراً لهي ، وللذين آمنوا متعلق بخالصة . وما ظهر وما بطن بدل من الفواحش.

المعنى :

(يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) . قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة نساء ورجالاً ، وكانوا لا يأكلون في أيام حجهم

دسماً ، ولا ينالون من الطعام إلا ما يقيم الأود تعظيماً للحج ، فنزلت هذه الآية، وان النبي (ص) قال : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فنودي بقوله في الموسم ، ومن روايات هذا الباب ان امرأة جميلة من العرب نزعت ثيابها ووضعت يدها على فرجها وطافت . ولما صوبت اليها الأنظار أنشدت وهي تطوف :

اليوم يبدو بعضه أو كله | وما بدا منه فلا أحله
جهم من الجهم عظيم ظله | كم من لبيب عقله يضله
وناظر ينظر ما يمله

الجهم العبوس ، تريد أن فرجها عظيم في مكانه ، له هيبة وصيانة ، ولا أحد يستطيع الوصول اليه ، وانه يضجر من ناظره ويكرهه .

وأياً كان سبب النزول فان الله حرم نظر الأجنبي إلى عورة غيره رجلاً كان أو امرأة ، وأوجب ستر العورتين في الصلاة والطواف .. والمراد بكل هنا العموم البدلي ، دون العموم الاستغراقي ، ومثلنا للفرق بين العمومين في التعليق على الآية السابقة ، والمقصود هو الحث على النظافة والتطهير من الأوساخ والاحداث ، والتزين بجميل الثياب في صلاة الجمعة والجماعة والأعياد والطواف ، حيث يجتمع الناس ، فلا ينفر بعضهم من ريح بعض ومنظره ، والتجمل حسن حتى للفقير يتجمل حسب وضعه وحاله ، وفي الحديث : ان الله جميل يحب الجمال .

(وكلوا واشربوا) هذا رد على من حرم بعض المآكل والمشارب (ولا تسرفوا) في الأكل والشرب ، ولا في التزين باللباس والمظهر (انه لا يحب المسرفين) . وفي الآية ٢٧ من الإسراء : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » . وفي الحديث : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وعوّدوا كل جسم ما اعتاد » .. وقال الإمام علي المرتضى (ع) : كم أكلة منعت أكلات .

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . ظاهر اللفظ الاستفهام ، ومعناه المبالغة في نفي التحريم ، وانه من وساوس الشيطان ، لا من وحي الرحمن ، واضافة الزينة اليه تشعر بالحل ، أما لفظة الطيبات فتدل

بذاتها عليه ، لأن كل ما هو محرم فهو خبيث وليس بطيب ، والزينة تشمل جميع أنواعها من مسكن وملبس ومركب وأثاث ، وتشمل الطيبات جميع المأكولات والمشروبات ، والتمتع بالطيب والنساء ، والصوت الجميل والمنظر الجميل ، وكل ما لذ وطاب مما لم يرد النهي عنه في الشريعة ، واتفق علماء الإسلام قولاً واحداً على ان كل شيء حلال ، حتى يرد فيه نهي ، واستدلوا بحكم العقل بأنه لا عقاب بلا بيان ، وبقول الرسول الأعظم (ص) : الناس في سعة ما لا يعلمون . وقوله : ما حجب الله علمه عن العباد فهو موضوع عنهم. وقوله : كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي .

(قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) . أي ان الذين آمنوا الآن وفي هذه الحياة سوف يتنعمون غداً بزينة الله والطيبات من الرزق وحدهم لا يشاركهم فيها أحد من الذين كفروا وأشركوا ، أما في الحياة الدنيا فيتنعم بها الجميع المؤمنون والكافرون. (وكذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) من تتبع آي الذكر الحكيم يرى ان الله سبحانه يطلق كلمة العالم على من علم أحكام الله وعمل بها ، وأيضاً يطلقها على من يرجى منه ان يعلمها وينتفع بها إذا فصلت له . والمراد بقوم يعلمون هنا هم النوع الثاني الذين ينتفعون ببيان حكم الزينة والطيبات وغيرها ، ويصيرون بمعرفة حكم الله علماء بالدين. ويستدلون بآيات الله سبحانه على حلاله وحرامه .

وبعد أن أنكر سبحانه على من حرم الزينة والطيبات بيّن أصول المحرمات ، وهي :

١ — (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . تقدم بيانها عند تفسير الآية ١٥١ من الأنعام ، فقرة الوصايا العشر ، رقم ٤ .

٢ — (والاثم) وهو كل ما يعصى الله به من قول أو فعل. وعطف الاثم على الفواحش من باب عطف العام على الخاص ، نحو قوله تعالى : « كما أوحينا الى نوح والنبيين — ١٦٣ النساء » .

٣ — (والبغي بغير الحق) وهو الظلم ، وفي الحديث : «لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : من سلّ سيف البغي قتل به .

٤ – (وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) وليس بعد الكفر والشرك ذنب ، والشرك ضد التوحيد الذي يتلخص بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » وتقدم الكلام عنه في الوصايا العشر الآية ١٥٣ من الأنعام .

٥ – (وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) ومن ذلك ما كان عليه أهل الجاهلية الذين أشارت اليهم الآية ٢٨ الأعراف : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بهـا » . ولا رذيلة أقبح من القول بلا علم ، ولا فرق بين الافتراء على الله ، وبين الشرك به من حيث الحكم ، قال الإمام علي (ع) : من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله .

(ولكل أمة أجل) . المراد بالأمة هنا الجماعة ، كما في الآية ٢٣ من القصص : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » .. بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ٢٨ ان المشركين يفعلون الفواحش ، ويقولون : الله أمرنا بهـا وذكر في الآية ٣١ ما أحل الله ، وفي الآية ٣٣ ما حرم ، بعـد هذا قال : ولكل أمـة أجل . أي لكل جماعة ، ومنهم المشركون الذين افتروا على الله الكذب – أجل معين في هذه الحياة ، ثم يردون الى الله فينبئهم بما كانوا يعملون .. وفي هذا تهديد ووعيد للمشركين ومرتكبي الفواحش ولأهل البغي والاثم ، ولكل من قال على الله بغير علم .

(فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) تقدم تفسيره في الآية ١٤٥ من آل عمران ، فقرة « الأجل محتوم » ج ٢ ص ١٧١ .

فمن اتقى وأصلح الآية ٣٥ – ٣٩ :

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ★ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ★ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ★ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ★

الإعراب :

إما يأتينكم (إما) مركبة من كلمتين ان الشرطية ، وما زائدة مؤكدة ، ولدخولها على ان دخلت النون الثقيلة على يأتي . فمن اتقى جواب الشرط . حتى إذا (حتى) تفيد معنى الغاية ، ولا عمل لها هنا ، وكذلك إذا دخلت على الجمل . وإذا ظرف في محل نصب بقالوا . وأين ما كنتم تدعون (أين) مبتدأ ، و (ما) خبر ، أي أين الآلهة التي كنتم تعبدون . وكلما منصوبة على الظرفية ، واكتسبت هذه الظرفية من (ما) التي هي بمعنى وقت . وجميعاً حال من واو اداركوا . وضعفاً صفة لعذاب بمعنى مضاعف ، ومن النار متعلق بمحذوف صفة ثانية . ولكل متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف ، وضعف صفة للمبتدأ المحذوف ، والتقدير لكلٍ من الأخرى والأولى عذاب ضعف .

المعنى :

(يا بني آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . خلق الله سبحانه آدم وذريته ، وسنّ لهم منهجاً يسيرون عليه ، وأرسل اليهم من يبلغهم إياه ، وجعل الرسل المبلغين من أبناء جنس المرسلين اليهم ، لأن ذلك ادعى في التأثير ، وأبلغ في الحجة ، فمن سمع وأطاع فهو في أمن وأمان من غضب الله وعذابه (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . كان استاذنا رضي الله عنه وأرضاه يقرأ لتلاميذه مقطعاً مقطعاً من الكتاب المقرر للتدريس ، ويشرحه لهم بكلام يفهمه كل الناس . فإذا كان المقطع واضحاً ومفهوماً للجميع علق عليه بكلمة : « توضيح الواضحات من أشكل المشكلات » . ومشى الى غيره .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) تقدم في سورة الأنعام الآيــة ٢١ . (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) أولئك اشارة إلى من تقدم ذكرهم . وهم الذين اختلقوا في ما لا وجود له ، وكذبوا بما هو موجود. والمراد بالكتاب النصيب المكتوب من الآجال والأرزاق ، والمعنى ان الله يدع الكاذبين والمكذبين يستوفون مــا كتب لهم في هذه الحياة من العمر والرزق (حتى إذا جاءتهم رسلنــا) وهم ملائكة الموت (يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها ؟ (قالوا ضلوا عنا) لا نحن نعرف أين هم ؟. ولا هم يأتون لخلاصنا من العذاب (وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين) والاعتراف بالذنب يجدي حيث تمكن اخفاؤه والفرار من الجزاء عليه، أما بعد ظهوره كالشمس ، وحين تنفيذ العقوبة فلا يجدي الاعتراف والندم شيئاً .

بعد ان يشهد الكافرون على أنفسهم تنتهي المحاكمة ، ويصدر الحكم عليهم بعذاب الحريق .

(قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار). المراد بالأمم أهل الملل الكافرة ، أي ان الله يقول لمن كفر بنبوة محمد (ص) : ادخلوا النار جزاء على كفركم ، كما دخلها من كذّب بالانبياء من قبلكم .

(كلما دخلت أمة لعنت أختها) يتلاعنون ، وقد كانوا اخوة في الدين ، وتجمعهم الأنساب والاصهار .. وهكذا أهل الأهواء والضلال يتحابون ويتعاطفون حين الدعة وأيام الأمل ، ويتباغضون ويتلاعنون حين لا يُدرك أمل ، ويُرجى نوال .

(حتى إذا اداركوا فيها جميعاً) أي تلاحقوا ، وأدرك بعضهم بعضاً ، وعندها يبدأ الخصام والجدال (قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار) . قال بعض المفسرين : المراد بأولاهم الأولى دخولاً في النار ، وبأخراهم المتأخرة دخولاً فيها . وقال آخرون : بل المراد بأولاهم القادة المتبوعون ، وبأخراهم الأتباع . وهذا القول أقرب وأنسب لقول أخراهم : هؤلاء أضلونا مشيرين لأولاهم ، لأن المضل متبوع والمضلَّل تابع .. طلب التابعون من الله سبحانه أن يضاعف العذاب للمتبوعين ، لأنهم السبب في ضلالهم (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أي ان لكم ولهم عذاباً مضاعفاً ولكن لا يعلم كل فريق ما للآخر من مقدار العذاب وشدته .

(وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل) طلب التابعون أن يزيد في عذاب المتبوعين ، فقال هؤلاء لأولئك : ولماذا هذا الطلب ؟ وكلنا في الجزاء سواء ، ولا تفاوت في شيء ، حتى يزيد الله في عذابنا دون عذابكم ، ثم توجه المتبوعون إلى التابعين ، وقالوا لهم جواباً عن طلب المزيد في عذابهم : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) مختارين من الآثام ، وما كان لنا عليكم من سلطان .

الجمل وسم الخياط الآية ٤٠ ـ ٤٣ :

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْمُجْرِمِينَ ★ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ★ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ★

اللغة :

السم بفتح السين وضمها الثقب . والخياط الابرة . والمهاد الفراش . والغواشي جمع غاشية ، وهي ما يغطي الشيء ويستره . والوسع الشيء المقدور . والنزع قلع الشيء من مكانه . والغل الحقد .

الاعراب :

يلج منصوب بأن مضمرة بعد حتى . ومحل الكاف من كذلك النصب صفة لمصدر محذوف ، أي نجزي المجرمين جزاء مثل ذلك . ولهم من جهنم مهاد مبتدأ وخبر . ومن فوقهم غواش مثله ، والتنوين في غواش عوض عن الياء المحذوفة ، وهي ممنوعة من الصرف مثل مساجد . والذين آمنوا مبتدأ أول ، وأولئك مبتدأ ثان ، وأصحاب الجنـــة خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول . وجملة لا نكلف نفساً معترضة بين المبتدأ والخبر. وتسبك ان وهدانا بمصدر مرفوع بالابتداء، والخبر محذوف ، أي لولا هداية الله حاصلة لنا . وان تلكم (ان) مفسرة بمعنى أي، وتلكم مبتدأ ، والجنة عطف بيان ، وجملة أورثتموها خبر المبتدأ .

المعنى :

(ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) . آيات الله تشمل الدلائل على وجوده ، ونبوة أنبيائه ، وكل ما جاء على ألسنتهم نقلاً عن الله تعالى ، والتكذيب بآيات الله معروف ، وعطف الاستكبار عنها من باب عطف التفسير ، وقوله: (لا تفتح لهم أبواب السماء) كناية عن رفض أعمالهم، وانها لا تُقبل منهم كما تُقبل أعمال الصالحين . قال تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — ١٠ فاطر » .

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) . هذا تعليق على محال، تماماً كقوله تعالى : « قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين — ٨١ الزخرف » . ووجود ما عُلّق على المحال محال .. والعرب تضرب المثل لما لا يكون بقولهم : لا أفعله ، حتى يشيب الغراب ، وحتى يدخل الجمل في سم الخياط (وكذلك نجزي المجرمين) أي نجازيهم بالحرمان من الجنة .

ومع هذا الحرمان (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين) . المهاد الفراش . والغواشي الأغطية،والمعنى ان جهنم محيطة بالمجرمين من جميع الجهات .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . لما توعد العاصين بعذاب جهنم وعد المطيعين بنعيم الجنة ، يتمتعون به إلى ما لا نهاية ، وأشار بقوله : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » إلى أن الجنة على عظمتها يمكن الوصول اليها بغير مشقة وحرج ، وان من دخل جهنم انما دخلها لأنه سلك طريقها بارادته واختياره .

(ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار) . ولماذا الغل ؟ وقد كان في الدنيا غل وحسد ورياء وكذب ونفاق ، لأن فيها فقيراً وغنياً ، وظالماً ومظلوماً ، وخاملاً وشهيراً ، ولا فقر في الجنة ولا ظلم ولا شهرة بعد أن وضع الله كلاً في درجته التي يستحقها ، ومرتبته التي عمل لها .. ان كل واحد من أهل الجنة يشعر بالغبطة والسعادة لخلاصه من نار جهنم ، ولا ينظر إلى من فوقه اطلاقاً : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .

(وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) أي أرشدنا إلى طريق هذا النعيم (وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) هذا شكـــر لله على نعمه (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أخبرهم الرسل بالجنـــة ، فآمنوا بالغيب ، ولما شاهدوها عيانـــاً فرحوا ، حيث أصبح الغيب مشهوداً (ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بمـــا كنتم تعملون) . وكلمة الارث بسبب العمل توحي بأن الجنة حق لازم للعاملين. تماماً كالميراث لأهله ، وبكلمة ان الآية تدل على ان الثواب حق لا تفضل .

ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ – ٤٥ :

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ★ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ★

اللغة :

العوج بفتح العين مختص بالمرئيات ، وبكسرها مختص بما ليس بمرئي ، تقول : في ساقه عَوَج ، وفي رأيه عِوج .

الاعراب :

ان قد وجدنا (أن) مفسرة بمعنى أي ، ومثلها ان لعنة الله . وحقاً حال من (ما وعدنا) ويجوز أن تكون مفعولاً ثانياً لوجدنا عـــلى ان تتضمن معنى

علمنا . وعوجاً حال من واو يبغونها أي يبغونها معوجين أو ضالين ، وقال الطبرسي في مجمع البيان : ان عوجاً مفعول به على معنى يبغون لها العوج .

المعنى :

(ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً) . ان أصحاب الجنة على علم اليقين بأن أصحاب النار قد وجدوا صدق الوعيد والتهديد ، ولكنهم وجهوا اليهم هذا السؤال شكراً لله على ما أنعم عليهم ، وتقريعاً لأهل النار على كفرهم وعنادهم ، وتذكيراً لهم بما كانوا يقولونه من الهزوء والاستخفاف بدين الحق وأهله .

(قالوا نعم) حيث لا وسيلة للانكار (فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين) بهذه اللعنة يرفع المؤذن صوته يوم القيامة واصفاً الظالمين بثلاثة أوصاف :

١ — (الذين يصدون عن سبيل الله) أي يمنعون الناس من اتباع الحق بشتى الوسائل .

٢ — (ويبغونها عوجاً) . لا يريدون الصدق والاخلاص والاستقامة ، وانما يريدون الكذب والنفاق والخيانة .

٣ — (وهم بالآخرة كافرون) فلا يخافون حساباً ولا عقاباً على جرائمهم وآثامهم .

وعلى الاعراف رجال الآية ٤٦ — ٤٩ :

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ★ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ★ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ★

اللغة :

الحجاب المانع والحاجز . والأعراف جمع عرف ، وهو المكان المرتفع ، ومنه عرف الديك والفرس . وسيما وسيماء وسيمياء بمعنى واحد العلامة . والتلقاء جهة اللقاء ، وهي الجهة المقابلة ، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان ، مثل حذاءك .

الاعراب :

تلقاء منصوب على الظرفية ، والعامل فيه صُرفت . وما أغنى (ما) نافية ، وأغنى فعل ماض ، وجمعكم فاعل ، وما كنتم (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك معطوف على جمعكم ، أي وكونكم تستكبرون . وهؤلاء مبتدأ ، والذين خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة خبر هؤلاء ، أي أهؤلاء هم الذين أقسمتم ، ولا يجوز أن يكون الذين عطف بيان لهؤلاء ، لأن المبتدأ يبقى بلا خبر .

الأعراف :

نحن نؤمن بيوم القيامة وحسابه وجزائه — اجمالاً — كأصل من أصول الدين ، أما التفاصيل والجزئيات فانها من عالم الغيب ، ولا يثبت شيء من هذا العالم إلا بآية صريحة واضحة ، أو بحديث صريح واضح ثبت عن المعصوم بالخبر المتواتر ، لا بخبر الآحاد ، لأن خبر الآحاد حجة في الفروع ، لا في الأصول ، والخبر

المتواتر هو الذي يرويه كثيرون يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب ، ويقابله الخبر الواحد .

وقد ثبت بالوحي ان في الآخرة مكاناً يقع بين الجنة والنار يسمى الأعراف[١] ، وما هو بالنعيم ، ولا بالجحيم ، ولكن باطنه فيه الرحمة ، وهو ما يلي الجنة ، وظاهره فيه العذاب ، وهو مما يلي النار : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب - ١٤ الحديد » .وعلى هذا المكان المسمى الأعراف رجال يعرفون جميع أهل الجنة ، وجميع أهل النار ، يعرفونهم لا بأسمائهم ولا بأشخاصهم ، بل بعلامات فارقة تدل عليهم ، وهم يتعمدون النظر إلى أهـل الجنة ، ويسلمون عليهم ، ويطمعون أن يكونوا في وقت من الأوقات معهم ، وإذا وقع طرفهم على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم مع القوم الظالمين الهالكين. ثم تنتهي الحال بأهل الأعراف إلى دخول الجنة لأنهم من أهـل لا إله إلا الله ، ولله عناية خاصة بأهلها .

هذا مجمل ما نزل به القرآن في الأعراف وأهلها ، ولكن كثيراً من المفسرين تجاوزوه إلى تفاصيل لا نعرف لها أصلاً .. وبعد هذا التمهيد نشرع في تفسير مداليل ألفاظ الآيات :

(وبينهما حجاب) أي بين الجنة والنار ، أو بـين أهليهما ، والحجاب هو الأعراف الذي أشار اليه بقوله : (وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم). أي ان رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل الجنـة وأهل النار بعلامات تدل عليهم .. وغير بعيد أن تكون هذه العلامات هي المشار اليها في الآية ١٠٦ من آل عمران : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » . والآية ٣٨ وما بعدها من سورة عبس : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة - أي سواد وظلمة - أولئك هم الكفرة الفجرة » . وقيـل : ان هذه علامات عامة يعرفها كل الناس ، وظاهر الآية يدل على ان تلك العلامات يعرفها رجـال الأعراف فقط . ومهما يكن ، فان الأمـر سهل جداً ، ما دمنا غـير

---

١ الاعراف اسم لهذا المكان ، أما البرزخ فهو الزمان الذي بين الموت والبعث .

مكلفين ولا مسؤولين عن معرفة تلك العلامات بكنهها وحقيقتها ، ولا بصفاتها الخاصة أو العامة .

وتسأل : من هم رجال الأعراف ؟

الجواب : للمفسرين فيهم أقوال ، أرجحها - ذوقاً - ما عليه الأكثر : انهم الذين تساوت كفتا ميزانهم ، ولم ترجح حسناتهم على سيئاتهم ، ولا سيئاتهم على حسناتهم ، ولو زادت احداهما على الأخرى مثقال ذرة لتعين مصيرهم ، إما إلى جنة ، واما إلى نار .

سؤال ثان : ان أهل الجنة يعرفون بدخولها . وكذلك أهل النار ، فأية حاجة إلى العلامات ؟

الجواب : قد تكون تلك العلامات للتمييز بين الفريقين قبل الحساب والعقاب كما يعرف المجرم من ملامح وجهه ، وهو يساق إلى المحاكمة .

(ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم) ضمير نادوا يعود إلى رجال الأعراف ، والمعنى انهم حين ينظرون إلى أهل الجنة يسلمون عليهم تسليم تحية واكرام (لم يدخلوها وهم يطمعون) في دخول الجنة . لأنهم من أهل لا إله إلا الله ، وكل من آمن بالله يطمع في رحمته ومغفرته : « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون — ٨٧ يوسف » . وفي الحديث : « ان رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان . فقال الله تعالى : من هذا الذي تألى عليّ — أي أقسم عليّ — أن لا أغفر لفلان ؟.. فاني قد غفرت لفلان ، وأحبطت عمل المتألّي » .

(وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) وبناء (صُرفت) للمجهول يوحي بأن نظر رجال الاعراف إلى أهل النار كان من غير قصد ، والمراد بالظلم هنا الشرك والكفر ، والمعنى انهم إذا صادف ورأوا ما عليه أهل النار خافوا وتضرعوا إلى الله تعالى أن لا يجعلهم مع الكافرين الهالكين .

(ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) . كان الذين استكبروا في الأرض يسخرون من

المؤمنين ، ويتعاظمون عليهم بما كانوا يملكون من مال وجاه ، ويقولون لهم : لا تنالكم أبداً رحمة الله ، ولما جاءت ساعة الحق ، ولاقى المترفون جزاء أعمالهم ذكّرهم أهــل الأعراف بأمرين : الأول بما كانوا يجمعون ويستكبرون به من مال ونحوه،واليه الاشارة بـ (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) . الثاني بما قالوه للمؤمنين : لا تدخلون الجنة ، واليه الاشارة بـ (أهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمته) . فهؤلاء اشارة الى المؤمنين المستضعفين ، والخطاب في أقسمتم موجه من أهــل الأعراف الى المترفين المستكبرين ، « ولا ينالهم الله برحمته » من قول المترفين .

(ادخلوا الجنة لا خوف عليــكم ولا أنتم تحزنون) . أي ان المؤمنين الذين قال لهم المترفون : (لا تنالكم رحمة الله ولا تدخلون الجنة ، ان هؤلاء المؤمنين قيل لهم : ادخلوا الجنة الخ . وبطبيعة الحال قيل للمترفين المستكبرين : ادخلوا النار خاسرين خاسئين . وسلام على من قال : الغنى والفقر بعد العرض على الله .

بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ ـ ٥٣ :

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ★ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ★ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ★ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ★

اللغة :

المراد بالكتاب هنا القرآن . وفصّلناه بيّناه . وينظرون ينتظرون . والتأويل ما يؤول اليه حال الشيء .

الإعراب :

ان أفيضوا (ان) مفسرة بمعنى أي . وقال حرّمها ولم يقل حرّمه مع ان العطف السابق بأو ، لا بالواو ، لأن المعنى حرّم كلاً منهما . والذين اتخذوا في محل جر صفة للكافرين . ولهواً مفعول ثان لاتخذوا . على علم متعلق بمحذوف حالاً من فاعل فصّلناه ، وهدى حال من المفعول أو مفعول لأجله ، ويوم منصوب بيقول . فيشفعوا منصوب بأن مضمرة بعد الفاء الواقعة في جواب الاستفهام . ونرد بالرفع لأن التقدير أو هل نرد . وفنعمل بالنصب بأن مضمرة .

المعنى :

جاء في الحديث : ان فرحة أهل الجنة بالخلاص من الجحيم تزيدهم نعيماً على نعيم ، وان حسرة أهل النار على ما فاتهم من النعيم تزيدهم عذاباً على عذاب ، وهم يعلمون ان أهل الجنان في نعيم مقيم . ولذا (نادى أصحاب النار أصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) فأجابهم أهل الجنة (ان الله حرمها على الكافرين) .

وبعد اليأس من أهل الجنة يستغيث أهل النار بخزنتها ، كما في الآية ٤٩ من

غافـــر : (وقال الذين في النـــار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » فيجيب الخزنة : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وبعد اليـــأس من الخزنة يستغيثون بالله رب العالمين . وقد كان أهون شيء عليهم في ساعة اليسر والرخاء : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومـــاً ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون » فيجيبهم الباري جل اسمـه : « اخسأوا فيها ولا تكلمون ــ ١٠٨ المؤمنون » .

(الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا) تقدم تفسيره في سورة الأنعام الآية ٧٠ (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هـذا وما كانوا بآياتنـــا يجحدون) المراد بالنسيان هنا الإهمال : « وما كان ربك نسياً » والمعنى يهملهم الله يوم القيامة كما أهملوا العمل له،وكما جحدوا ما أنزل عـلى رسله من الآيات والحجج .

(ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) . ذكر سبحانه فيما سبق أهل الجنة ، وأهل النار ، وأهل الأعراف ، وهذه الآية والتي تليها مختصتان بأهل النار الذين غرتهم الحياة الدنيا .. قال سبحانه : لقد جئنـــا هؤلاء بالقرآن يهدي الى الرشد ، ويبين عن علم ما يحتاج اليه الناس في معاشهم ومعادهم ، وضمن لمن آمن وعمل بتعاليمه الهداية الى الخير في الدنيا ، ورحمة الله وثوابه في الآخرة .

أما من أعرض ، واتبع هواه فمآله جهنم وساءت مصيراً (هل ينظرون إلا تأويله) ينظرون أي ينتظرون ، وضمير تأويله يعود الى الكتاب ، ومعنى تأويله هنا ان كل ما نطق به القرآن يؤول أمره الى الوقوع لا محالة (يوم يأتي تأويله) بوقوع ما أخبر عنه ، ويتبين للكافرين صدقه بالعيان (يقول الـــذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) قالوا هذا بعد أن شاهدوا العذاب ، ومن قبل قالوا للرسل : سحرة مفترون .. وأيضاً قالوا بعد أن رأوا العذاب : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) عند الله في غفران خطايانا ، ولا يعاملنا بما نستحقـــه من الخزي والعقوبة .

(أو نردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل) . لو استجاب الله لدعوتهم هـذه لبطلت جميع المقاييس والقيم ، وتساوى الخبيث الذي لا يؤمن إلا والسيف مصلت على رأسه مع الطيب الذي يؤمن بالحق بملء ارادته ، ويضحي في سبيله بالنفس والنفيس (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) . وهكذا تذهب أعمال المبطلين سدى ، ويغيب عنهم الشفعاء والأولياء الذين كانوا يعملون من أجلهم ، ويدخرونهم لساعة العسرة .

في ستة ايام الآية ٥٤ ـ ٥٦ :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ★ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ★ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ★

اللغة :

استوى هنا بمعنى استولى . والعـرش كناية عن الملك والسلطان . والغشاوة الغطاء ، وقيل : المراد بها الذهاب ، أي ان الليل يذهب بنور النهار . وحثيثاً مسرعاً . والمسخر الخاضع المنقاد . وتبارك الله ، أي تعالى بعظمته ، وهو فعل غير منصرف لا يصاغ منه أمر ولا مضارع . والتضرع التذلل . والخفية لغة ضد العلانية .

الاعراب :

جملة يطلبه حال من الليل . وحثيثاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي طاباً حثيثاً ، ويجوز أن يكون حالاً . والشمس مفعول لفعل محذوف ، أي وخلق الشمس . ومسخرات حال من الشمس وما عطف عليها . وتضرعاً في موضع الحال من واو ادعوا . أي متضرعين ومخفين . ومثله خوفاً وطمعاً أي خائفين وطامعين . وقريب على وزن فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث .

المعنى :

(ان ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) . للمفسرين في هذه الآية أقوال متضاربة ، ويرجع سبب الاختلاف إلى أمرين : الأول ان أفعال الله تعالى لا تُقدر بالزمان : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر — ٥٠ القمر » . أي كلمة واحدة وهي « كن فيكون » . الأمر الثاني ان الزمان انما يُقدر بعد وجود السموات والأرض وما يقع فيها من حوادث ، فقبل الكون لا زمان ولا أيام ، فكيف يمكن إيجاده من أيامه وفي أيامه ؟ وهل هذا إلا كقول القائل : بنيت بيتاً من سقفه وحيطانه ؟.

اذن ، لا بد من تأويل الأيام بمعنى مقبول ومعقول ، وقد اختلفوا في تعيين هذا المعنى المجازي . فنهم من قال : ان في الكلام حذفاً أي في مقدار ستة أيام ، ومنهم من قال : ان الأيام هنا كناية عن المراحل والدفعات . وانه تعالى لم يخلق الكون دفعة واحدة ، بل على ست مراحل ، ليكون لكل شيء حد محدود ، ووقت مقدر . ومن قائل : ان الأيام كناية عن الأطوار ، وانه سبحانه لم يخلق الكون ابتداء كما هو عليه الآن ، بل انتقل بخلقه من طور إلى طور وفقاً لنظرية النشوء والارتقاء ، حتى الطور السادس والأخير ، وهو الذي نراه الآن .

وهذه الوجوه كلها محتملة . وليس لدينا ما يعين أحدها ، أو يرجحه برغم تتبعنا لكثير من التفاسير القديمة والحديثة ، ولذا نقول مع القائل :

« ان الأيام قد تكون ست مراحل ، وقد تكون ستة أطوار ، وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقياس زماننا .. وقد تكون شيئاً آخر . فلا ينبغي أن يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. والظن باسم العلم محاولة تحكمية ، وهزيمة روحية أمام ما يقال له علم ، وهو لا يتجاوز درجة الظنون والفروض » .

(ثم استوى على العرش) . هذه الجملة تفسرها الجملة التي بعدها ، وهي (الا له الخلق والأمر) أي انه يملك الكون ويدبر أمره . ومثلها الآية ٣ من سورة يونس : « ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر » . وانما عبر سبحانه عن ملكه وتدبيره بالاستواء على العرش لأن الملك يستولي على مملكته ويدبرها : وهو على عرشه ، والقصد التقريب ، دون التشبيه : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

(يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً) . هذا من تدبيره تعالى لشؤون الكون ، ومعناه ان الليل يتبع النهار ، ويتعقبه مسرعاً في طلبه ، ويتغلب على المكان الذي كان فيه ، فيصير مظلماً بعد ان كان منيراً ، ومثله قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » أي يتغلب على ضوء النهار ، وقوله : « والليل إذا يغشاها » أي يتغلب على ضوء الشمس .

(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) . أي وخلق هذه الكواكب تنقاد لمشيئته ، وتسير على مقتضى الحكمة والمصلحة .. والكلام عن هذه الكواكب يحتاج الى علم الفلك ، ولا نعرف منه شيئاً (الا له الخلق والأمر) هذا بيان وتفسير لقوله : « ثم استوى على العرش » كما أسلفنا ، وفي الحديث : من زعم ان الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل على أنبيائه بقوله : الا له الخلق والأمر . (تبارك الله رب العالمين) . تعالى بوحدانيته وملكه وتدبيره .

(وادعوا ربكم تضرعاً وخفية) . وليس معنى دعوة العبد ربه أن يقول : اللهم رحمتك وغفرانك ، كلا .. وانما دعوة الحق أن يخافه ويتقيه ، ويلتزم أوامره ونواهيه ، وليس المراد بالتضرع أن يقول : اللهم أتضرع اليك تائباً ،

وأعوذ بك مستجيراً . بل المراد به أن يكون صادقاً مخلصاً لله فيما يقول ويفعل، أما خُفية فمعناها أن لا يباهي بما يفعل من خير ، ويعلنه على الملأ . فان هذا ضرب من الاعتداء ، والله يقول : (انه لا يحب المعتدين) أي المتجاوزين ما أمر به،وما نهى عنه . وقد نهى سبحانه عن المباهاة بالعبادات ، وفعل الخيرات.

الله اصلح الأرض والانسان افسدها :

(ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها) . أصلح الله هذه الأرض بما أودع فيها من كنوز لا تحصيها كثرة من الطيبات والمتع الروحية والمادية .. فمن مباهج الطبيعة إلى جمال المرأة ، ومن وفاء الأصدقاء إلى بر الأبناء ، ومن نشوة المعرفة والاطلاع إلى وشوشة الألحان والأنغام .. إلى ما لا نهاية .

أما الطيبات المادية فمن المأكول الحبوب والخضار واللحوم والفواكه، وفي كل نوع من هذه أشكال وألوان . ومن الملبوس الصوف والقطن والجلد والحرير ، ثم اكتشف الانسان النايلون،وسيكتشف بعدُ ما نظنه من الممتنعات والمستحيلات، تماماً كما اكتشف واخترع الأعاجيب لطي الأرض والسماء ، وعبور القارات في دقائق ولحظات . أما الوقود فمن الشجر إلى الفحم الحجري ، ومن البترول الى الكهرباء ، إلى حرارة الشمس والذرة .. وقرأت فيما قرأت ان العلم استخرج من البترول المطاط الصناعي للاطارات . والزجاج غير القابل للكسر . وقنابل النابالم والنايلون . والأسمدة الكيماوية ، والأطباق ، وأنابيب الري بالرش ، ومساحيق التجميل ، ومناضد الحدائق ، وأغطية الموائد ، والزهور الصناعية . وأحمر الشفاه وكحل العيون ، وطلاء الأظافر ، والملابس الداخلية ، وفرشاة الأسنان ، وحبر المطابع ، والأفلام . إلى ثلاثة آلاف صنف أحصاها الخبراء ، بل إلى ما لا يحصيه عداً إلا من أحاط بكل شيء علماً : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الإنسان لظلوم كفار ٣٤ ابراهيم » .

ان الانسان لظلوم كفار .. جاءت الآية بصيغة المبالغة ، مع تأكيدين لهذه المبالغة : أولها بأنّ ، وثانيها باللام .. وأي شيء أكثر ظلماً وكفراناً ، وأعظم

فساداً وطغياناً من تحويل الطيبات من الرزق إلى قنابل النابالم، تقتل الصغار وتشوه الكبار ، وإلى نفاثات السموم واللهب يحرق الأخضر واليابس ، أما القنابل الذرية والهيدروجينية فانها لا تبقي ولا تذر .

لقد بدّل الانسان نعمة الله كفراً ، وحوّل نعيم أرضه إلى جحيم ، وربط مصير الانسانية كلها بمصير القنابل الذرية والهيدروجينية .. لقد أودع الله في هذه الأرض المتع والطيبات من الرزق لعباده وعياله ، وأودع الظلوم الكفار القنابل الذرية في مخازنه وطائراته ، تجوب أجواء القارات ليل نهار ، يرقب الفرصة المؤاتية ليحوّل الأرض ومن عليها إلى رماد وهباء..وهذا هو تأويل قوله تعالى: (ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها) . فيجب أن تعرف الذي أفسد علينا الأرض بعد أن أصلحها الله لنا ، وأن نقطع عليه الطريق بكل ما نملكه من وسائل ، وأقلها أن نعلن حقيقته للملأ ، ونسميه باسمه الذي وضع له . وهو عدو الله والانسانية ، ليحذر الناس ، كل الناس من مكره وخداعه .

(وادعوه خوفاً وطمعاً) . ان بث روح اليأس خيانة ، لأنه لا حياة مع اليأس ، وبث روح الأمل مع ترك التحفظ والحذر أيضاً خيانة ، لأنه تغرير وتخدير ، وطريق النجاة وسط بين الاثنين ، قال تعالى : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه – ٥٧ الإسراء » . وقال : « نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الأليم – ٥٠ الحجر » . فالمؤمن العاقل يعمل ، وهو خائف من الله أن لا يقبل منه لخلل في عمله ، وفي الوقت نفسه يرجو النجاح والقبول ، وكل من الخوف والرجاء يدعو إلى التحفظ والاتقان ، (ان رحمة الله قريب من المحسنين) . فيه إيماء إلى أن من يخاف الله ويرجوه فهو من أهل الاحسان ، وانه تعالى يجازي الإحسان بمثله .

يرسل الرياح بشراً الآية ٥٧ – ٥٨ :

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً

ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ★ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ★

اللغة :

بُشْراً بسكون الشين وأصله بضم الشين بُشُراً جمع بشير ، ومعناه مبشرات. والمراد بالرحمة هنا المطر . وثقال جمع ثقيل ، والمراد به هنا المثقل ببخار الماء . والبلد الميت أرض لا نبات فيها . والبلد الطيب هو الجيد التربة . والنكد بكسر الكاف كل شيء يخرج بتعسر ومشقة .

الاعراب :

بشراً حال من الرياح أي مبشرات . وأهملت حتّى بدخولها على اذا . ونكداً حال من ضمير يخرج .

المعنى :

(هو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتّى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) لبلد ميت على حذف مضاف أي لحياة بلد ميت ، وضمير به الأولى يعود الى بلد ميت ، وضمير به الثانية يعود الى الماء ، وكل الثمرات المراد به العموم العرفي ، لا العموم الواقعي .

ان الرياح تهب . والشمس تبخر ماء البحار ، وترتفع الرياح بهـذا البخار إلى العلو ، ثم تجذبه الأرض اليها ، فيتساقط عليها قطرات متراكبة ، كل ذلك وما اليه يأتي وفقاً لسنن الطبيعة ، ما في ذلك ريب .. ولكن من هو الذي أوجد هـذه الطبيعة ، وأودعها هذه السنن التي تسير على وتيرة واحدة مدى ملايين القرون ، لا تتغير ولا تتبدل ؟. هل وجدت الطبيعة عفواً ؟. وهل حكمتهـا القوانين والسنن من البداية الى النهاية صدفة ومن غير سبب ؟. اذن ، فبالأولى أن يكون هـذا الزعم جزافاً ومن غير سبب ؟. وكيف ينتج اللاانظام نظاماً ، واللاوعي وعياً ؟.

وبالتالي ، هل لهذه التساؤلات جواب معقول ومقبول إلا وجود خالق قدير ، ومدبر حكيم ؟.. هو الذي أوجد الطبيعة ، وأودعها السنن والقوانين ، واليـه ينتهي كل شيء ، ويفتقر كل شيء ، ولا يفتقر الى شيء .

فالرياح والمطر وحياة البلد الميت تُنسب إلى سنن الطبيعة مباشرة ، وبالواسطة إلى خالق الطبيعة (كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) . يقول الجاحدون : كيف نؤمن بالبعث ، وما رأينا واحداً عادت اليه الحياة بعـد موته ؟ يقولون هذا ، وهم يرون رأي العين حياة الأرض بعد موتها ، ولكنهم ذهلوا ان السبب واحد ، وانه لا فرق إلا في الصورة،فذكرهم الله بذلك لعلهم ينتفعون بالتذكير ، أو تلزمهم الحجة .

(والبلد الطيب يخرج نباتـه بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) . بإذن ربه كناية عن عطاء الكثير بيسر وسهولة ، والنكد كناية عن عطاء القليل بعسر وصعوبة ، وأكثر المفسرين ، أو الكثير منهم على ان هـذا تمثيل لقلب المؤمن والكافر ، والبر والفاجر بالأرض التي خُلق الجميع منها ، ووجه الشبـه ان الأرض كلها واحدة من حيث الجنس ، ولكن منها الطيبة اذا شربت الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومنها القاسية المغلقة تصد وتنأى عن الخير والصلاح ، وإذا أتت بشيء منه فكالذي يساق الى الموت (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) . ان الله يضرب هذه الأمثال وغيرها للجميع ، للخبيث والطيب ، ولكن الطيبين هم الذين ينتفعون بها ويشكرون الله عليها ، أما بالنسبة إلى الخبثاء فانها حجة قاطعة لأعذارهم وعلاتهم .

نوح الآية ٥٩ - ٦٤ :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ★ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ★ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ★ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ★ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ★ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ★

اللغة :

الملأ من القوم أشرافهم . والفلك بضم الفاء يطلق على السفينة والسفن . وعمين جمع عمٍ ، وهو من عمى البصيرة ، والأعمى من عمى البصر .

الإعراب :

من زائدة ، وإله مبتدأ ، ولكم خبر ، وغيره صفة لإله على المحل . ويا قوم أصلها يا قومي ، حذفت الياء تخفيفاً ، وكسرت الميم للدلالة على الياء . ولينذركم منصوب بأن مضمرة ، والمصدر المنسبك متعلق بجاءكم . ومعه متعلق بمحذوف صلة الذين ، أي والذين استقروا معه في الفلك . وعمين صفة لقوم ، وأصله عميين .

المعنى :

بعد أن قال سبحانه في الآية ٣٥ من هذه السورة : « يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم) أشار في هذه الآيات وما بعدها الى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وأوجز سبحانه قصة نوح هنا أشد الايجاز ، حيث اكتفى بذكر الحوار بينه وبين قومه ، وإعراضهم عن دعوته ، وكيف عجبوا ان يختار الله رسولاً منهم ، وانه سبحانه أغرق المكذبين ونجّى المؤمنين .

(لقد أرسلنا نوحاً الى قومه) . قال الطبرسي في مجمع البيان : هو نوح ابن ملك بن متوشلخ بن اخنوخ النبي ادريس ، ونوح أول نبي بعد ادريس ، وقيل : انه كان نجاراً ، وانه ولد في العام الذي مات فيه آدم .. ونحن لا نعلم لهذا القيل مصدراً .

(فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . أوجز الرسالة التي حملها إلى قومه من الله ، أوجزها نوح بكلمة : وهي أن يعبدوا الله وحده ، لأنه لا إله سواه ، وان دعوته هذه اليهم إنما هي لإشفاقه عليهم من عذاب يوم القيامة .

(قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين) . رموه بالضلالة والسفاهة لا لشيء إلا لأنه نهاهم عما ألفوه وورثوه من عبادة الأحجار .. وهكذا كل سفيه وضال يرمي بدائه من سار على طريق الهداية والرشاد .

(قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) . رد عليهم بنفي الضلالة عن نفسه ، ووصفها بأشرف الصفات ، وصفها بأنه رسول الله أرسله لينقذهم من الهلاك والضلالة ، وانه ناصح لهم وأمين ، وانه يعلم من الله وحدانيته وعدله ، ومن كانت له هذه الصفات فلا يكون ضالاً .

(أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) . قال له قومه : ما أنت إلا بشر مثلنا ، ولو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعثه ملكاً ، فرد عليهم بأنه لا عجب أن يرسل الله رجلاً إلى قومه لا مصلحة له ولا هدف إلا أن يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وإنما العجب

أن يهملهم ويتركهم سدى من غير مرشد ، قال الرازي : هذا الترتيب في غاية الحسن ، فان المقصود من البعثة الإنذار ، والمقصود من الإنذار التقوى، والمقصود من التقوى الفوز برحمة الله في دار الآخرة .

(فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين) . تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت به عيون الأرض ، فأغرق الله الظالمين المكذبين ، ونجّى نوحاً ومن معه من المؤمنين ، ويأتي الكلام مفصلاً عن نوح وقومه في السورة المسماة باسمه إن شاء الله .

هود الآية ٦٥ – ٧٢ :

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ★ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ★ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ★ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ★ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ★ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ★ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا

مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ★ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ★

المعنى :

جاء في تفسير المنار نقلاً عن اسحق بن بشر وابن عساكر : « ان هوداً أول من تكلم بالعربية ، وكان له أربعة أولاد : قحطان ومقحط وقاحط وفالغ ، وهو أبو مضر ، وأما قحطان فأبو اليمن ، ولا نسل لقاحط ومقحط » .

وقال المفسرون : كان قوم هود من ذراري نوح ، وكانوا على دينه ، ولما طال عليهم الأمد لعب بهم الشيطان ، فعبدوا الأصنام ، وأفسدوا في الأرض .. وفي تفسير الطبري ان الإمام علياً (ع) قال لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ؟ قال الرجل : نعم ، يا أمير المؤمنين ، والله انك لتنعته نعت رجل قد رآه . قال الإمام : لا ، ولكني حُدثت عنه . قال الرجل : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود (ع) .

وإذا صح هذا الخبر وجب أن تزال القطعة المعلقة على قبر الإمام التي جاء فيها : السلام عليك وعلى جاريك هود وصالح الا ان يكون الجوار في الآخرة ، لا في الدنيا أو نقل جثمان هود بعد وفاة الإمام .

وهذه الآيات التي نزلت في قصة هود موافقة للآيات السابقة التي نزلت في قصة نوح لفظاً ومعنى إلا في أشياء نشير اليها فيما يلي :

١ – قال نوح لقومه : (اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . وقال هود لقومه : (أفلا تتقون) ذلك انه قبل نوح لم يظهر في العالم مثل ذلك العذاب ، وهو الطوفان ، وكان قوم هود على علم به ، فحذرهم وأمرهم أن يتقوا الله بترك الشرك والاقرار له بالوحدانية .

٢ – قال قوم نوح له : (انا لنراك في ضلال مبين) وقال قوم هود له :

(انّا لنراك في سفاهة وانّا لنظنك من الكاذبين) لأن نوحاً كان يصنع الفلك، حيث لا بحر ولا نهر ، وهذا العمل بظاهره جهل وضلال ، أما هود فلم يفعل شيئاً من هذا النوع ، وانما سفّه قومه بعبادتهم الأصنام ، فقابلوه بالمثل،ونسبوه الى السفاهة .

٣ ـ قال نوح لقومه : (لعلكم ترحمون) وقال هود لقومه : (لعلكم تفلحون) وأراد نوح بالرحمة دفع العذاب عنهم ، وأراد هود بالفلاح الهداية الى الصواب ، والمعنيان متشابكان لا ينفك أحدهما عن الآخر .

٤ ـ ان الله سبحانه ذكر في هذه الآيات أشياء قالها قوم هود لنبيهم ، ولم يذكر هنا جل ثناؤه أن قوم نوح قالوها لنبيهم ، وهي (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) . عبارة مطروقة يجترها كل جاهل ومقلد (فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) استعجلوا العذاب استعجال من يهزأ بالناصح الأمين .. وجاء الجواب من الرسول حاسماً وسريعاً (قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) ومعنى وقع هنا وجب ، والمراد بالرجس العذاب ، وبالغضب السبب الموجب للعذاب .

(أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) . لا وجود للآلهة التي يعبدونها ، وكل ما لا وجود له لا أثر له ، ولا دليل عليه، وعلى هذا يكون الاسم الذي وُضع له كلاماً فارغاً بلا معنى (فانتظروا اني معكم من المنتظرين) هذا جواب قولهم : فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين.

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) الدابر هو الآخر ، وقطع دابر القوم استأصلهم بالهلاك عن آخرهم .. وبيّن سبحانه نوع العذاب الذي أهلك به قوم هود في الآية ٦ وما بعدها من سورة الحاقة : « واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » .

ويأتي ان شاء الله مزيد بيان لحال هود ، مع قومه في السورة المسماة باسمه .

صالح الآية ٧٣ ـ ٧٩ :

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ★ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ★ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ★ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ★ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ★ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ★ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ★

اللغة :

البيّنة العلامة الفاصلة بين الحق والباطل . وبوأكم أنزلكم . والعثي مجاوزة الحد. وعقروا الناقة نحروها . والعتو التمرد . والرجفة من الرجف ، وهو الحركة والاضطراب . والجثوم البروك على الركبة ، والمراد به هنا الهلاك .

الاعراب :

إلى ثمود متعلق بمحذوف ، أي وأرسلنا إلى ثمود ، ومُنع ثمود من الصرف للعلمية والتأنيث ، وهي القبيلة . وصالحاً بدل من أخاهم . وآية حال من ناقة الله . وتأكل مجزوم جواباً للأمر ، وهو فذروها . فيأخذكم جواب للنهي ، وهو ولا تمسوها ، والناصب ليأخذكم ان مضمرة بعد الفاء . وقصوراً مفعول أول لتتخذون ، ومن سهولها مفعول ثان . وتنحتون بمعنى تتخذون ، وعليه تكون الجبال مفعولاً أولاً ، والبيوت مفعولاً ثانياً . ومفسدين حال من الواو في تعثوا. ولمن آمن بدل بعض من للذين استضعفوا باعادة العامل مثل مررت بزيد بأخيك . وجاثمين خبر فأصبحوا ، وفي ديارهم متعلق بجاثمين .

المعنى :

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . ثمود قبيلة من العرب سميت باسم جدهم ثمود بن عامر ، وكانت مساكنهم الحجر بكسر الحاء بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، قال تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين — ٨٠ الحجر » . وقوله تعالى : (والى ثمود أخاهم صالحاً) نظير قوله : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) وقوله : (وإلى عاد أخاهم هوداً) ومر التفسير في الآية ٥٩ و ٦٥ من هذه السورة .

(هذه ناقة الله لكم آية) . قال جماعة من المفسرين : ان قوم صالح سألوه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة ، وانه سأل ربه ذلك ، فتمخضت الصخرة كالمرأة يأخذها الطلق ، فولدت ناقة عشراء وبراء .. ونحن نؤمن اجمالاً بأن الناقة كانت بينة وآية من الله ، وانها لم تأت بسبب معتاد ، وان الله سبحانه أضافها اليه تعظيماً لشأنها .. نؤمن بهذا ولا نزيد شيئاً ، حيث لم ينزل به وحي ولا جاء به خبر متواتر عن المعصوم .

(فذروها تأكل من أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) . أمر صالح (ع) قومه أن يتركوا الناقة وشأنها تأكل من أرض الله ، وحذرهم من

سوء العاقبة ان تعرضوا لها بأذى ، ثم قال لهم : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) . أهلك الله عاداً بذنوبهم ، وأورث ثمود أرضهم وديارهم ، فذكرهم صالح بنعمة هذا الاستخلاف ، وأيضاً ذكرهم قائلاً : (وبوأكم الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً) . ويدل هذا النص على ايجازه ان ثمود كانت تعيش في حضارة عمرانية واضحة المعالم ، وانها كانت في نعمة ورفاهية (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) . آلاء الله نعمه ، ومعنى لا تعثوا في الأرض مفسدين لا تسعوا في الأرض فساداً .. بعد أن ذكر صالح قومه بما أسبغ الله عليهم من النعم أمرهم أن يتذكروا ويشكروا نعم الله ، ونهاهم عن الفساد .. وفي ذلك تحذير لهم من بأس الله وعذابه .

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) . أصر المترفون من قوم صالح على التمادي في الطغيان ، والتعصب لعبادة الأوثان ، أما المستضعفون فمنهم من آمن ، ومنهم من بقي على الشرك تبعاً للمترفين ، فقال هؤلاء لمن آمن من الفقراء المستضعفين :

(أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه) ؟. سألوا المستضعفين هذا السؤال مستنكرين ومهددين ، أو ساخرين مستهزئين .

(قالوا - أي المستضعفون - إنّا بما أرسل به مؤمنون) . قالوا هذا غير مكترثين بالتهديد والاستهزاء ، لأنهم على يقين من دينهم ، وثقة من أمرهم .

(قال الذين استكبروا - للمؤمنين المستضعفين - إنّا بالذي آمنتم به كافرون). على الرغم من الدلائل والبينات القاطعة على نبوة صالح ، لأن مصالحهم فوق الأديان السماوية . والبراهين العقلية ، قال الرازي : هذه الآية من أعظم ما يحتج به على ان الاستكبار انما يتولد من كثرة المال والجاه ، لأن هذه الكثرة هي التي حملتهم على التمرد والإباء والكفر .

(فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) . وكشف هذا العتو عن حقيقتهم وذات أنفسهم ، وانهم لا يكترثون إلا بصالحهم وحده لا شريك له .. وقد تحدوا صالحاً باستعجال العذاب (وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين). ولم يمهلهم سبحانه جزاء لهذا العناد (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين).

أي هالكين، والمراد بالرجفة الصاعقة، قال تعالى: «وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون – ٤٥ الذاريات».

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) . لما رأى صالح ما حل بقومه من العذاب تولى عنهم كئيباً، وتبرأ من مصيرهم هذا الذي جلبوه على أنفسهم بالعتو والتمرد .

قال الرازي : قال رسول الله (ص) : «يا علي أشقى الأولين عاقر ناقة صالح ، وأشقى الآخرين قاتلك» .

وسنعود إلى النبي صالح (ع) مرة أخرى ان شاء الله .

لوط الآية ٨٠ – ٨٤ :

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ★ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ★ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ★ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ★ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ★

الاعراب :

ولوطاً أي وأرسلنا لوطاً وهو منصرف لخفته . وجملة ما سبقكم حال من الفاحشة . وشهوة مفعول لأجله لتأتون . وجواب خبر مقدم لكان ، والمصدر المنسبك من ان قالوا اسمها . ومطراً مفعول مطلق .

المعنى :

(ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) . نقل صاحب تفسير المنار عن كتب الأنساب العربية وسفر التكوين ان لوطاً ابن أخي ابراهيم الخليل (ص) وانه ولد في (اور الكلدانيين) وهي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة ، وكانت تلك البقعة تسمى أرض بابل ، ثم سافر لوط مع عمه ابراهيم إلى ما بين النهرين ، وهو مكان تحيط به دجلة ، حيث كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه ابراهيم في شرقي الأردن .

(ما سبقكم بها من أحد من العالمين) . يدل على ان قوم لوط أول من ابتدع هذا النوع من الفساد (انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) . هذا تفسير للفاحشة ، وان المراد بها هنا اللواط المعبر عنه اليوم بالشذوذ الجنسي ، والفعل الشنيع (بل أنتم قوم مسرفون) . قد تجاوزتم الحد في كل شيء ، حتى بلغتم إلى هذا الانحراف الذي يمجه الطبع ، وتأباه الفطرة ، ويخالف سنن الحياة .

(وما كان جواب قومه إلا أن قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون) . أجل ، ان الطهر والعفاف ذنب عند العاهر الفاجر ، والأمانة جريمة عند العميل الخائن .. أخرجوهم لأنهم يتطهرون .. وهكذا المجتمع القذر يرفض الأطهار والأبرار ،لا لشيء إلا لأنهم يتطهرون ؛ والعكس صحيح أيضاً .

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) . المراد بأهله من آمن معه ، سواء أكان من أرحامه ، أو من غيرهم ، وغبر تأتي بمعنى مضى ، وبمعنى بقي ، وهذا المعنى هو المراد هنا ، أي ان امرأة لوط بقيت مع الهالكين ؛ ولم يصحبها معه حين سرى بأهله بقطع من الليل فراراً من العذاب ، لأنها كانت منافقة تتآمر على زوجها مع المشركين ، وقيل : ان اسمها واهلة .. وقال تعالى : من الغابرين ، ولم يقل من الغابرات تغليباً للرجال على النساء ، لأن الذين أهلكهم الله كانوا من الفئتين .

وهكذا أصاب امرأة لوط من العذاب ما أصاب المشركين لأنها منهم ، ولم يجدها القرب من نبي الله والتصاقها به شيئاً . وفي الحديث : المرء مع من أحب .

(وأمطرنا عليهم مطراً) . بيّن سبحانه العذاب الذي أنزله بهم بأنه نوع من المطر ، ولكنه بالحجارة ، لا بالماء كما جاء في الآية ٨١ من سورة هود : « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » ويأتي التفصيل في محله ان شاء الله (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) ؟ انها العذاب الأليم ، والعاقل من اتعظ بغيره .

وتسأل : ان كـلاً من نوح وهود وصالح دعا قومه الى عبادة الله وحده فيما تقدم من الآيات ، أما لوط فقد دعا قومه في هذه الآيات الى الامتناع عن الفاحشة ، فهل معنى هذا ان قوم لوط كانوا موحدين ، ولكنهم فسقوا بهذا الفعل الشنيع ؟.

الجواب : ان قوم لوط كانوا كفاراً ، وقد دعاهم الى التوحيد ، ونهاهم عن الكفر والشرك كما نهاهم عن اللواط بدليل قوله تعالى : « كذبت قوم لوط المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ، اني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ــ ١٦٣ الشعراء » . وانما اهتم بهذه الرذيلة لأنها كانت فاشية فيهم ، وأدت بهم الى غيرها من القبائح والرذائل ، وحملتهم على التمرد والعناد للحق ، وجرأتهم على تكذيب أنبياء الله ورسله .

وقد أجمعت المذاهب الإسلامية قولاً واحداً على تحريم اللواط ، وانه من الكبائر ، واختلفوا في عقوبته ، قال الحنفية : انها التعزير بما يراه الحاكم،وقالت بقية المذاهب: انها القتل لحديث: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وأباحت الحكومة الانكليزية اللواط ، وأقره مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٦٧ ونقلت جريدة الأهرام تاريخ ٦ ــ ٩ ــ ١٩٦٧ عن التايمز اللندنية ان جماعة من كبار الشخصيات في انكلترا أقاموا احتفالاً عاماً ابتهاجاً بإباحة اللواط ، وتعاطوا فيه هذه العملية أمام المئات من المتفرجين .. وليس من شك ان وجود السيدات والآنسات في هذا الحفل يزيد من بهجته وروعته .

شعيب الآية ٨٥ – ٨٧ :

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ★ وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ★ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ★

اللغة :

الكيل تقدير الشيء بالمكيال . والوزن تقديره بالميزان . والمساحة تقديره بالمتر والذراع . والبخس النقص . والعوج بفتح العين يكون فيما يرى كالعود والحائط ، وبكسر العين يكون فيما لا يرى كالدين وما اليه .

الإعراب :

إلى مدين متعلق بفعل محذوف أي وأرسلنا إلى مدين ، ومدين مجرور بالفتح للتعريف والتأنيث ، وشعيباً بدل من أخاهم . ولا تبخسوا يتعدى إلى مفعولين : الأول الناس ، والثاني أشياءهم . وجملة توعدون حال من واو لا تقعدوا . ومن آمن مفعول به لتصدون . وضمير تبغونها يعود إلى سبيل الله .

المعنى :

(وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) . مر نظيره في الآية ٥٩ من هذه السورة . وشعيب من أنبياء العرب كهود وصالح . وأهل مدين عرب ، وكانوا يسكنون أرض معان من أطراف الشام .

(قد جاءتكم بينة من ربكم) . البينة كل ما يتبين به الحق ، سواء أكان برهاناً عقلياً ، أم معجزة خارقة للعادة ، وليس من شك ان شعيباً قد جاء قومه بمعجزة تدل على نبوته ، والا كان متنبئاً ، لا نبياً . ولا نص في القرآن يدل على نوع هذه المعجزة ، فتعيينها بالذات كما في بعض التفاسير قول على الله بغير علم.

(فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) . ويومىء هذا النص إلى انهم كانوا يسيئون المعاملة في البيع والشراء ، وان ذلك كان فاشياً فيهم ، ولذلك أمرهم بايفاء الكيل والميزان بعد أن أمرهم بتوحيد الله ، ثم أمرهم بالعدل وعدم البخس في جميع الحقوق مادية كانت كالمبيعات ، أو معنوية كالعلم والأخلاق ، فلا يصفون العالم بالجهل ، والأمين بالخيانة .

(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) . مر تفسيره في الآية ٥٦ من هذه السورة ، فقرة « الله أصلح الأرض والإنسان أفسدها » (ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين) ذلك إشارة إلى الخمسة المتقدمة ، وهي عبادة الله ، والوفاء بالكيل والوزن وعدم البخس والافساد .

(ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به تبغونها عوجاً) . هذا بيان وتفسير لقوله : ولا تفسدوا في الأرض لأن معناه دعوا الناس وشأنهم ، ولا تلقوا عليهم الشبهات ، ولا تتوعدوهم وتهددوهم ان أرادوا الإيمان بالله ورسوله ، ولا تمنعوا من آمن أن يقيم شعائر الدين ، وتصدوه عن طريق الله القويم ، وتحاولوا أن تحملوا الناس على سلوك الطريق العوجاء التي تسيرون عليها .. وأوضح تفسير لهذه الآية وأوجزه ما روي عن ابن عباس انهم كانوا يقعدون على الطريق ، ويخوفون الناس أن يأتوا شعيباً ، ويقولون لهم انه كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم .

(واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم) . جعلهم الله أغنياء بعد أن كانوا فقراء ،

وأقوياء بعد أن كانوا ضعفاء ، وكثيرين بعد أن كانوا أقلاء ، فوجبت عليهم الطاعة والشكر لله (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أي وإلا أصابكم ما أصاب من أفسد الأرض مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط .

(وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم تؤمن فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) . آمن بشعيب جماعة ، وكفر به آخرون ، فدعا الجميع إلى التعايش السلمي ، وان تترك كل طائفة وشأنها ، ولا يتعرض أحد لأحد بأذى ، سواء اختار الكفر ، أم الإيمان ، ثم تنتظر الطائفتان الى ان يحكم الله بينهما (وهو خير الحاكمين) . ولا رد لهذا المنطق ، وبأي شيء ترد من يقول لك : انتظر فيك حكم الله ؟.

الجُزءُ التَّاسِعُ

لنخرجنك يا شعيب الآية ٨٨ – ٨٩ :

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ★ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ★

اللغة :

الملة الديانة . وللفتح معانٍ ، منها الحكم ، وهو المراد هنا .

الإعراب :

أو لو كنا كارهين ، الهمزة للإنكار ، والواو للحال ، ولو بمعنى ان ، والجملة بمعنى الحال ، والتقدير كيف نعود في ملتكم ، ونحن كارهون لها ؟. وربنا بدل من الله ، والمصدر المنسبك من أن يشاء الله مجرور بإضافة ظرف محذوف ، أي إلا عند مشيئة الله ، أو مع مشيئة الله . وعلماً تمييز محول عن فاعل ، أي وسع علم ربنا كل شيء .

المعنى :

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك

من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) . قدمنا ان شعيباً دعا المترفين الكافرين الى المسالمة والتعايش مع الذين آمنوا به، وان يُترك الخيار لمن يشاء أن يدخل في الدين الذي يشاء .. ولكن المترفين رفضوا دعوتـــه ، وخيروه بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن يخرج هو ومن آمن معه من بلدهم ، واما أن يعود الذين آمنوا به الى الكفر ، ويعود هو إلى موقفه السابق – قبل النبوة – لا مؤيد لدينهم ولا مفند ، وبكلمة ان قولهم : (أو تعودون في ملتنا) معناه أن يرجع الوضع الذي كان قبل النبوة إلى ما كان .

(قال أو لو كنا كارهين) ؟. هذا هو منطق المنصف المخلص ، لا يحمل أحداً على ما يكره ، ولا يحب أن يحمله أحد على ما لا يريد ، ثم هل يكون الإيمان بالإكراه ؟. وهل المؤمن حقاً يؤثر الإقامة في الوطن على دينه وعقيدته ؟.

(قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها). طلب المشركون من شعيب (ع) أن يرتد عن الإيمـــان إلى الشرك ، فقال لهم : ان الارتداد افتراء على الله ، وعاقبة الافتراء عليه تعالى وبال وعذاب ، وقد أنجانا الله منه ، فكيف نفتري عليه ؟.. اما ان الارتداد افتراء على الله فواضح ، لأن معناه ان الشرك بالله خير وأبقى من الإيمان بوحدانيته (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) . ضمير فيها يعود إلى ملة الكفر والشرك ، والتعليق هنا على مشيئة الله تعليق على المحال ، لأن الله لا يشاء الكفر والشرك ، فهو تماماً كقوله تعالى : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » .

(وسع ربنا كل شيء علماً) تقدم نظيره في الآية ٨٠ من سورة الأنعام . (على الله توكلنا) . ومن توكل عليه لا يخشى التهديد والوعيد ، لأنه على علم اليقين بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع . (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . بعد أن يئس شعيب منهم وتأكد من اصرارهم على الكفر التجأ إلى الله ، وتضرع اليه أن يحكم ويفصل بينه وبين من كفر من قومه ، لأنه تعالى هو مصدر القوة والعدل .

لئن اتبعتم شعيباً الآية ٩٠ – ٩٣ :

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ★ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ★ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ★ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ★

اللغة :

غني بالمكان أقام به . وآسى عليه حزن عليه .

الإعراب :

لئن تدل اللام على قسم محذوف ، وجملة انكم إذاً لخاسرون جواب للقسم ، وسادة مسد جواب الشرط ، وإذاً ملغاة لاعتراضها بين اسم انّ وخبرها. والذين كذبوا شعيباً الأولى مبتدأ ، وكأنْ اسمها ضمير الشأن محذوف أي كأنه ، وجملة كأن واسمها وخبرها خبر المبتدأ ، والذين كذبوا شعيباً الثانية بدل من الأولى . وهم ضمير فصل بين اسم كان وخبرها ، ولا محل له من الإعراب .

المعنى :

(وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً انكم اذاً لخاسرون) .

توجه المشركون أولاً إلى شعيب صاحب الدعوة يهددون ويتوعدون ، ولما يئسوا منه تحولوا الى الذين آمنوا به يحاولون فتنتهم عن دينهم ، وقالوا لهم فيما قالوا : انكم لخاسرون في اتباعكم شعيباً ، وهذا دأب من لا حجة له إلا الاغواء والإضلال .

(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) . هذا هو الجواب الصحيح لمن عاند وتمرد ، وأبى إلا الضلال والفساد ، وتقدمت هذه الآية بالحرف ٧٨ من هذه السورة .

(الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها) . لقد أتى العذاب عليهم وعلى ديارهم وجميع آثارهم ، حتى كأنهم لم يعرفوا هذه الحياة وتعرفهم .. وكل امرىء مجزي بما أسلف عاجلاً أو آجلاً . (الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين) . قال الذين أشركوا للذين آمنوا : انكم لخاسرون فكانت العاقبة خسرانهم وهلاكهم ، وربح المؤمنين ونجاتهم .. والعاقل لا يقول للمترف الهناء لك ، وللمستضعف الويل لك ، لأن للدهر مخبآت ومفاجآت ، والأمور بخواتيمها ، وإنما كرر (الذين كذبوا شعيباً) تأكيداً لخسرانهم وهوانهم .

(فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين) . كيف أحزن على من أهلك نفسه بنفسه مصراً على الكفر بالله وكتبه ورسله ، والاستهزاء بمن آمن به واتبع صراطه القويم . وتقدم نظيره في الآية ٧٩ من هذه السورة .

وما أرسلنا في قرية الآية ٩٤ – ٩٥ :

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ★ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ★

اللغة :

البأساء الشدة . والضراء ما يضر الإنسان مادياً أو أدبياً . والتضرع الخضوع . والعفو الترك ، والمراد به هنا الكثرة والنمو ، أي تركوا حتى تناسلوا وكثروا . والبغتة الفجأة .

الإعراب :

يضرّعون أصلها يتضرعون ، فادغمت التاء في الضاد . وحتى عفوا أي الى أن عفوا . وبغتة نعت لمصدر محذوف أي اخذةً بغتة ، ويجوز أن تكون بغتة مصدراً في موضع الحال ، أي مباغتين .

المعنى :

(وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون) . المراد بالقرية البلدة الجامعة التي يسكنها – في الغالب – الرؤساء والزعماء ، ولعل هنا بمعنى كي .

في الآيات السابقة أشار سبحانه الى الهلاك الذي حل بالمكذبين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، والى ما في نهايتهم من عبر وعظات ، وان الخير كان عاقبة المتقين ، وان دائرة السوء دارت على المبطلين ، وبيّن في هذه الآية ان ما جرى لأقوام أولئك الأنبياء لا يختص بهم وحدهم ، ولكنها سنة الله . تجري على كل قوم كذبوا نبيهم..يأخذهم الله بالشدة والمشقة في أنفسهم وأبدانهم وأموالهم ، لا لشيء إلا ليتعظوا ويرتدعوا ، ويعتبر بهم من يأتي من بعدهم .

(ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا مس آباءنا الضراء والسراء) . المراد بالسيئة هنا الضيق والعسر ، وبالحسنة السعة واليسر ، وبالعفو الكثرة . والمعنى ان الله سبحانه ابتلاهم بالضيق والشدة ليتعظوا ، وبالسعة والعافية ليشكروا ، ولكن قلّ من يتعظ ، وأقل منه من يشكر ، ولما كثروا بالنعم والنسل استخفوا

بالحق ، وهزأوا بأهله ، وأخـذوا يفسرون سنة الله بجهلهم وعلى أهوائهم ، ويقولون : ما أصاب آباءنا من الضراء لم يكن عقوبة عـلى ضلالهم وفسادهم ، وما نالهم من السراء لم يكن مثوبة على صلاحهم وهدايتهم ، وانما هي الصدفة تخبط خبط عشواء .

وإذا غفل هؤلاء واضرابهم عن حكم الله وحكمته فان الله جل ثناؤه ما هو بغافل عنهم وعن أعمالهم (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) جزاء على اغترارهم وانطلاقهم مع الأهواء والأغراض .. وهكذا يحذر القرآن الذين لا يتورعون ولا يتحرجون عن شيء ، يحذرهم من الأخذ بغتة ، وهم لا يشعرون .

ولو ان أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ ـ ١٠٠ :

وَلَوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ★ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَـا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ★ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ★ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ★ أَوَ لَمْ يَهْـدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ★

اللغة :

البركات بوجه عام الخيرات النامية ، وبركات السماء كثيرة ، وأظهرها المطر ،

وبركات الأرض كثيرة أيضاً ، وأظهرها الخصب والمعادن ، بخاصة الذهب الأسود. والمراد بالبأس هنا العذاب . والبيات وقت المبيت وهو الليل . والضحى انبساط الشمس .

الإعراب :

أفأمن الهمزة للاستفهام على وجه التوبيخ والإنكار . والفاء لعطف الجملة على ما قبلها . وبياتاً منصوب على الظرفية بيأتيهم لأن المراد به الليل . والمصدر المنسبك من أن يأتيهم مفعول لأمن . أي امنوا إتيان بأسنا . ان لو نشاء (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعد لو خبرها ، والمصدر المنسبك فاعل يهد ، والتقدير أو لم يهد لهم هذا الشأن ، وهو انّا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم .

المعنى :

(ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض). أظهر بركات السماء المطر ، وأظهر بركات الأرض النبات والمواشي والمعادن بشتى أنواعها .

وقد بينا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ، فقرة « هل الرزق صدفة أو قدر : ان مجرد الإيمان بالله لا ينبت قمحاً ، وبينا أيضاً في تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ، فقرة « الرزق وفساد الأوضاع » : ان المراد بالإيمان الموجب للرزق هو الإيمان بالله مع العمل بجميع أحكام الله ومبادئه ، واقامة العدل في كل شيء ، وانه متى عمّ العدل وساد صلحت الأوضاع ،وذهب البؤس والشقاء. (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) . أي لم يعملوا بأحكام الله ، بل سعوا في الأرض فساداً بالظلم والجور ، والسلب والنهب ، وتكديس الثروات على حساب الضعفاء والبؤساء ، وقد أخذهم الله بالهلاك والعذاب ، لأنهم كفروا واستأثروا .

(أفامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتــاً وهم نائمون) ؟. هذا تخويف وانذار منه تعالى للمتمردين والمستأثرين أن يفاجئهم الله بعذابـه ؛ وهم في غفلة من غفلاتهم ، كما فعل بمن كان قبلهم .. وهل يملك الإنسان أن يدفع عنه قضاء الله في صحوه وحذره ؟ فكيف يملكه ، وهو أشبه بالموتى ؟.

(أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) ؟ ويلعبون هنــا كناية عن ذهولهم عن المفاجآت والمخبآت ، وعن محاسبتهم لأنفسهم . وتسأل : لا فرق أبداً بين يقظة الإنسان وغفلته أمـام بأس الله ، فما هو القصد من ذكر النوم واللعب ؟.

الجواب : ان يتنبه الإنسان إلى جهات الضعف فيه لعله يتذكر أو يخشى .

(أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) . المراد بمكــر الله هنا العذاب الذي يأتيهم بغتة دون سابق انذار ، وسبق الكلام عن مكر الله تعالى في تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٨ وانه سبحانه يصف نفسه بالماكر لأنه يُبطل مكر الماكرين ، وبالشاكر لأنـه يثيب الشاكرين ، وبالتواب لأنه يقبل من التائبين .. أما انهم الخاسرون فلأنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران بسبب عنادهم واستهتارهم .

(أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم). أي ان هؤلاء المشركين الذين ورثوا الأرض ممن أهلكناهم بذنوبهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة – ان هؤلاء المشركين ألم يتبين لهم ان شأننا فيهم تمامــاً كشأننا فيمن كان قبلهم لو نشاء أصابهم عذابنا كـمـا أصاب غيرهم من قبل ؟.. فان سنة الله واحدة في جميع خلقه .. والغرض من هذه المبالغة في النصيحة والتحذير أن يراقب الانسان نفسه ، ولا يذهل عنهــا ، وان يتعظ بغيره ، ولا يغــتر بالمظاهر الجوفاء .. ولكن : « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ١٠١ يونس » .

(ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) . تقدم الكلام عنه في الآية ٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٥٣ .

تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ - ١٠٢ :

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ★ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ★

اللغة :

نقص عليك أي نتلو عليك . والنبأ الخبر عن أمر عظيم الشأن . والمراد بالعهد هنا الالتزام بالأدلة الدالة على التوحيد والنبوة وكل ما أمر الله والعقل به ، ونهيا عنه .

الإعراب :

تلك مبتدأ ، القرى عطف بيان ، وجملة نقص خبر . ومن عهد (من) زائدة وعهد مفعول لوجدنا ، ولأكثرهم متعلق بمحذوف حالاً من عهد . وان مخففة من الثقيلة يجوز أن تكون ملغاة ، وان تكون عاملة ، واسمها محذوف أي إنا وجدنا ، ولفاسقين مفعول ثانٍ لوجدنا ، ودخلت عليه اللام للفرق بين ان المخففة وان النافية .

المعنى :

(تلك القرى نقص عليك من أنبائها) . تلك القرى اشارة الى أهل القرى

الخمس ، وهم قوم نوح وهـود وصالح ولوط وشعيب ، والخطاب في نقص عليك موجه الى رسول الله محمد (ص) ، والقصد منه أن يخبر المسلمين بأحوال الغابرين ليعتبروا ويحذروا (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بمـا كذبوا من قبل) .

ذكر الرازي ثلاثة وجوه لتفسير هذا المقطع من الآية ، وزاد الطبرسي رابعاً، ولم يرجحا وجهاً منها ، وتركا القارىء العادي في تيه ، مع ان المعنى واضح لا غموض فيه ، ويتلخص بأن أهل تلك القرى كانوا قبـل أن يرسل الله اليهم رسله على الشرك والضلال ، وانهم استمروا في شركهم وضلالهم بعد أن جاءتهم الرسل بالدلائل والمعجزات ، ولم تؤثر فيهم شيئاً ، حتى كأن الله لم يرسل اليهم بشيراً ونذيراً ، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين) ، والطبع هنا كناية عن قسوة قلوبهم ، وانها لا ترعوي عن ضلالها، ولا يرجى خيرها .

(وما وجدنا لاكثرهم من عهد) . فـلا يؤمنون بدين الله ، ولا يلتزمون بشيء يمت الى الانسانية بصلة .. أجل،لهم عهد واحد يلتزمون به ، ولا يحيدون عنه ، وهو اتباع المصالح والأهواء . (وان وجدنا أكثرهم لفاسقـين) . أي وانّا وجدنا أكثرهم منحرفين عن قصد السبيل .

موسى وفرعون الآية ١٠٣ - ١١٢ :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ★ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ★ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ★ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ★ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ

مُبِينٌ ★ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ★ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ★ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ★ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ★ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ★

اللغة :

ظلموا بها أي جحدوا بها . وحقيق بمعنى جدير . والنزع اخراج الشيء من مكانه . والمراد بتأمرون هنـــا تشيرون . وأرجأ الشيء أخّره وأجّله . ومدائن ومُدن جمع مدينة . وحاشرين أي ان الشرطة يجمعون السحرة ، ويحشرونهم ضد موسى (ع) .

الإعراب :

كيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، والجملـــة مفعول فانظر . وحقيق مبتدأ ، وعلي متعلق به ، والمصدر المنسبك من إلا أقول خبر المبتدأ ، أو فاعل حقيق ساد مسد الخبر ، والتقدير حقيق عليّ قول الحق على الله . فإذا للمفاجأة . وهي ثعبان مبتـــدأ وخبر . وفماذا تأمرون يجوز أن تكون (ما) مبتدأ وذا اسم موصول خبر ، ويجوز أن تكون (ماذا) كلمة واحدة منصوبة بنزع الخافض مفعولاً لتأمرون ، والتقدير بأي شيء تأمرونني ؟. وأرجه أصله أرجئه بالهمزة ، أو ارجيه بالياء حيث يجوز فيه الأمران — كما قيل — وعلى الياء يكون الحذف على الأصل ، وعلى الهمزة يكون حذفها إلحاقاً لها بالياء أو للتخفيف ، وأخـاه مفعول معه . وحاشرين مفعول به لأرسل .

تلخيص القصة :

لقد مر بنا العديد من الآيات التي عرضت قصة موسى (ع) مع بني اسرائيل، والآن تعرض هذه الآيات التي نفسرها قصة موسى (ع) مع فرعون .

وكلمة فرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم ، وكسرى لملوك الفرس ، والنجاشي لملوك الحبشة ، ونقل عن الكثيرين ممن يُعنون بالتاريخ المصري القديم : ان اسم فرعون موسى منفتاح . وكان يلقب بسليل الإله، وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية هذه الآية : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » .

اسم ام موسى والأسطورة :

أما موسى (ع) فهو ابن عمران ، وأهل الكتـاب يقولون (عمرام) ، وفي المجلد الأول من هذا التفسير ص ١٠١ ذكرنا ان اسم موسى مركب من (مو) اسم الماء ، و (سى) اسم الشجر ، لأن أمه وضعته في صندوق ، واقفلته اقفالاً محكماً ، وألقته في النيل خوفاً عليه من فرعون الخ.

ومن الطريف أن يخترع مخترع من هـذا القُفل الذي أقفلت به ام موسى صندوق وليدها ، أن يخترع منه اسطورة شاعت وذاعت مدى قرون من الزمن، وآمن بها كثيرون من البسطاء السذج .. وهي ان ما من قفل إلا ويفتح تلقائياً إذا قرىء عليه اسم ام موسى ، ومن أجل هذا لا يعرفه إلا الخواص من أهل الأسرار .. وفي ذات يوم دخلت على أحد رجال الدين . وله اسم وشأن بـين قومه ، فوجدته يبحث وينقب مهتماً في مجلدات بحار الأنوار للمجلسي ، فقلت له : ما شأنك ؟ قال : أريد أن أعرف اسم ام موسى ..

ومنذ سنتين قصدني رجل يظن اني من أهل الأسرار ، وسألني عن اسمها ، فقلت له : ليس المسؤول بأعلم من السائل ، فلم يقتنع ، فقلت له : ان هذه خرافة .. فاعتقد اني أتهرب منه ، ولا أريد أن اطلعه على هذا السر العظيم .. ولما يئست منه قلت له : لا يجوز لي أن اطلعك عليه لأنـي لا آمن أن تسرق

أموال الناس، فأقسم وأغلظ في القسم انه لن يفعل، فتظاهرت بعدم الثقة به، ومضت الأيام ، وشرعت في تفسير القــرآن الكريم ، ولما بلغت هذه الآيات راجعت مصادرها . ومنها كتاب « قصص القرآن » وضعه أربعة من الكتّاب المصريين، وهم محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ، والسيد شحاته . واذا فيه ان اسم ام موسى « يوكابد » ولكن المؤلفين لم ينسبوه إلى مصدر .

وبعد هــذا الاستطراد نعود إلى قصة موسى مــع فرعون ، كما جاءت في الآيات التي نحن بصدد تفسيرها. ويتلخص معناها بأن فرعون كان يدعي الربوبية من دون الله ، ويضطهد بني اسرائيل ، فأرسل الله اليه موسى وهارون ، فذهبا واقتحما عليه مجلسه لا يخشيان سلطانه وطغيانه ، وجابهه موسى بقوله : يا فرعون اني رسول من رب العالمين اليك والى كل جاحد ، ولديّ ما يثبت رسالتي ، وعليك أن تطلق بني اسرائيــل من أسرك ، وتدعهم أحــراراً يذهبون حيث يشاءون .. فاستخف به فرعون ، وقال : هات ما يثبت رسالتك، فألقى موسى عصاه ، فاذا هي ثعبان ، ووضع يده في جيب قميصه، وأخرجها فتلألأت ناصعة لكل ناظر ، وكان موسى أسمر .

فقال رجال فرعون وأهل مشورته : ان هذا ساحر ماهر .. وجمع فرعون السحرة لموسى ، وقبل أن يشرعوا بألاعيبهم قالوا لفرعون : ألنا أجر ان غلبنا موسى ؟ قال : لكم أجر وقربى ، وألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، فخُيل للنظارة انها حيات تسعى ، وألقى موسى عصاه ، فاذا هي تلقف ما يأفكون ، فأسلم السحرة ، وآمنوا برسالة موسى ، فتهددهم فرعون بالعذاب والتنكيــل ، فلم يعبأوا وثبتوا على ايمانهم .. وجاء في العديد من الروايات ان فرعون نفّـــذ فيهم تهديده ووعيده ، وطبيعة الحال ترجح ذلك .

وراح فرعون يُنزل بموسى ومن معه صنوف العذاب ، ويشتط في التنكيــل والتعذيب ، ولكن موسى استمر في دعوته الى الله لا يثنيه عنها شيء ، فضج بنو اسرائيل وقالوا لموسى : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، فأمرهم بالصبر ، ومناهم الفوز .

وأخذ الله آل فرعون بالجدب والضيق ، وأرسل عليهم أمطاراً تهلك زرعهم وثمارهم ، وجراداً يأتي على ما تبقى من أثر السيول ، وقملاً ينهك أجسامهم ، وضفادع تفسد عليهم حياتهم ، وفوق هـذا كلـه تحولت مياههم الى دماء .. وعندها فزعوا الى موسى ، وقالوا له : لئن كشف ربك عنا العذاب لنكونن من المؤمنين ، وكشف الله عنهم الى حين لعلهم يرجعون .. ولكن نكثوا العهد، وأصروا على الكفر ، فأغرقهم الله في البحر ، وقطع دابر الكافرين .

هذا تلخيص سريع لما جاء في الآيات التي نحن بصددها ابتداء من الآية ١٠٣ الى نهاية الآية ١٣٧ . وفيما يلي نشرح دلالة هذه الآيات على ما ذكرنا .

المعنى :

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها) . ضمير بعدهم يعود الى الأنبياء الخمسة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، أو إلى قومهم ، والآيات التي بعث بها موسى هي المعجزات الدالة على نبوته ، وملأ فرعون أشراف قومه الذين بيدهم الحل والعقد،وليس لغيرهم إلا الانقياد والتسليم، ومعنى ظلموا بها جحدوا وكفروا بما جاء به من الآيات والمعجزات . (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . وهم فرعون وأنصاره الذين يتحكمون في رقاب العباد ، وهذه العاقبة ستجيء في السياق .

(وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين) . بهذا النداء خاطبه موسى « يا فرعون » من غير تبجيل وتعظيم ، لأنـه يتكلم بلسان الله ، ويبلغ رسالات الله التي يصغر عندهـا كل كبير .. وبهذا ندرك السر لسيرة الصلحاء الذين يترفعون على الفاسقين ويخفضون جناح الذل من الرحمة للمؤمنين .

(حقيق علي ان لا أقول على الله إلا الحق) شأن كل نبي ائتمنه الله على وحيه ، واختاره لرسالته (قد جئتكم ببينة من ربكم) تدل على اني رسول من رب العالمين (فأرسل معي بني اسرائيل) كان فرعون يستعبد بني اسرائيل ، ويستخدمهم في أشق الأعمال ، فطلب منه موسى (ع) أن يطلقهم ، ويدعهم وشأنهم يذهبون الى حيث يشاءون .

(قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) . يظهـــر ان فرعون كان يظن ان موسى كاذب في دعواه ، فأراد أن يفتضح أمام الملأ ، فقال له : فأت بها ان كنت من الصادقين ، فألقمه موسى حجراً بحجته الدامغة ومعجزته القاطعة (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) ظاهراً وواقعاً ، لا تمويهاً وإيهاماً ، ففزع فرعون ، ولكنه تمالك لأنه كان يدعي انه هو الرب الأعلى ، وفاجأه موسى بالثانية كما فاجأه بالأولى (ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين). ويد موسى سمراء ، لأنه كان يميل إلى السمرة ، فكيف صارت بيضاء من غير سوء ، أي من غير مرض وعلة ؟.

فشعر فرعون بالمذلة والهوان ، وصغر شأنه عند نفسه،فأدرك جلساؤه وحاشيته منه ذلك ، وان موسى أنزله من عليائـــه ، فحاولوا أن يخففوا عن سيدهم ، وكذبوا عليه وعلى أنفسهم (قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) . هذه هي حجة العاجز إلصاق التهم بالأبرياء ، والنيل من كرامة الأصفياء .

ثم قال الملأ من قوم فرعون : (يريد أن يخرجكم من أرضكم) . أي ان موسى يريد أن ينتزع منهم الحـــكم والسلطان ، ولما سمع فرعون ما سمع قال : (فماذا تأمرون) أي إذا كان الأمر كذلك فبماذا تشيرون؟ (قالوا أرجه وأخاه) ، أخرهما ولا تقتلهما ، لأنك ان فعلت ذلك غضب الرأي العام ، وعرضت نفسك وسلطانك للتهديد والخطر (وأرسل في المدائن حاشرين) المدائن جمع مدينة ، والحاشرون الشرطة (يأتوك بكل ساحر علـــيم) . قال المؤرخون : ان أرض مصر كانت تموج بالسحرة عـــلى عهد الفراعنة ، وكان كهنة الديانات وسدنة الآلهة هم الذين يزاولون أعمال السحر ، قال العقاد في كتاب « إبليس » فصل « الحضارة المصرية » :

« كان الفراعنة أنفسهم يلجأون إلى السحر لمغالبة الأرواح الخفية .. ولدينا من بقايا قصص السحر نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيث اتفق بين الأنقاض والمحفورات ، وكلها تروي أعمـــال السحر في مجازاة الأشرار .. وكانوا يقسمون السحر إلى أقسام،منها ما يستعان فيه بقدرة إله الخير على إله الشر،ومنها ما يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار » .

وانتشار السحر في عهد فرعون يفسر لنا عصا موسى ، ويؤيد المبدأ القائل: ان معجزة كل نبي تأتي من النوع السائد في عصره ، ليكون التحدي أبلغ في الحجة وقاطعاً لكل عذر ، فموسى أبطل السحر لرواجه في عصره ، وعيسى أحيا الموتى ، ومحمد أخرس البلغاء للغاية نفسها من المشابهة .

وجاء السحرة الآية ١١٣ – ١٢٦ :

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ★ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ★ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ★ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ★ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ★ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ★ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ★ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ★ رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ ★ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ★ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ★ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ★ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ★

اللغة :

استرهبوهم أي أرهبوهم وخوفوهم من أعمال السحر . وتلقف الشيء تناوله بحذق وسرعة . والإفك صرف الشيء عن وجهه، ومنه الكذب . والمكر الخديعة، ومنه مذموم إذا قصد به الشر ، ومنه ممدوح إذا كان وسيلة للخير ، ولا شائبة فيه للشر . وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، والعكس بالعكس .

الاعراب :

والمصدر المنسبك من إما أن تلقي وإما أن نكون مفعول لفعل محذوف، أي اختر اما القاءك واما القاءنا . ان ألق (ان) مفسرة لأوحينا ، فهي هنا ترادف كلمة أي ، ويجوز أن تكون مصدرية على أن يكون المصدر المنسبك مجروراً بباء الجر المحذوفة أي وأوحينا بالإلقاء . وهنالك في محل نصب على الظرفية متعلقاً بغلبوا ، لأنه إشارة إلى المكان الذي غلبوا فيه . وصاغرين حال ، ومثلها ساجدين . ورب موسى وهرون بدل من رب العالمين . وما تنقم (ما) للاستفهام مع الإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة تنقم خبر ، والمصدر المنسبك من ان آمنا مفعول تنقم أي لا تنقم منا إلا الإيمان .

المعنى :

(وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم لمن المقربين) . ان هؤلاء السحرة الذين ساوموا فرعون ضد موسى (ع) كانوا يمثلون الدين في عصرهم .. ولهم أشباه ونظائر في كل عصر ، يساومون على دينهم وضميرهم كل من يدفع الثمن .. ففي عصرنا هذا اشترى الصهاينة والمستعمرون الكثير من أرباب القلانس والعمائم ، ودفعوا لهم الثمن ، فقبضوا وتطوعوا يناصرون الاستعمار والاستغلال بالتمويه والتضليل ، وألفوا لهذه الغاية

الهيئات والجمعيات باسم الدين والمبادىء . ولكن سرعان ما افتضحوا . وصاروا سُبة على لسان كل واعٍ مخلص .

(قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين) . خيروه بين أن يبدأ ، أو يبدأوا ثقة منهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة ،وعدم مبالاتهم بموسى (ع). وغريب قول الرازي: ان السحرة خيروا موسى تأدباً واحتراماً . (قال - موسى - ألقوا) مستخفاً بهم وبسحرهم (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) . ونسبة السحر إلى الأعين دليل على ان سحرهم لا واقع له ، وإنما هو مجرد تمويه وتضليل ، واسترهبوهم أي ان السحرة خوفوا وأرهبوا النظارة ، وجاءوا بسحر عظيم في التمويه والتضليل ، لا في الحقيقة والواقع .

(وأوحينا إلى موسى ان ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) . خاف موسى أن يغتر الجاهلون بتمويه السحرة وتضليلهم ، فشد الله من عزمه ، وأوحى اليه انه معه ، وأن ما جاء به السحرة ليس بشيء ، وإنما هو افتعال وتزوير . وأمره أن يلقي العصا ، ولما ألقاها ابتلعت ما زوروا ، وأبطلت ما افتعلوا ، وظهر الحق عياناً للجميع . وذهل فرعون من هول الصدمة .. انه حشد الجماهير ، وأتى بالسحرة من كل مكان ليدعم بهم عرشه وسلطانه ، ويثبت للناس كذب موسى وافتراءه .. وإذا بالآية تنعكس رأساً على عقب ، ويؤمن الجميع بما فيهم السحرة بصدق موسى وأمانته ،وكذب فرعون وخيانته (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) . بعد ذاك الزهو ، وتلك الكبرياء ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الخطب على فرعون بعض الشيء ولكنه فوجىء بما هو أدهى وأمر (وألقي السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون). هؤلاء هم السحرة الذين تحدى بهم فرعون موسى وهرون يستسلمون طائعين ، ويسجدون لرب العالمين رب موسى وهرون ، لا لفرعون الذي جاء بهم لإبطال دعوة الله والحق .

وتسأل : ما هو القصد من قول السحرة : رب موسى وهرون ، مع العلم بأن قولهم : آمنا برب العالمين يغني عنه ؟.

الجواب : ان فرعون كان يقول للناس : « أنا ربكم الأعلى .. ما علمت

لكم من إله غيري » . ولو اكتفى السحرة بقولهم : رب العالمين لدلّس فرعون وحرّف ، وقال : اياي يعنون برب العالمين. فقطعوا الطريق على تدليسه وتحريفه بقولهم : رب موسى وهرون .

حول السحر :

في المجلد الأول ص ١٦٤ تكلمنا عن السحر بعنوان « السحر وحكمه » ، وقلنا فيما قلنا : نحن مع الذين لا يرون للسحر واقعاً ، وأقمنا الدليل على ذلك ، ونعطف الآن على ما سبق ما يلي :

ان قوله تعالى : سحروا أعين الناس دليل واضح ان السحر لا واقع له ، وانه شعوذة وتمويه . أما قوله سبحانه : وجاءوا بسحر عظيم فمعناه ان ما جاءوا به عظيم في ظاهره ، وفي أعين الناس ، وانهم قد بلغوا النهاية في الشعوذة والتزوير ، ويوضح هذا المعنى ويؤكده الآية ٦٦ من سورة طه : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » . انها لا تسعى حقيقة وواقعاً ، بل توهماً وتخيلاً .. وعن الرسول الأعظم (ص) : « من مشى الى ساحر أو كاهن أو كذاب يصدقه فقد كفر بما أنزل الله».

وقال كثير من المفسرين : ان سحرة فرعون احتالوا لتحريك الحبال والعصي بما جعلوا فيها من الزئبق حتى تتحرك بحرارة الشمس .. وأياً كان السبب فنحن نؤمن ايماناً لا يشوبه ريب بأن الساحر كذاب لا يصدقه إلا مغفل ، وان ما أتى به سحرة فرعون ، ويأتي به الهنود وغير الهنود من الأعمال المدهشة لها سبب من غير شك ، ونحن وان كنا نجهل نوع هذا السبب فانا نعلم علم اليقين بأنه لا يغير الواقع ، ولا يبدل منه شيئاً ، والا استطاع الساحر أن يدفع عن نفسه الضر ، ويملك لها النفع ، ويحكم العالم بأسره بمجرد ارادته وتمنياته. وكان شريكاً لله في ملكه تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

(قال فرعون آمنتم به قبل ان آذن لكم) . أرأيت الى هذا المنطق ؟ انه يريدهم أن يستأذنوه في شؤون قلوبهم من الإيمان والحب والبغض .. ولا انسان

في الكون له سلطان على قلبه ، ولكنه منطق الطغاة (ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) . يوجه فرعون بقوله هذا التهمـــة إلى السحرة بأن ايمانهم بموسى لم يكن عن حجة واقتناع ، وانما هو مجرد حيلة وخديعة تواطأوا عليها مع موسى من قبل ، وان الغاية من هذا التواطؤ اخراج الحاكمين من مصر وانتزاع الملك منهم .. قال هذا فرعون ، وهو يعـلم انه كاذب في قوله ، ولكن أراد التمويه على الناس خوفاً أن ينتقضوا عليه ويؤمنوا بموسى ، ولكن الناس يعلمون ان السحرة كانوا يؤلهون فرعون ، ويمكنونه من رقاب العباد باسم الدين ، وان السحرة لم يؤمنوا الا عن بصيرة واقتناع ، وأيضاً يعلم الناس ان موسى لم يجتمع بواحد من السحرة ، لأن فرعون جمعهم من هنا وهناك .

(لأقطعن أيديـكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنـكم أجمعين) . هذا هو سلاح الطغاة في مواجهة الحق ، قال المسعودي في مروج الذهب : جمع معاوية الناس في سنة ٥٩ هـ ليبايعوا ولده يزيد ، فقام رجل من الأزد خطيباً ، وقال: ان مات هذا – مشيراً الى معاوية – فهذا مشيراً إلى يزيد ، ومن أبى فهذا ، وهز السيف . فقال له معاوية : اقعد أنت من أخطب الناس .

(قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) . افعل ما شئت فلا نأبه بك ولا بقتلك فنحن على يقين من لقاء ربنا وعدله .. وكل من يؤمن بلقاء الله يقف هذا الموقف ، بل يرى الاستشهاد سعادة ووسيلة لمرضاة الله وثوابه ، أما الذين يخافون الموت في سبيل الله ، ويتهربون منه فهم يؤمنون بلقاء الله نظرياً فقط ، أما عملياً فانهم به كافرون .

(وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) . ان قولهم هذا يتضمن التهديد لفرعون ، لأن معناه انك لا تنقم منا نحن ، وانمـــا أنت تنقم من الله ورسوله بالذات ، لأنه لا ذنب لنا إلا الإيمان بالله ورسوله موسى : « ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم – ٦٤ التوبة » .

(ربنا افرغ علينا صبراً) . في هذا الموقف يحمد الصبر على القتل والتعذيب

لأنه في سبيل الله ، وقد سألوا الله سبحانه ان يرزقهم هذه الفضيلة خوفاً أن تنهار أعصابهم ، وتتلاشى عزائمهم ان أحسوا بوقع السيف في أجسادهم .

(وتوفنا مسلمين) لك ولنبيك راضين بالتعذيب والتنكيل في سبيلك .

انذر موسى وقومه الآية ١٢٧ - ١٢٩ :

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ★ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ★ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ★

المعنى :

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض) . بعد ان انفض ذلك المشهد الرهيب الذي انتصر فيه موسى ، وافتضح فرعون مضى موسى يدعو إلى عبادة الله وحده ، ودليله ما حدث بالأمس بينه وبين السحرة ، فاجتمع حوله خلق كبير ، فخاف الأشراف من قوم فرعون أن تتغير الأوضاع ، وتدور الدائرة عليهم وعلى سيدهم فحرضوه على موسى ، وقالوا : إلى متى تسكت عن موسى ، وتدعه يُفسد في الأرض ؟ . وهم يريدون بالإفساد في الأرض عبادة الناس لله وحده التي تودي بطغيانهم وطغيان فرعون .

(ويذرك وآلهتك) . ان هذا القول من الملأ لفرعون يدل على انه كان له آلهة يعبدها،وهو يتنافى بظاهره مع قول فرعون : ما علمت لكم من إله غيري.. أنا ربكم الأعلى ، وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها انه كان لفرعون آلهة يزعم انه الابن الحبيب لها ، وانه يستمد منها حكمه وسلطانه،فقوله : ما علمت لكم إلهاً غيري يريد به انه لا حاكم للمصريين باسم الإله والرب إلا هو وحده لا شريك له ، ويؤيد هذا المعنى قوله : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي — ٥١ الزخرف » .

(قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم) . كان فرعون قبل ولادة موسى يقتل الذكور من نسل بني اسرائيل ، ويستبقي الأناث ، ولما حرضه الأشراف من قومه على موسى أجابهم بأنه سيعيد فيهم سيرته الأولى من قتل الأبناء واستبقاء النساء ، حتى ينقرضوا (وانّا فوقهم قاهرون) . أي انه قادر عليهم الآن كما كان قادراً عليهم من قبل موسى .

(قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) . لما سمع بنو اسرائيل تهديد فرعون ووعيده جزعوا فسكنهم موسى (ع) ، وأمرهم بالصبر والتوكل على الله ، ومناهم بالنصر إذا هم صبروا واتقوا ، لأن الأرض والملك لله لا لفرعون ، والله مع المتقين .

(قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) . كان فرعون يضطهد اسرائيل قبل مجيء موسى ، وأوغل في اضطهادهم بعد مجيئه ، ولما قالوا لموسى (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف ون) . ان موسى على علم اليقين انه سيهلك فرعون ، وانه سيمن على بني رائيل بالنجاة منه ، ويمكن لهم في الأرض ، وعبّر عن ذلك بالرجاء دون الجزم لئلا يتكلوا على وعده .. ثم أومأ موسى (ع) إلى قومه انه ليس المهم أن يهلك الله عدوهم ويستخلفهم في الأرض ، وانما المهم أن يتقوا الله ، ويحسنوا خلافته في أرضه ، فينظر أيصلحون أم يفسدون ؟.. وقد عملوا الكثير في الأرض، حيث قتلوا الأنبياء والمصلحين من قبل ، وأقاموا دولة من بعد لا شريعة لها إلا شهوة القتل والتشريد .

في هذه السنة ١٩٦٨ صدر كتاب في اسرائيل ، اسمه « سياخ لوخاميم » أي أحاديث الجنود ، ترجمت جريدة الأهرام بعض ما جاء فيه في عدد ٦٨/٨/٢٣ ، من ذلك :

« من لا يستطيع أن لا يقتل أو لا يدمر بيتاً وينسفه على من فيه فالأفضل له أن يقعد في بيته ، ان الحركة الصهيونية تقوم على هذا الأساس ، عندما جئنا إلى أرض فاسطين كان هناك شعب آخر يسكنها ويعيش فيها ، ولم يكن لنا أن نتوقع انه سوف يترك مزارعه وبيوته لنا بالرضى والقبول ، فكان لا بد أن نقتلهم لنأخذ البيت والمزرعة ، أو نخيفهم بالقتل لكي يهربوا ، ويتركوا لنا البيت والمزرعة » .

هذه هي شريعة اسرائيل ، وهذا هو هدفها : القتل والتشريد .. انها ليست مجرد دولة كغيرها من الدول ، وانما هي عصابة مسلحة صهيونية استعمارية تهدف إلى قتل أو تشريد أصحاب البيوت والمزارع من النيل إلى الفرات لتحتل بيوتهم ومزارعهم .. فماذا أعد لها العرب ؟. لا وسيلة ولا حل إلا المبدأ الفيتنامي القائل: اما الموت ، واما الحياة ، اما لا اسرائيل تقتل وتشرد ، واما لا عرب اطلاقاً على سبيل مانعة الجمع .

ولقد أخذنا آل فرعون الآية ١٣٠ - ١٣٣ :

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ★ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ★ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ★

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ★

اللغة :

الأخذ هو التناول باليد ، والمراد به هنا الابتلاء . والسنة تطلق على الحول ، وتطلق على الجدب ، يقال : أسنت القوم إذا أجدبوا ، وهذا المعنى هو المراد في الآية . والتطير التشاؤم . والمراد بطائرهم نصيبهم الذي قدر لهم .

الاعراب :

يطيروا أصلها يتطيروا فادغمت التاء بالطاء ، وبه عائد إلى مهما . وبمؤمنين الباء زائدة ، ومؤمنون خبر لنحن . وآيات حال من الأشياء المذكورة .

المعنى :

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) . كانت مصر تفيض بالخصب والعطاء ، وقد فاخر فرعون بخصبها هذا ، حيث قال : « وهذه الأنهار تجري من تحتي » . وقال المتنبي عن ثعالبها : «فقد بشمن وما تفنى العناقيد » . وأخذها الله بالجدب وضيق العيش على عهد فرعون موسى ليرعوي عن غيه ، ويستجيب لدعوة الحق .. وفي بعض الروايات إذا جار الولاة حُبس المطر . وسواء أكان هناك علاقة بين ظلم الوالي والجدب على وجه العموم أم لم يكن ، فان الله عاقب آل فرعون لظلمهم لعلهم يذكرون قبل أن يقذف بهم في أعماق اليم .

(فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن

معه) . بهذا المنطق يفسرون الأحداث .. كل ما أصابهم من خير فهم مستحقون له ، لأنهم يتحكمون في رقاب العباد ، وكل مـــا أصابهم من سوء فسببه من يدعوهم الى الحق. أما الله والطبيعة التي خلقها الله فبمعزل عن الخصب والجدب، فرد الله عليهم بقوله : (الا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون). طائرهم كناية عما أصابهم من الجدب ، وانه بارادة الله التي تنتهي اليها جميع الأسباب ، وان تطيرهم بموسى خرافة وجهل .

وتسأل : لماذا قال الحسنة بالتعريف وقال سيئة بالتنكير ؟.

الجواب: غير بعيد أن يكون تعريف الحسنة اشارة إلى أن خير الطبيعة كالخصب ونحوه كثير ، وان تنكير السيئة اشارة الى ان شرها كالزلزال والطوفان قليل .

(وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) . هذا اعتراف صريح بأنهم يرفضون الحق ، وفي الوقت نفسه اعتراف بالعجز عن مواجهتـــه بالحجة والبرهـــان .. فكان جزاء عنادهم هذا ان ابتلاهم الله بخمسة أنواع من العذاب :

١ — (فأرسلنا عليهم الطوفـــان) من مطر السماء ، فأغرق الزرع وأهلك الضرع .

٢ — (والجراد) جاء بعد الطوفان بطبيعة الحـــال ، وأكل البقية الباقية من كلأهم وزرعهم .

٣ — (والقمل) بضم القاف وتشديد الميم دواب صغار كالقردان تركب البعير الهزيل ، وبفتح القاف وتخفيف الميم القمل المعروف ، وكلاهمـــا ينزل البلاء ، وينشر الوباء .

٤ — (والضفادع) تنغص عليهم الحياة .

٥ — (والدم) . قيل : تحول ماؤهم إلى دم ، ولم يقدروا على الماء العذب، وقيل : أصيبوا بمرض الرعاف .

ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ - ١٣٧ :

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ★ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ★ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ★ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ •

اللغة :

الرجز الانحراف عن الحق ، ومنه والرجز فاهجر . ونكث العهد نقضه . واليم البحر . يعرشون ان أخذ من العرش فمعناه البناء ، وان أخذ من العريش فمعناه الكروم .

الإعراب :

اذا هم (اذا) للمفاجأة . وأورثنا يتعدى الى مفعولين لمكان الهمزة ، الأول القوم ، والثاني مشارق الأرض . وما كان يصنع (ما) بمعنى الذي ، واسم كان ضمير مستتر يعود الى ما .

المعنى :

ذكر سبحانه في الآية السابقة انه ابتلى آل فرعون بخمسة أنواع من العذاب، وكانوا كلما نزل بهم نوع منه يتوسلون بموسى في الكشف عنهم لكرامته عند الله ، ويقطعون العهود على أنفسهم انه إذا فعل استجابوا لدعوة الحق ، وكان سبحانه يكشف العذاب عنهم إلى أجل معلوم ليمهد لهم سبيل التوبة ، ويقيم عليهم الحجة ، ولكنهم كانوا ينكثون العهد ولا يفون بما يقولون ، فينزل الله العذاب الثاني ، فيعودون إلى التضرع والتوسل، ويعود سبحانه الى الكشف عنهم ، وهكذا الى العذاب الخامس ، أو التجربة الخامسة ؛ ولا شيء بعدها إلا الأخذ الحاسم، فانتقم الله منهم ، وألقاهم في أعماق البحر .

وبعد أمد طويل من اغراق فرعون ، ووفاة موسى وهرون خرج من بني إسرائيل داود وسليمان (ع) ، وأوجدا دولة لها حدودها شرقاً وغرباً .. ولكن سرعان ما ذهبت ، وحكم رقاب الإسرائيليين بختنصر ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الإسكندر ، ثم الرومان .

وجاوزنا ببني اسرائيل البحر الآية ١٣٨ – ١٤١ :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ★ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ★ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ★

اللغة :

تجاوز الشيء تعــداه . وعكف عليـه واظب عليه ولزمـــه . والتبار والتّبْر الهلاك ، والتتبير الاهلاك والتدمير .

الإعراب :

قال الزمخشري والبيضاوي : ان ما في (كما لهم) كافة للكاف عن العمل . وما هم فيه (ما) بمعنى الذي فاعل متبر ، وهم فيه مبتدأ وخبر ، والجملة صلة الموصول . وما كانوا يفعلون (ما) فاعل لباطل . وابغي تتعدى إلى مفعولين الأول ضمير المخاطبين (كم) والثاني إلهاً ، وغير الله حال مقدم من إله .

المعنى :

(وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون عـلى أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انـــكم قوم تجهلون) . جاء في بعض الروايات ان موسى بقي ثلاثة وعشرين عاماً يجاهد فرعون من أجل كلمة التوحيد وتحرير بني إسرائيل من الاضطهاد ، وقد شاهدوا المعجزات الباهرة التي ظهرت على يد موسى ، وأخيراً رأوا انفلاق البحـر بضربة من عصا موسى ، وكيف جعل منه اثني عشر طريقاً يبساً لكل سبط من بني إسرائيل طريق معلوم. وأيضاً رأوا كيف انطبق البحر على فرعون وجنوده ، شاهدوا ذلك كله . وقبـــل أن تمضي فترة ينسون فيها ما رأوه من المعجزات وقعت أبصارهم على قوم وثنيين يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، طلبوا هذا ، وهم يعلمون ان موسى رسول الله ، وان مهمتـــه الأولى الدعوة الى التوحيد ، ومحاربة الشرك ، ويعلمون أيضاً ان الله أغـــرق فرعون وجنوده لشركه : قال بعض المفسرين : لو انهم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ، ولكنها هي إسرائيل » .

(ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) . بدأ موسى (ع) جوابه لقومه بأنهم من أهل الحماقة والجهالة ، وثنى بإخبارهم ان نهاية المشركين وعبدة الأوثان إلى الخسران والهلاك .

(قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين) . مر تفسيره في الآية ٤٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٥ . وعلى أية حال ، فإن تفضيلهم على فرعون وقومه لا يعد منقبة وفضيلة .

(وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . تقدم نظيره في الآية ٤٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٩ .

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ – ١٤٥ :

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ★ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ★ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ★ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً

وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ★

اللغة :

الميقات الوقت المعين الذي يُقرر فيه عمل من الأعمال . واخلفني أي كن خليفتي من بعدي . وتجلي الشيء ظهوره بنفسه أو بآثاره ودلائله . وخرّ سقط . وصعقاً : مغشياً عليه .

الإعراب :

ثلاثين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف مضاف أي تمام ثلاثين . وأربعين ليلة متعلق بمحذوف حالاً من ميقات ، أي كاملاً أربعين ليلة . وهرون بدل من أخيه . ودكاً مفعول ثان لجعله . وصعقاً حال من موسى . وموعظة وتفصيلاً بدل من كل شيء على المحل ، لأن كل شيء مفعول أو بمعنى المفعول لكتبنا ، ولأن المراد بكل شيء عموم الموعظة وتفصيل الأحكام .

المعنى :

(وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) . طلب موسى (ع) من ربه أن ينزل عليه كتاباً يهدي الناس به الى ما يحتاجون اليه من أمور دينهم ، فوعده سبحانه أن ينزل عليه الكتاب بعد ثلاثين ليلة ، ويستمر إنزاله عشر ليال ، فيكون المجموع من أمد الوعد وأمد الانزال أربعين ليلة ، فصّلها هنا ، وأجملها في الآية ٥١ من سورة البقرة ، حيث قال : «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » .

(وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين). لما ذهب موسى (ع) استخلف أخاه هرون على بني إسرائيل ، ونصحه أن يقوم على شؤونهم ويصلح أمورهم ، وحذره من طبيعتهم التي هي إلى الفساد أميل ، فبالأمس القريب اشرأبت نفوسهم إلى عبادة الأوثان ، وقال لهم موسى : انكم قوم تجهلون كما سبق في الآية ١٣٨ . فتقبل هرون النصيحة عن طيب خاطر ، كما يتقبلها المرؤوس المخلص من رئيسه الناصح الأمين .

(ولما جاء موسى لميقاتنا) الذي وقّته سبحانه لاعطاء التوراة (وكلمه ربه) من وراء حجاب : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً – ٥١ الشورى » (قال ربي أرني أنظر اليك) . قال بعض العلماء : ان موسى لم يسأل رؤية الله من أجل نفسه ، وإنما سألها من أجل قومه. وهذا القول يتنافى مع قول موسى : (سبحانك تبت اليك) . ومهما يكن ، فان موسى قد طلب الرؤية ، سواء أكان من أجله أم من أجلهم .. ونحن لا نرى أي بأس في هذا الطلب ، فان نفس الانسان تتشوف إلى ما يكون وإلى ما لا يكون ، بخاصة إلى الرؤية التي تزيد النفس اطمئناناً وتأكيداً ، وقد طلب ابراهيم (ع) ما يشبه ذلك : « وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي – ٢٦٠ البقرة » .

(قال لن تراني) . لأن رؤية الله بالبصر محال ، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ فقرة « رؤية الله » (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) . تلفت موسى إلى الجبل ليرى الله فاذا به قد غار في الأرض ، ولم يبق له عين ولا أثر . وقد أراد الله بهذا أن يُفهم موسى (ع) ان رؤية الله ممتنعة عليه وعلى غيره .. علق سبحانه امكان رؤيته على استقرار الجبل ، والمفروض انه لم يستقر ، اذن ، فالرؤية ممتنعة وغير ممكنة .. وهذا الأسلوب من باب افعل هذا إذا شاب الغراب ، وإذا دخل الجمل في سم الخياط .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً) . أي فلما ظهر أمر ربه ، تماماً كقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » أي جاء أمر ربك (وخر موسى صعقاً) . غاب عن وعيه لهول المفاجأة ، فلطف الله به وشمله برحمته ، فأفاق

من غشيته (فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك) من سؤالي رؤيتك (وأنا أول المؤمنين) بأنك أعظم من أن ترى بالعيان. وليس المراد انه أول المسلمين بحسب الزمان ، وإنما المراد الثبات والتأكيد على الإسلام .

(قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) . بعد أن تضرع موسى (ع) إلى خالقه ذكّره الله بنعمه وأعظمها النبوة والتكليم ، والمراد بالناس ناس زمانه بدليل قوله : (برسالاتي) فان الله قد اختار رسلاً كثيرين قبل موسى وبعده ، أما تخصيصه بالتكليم فلا دلالة فيه على الأفضلية ، وان دل على الفضل ، فان ارسال الروح الأمين الى خاتم الرسل وسيد النبيين هو أعلى المراتب وأفضلها على الإطلاق .

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) . المراد بالألواح التوراة لأنها هي التي أنزلها على موسى،وفيها الموعظة وتفصيل الأحكام . وكل شيء لفظ عام ، والمراد به خاص ، وهو ما يتعلق بموضوع الرسالة من المواعظ والحكم ، وأصول العقيدة كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأحكام الشرعية كالحلال والحرام ، فقوله : (موعظة وتفصيلاً) هو بيان وتفسير لقوله : (من كل شيء) لأن المراد بالتفصيل بيان الأحكام الشرعية . (فخذها بقوة) أي حافظ على التوراة ، واعمل بها بنية صادقة .

(وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) . كل ما أنزل الله في كتابه فهو حسن ، ولكن منه الأحسن ، قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم – ثم قال – واحسنوا ان الله يحب المحسنين – ١٩٤ البقرة » . وقال : « والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له – ٤٥ المائدة » . أي من تصدق بالقصاص .

(سأريكم دار الفاسقين) . أي على الفاسق والباغي تدور الدوائر . هذا ما فهمته من هذه الجملة قبل أن أرجع الى التفاسير ، وبعد الرجوع اليها وجدت أقوالاً في تفسيرها ، ومنها ان الله سيريهم دار فرعون وقومه بعد اهلاكهم . ومنها انه سيريهم أرض الشام التي كانت في ذاك الزمان بقبضة الوثنيين .

سأصرف عن آياتي الآية ١٤٦ - ١٦٩ :

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ★ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ★ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ★

اللغة :

كل من لا يخضع للحق فقد تكبر عليه . والحلي بضم الحاء وتشديد الياء جمع حلى بفتح الحاء وتخفيف اللام . والخوار صوت البقر . وسقط وأسقط في يده كناية عن الندم .

الإعراب :

جسداً صفة لعجل ، أي مجسداً ، ولبس رسماً بالألوان ، وقيل : بدل منه ، والمعنى واحد .

المعنى :

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) . المتكبرون في الأرض هم الذين يعاندون الحق ،ولا يخضعون لسلطانه ، وقوله: (بغير الحق) للتوضيح ، لا للاحتراز تماماً مثل (ويقتلون النبيين بغير الحق) . أما آيات الله فيطلقها القرآن تارة على الآيات المبينة لأصول العقيدة وأحكام الشريعة ونحوها ، وتطلق تارة على الحجج والدلائل المثبتة للألوهية والنبوة ، فإن تكن الأولى هي القصد في الآية التي نفسرها فالمعنى ان الله سبحانه يحفظها ويصونها من يد التحريف ، تماماً كقوله : « انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون – ٩ الحجر » .

وان تكن الثانية أي الدلائل والبينات فالمعنى ان المعاندين بعد أن أعرضوا عنها ورفضوا الإصغاء اليها فإن الله سبحانه يدعهم وشأنهم ، ولا يلجئهم إلى الإيمان بها إلجاءً ، وتقدم الكلام عن ذلك مرات ، منها عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩ فقرة الاضلال من الله سلبي لا إيجابي .

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين). هذا بيان لحقيقة المتكبرين ، وللسبب الموجب لتكبرهم أيضاً ، أما حقيقتهم فهي انهم لا يرتدعون عن غي ، ولا يميلون إلى رشد ، أما السبب الموجب فهو ان الله سبحانه قد جاءهم بالحجج والبراهين ، وطلب اليهم أن ينظروا اليها ويتدبروها ويعملوا بموجبها ،فرفضوا وأصروا على الاعراض وعدم النظر .. ولو انهم استجابوا ودرسوا تلك الدلائل لأدى بهم الدرس والنظر الى الإيمان والاعتراف بالحق ، ولم يتكبروا ويفسدوا في الأرض .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) . كل من لا يؤمن بالله ولقاء ربه فهو من الهالكين غداً ، ويذهب ما كان يفاخر به ويكاثر سدى وهباء جزاءً على كفره وعناده .. وأعجبني ما قاله هنا بعض المفسرين غفر الله له ، وشمله برحمته ، ولذا أنقله بالحرف ،قال :

« حبوط الأعمال مأخوذ من قولهم : حبطت الناقة إذا رعت نباتاً ساماً ،

فانتفخ بطنها ثم نفقت، وهو وصف ملحوظ في طبيعة الباطل يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة ، فالمكذب ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ، ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام ».

(واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار) . تقدم في الآية ١٤٢ ان موسى (ع) ذهب لميقات ربه ، وانه استخلف على قومه أخاه هرون ، وأيضاً تقدم في الآية ١٣٨ أن بني إسرائيل بعد أن تجاوزوا البحر طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ، لا لشيء إلا لأنهم رأوا عبدة الأصنام، وما أن غاب موسى حتى اغتنموا فرصة غيابه ، فجمع السامري حلي النساء ، وصنع منها عجلاً . وجعله على هيئة بحيث يخرج منه صوت الثيران ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فتهافتوا على عبادته ، ونهاهم هرون ، ولكنه لم يملك ردهم عن الضلال ، ولم يستجب له إلا قليل منهم . وتقدمت الإشارة إلى ذلك في الآية ٥١ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٢ . وأيضاً يأتي الكلام عنه .. وهذه الآية تعزز ما كررناه في المجلد الأول والثاني من ان اسرائيل لا تثبت إلا على مبدأ الشهوات والأهواء ، ان صح ان تكون الأهواء مبدأ .

(ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين) . هذا هو منطق الفطرة والعقل الذي يأبى أن يعبد الإنسان إلهاً من صنع يده .. ولكن ما لاسرائيل والعقل والفطرة والدين ؟

(ولما سقط في أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) . هذه هي المنقبة الوحيدة والأولى والأخيرة التي سجلها القرآن لاسرائيل من حيث هي وعلى وجه العموم ، وبصرف النظر عن القلة القليلة التي آمنت منهم بموسى وثبتت معه حتى النهاية .. وقد استظهر بعض المفسرين من توبة بني اسرائيل انه كان فيهم آنذاك بقية من الاستعداد للصلاح، ثم ذهبت هذه البقية ، ولم يبق أي أثر فيهم للاستعداد إلى الخير . وهذا الاستظهار غير بعيد ، وتومىء اليه الآية ٧٤ من سورة البقرة : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » وهذه الآية بالذات نزلت بعد قصة ذبح البقرة ، وهذا الذبح متأخر عن عبادتهم العجل .

ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ ـ ١٥٤ :

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ★ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ★ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ★ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ★ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ★

اللغة :

تأتي أسف بمعنى غضب ، ومنه قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » وتأتي بمعنى حزن ، ومنه « وقال يا اسفاً على يوسف » وهـذا هو المراد من الآية . والشماتة الفرح بالمصيبة ، ولا تكون إلا من العدو . وفي نسختها أي ما نسخ وكتب منها .

الإعراب :

غضبان حال من موسى ، وأسفاً حال ثانية . ابن أم قرىء بفتح الميم على

أن تكون ام وابن بمنزلة خمسة عشر ، وقرىء بكسر الميم ، والكسرة تدل على الياء المحذوفة لأن الأصل يا ابن امي . والذين عملوا السيئات مبتدأ،والخبر جملة ان ربك من بعدها لغفور رحيم. واللام في لربهم تقوية لوصول الفعل إلى مفعوله، مثل للرؤيا تعبرون .

المعنى :

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً) . حين كان موسى على الطور يناجي ربه أخبره المولى جل ثناؤه بأن قومه قد عبـدوا العجل من بعده ، كما دلت الآية ٨٧ من طه : « قال فإنّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً » .. وظهـر هذا الغضب بقوله : (بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم) . تركهم على التوحيد ، ولما عاد وجدهم على الشرك .. أما أمر ربهم الذي لم يصبروا له فهو انتظار موسى أربعين ليلة ، ويدل هذا على قول موسى لهم كما في سورة طه : « أفطال عليكم العهد » ؟

وكما بدا غضبه في قوله فقد بدا أيضاً في فعله (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه) . قال جماعة من العلماء : ألقى موسى التوراة ، وفيها اسم الله، وأخذ برأس أخيه هرون ، وهو العبد الصالح الطيب ، وموسى معصوم فكيف حدث منه ذلك ؟.. وبعد هذا التساؤل أخذوا يؤوّلون ويعللون .

أما نحن فلا نؤوّل ولا نعلل ، بل نُبقي الكلام على ظاهره ، لأن العصمة لا تحوّل الانسان عن طبيعتـه ، وتجعله حقيقة أخرى ، ولا تسلبه صفة الرضا والغضب ، بخاصة إذا كان لله ، وبصورة أخص إذا فوجىء بما فوجىء بـه موسى (ع) ، فلقد لبث في قومه عمراً يلقنهم التوحيد ، ويؤدبهم على دين الله، حتى إذا اطمأن الى إيمانهم جابهوه بالردة والشرك ، دون أي سبب موجب .

وقال آخرون : ان موسى كان حديداً ، أما هرون فكان ليناً .. ونقول : ان موسى كان شديد العزيمة ، قوي الارادة ، عظيم الثقة بنفسه ، وكان هرون دونه بمراحل ، على صلاحه وفلاحه (قال ابن امّ ان القوم استضعفوني وكادوا

يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) . يريد بالأعداء الذين عبدوا العجل ، لأنهم اتخذوا هرون عدواً ، وأرادو قتله حين نهاهم عن الشرك وعبادة العجل . فكأنه يقول لأخيه موسى : أتكون علّيّ مع أعدائي وأعدائك . فتأخذ برأسي ولحيتي أمامهم ليشمتوا بي ؟ . وكيف تغضب مني كغضبك منهم ، وأنا بريء منهم ومن أفعالهم ، ووقفت منهم موقف المعارض والمفند . ولم أقصّر بما وجب عليّ من النصح والتحذير .

وهنا يلين موسى (ع) ، وتأخذه عاطفة الرحمة والأخوة (قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين).استغفر لنفسه لما كان من قسوته مع أخيه،واستغفر لأخيه مخافة تقصيره في هدايتهم وردعهم عن الشرك والارتداد.. وليس من شك ان الله قد استجاب لدعوة موسى (ع) لأنه أرحم الراحمين ، ولعلمه باخلاص موسى وهرون .

(ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) . وتسأل : تدل هذه الآية بظاهرها على ان الذين اتخذوا العجل قد غضب الله عليهم ، وأذلهم في الحياة الدنيا الى يوم يبعثون ، مع العلم بأنهم تابوا واستغفروا الله وسألوه الرحمة كما نصت الآية السابقة ١٤٩ . والله سبحانه هو القائل: « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم – ١١٩ النحل » . اذن كيف لزم الغضب الأبدي واللعنة الدائمة من تاب عن عبادة العجل ؟.

وأجاب البعض بأن الذين عبدوا العجل انقسموا بعد رجوع موسى اليهم إلى فرقتين : فرقة تابت توبة صحيحة ، وهؤلاء قد غفر الله لهم . وفرقة أصرت واستمرت على الشرك كالسامري وأشياعه ، وهؤلاء هم الذين غضب الله عليهم وأذلهم في الحياة الدنيا .

ويلاحظ بأنه لا شيء في الآية يدل على هذا التقسيم .. وأنسب الأجوبة ان الله قد علم ان اليهود لا يتوبون ولن يتوبوا أبداً عن الضلال واتباع الشهوات توبة خالصة ، لا ردة بعدها ، ويدل على هذه الحقيقة طبيعتهم وسيرتهم، فانهم كانوا وما زالوا لا يزدجرون من الله والضمير بزاجر ، ولا يرتدعون عن الضلال والفساد برادع إلا القوة وحدها .

سؤال ثان : ان ليهود اليوم دولة باسم اسرائيل .. وبها زالت عنهم الذلة في الحياة الدنيا ، وهذا يتنافى مع ظاهر الآية ؟.

الجواب : كلا ، وألف كلا ، ما قامت ولن تقوم أبداً دولة اليهود ، تماماً كما سجل الله في كتابه الحكيم .. أما اسرائيل فليست دولة كغيرها من الدول ، وإنما هي عصابة مسلحة، تماماً كجيش المرتزقة .. أوجدها الاستعمار لحماية مصالحه وضرب القوى الوطنية ، وليس لها من الدولة إلا الاسم ، وقد أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٩ من آل عمران ، وغيرهـا في المجلد الأول والثاني من هذا التفسير ، وفي كتاب « من هنا وهناك » فصل: باع دينه للشيطان ، وغيره من الفصول .

(والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . معنى الآية واضح ، وتقدم نظيرها أكثر من مرة ، والقصد من ذكرها بعد الآية السابقة هو التأكيد بأن من تاب وأناب مخلصاً ، ولم يعاود المعصية كما يفعل بنو اسرائيل فان الله سبحانه يرحمه ويغفر له اسرائيلياً كان أو قرشياً .

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) . ان موسى نبي معصوم ، ما في ذلك ريب ، ولكنه انسان يحزن ويفرح، ويرضى ويغضب .. وقد تملكه الغضب حين فوجىء بارتداد قومه عن دين الله ، وتركه الغضب حين استعطفه أخوه هرون ، ووعده الله بالانتقام من المرتدين ، وبعد أن عاد موسى (ع) إلى وضعه الطبيعي عاد الى الألواح التي ألقاها حين غضبه ، واطمأن إلى ما فيها من الهدى لمن يتفتح قلبه للخير ، والى ما فيها من الرحمة لمن يخشى نقمة الله وعذابه .. ان حكمة الله جل ثناؤه اقتضت أن يهب الرضوان والرحمة لكل من أطاعه مخافة نقمته ، وان ينزل النقمة والعذاب بكل من عصاه اتكالاً على رحمته .

ان هي الا فتنتك الآية ١٥٥ ـ ١٥٧ :

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا
إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ★ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ
وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ★ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ★

اللغة :

المراد بالفتنة هنا العذاب ، ويأتي البيان ، وهُدنا اليك أي تبنا اليك. والإصر الثقل الذي يمنع حامله من الحركة . والأغلال جمع غُل بالضم حديدة تجمع يد الأسير أو الجاني إلى عنقه. والمراد بها هنا المشقة. والمراد بالتعزير الإعانة والتوقير.

الاعراب :

قومه منصوب بنزع الخافض ، أي واختار من قومه . وسبعين مفعول اختار.

ورجلاً تمييز . ولو شئت مفعول شئت محذوف أي لو شئت اهلاكنا . وأهلكتهم جواب لو ، وإياي معطوف على الضمير المنصوب في أهلكتهم . وان هي (ان) نافية بمعنى ما ، وهي ضمير عائد الى الرجفة . والذين يتبعون الرسول بدل من للذين يتقون .

المعنى :

(واختار موسى سبعين رجلاً لميقاتنا) . لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية ، وتضاربت أقوالهم في تفسيرها . فاختلفوا في بيان الميقات هل هو ميقات نزول التوراة أو غيره ؟ وأيضاً اختلفوا لماذا اختار موسى من قومه سبعين رجلاً للخروج الى الميقات : هل لأنهم اتهموا موسى ، وقالوا له : لن نؤمن لك حتى نسمع كلام الله كما سمعته أنت ، فصحبهم معه ليسمعوا كما سمع ، أو لسبب آخر ؟ وأيضاً اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله عاقبهم الله . وبالتالي اختلفوا : هل أدت الرجفة بهم الى الموت ، أو انها كادت أن تقصم ظهورهم ، وتقطع مفاصلهم ، ولم تبلغ بهم الى الموت.

وليس في الآية أية اشارة الى شيء مما اختاره جماعة من المفسرين ، وكل ما دلت عليه ان موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلاً ، ليذهب بهم الى ميقات ربه ، وبطبيعة الحال كان هذا الاختيار بأمر من الله لأن موسى لا يفعل إلا بما يؤمر ، وان الله قد أنزل بالسبعين نوعاً من العذاب لحكمة استدعت ذلك ، وليس لدينا ما يثبت تحديد الميقات ، ولا السبب الموجب للاختيار ، ولا للعذاب .. أجل ، ان قول موسى لله : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) يدل على انهم فعلوا ما يوجب الهلاك ، ولكنه لم يبين الشيء الذي فعلوه ، وليس لنا أن نقول ما لا نعلم .

(فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) . لقد اصطفى موسى من خيار قومه سبعين رجلاً ، وذهب بهم إلى ميقات ربه ، حتى إذا بلغوه هلكوا جميعاً ، وبقي فريداً .. انه لموقف حرج يضعف فيه الفؤاد ،

وتقل فيه الحيلة ؟. فما يصنع ؟. هل يرجع وحـده إلى بني اسرائيل ؟. وبماذا يجيبهم إذا سألوه عن رجالهم ؟. لا ملجأ أبداً من الله إلا اليه ، فتضرع إلى الله أن يكشف عنه ما هو فيه ، وتمنى او أهلكه معهم من قبل أن يـأتي بهم إلى هذا المكان .. ثم قال مخاطباً العلي الأعلى : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أي انك أجل وأعظم من أن تفعل ذلك ، لأنك حليم كريم .

(ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) . للفتنة معان ، منها الاضلال والافساد ، ومنه « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ـ ٢٦ الأعراف » . ويقال : هذا مفتن أي مفسد . ومن معاني الفتنة القتال ، يقـال : افتتن القوم أي تحاربوا وتقاتلوا . ومنهـا الابتلاء والاختبار « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » . وتستعمل الفتنة كثيراً في العذاب ، ومنه الآية ٢٥ من الأنفال : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » .

وهذا المعنى أي العذاب هو المراد من الفتنة في قوله : « ان هي الا فتنتك» وضمير هي يعود الى الرجفة التي تقدم ذكرها صراحة ، ومعنى « تضل بها من تشاء » ان الله يصيب بالرجفـة التي هي العذاب من يشاء من عباده ، ومعنى « وتهدي من تشاء » انه تعالى يصرف الرجفة عمن يشاء . والمعنى الجمـلي ان الله سبحانه يُنزل العذاب بمن يشاء ممن يستحقه، ويصرفه عمن يشاء ممن لا يستحقه.. وبهذا يتبين معنا ان قوله : « ان هي الا فتنتك » يرتبط معناه بما تقدم عليه، وتأخر عنه من السياق ، وانه لا يجوز الاستدلال به على ان الاضلال من الله ، وكيف يضل الله الانسان ، ثم يعاقبه على الضلال ؟. وما الله يريد ظلماً للعباد.. ان الشيطان هو العدو المضل ، وكفى بربك هادياً ونصيراً[1] .

(أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا في هذه الدنيـا حسنة وفي الآخرة انا هدنا اليك) . ولا ترجمان لهـذه المناجاة أفضل من قول سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي (ع) حين أحاط به الألوف من كل جانب، وهو وحيد فريد فلاذ إلى ربه ، وعاذ به من أعدائه قائلاً :

---

١ راجع فصل « الهدى والضلال » ج ١ ص ٧٠ من هذا التفسير الآية ٢٦ سورة البقرة .

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، وأنت رجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة ، كم من كرب يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو أنزلته بي ، وشكوته اليك رغبة مني اليك عمن سواك ، ففرجته عني وكشفته ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة » .

(قال عذابي أصيب به من أشاء) ممن يستحق العذاب ، لأن مشيئة الله لا تجري إلا بالحق والعدل ، ولا عبث ولا ظلم عند الله ، قال الرازي : قرأ الحسن (أصيب به من أساء) بالسين لا بالشين ، واختار الشافعي هذه القراءة » .

رحمة الله تسع ابليس :

يطلق القرآن رحمة الله على عنايته ، وعلى ثوابه ، ومعنى العناية منه جل ثناؤه ان الموجودات بكاملها ، حتى ابليس تفتقر اليه سبحانه في بقائها واستمرارها ، كما تفتقر اليه في أصل وجودها ، وانه هو الذي يمدها بالبقاء في كل لحظة من لحظات استمرارها في الوجود ، بحيث لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئاً مذكوراً ، وأوضح تفسير لهذه الرحمة والعناية الآية ٤٥ من سورة فاطر : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وهذه الرحمة هي المراد من قوله تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) حتى ابليس اللعين . أما الرحمة بمعنى الثواب فان الله سبحانه يمنحها لمن آمن واتقى ، واليها أشار بقوله : (فسأكتبها للذين يتقون) المعاصي ، ويمتثلون أمر الله ونهيه (ويؤتون الزكاة) وذكر الزكاة دون الصلاة ، لأن الانسان يطغى ان رآه استغنى .

(والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمي).أي ان رحمة الله التي هي بمعنى الثواب لا ينالها إلا من اتقى الله ، وآتى المال على حبه ، وآمن بنبوة محمد (ص) إذا بلغت اليه رسالته .. وخص المال بالذكر لما أشرنا اليه ، ولأن الحديث عن اليهود ، والمال ربهم الذي لا إله سواه عندهم وقد وصف الله محمداً (ص) في هذه الآية بالصفات التالية :

١ – (الرسول النبي الأمي) والأمية وصف خاص به ، دون الأنبياء إشعاراً بأنه على أميته أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأثر في حياة الأمم في كل عصر ومصر .

٢ – (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) . راجع تفسير الآية ١٤٦ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٣٣ . وفقرة هل الأنبياء كلهم شرقيون؟ ج ٢ ص ٤٩٢ الآية ١٦٣ من سورة النساء .

٣ – (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر). راجع ج ٢ ص١٢٣ و ١٣٢ الآية ١٠٤ و ١١٠ من آل عمران .

٤ – (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) .

٥ – (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) . الإصر الثقل الذي يمنع من الحركة ، والمراد بالأغلال المشقة .. لقد حرم الله على بني اسرائيل بعض الطيبات التي أشار اليها في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام ، كما ان شريعة موسى كانت شديدة وشاقة ، حتى ان التائب من بني اسرائيل لا تقبل توبته الا إذا قتل نفسه : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم – ٥٤ البقرة » . ويقول الله لبني إسرائيل الذين أدركوا محمداً (ص) : انهم اذا أسلموا تحل لهم طيبات ما حرم عليهم ، وترتفع عنهم المشقة في التكليف ، لأن محمداً قد بعث بالشريعة السهلة السمحة .

(فالذين آمنوا به) المراد من آمن بمحمد(ص) من اليهود وغيرهم(وعزروه) أعانوه في دعوته ، ووقروه لعظمته (ونصروه) على عدوه (واتبعوا النور الذي انزل معه) أي عملوا بالقرآن (أولئك هم المفلحون) في الدنيا والآخرة .

رسول الله اليكم جميعاً الاية ١٥٨ – ١٥٩ :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ★ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ★

الاعراب :

جميعاً حال من الرسول . والذي له خبر لمبتدأ محذوف ، أي هو الذي له ملك الخ . قال أبو البقاء في كتاب الاملاء : لا يجوز أن يكون الذي بدلاً ولا صفة من رسول الله لوجود فاصلين هما اليكم وجميعاً . لا إله خبر لا محذوف تقديره موجود إلا هو و (هو) بدل من الضمير المستتر في موجود .

المعنى :

(قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً) . هذه الآية مكية في سورة مكية ، وهي تكذب الذين قالوا : ان محمداً حين كان ضعيفاً قال : أنا رسول الله لأهل مكة ومن حولها ، وبعد أن صار قوياً قال : أنا رسول الله للناس أجمعين . وأجبنا هؤلاء بردود قاطعة عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) . تؤكد هذه الآية وكثير غيرها من الآيات انه لا واسطة بين الله وعباده ، وان الملك والأمر لله وحده .. فمحمد ، وان كان مرسلاً لجميع الناس في كل زمان ومكان وأشرف الخلق وخاتم النبيين وسيدهم ، ولكنه لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً أن يملك لغيره : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ــ ٤٩ يونس » . وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، والقصد هو تعريف المسلمين بحقيقة محمد (ص) وانه بشر مثلهم ، كيلا يغالوا فيه ، كما غالى النصارى بالسيد المسيح (ع) . وكفى بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله التي يكررها المسلم ليل نهار ، كفى بها دليلاً على تنزيه المسلمين من الغلو ، وايمانهم بأن محمداً لا

يملك من الأمر إلا الرسالة والتبليغ .

(فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) . ان قوله : فاتبعوه بعد قوله : فآمنوا بالله ورسوله، دليل على ان مجرد الإيمان لا يجدي شيئاً ما لم يكن معه عمل بكتاب الله وسنة رسوله . راجع فقرة « لا ايمان بلا تقوى » ج ١ ص ٣١٤ الآية ٢١٢ من سورة البقرة .

بين الصهيونية واليهودية :

(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) . قال الرازي: «اختلفوا في ان هذه الأمة متى حصلت ؟. وفي أي زمان كانت ؟. فقيل : هم اليهود الذين آمنوا بمحمد (ص) كعبد الله بن سلام ، وابن صوريا .. وقيل : انهم قوم ثبتوا على دين موسى ، ولم يحرفوه كما فعل غيرهم من بني اسرائيل الذين أحدثوا البدع » .

ونحن نميل إلى أن هؤلاء كانوا في عهد موسى ، ثم انقرضوا كما يومىء قوله تعالى : « من قوم موسى » أما ابن سلام وابن صوريا فلا يقال لهما ولا لعشرة مثلهما أمة وطائفة .. وعلى أية حال ، فإن القرآن قد نعت اليهود بكل قبيح ، وألصق بهم وبتاريخهم العار والشنار في العديد من آياته .. وان دل قوله : « من قوم موسى » على شيء فإنما يدل على ان لكل قاعدة شواذ ، وبديهة ان الشاذ النادر لا ينقض القاعدة ، بل يؤكدها ؟.

وبصرف النظر عن الذكر الحكيم وآياته فهل الفساد والضلال بعيد عن طبيعة اليهود وسيرتهم ؟. وهل اليهود منزهون عن الضلال والافتعال ؟. بل هل في تاريخ اليهود بادرة واحدة فقط لا غير تشعر بالخير :.

ورب قائل : ان الفساد والضلال وصف لازم للصهيونية لأنها حركة عنصرية فاشية سياسية تهدف إلى خدمة الاستعمار وانتشاره ،أما اليهودية فانها ديانة كغيرها من الديانات !..

ونجيب أولاً :ما يدرينا ان المصدر الذي أوحى بهذا الفارق هم اليهود أنفسهم

ليدفعوا عنهم ما لصق بهم وبتاريخهم القديم والحديث من العار والشنار على وجه العموم .. راجع فقرة الصهاينة تواطأوا مع النازية في تفسير الآية ٦٤ من المائدة.

ثانياً : على فرض وجود الفارق بين اليهود والصهيونية – وهو فرض محـل نظر – فهل اليهود بوجه العموم راضون أو ناقمون على الصهيونية التي أوجدت عصابة مسلحة باسم اسرائيل لا تهدف إلى شيء إلا الى حماية مصالح الاستعمار ، وضرب القوى التحررية ؟.. ولماذا ناصر اليهود هذه العصابة الصهيونية ، ومدوها بالأموال والأرواح ، وتطوعوا بالألوف ذكوراً وإناثا في حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ بعـد أن تدربوا وتمرنوا على استعمال الأسلحة الجهنمية ؟. ثم الا يؤمن اليهود ديناً وعقيدة بأنهم شعب الله المختار ، وان الله متحيز معهم ضد جميع الناس ، وانه قد حرم دماءهم . وأحل لهم دماء البشرية جمعاء ، وانهم وضعوا قوانينهم ونظمهم على هذا الأساس ، والقوة المنفذة عصابة اسرائيل ؟.

وبعد ، فإن اليهودية كديانة نزلت من السماء على موسى (ع) قد ذهبت وباد أهلها ، ولم تبق منهم باقية ، كما باد غيرها من الديانات ، وان يهـود اليوم صهاينة إلا من شذ ، والشاذ – كما قدمنا – لا يقاس عليه .

وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطاً الآية ١٦٠ – ١٦٢ :

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَمـاً وَأَوْحَيْنَـا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَـا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ★ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّـداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ★ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ★

اللغة :

السبط ولد الولد ذكراً كان أو أنثى ، ويغلب على ولد البنت مقابل الحفيد لولد الابن . وقطعناهم صيرناهم قطعاً وفرقاً . والاستسقاء طلب الماء للسقيا . والانبجاس الانفجار . والمن مادة بيضاء تنزل من السماء . والسلوى طير يشبه السمان .

الاعراب :

اثنتي عشرة مفعول ثان لقطعنا ، لأنها بمعنى صيرنا ، والمميز محذوف أي اثنتي عشرة فرقة ، ولهذا أنث العشرة . واسباطاً بدل من اثنتي عشرة ، لا تمييز لأنه جمع ، وتمييز العدد المركب مفرد . وأمماً صفة لاسباط . وان اضرب بمعنى أي لأن ما بعد ان وهو اضرب تفسير لأوحينا . وحطة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا حطة . ونغفر على اجزم جواباً للامر ، وهو قولوا وادخلوا .

المعنى :

(وقطعناهم اثنتي عشر اسباطاً أمماً) . أي فرقنا بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة ، وكل فرقة تنتمي إلى سبط من الأسباط الاثني عشر ليعقوب بن اسحق ابن ابراهيم ، فقد كان له ١٢ ولداً ، ولكل واحد نسل .

(وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم) تقدم نظيره في الآية ٦٠ من سورة البقرة ج ١ ص ١١١ .

(وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) . سبق مثله في الآية ٥٧ من سورة البقرة ج ١ ص ١٠٦ .

وقوله : (واذ قيل لهم الى قوله : (يظلمون) مذكور مع التفسير في ج ١ ص ١٠٨ الآية ٥٨ - ٥٩ من سورة البقرة .

واسألهم عن القرية الآية ١٦٤ - ١٦٦ :

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ★ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ★ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ★ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ★

اللغة :

حاضرة البحر أي على شاطئه . ويعدون أي يتجاوزون حكم الله . وشرعاً ظاهرة على وجه الماء . والمعذرة والعذر بمعنى واحد . والبئيس الشديد . والعتو العصيان . وخاسئين صاغرين .

الاعراب :

شرعاً حال من الحيتان . ومعذرة خبر لمبتدأ محذوف أي موعظتنـــا معذرة . وبئيس صفة لعذاب .

المعنى :

(واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر).الخطاب موجه لمحمد (ص) ، والقرية على حذف مضاف أي أهل القرية ، وضمير (هم) في واسألهم يعود إلى يهود المدينة الذين عاصروا رسول الله (ص) ، لأن هذه الآية نزلت في المدينـــة لمواجهة اليهود بها ، وضمت الى السورة المكية تكملة للحديث عـن اليهود ، ولم يذكر الله سبحانه اسم القرية ، وقيل : انها كانت على شاطىء البحر الأحمر .. وعلى أية حال فهي معروفة عند اليهود الذين سألهم النبي عنها ، أما الباعث على هذا السؤال فأمران : الأول أن يجابه النبي يهود المدينة بأنهم أنكروا نبوتـــه ، وهم على يقين منها في أنفسهم،لأنه قد أخبرهم عن الكثير من تاريخ أسلافهم، ومنها قصة أهل القريـــة التي كانت حاضرة البحر ، مع العلم أنه لم يقرأها في كتاب ، ولم يسمعها من أحد ، فما هي – اذن – إلا وحي من الله .. الأمر الثاني : أن ينبههم النبي الى أنهم مكابرون معاندون للحق ، وان عنادهم هـــذا ليس غريباً عن طبيعة اليهود وسيرتهم ، وانما هو دأبهم وديدنهم منذ القديم .

والدليل قصة أهل تلك القرية التي أشار اليها بقوله : (اذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) . وتتلخص هذه القصة بأن الله حرم على اليهود العمـــل يوم السبت ، ومنه صيد الأسماك ، ولأجل أن يعاملهم الله معاملة المختـــبر لحالهم ، ويظهرهم للملأ على حقيقتهم كان يرسل الحيتان اليهم بكثرة ظاهرة على وجـــه الماء يوم السبت ، ويمنعها عنهم في سائر الأيام ، فتوصل جماعة منهم إلى حيلة يحللون بها ما حرم الله ، فحفروا أخاديد ، ومسارب تتصل بالماء تنفذ الحيتان منها إلى الأخاديد ، ولا تستطيع الخروج ، فكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون،

نحن نصطاد يوم الأحد ، لا يوم السبت ، فأنكر عليهم جماعة منهم ، وزجروهم عن هذا الاحتيال والتلاعب بالدين ، وحذروهم من بأس الله وعذابه فلم يتعظوا.

(واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً). أي قالت جماعة من بني اسرائيل أيضاً للجماعة الناهية عن المنكر ، قالت لهم : ما الفائدة من نهيكم العصاة ، وتحذيركم اياهم،ما داموا لا ينتهون ولا يحذرون ؟! دعوهم .. فان الله سيستأصلهم عن آخرهم من هـذه الأرض ، أو يبقيهم مع العذاب الأليم . فقالت جماعة الأمر بالمعروف : (معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون). أي نهيناهم عن المنكر ليعلم الله انّا لهم مخالفون ، ولأعمالهم كارهون،وفي الوقت نفسه نرجو أن ينتفعوا بنهينا ومواعظنا .

(فلما نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) . الضمير في نسوا وذُكروا وظلموا ويفسقون عائد إلى العصاة ، وضمير ينهون عائد إلى جماعة الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووصف الله العصاة بالفاسقين لأنهم فسقوا عن أمر ربهم ، وبالظالمين لأن كل من فسق عن أمر ربه فهو ظالم لنفسه ، والمعنى ان الله سبحانه أخـذ المذنبين بذنبهم ، وأنجا المطيعين لطاعتهم .

(فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) . عاقب سبحانه أولئك العصاة بمسخهم على هيئة القـرود ، وفي روايـة انهم بقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم هلكوا ، لأن الممسوخ لا يعيش أكثر من هذه المدة ، ولا يولد له شيء من جنسه .

وتسأل : لقد جرت سنة الله أن لا يأخذ المذنب بذنبه في الدنيا بشهادة الوجدان والعيان بالاضافة إلى قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة — ٤٥ فاطر » . فكيف عاقب أولئك الذين خرجوا عن طاعته في صيد الحيتان ، وترك الذين أجروا من دماء الأبرياء أنهراً في فلسطين وفيتنام ، ومن قبلها الكونغو واليابان ، وغيرها كثير مما لا يبلغه الاحصاء ؟.

الجواب : أجل ، لقد جرت سنته تعالى بأن لا يأخذ المذنب بذنبه في هذه الحياة ، مهما عظم . ولو فعل لما تميز الخبيث من الطيب ، ولمـا كان لتارك

الشر من فضل ، لأن الترك كان بدافع الخوف ، لا حباً بالخير ،وكرهاً للشر.. ولكن حكمة الله سبحانه قد اقتضت أن يستثني من هذه السنة معجزات الأنبياء، واستجابة دعائهم في أهل المعصية والفساد لكرامتهم عند الله ، ولاثبات نبوتهم .

وقال أهل التفاسير في تفسير الآية ٧٨ من المائدة : «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . قالوا : ان داود (ع) لعن أهل ايلة من بني اسرائيل لما اعتدوا واصطادوا في في سبتهم ، وقال : اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء ، فسخهم الله قردة خاسئين. اذن ، فسبب مسخ الصيادين المحتالين هو دعاء النبي داود ، ولا نبي في هذا العصر يدعو على سفاكي الدماء ، وناهبي مقدرات الشعوب .. ومهما يكن، فنحن نؤمن بعدل الله ، وبأن الحق لا يذهب عنده هدراً . وان الانسان مجزي بأعماله، مهما طال الزمن ، وانما يعجل من يخاف الفوت .

اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧ :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ★

اللغة :

تأذن من الاذان ، وهو الاعلام . ويسومهم أي يذيقهم .

المعنى :

لقد تحدث القرآن طويلاً عن بني اسرائيل ، تحدث عن كفرهم وافسادهم في الأرض ، وتمردهم على الحق ، وتكلمنا نحن كثيراً عنهم تبعاً لآي الذكر

الحكيم ، وذكرنا عشرات الأمثلة من سيرتهم كشرح وتطبيق للنص القرآني في شأنهم ، ولكن هنا سؤال قد يرتفع إلى مستوى الحيرة والشك حول هذه الآية: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) . وحول الآية ١١٢ من سورة آل عمران : « ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا ».

وأجبنا عن هذا السؤال في المجلد الثاني صفحة ١٣٤ عند تفسير الآية ١١٢ من سورة المائدة ، وأيضاً أجبنا عنه بأسلوب آخر قريباً عند تفسير الآية ١٥٣ من السورة التي ما زلنا في تفسيرها ، ونشير هنا الى الجواب بإيجاز .. لقد سلط الله من قبل على بني اسرائيل الفراعنة ، ثم البابليين ، ثم الفرس ، ثم خلفاء الاسكندر ، ثم النصارى .

ومن الطريف ما جاء في تفسير البحر المحيط ان طائفة من النصارى أملقت، فباعت اليهود الذين في بلدهم لبلد مجاور .. وأخيراً فر اليهود من الذل والنكال لاجئين الى بلاد العرب ، فعاشوا بها آمنين ، ولكنهم نكثوا العهد الذي أعطوه لرسول الله (ص) ، فقتل بعضاً ، وأجلى عمر بن الخطاب البقية الباقية ، فتشتتوا في شرق الأرض وغربها موزعين مع الأقليات تابعين غير مستقلين يسمعون الأوامر فيطيعون صاغرين .

وأخيراً أدرك اليهود انه لن يكون لهم اسم يذكر إلا إذا أخلصوا للاستعمار ، ومن أجل هذا باعوا أنفسهم لكل مستعمر قوي ينفذون مؤامراته ودسائسه .. وفي أيامنا هذه – نحن الآن في صيف سنة ١٩٦٨ – اكتشفت بعض الدول ان المستعمرين أوعزوا إلى يهود أوروبا الشرقية أن يقوموا بمحاولات تهدف إلى سير هذه البلاد في ركاب المستعمرين ، وباشر اليهود بتنفيذ الخطة ، ولكنهم افتضحوا قبل اتمامها وكادوا يجرون العالم إلى حرب ثالثة . وعلى هذا المخطط ، مخطط سير الشعوب في ركاب الاستعمار أوجد المستعمرون عصابة مسلحة من اليهود على أرض فلسطين ، وأطلقوا عليها اسم دولة اسرائيل .

وكل عاقل يتساءل : هل يصح أن تسمى اسرائيل دولة بالمعنى الصحيح ، مع العلم بأنه لو تخلى الاستعمار عنها يوماً واحداً لزالت من الوجود ؟. وهل من دولة في العالم كله لا تعترف بها دولة واحدة من الدول المجاورة لها ؟. وإذا

كانت اسرائيل دولة بالمعنى الصحيح فلماذا تقيم « علاقاتها » مع الدول والشعوب المجاورة لها على أساس الغدر والاعتداء والتوسع ؟.

ان الدولة حقاً ليست غدراً وسلاحاً ، وإنما هي قبل كل شيء كيان يقوم على أساس السلم ، ونظام يرتكز على أساس الحق ، وقيم تبتعد بها عن العنصرية والتعصب ، وكيان اسرائيل عسكري يقوم على أساس الحرب ، ونظامها عدم التوقف عن العدوان ، وقيمها الصهيونية العنصرية ، والحقد والمكر والغدر ، قال الكاتب الانكليزي « كرستوفر مارلو » في مسرحية اليهودي المالطي : « ان تخيل امكانية معايشة اليهود ضربٌ من الجنون ، ولا دواء لنفوسهم إلا السيف البتار » . أبعد هذا يقال للعرب عيشوا مع اليهود بسلام ، أو يقال : ان اليهود أعزاء لأن منهم عصابة مسلحة تسمى باسم دولة اسرائيل تقتل وتشرد مئات الألوف بمساندة الاستعمار ؟. أجل ، إذا كانت القرصنة عزاً ، والرذيلة مجداً فان اليهود في أوج المجد والعز .

وبالتالي . فان الله وحده هو الذي يعلم الخطوة التالية ، والعاقل لا يخدع بالظواهر ، ولا يستبق الأحداث .

(ان ربك لسريع العقاب) للذين حقت عليهم كلمة العذاب (وانه لغفور رحيم) لمن أقلع عن ذنبه وأناب .

وبلوناهم بالحسنات والسيئات الآية ١٦٨ ـ ١٧١ :

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ★ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ★ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ★ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ★

اللغة :

وقطعناهم أمماً أي فرقناهم جماعات . والخلْف بسكون الـلام قوم لاحقون أشرار ، وبفتحها أخيار . وعرض بفتح الراء الشيء الزائل الذي لا ثبات له . والمراد بالأدنى هنا الدنيا . ودرسوا ما فيه قرأوا ما فيـه . ويمسّكون بالكتاب يعملون به . والنتق قلـع الشيء ، والمراد هنا رفـع الجبل فوقهم بعد قلعه . والظلة مفرد وجمعها ظلل وظلال ، وكل شيء يظلك من سقف ونحوه فهو ظلة بضم الظاء .

الاعراب :

يجوز أن تعرب أمماً مفعولاً ثانياً على أن تكون قطعناهم بمعنى صيرناهم، ولك أن تعربها حالاً على أن تكون قطعناهم بمعنى فرقناهم . ومنهم الصالحون مبتـدأ وخبر ، ومثله ومنهم دون ذلك على أن يكون المبتدأ محذوفاً ودون صفة له أي قوم دون ذلك، ولفظ ذلك مفرد ومعناها هنا الجمع أي دون أولئك لأنها تستعمل للمفرد والمثنى والجمع . والذين يمسكون مبتدأ وجملة إنا لا نضيع خبر .

المعنى :

(وقطعناهم في الأرض أمماً) . فرّق الله بني اسرائيـل في الأرض فرقـاً وجماعات شتى لا وطن يجمعهم ولا دولة تحفظهم ، وحاولت الصهيونية أن تقيم

لهم دولة من النيل الى الفرات بالقرصنة والاغتيال ، وخُيِّــل اليها ان العدوان الاسرائيلي يحقق لهــا ما تريد ذاهلة ان اسرائيل تقوم على الألغام ، وان الأمر يحدث بعده الأمر، وان مصائر الخلق بيد الله وحده لا بيد الصهيونية والاستعمار .

(منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) . الظاهر ان المراد بالصلاح هنا الايمان. وان المراد بدون ذلك غير المؤمنين . وتقدم نظيره الآيــة ١٥٩ من هذه السورة (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) المراد بالحسنات الصحة والرخاء. والسيئات ضدهما ، والغرض من تقلبهم بين النعماء والضراء أن يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى بارئهم .

(فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) . المراد بعرض هذا الأدنى المــال الحرام كالربا والرشا . بعد أن ذكر سبحانه انه كان على عهد موسى (ع) جماعة من بني إسرائيل صالحون ، ومنهم دون هؤلاء قال : لقد ترك هؤلاء وأولئك نسلاً عرفوا حلال التوراة وحرامها ، ولكنهم كانوا يحرمون مــا أحــل الله ، ويحللون ما حرم ، ويقولون : سيغفر الله لنا ، ولا يؤاخذنا على شيء ، لأننا أبناؤه وأحباؤه وشعبه المختار .

وتسأل : لماذا قال سبحانه : (وان يأتهم عرض مثله يأخــذوه) بعد أن قال : (يأخذون عرض هذا الأدنى) مع ان القولين في معنى واحد ؟ فما هو الغرض من هذا التكرار في آية واحدة ؟.

الجواب : الغرض الرد عليهم بأنهم يصرون على كبائر الذنوب ، ويعودون اليها مرات ومرات غير مكترثين ولا مستغفرين . ومع هذا يقولون : (سيغفر لنا) ؟.. ان الإصرار على الصغائر معصية كبرى، فكيف بالإصرار على الكبائر ؟.

(ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه). هذا رد ثانٍ عليهم ، ووجه الرد انهم يزعمون الإيمان بالله وبالتوراة ، وقــد درسوها وفهموا كل ما فيها ، ومما جاء في التوراة ان الله يغفر لمن تاب وأقلع عن المعصية ، أما من أصر عليها فهو من الهالكين ، وأيضاً قــد أخذت التوراة عهداً وميثاقاً على كل من آمن بالله وبها أن لا يفتري على الله الكذب ، والعصاة

على علم من هذه الحقيقة ، ومع هذا يصرون على كبائر الذنوب قائلين : سيغفر الله لنا .. وهذا نقض للعهد والميثاق ، وكذب على الله وافتراء : وقد خاب من افترى (والدار الآخرة خير للذين يتقون) ولا يتهافتون على عرض هذا الأدنى ، ولا يقولون كذباً وافتراء : سيغفر الله لنا (أفلا تعقلون) وكيف يعقل من أعشت الشهوات عقله ، وأمرضت الأهواء قلبه ؟.

(والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنّا لا نضيع أجر المصلحين) . الذين يمسّكون بالكتاب هم الذين يعملون به ، ويمسّك أبلغ من يعمل لأنه يشعر بالجد والعزم الثابت على العمل ، وعطف أقاموا الصلاة على يمسكون من باب عطف الخاص على العام ، لسر في الخاص أوجب النص عليه بالذات ، والآية تعريض باليهود الذين آمنوا بالتوراة ، ولم يعملوا بأحكامها ، وأيضاً هي تعريض بكل من انتسب إلى دين وتهاون في أحكامه، بخاصة الصلاة التي هي عمود الدين.. ولكنها عند أبناء هذا الجيل تأتي على « الهامش » لأن الدين كذلك عندهم .

(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) . رفع الله الطور فوق بني اسرائيل كأنه سقف أو غمامة تظللهم ، وأمرهم في ظل هذه المعجزة ، وهذا التخويف ان يتقوا الله.. ولكن اسرائيل هي اسرائيل..وتقدم نظيره في سورة البقرة الآية ٦٣ ج١ ص١١٩.

الست بربكم الآية ١٧٢ – ١٧٤ :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ★ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ★ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ★

اللغة :

الظهور جمع ظهر .وهو معروف . والذرية سلالة الانسان من ذكور وأناث .

الإعراب :

من ظهورهم بدل اشتمال من بني آدم مع إعادة حرف الجر ، والمعنى أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم . وبلى حرف جواب تبطل النفي ، فإذا قال لك قائل : ليس لي عندك درهم ، وأجبته بلى كان اقراراً منك بالدرهم،وان أجبت نعم لا يلزمك شيء ، ولذا قيل : لو قالوا : نعم في جواب ألست بربكم لكفروا . والمصدر المنسبك من ان تقولوا مجرور بإضافة مفعول من أجله محذوف أي مخافة قولكم .

عالم الذر :

(واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). في المسلمين فئة تؤمن بعالم الذر مستندة الى هذه الآية . وإلى بعض الروايات . ومعنى عالم الذر عند هذه الفئة ان الله بعد أن خلق آدم أخرج من صلبه كل ذكر وأنثى يوجدان – فيما بعد – منذ آدم الأول الى نهاية الكون ، وجمعهم دفعة واحدة على هيئة الذر ، ثم قال لهم : ألست بربكم ؟. قالوا : بلى أنت ربنا ، وبعد هذا الاعتراف ردهم إلى صلب آدم .. ونحن مع الذين يؤمنون بعالم الذر ان أجابوا عن التساؤلات التالية :

أين جمع الله هذه الذرية ؟. هل جمعها في هذه الأرض أو في غيرها ؟. وهل تتسع هذه الأرض لهم جميعاً ؟. ولنفترض انها اتسعت ، لأنهم على هيئة الذر ، فهل كان آدم من الضخامة بحيث يستوعب كل من خرج منه مباشرة وبالواسطة إلى يوم يبعثون ؟. ثم هل يتذكر واحد من الجم الذي يفوق عدد

الرمال . هل يتذكر واحد فقط هذا الخطاب والعهد الذي أعطاه لله مشافهة ؟. وان كان قد أنساه طول العهد ، فكيف يحتج الله عليه بشيء لا يتذكره .. هذا من جهة العقل ، أي بعض ما يدور في ذهن العاقل .

أما من جهة نص الآية فانه يدل على عكس عالم الذر الذي أخذ من صلب آدم الأول ، لأن الله سبحانه قال : (أخذ ربك من بني آدم) ولم يقل من آدم ، مع العلم ان ابن آدم يقال له : آدم ، ولا يقال لآدم الأول : ابن آدم .. وأيضاً قال تعالى : (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره . وقال : (ذريتهم) ولم يقل : ذريته .. هذا ، الى ان الله قال في الآية الثانية : انه فعل ذلك لئلا يحتج عليه أحد بشرك الآباء ، مع ان أول من أشرك لا مبرر لاحتجاجه بشرك أبيه ، لأن المفروض ان أباه لم يشرك .. وان دل هذا على شيء فانه يدل على ان العهد قد أخذ من كل واحد واحد مستقلاً بعد وجوده حتماً . بل وبعد رشده وإدراكه .

ونحن لا نفهم معنى لهذا العهد المأخوذ من الانسان لله تعالى الا الفطرة ، وغريزة الاستعداد التي أودعها الله في كل عاقل ، والتي بها - لو قصد التفهم والتدبر - يميز بين الهدى والضلال . وبين الحق والباطل . وبها يهتدي الى الإيمان بالله ودينه الحق .. وبكلمة ان على كل امرىء ان يتفكر في آيات الله ودلائله . واتفق المسلمون قولاً واحداً على ان السنة النبوية تفسير وبيان للآيات القرآنية . وقد ثبت بالتواتر قوله (ص) : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وقوله : « يقول الله اني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتاحتهم عن دينهم » .

(واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) . كل من السؤال والجواب قائم الى اليوم ، وإلى آخر يوم ، لأنهما بلسان الحال والواقع ، تماماً كقوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين - ١١ فصلت » . (ان تقولوا يوم القيامة) أي مخافة أن تقولوا أو لئلا تقولوا : (إنا كنا عن هذا غافلين) . هذا اشارة إلى التوحيد الذي دل عليه قوله : (ألست بربكم قالوا بلى) . لا تعليل ولا معذرة أبداً ، لا في هذه الحياة ولا

في الآخرة لمن منحه الله الاستعداد الكامل لتفهم الدلائل والبينات على وحدانية الله وعظمته ، ثم كفر وأشرك .

(أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) . يقلد الانسان في الأشياء التي تحتاج إلى التخصص. وتستغرق سنوات من الدراسة كالطب والهندسة . وما اليها . أما الادراكات الفطرية التي لا تكلف الانسان أكثر من اليقظة والتنبه كوجود الله ووحدانيته ، أما هذه فالكل فيها سواء .. وقد أقام الله سبحانه البراهين الوافية الكافية على وحدانيته ، ومنح كل عاقل الاستعداد لتفهمها بيسر ، ولم يبق عذراً لمعتذر بأنه جحد أو أشرك تقليداً لغيره من المبطلين .. ولا فرق أبداً في نظر العقل بين من يعمل بغير علمه متعمداً وبين من يتبع الباطل جهلاً به ومن غير قصد مع قدرته على معرفته وتمييزه عن غيره .

(وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) إلى عقولهم التي تؤدي بهم حتماً بمعونة الدلائل إلى عقيدة التوحيد . أنظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام ، فقرة « الله والفطرة » ص ١٨٨ .

آتيناه آياتنا فانسلخ منها الآية ١٧٥ – ١٧٧ :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ★ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ★ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ★

اللغة :

النبأ الخبر الذي له شأن . فانسلخ منها تجرد منها . وأخلد إلى الأرض لصق بها ، والمراد به هنا الركون الى الدنيا . واللهث بفتح اللام ، واللهاث بضمها ، ومعناهما واحد ، وهو التنفس الشديد مع اخراج اللسان عطشاً أو اعياءً . والمراد بالمثل هنا الصفة .

الإعراب :

ساء بمعنى بئس ، والفاعل مستتر يفسره مثلاً المنصوب على التمييز ، والقوم مجرور بإضافة اسم محذوف أي مثل القوم،وهذا المحذوف هو المخصوص بالذم، وهو مبتدأ . وجملة ساء خبر .

المعنى :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين) . اتل الخطاب موجه لمحمد (ص) ، وضمير عليهم يعود الى اليهود . أما الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فلا نعرف من هو ولا ندخل في شيء ليس في القرآن والسنة المتواترة نص عليه ، ولكن القصاصين وأكثر المفسرين أو الكثير منهم قالوا : ان اسم الرجل بلعام بن باعور ، وانه كان على دين موسى وعالماً بأحكامه ، ثم ارتد ، ونحن ننظر الى هذا النقل والى غيره أيضاً بحذر ، ولا نطمئن إلا للنص القرآني ، وقد دل هذا النص على ان الله سبحانه أمر رسوله أن يخبر اليهود بقصة الرجل الذي كان عالماً بدين الله وآياته ، وبطبيعة الحال كان علماء اليهود على علم من هذا الرجل ، ثم أغواه الشيطان ، فترك علمه ودينه ، ولزم الغواية فكان من الغاوين الهالكين .

(ولو شئنا لرفعناه بها) أي بما آتاه الله من العلم بآياته ، ولكن الله لم يشأ أن يلجئه إلى العمل بآياته قهراً . لأنه جل ثناؤه لا يعامل الناس بمشيئته الخالقة

التي تقول للشيء كن فيكون ، وانما يعاملهم بمشيئة النصح والارشاد التي يعبر عنها بأمره ونهيه . ولهـذا ترك للذي انسلخ من آيات الله ، ترك له الحريـة والاختيار . فاختار العاجلة على الآجلة (ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه). معنى الاخلاد اللزوم . والمراد بالأرض هنا متاع الحيـاة الدنيا ، لأن الأرض مصدرها . ومنها الطيبات والملذات . والمعنى ان هذا المنسلخ المتجرد قد عصى مولاه ، وأطاع هواه ملازماً ا، لا يفارقه أبداً ، قال الرازي : هذه الآية أشد الآيات على أصحاب العلم ، قال رسول الله (ص) : من ازداد علماً ، ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعداً .

(فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) . الكلب الذي يلهث من العطش أو الاعياء يستمر في اللهاث زجرته أو تركته ، فانه لاهث على كل حال .. وكذلك من لزم هواه يستمر في ضلاله وعظته أو أغفلته فهو ضال على كل حال (ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا) . أي هذه هي صفة كل من أصر على المعصية .. أبداً . لا ينتفع بآيـة ، ولا يصغي لموعظة ، وضرب الله مثلاً للعاصي المصر بالكلب اللاهث اشارة إلى خسته وضعته .

(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) . أي حدث يا محمد اليهود عن المكذبين من أسلافهم ، وما آل اليه أمرهم كأهل القرية التي كانت حاضرة البحر ، وهذا المنسلخ ليكون ذلك عبرة لهم ، ورادعاً عن التكذيب بنبوتك .

(ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) . الكذب على الله ، والتكذيب بآيات الله كلاهما بدعة ، لأن الأول يُثبت في الدين ما ليس منه ، والثاني ينفي عنه ما هو منه ، وهذه هي البدعـة بالذات ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار — اذن — من ابتدع فقد ظلم نفسه ، حيث عرضها للعذاب والهلاك .

وتسأل : من يحرف الحق خوفاً على نفسه من ظالم : هل يُعد مبتدعاً ؟.

الجواب : أجل ، انه مبتدع يستحق الذم والعقاب ، ما في ذلك ريب ، لأن عليه أن يخاف من غضب الله لتحريف الحق ، لا من غضب الظالم للثبات على الحق .. أجل ، قد يسوغ للانسان ترك العمل بالحق دفعاً للضرر عن نفسه ، أما

تحريف الدين بالكذب على الله فلا مبرر له على الاطلاق . مهما تكن النتائج

من يهدي الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ - ١٨١ :

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ★ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ★ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ★ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ★

اللغة :

الذرأ الانشاء والخلق . والإلحاد الانحراف عن الطريق القويم .

الاعراب :

اللام في لجهنم للعاقبة مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً . وجملة لهم قلوب صفة لكثير . وجملة لا يفقهون صفة للقلوب . وممن خلقنا خبر مقدم ، وأمة مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) . ليس المراد

ان من يخلق الله فيه الهداية فهو المهتدي . ومن يخلق فيه الضلال فهو الضال .. كلا ، ان هذا المعنى تأباه الفطرة والبديهة .. لأن الله ليس بظلاّم للعبيد، وأيضاً يأباه النص القرآني : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها — ١٠٨ يونس » . وكيف يجمع الله تعالى بين وصفي العدالة والاضلال ؟. ان الشيطان هو المضل : « قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين — ١٥ القصص » « وأضل فرعون قومه » .

والذي نراه ان المعنى المقصود من الآية ان المهتدي حقاً هو من كان عند الله مهتدياً . ولو كان عند الناس ضالاً .. وليس من شك ان الانسان لا يكون من المهتدين في الميزان الإلهي إلا اذا آمن وعمل صالحاً : « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم — ٩ يونس » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين — ٦٩ العنكبوت » . وكذلك الضال فإنه من كان ضالاً في حساب الله ، لا في حساب الناس . وبكلمة ان الآية تحدد معنى كل من المهتدي والضال بأنه من كان كذلك عند الله ، تماماً كما قال الإمام علي(ع) : الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) . ذرأنا خلقنا .. والله سبحانه لم يخلق ولن يخلق أحداً بقصد تعذيبه . كيف ؟. وهل يلتذ جلت عظمته بتعذيب المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ؟. في بعض ما قرأت ان الامريكيين كانوا إذا أرادوا الترويح عن النفس جاءوا بأحد الملونين ، وتحلقوا حوله ، وأمطروه بوابل من رصاص مسدساتهم ، فيسقط على الأرض متخبطاً بدمائه ، وهم يرسلون القهقهات عالياً .. والله لن يشوي البشر بناره إلا إذا تجنس بالجنسية الأمريكية أو الصهيونية .. تعالى الله عما يصفون .

ان الله سبحانه خلق الانسان للعلم النافع ، والعمل الصالح ، وزوده بجميع المؤهلات لذلك . وأعطاه العقل المميز بين الهدى والضلال . وأرسل الرسل لايقاظه وارشاده ، وترك له الخيار في سلوك الطريق الذي يشاء منها ، لأن الحرية هي قوام حقيقة الانسان ، ولو سلبها منه لكان هو والجماد سواء ، فان اختار طريق الهدى أدى به الى مرضاة الله وثوابه ، وان سلك طريق الضلال فمآله جهنم

وساءت مصيراً . وعلى هذا تكون اللام في لجهنم لام العاقبة مثل اللام في ليكون من قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً . ومثل: لدوا للموت وابنوا للخراب .

وتسأل : ان الله سبحانه قال : « وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون » وأنت تقول : خلق الله الانسان للعلم النافع . والعمل الصالح .

الجواب ان العلم النافـع والعمل الصالـح من أفضل الطاعات ، فقد جاءت الرواية : عالم واحد أفضل من ألف عابد ، وألف زاهد ، وفي رواية ثانية : عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد .

(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) . كل شيء لا يؤدي الغاية المطلوبة منه فوجوده وعدمه سواء من هذه الحيثية . ومن أهم الغايات المقصودة من القلب أن ينفتح لدلائل الحق . ومن العـين أن تبصر هذه الدلالة ، ومن الأذن أن تسمعها . فاذا أعرضت هذه الأجهزة الثلاثة عن ذلك . ولم تنتفع بشيء من دلائل الحق كان وجودها كعدمه . قال تعالى : «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ٣٧ ق» . فالقلب والسمع موجودان ، ومع ذلك يصح سلب الوجود عنهما اذا غفلا عن آيات الحق ودلائله (أولئك كالأنعام) لهم قلوب وأعين وآذان . ولكن قلوبهم لا تنفتح للحق ، وأعينهم لا تبصر دلائله . وآذانهم لا تسمعها فكانوا كالأنعام (بل هم أضل) لأن الأنعام تؤدي الغرض المطلوب منها على أكمل وجه ، ولأنها تعجز عن تحصيل الكمال ، ولا تحاسب وتعاقب . وبالتالي هي تعرف خالقها بالفطـرة ، والكافرون لا يؤدون المطلوب منهم ، وقادرون على الكمال ، ولا يفعلونه . وهم محاسبون ومعاقبون (أولئك هم الغافلون) عن دلائل الله في أنفسهم وفي الآفاق ، وعن مصيرهم وما سيحل بهم في الآخرة من الخزي والعذاب .

هل اسماء الله توقيفية او قياسية ؟

(ولله الأسماء الحسنى) . كل أسماء الله حسنة ، لأنها تعبر عن أحسن المعاني

وأكملها ، وكلها على مستوى واحد في الحسن . إذ ليس لله حالات متعددة ، ولا صفات متغايرة ، حتى عند القائلين بأن صفاته غير ذاته ،ولا أفعال متفاوتة ، فخلق جناح بعوضة وخلق الكون بأسره سواء لديه ، يوجد كلاً بكلمة « كن فيكون » .. ومتى تساوت المعاني تساوت الألفاظ لأنها فرع .والفرع يتبع الأصل.

(فادعوا بها) . أي اذكروا الله ، وادعوه بأي اسم شئتم من أسمائه. فكلها ألفاظ تعبر عن تنزيهه وتعظيمه على مستوى واحد ، وليس لله اسم أعظم ، واسم غير أعظم .فكل ما دل عليه هو أعظم الدلالات . لأن المدلول أعظم الموجودات.. ومن أجل هذا لا نقول مع القائل : ان لله اسماً خاصاً هو الاسم الأعظم ، وان من عرفه فاضت عليه الخيرات ، وظهرت على يده المعجزات .. وقيل « ان لله تسعاً وتسعين اسماً ، وان من أحصاها دخل الجنة » . حتى كأن الله خلق جنته لمؤلفي قواميس اللغة ، لا للمتقين !.

(وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) .. اللحد والالحاد الميل عن القصد،ومعنى الجملة النهي عن اطلاق أية كلمة تشعر بالربوبية على غيره ، سواء أكان ذلك الغير نبياً أو كوكباً أو صنماً أو أي شيء. وأيضاً لا يجوز اطلاق أية كلمة عليه تشعر بغير الربوبية كالأب والابن .

واختلف علماء الكلام في أسماء الله تعالى : هل هي توقيفية أو قياسية؟. ومعنى توقيفية الوقوف في أسمائه على ما جاء في الكتاب والسنة ، بحيث لا يجوز اطلاق أي اسم عليه إلا إذا نصت عليه آية أو رواية ، ومعنى قياسية ان أي لفظ كان معناه ثابتاً في حق الله فيجوز اطلاق هذا اللفظ عليه.سواء أورد في كتاب الله ، أم لم يرد .

وذهب أكثر العلماء الى أن أسماء الله توقيفية . أما نحن فنجيز مخاطبة الله ومناجاته بكل ما يدل على التنزيه والتعظيم.سواء أورد له ذكر في القرآن والحديث أم لم يرد،ولا نمنع إلا عما منع الله عنه،عملاً بالمبدأ القائل : كل شيء مباح،حتى يرد فيه نهي على شرط التعظيم.. هذا ما تقتضيه الأصول والقواعد العلمية الدينية، بالإضافة إلى اجماع الأمة قديماً وحديثاً في كل زمان ومكان على ان لغير العرب أن يعبروا عن ذات الله وصفاته وأفعاله بلغتهم الخاصة بهم .

(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون). كل الناس منهم مؤمن وكافر، وطيب وخبيث، ومـا من أحد إلا ويعرف هذه الحقيقة. فما هو القصد من بيانها ؟.

الجواب : قال سبحانه في الآية السابقة: ان كثيراً من الجن والإنس مصيرهم الى جهنم « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » فناسب ان يقول هنا : وان أمة منهم مصيرها إلى الجنة، وان تكن هذه أقل من تلك كما تشعر لفظة (من). وعبّر عن أهل الجنة بالذين يهدون بالحق وبـه يعدلون اشارة إلى ان السبب الموجب لدخولهم الجنة هو الهدي والعدل.

والذين كذبوا بآياتنا الآية ١٨٢ - ١٨٦ :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ★ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ★ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ★ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَـدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ★ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَـهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ★

اللغة :

الاستدراج من الدرجة، أي ان الله يسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً، تماماً كمن يرتقي درج السلم. والإملاء الإمهال والتأخير. والكيد المكر، والمراد به

هنا التدبير الخفي ، بحيث لا يشعر المكيد له إلا بعد خسرانه وخذلانه . والجنة بكسر الجيم ، وأصله الستر . والملكوت المالك غير المملوك . والعمه للقلب ، والعمى للعين .

الإعراب :

إن كيدي متين جملة مستأنفة ولهذا كسرت همزة إن . وما استفهامية انكارية في محل رفع بالابتداء، وبصاحبهم متعلق بمحذوف خبراً . والجملة مفعول ليتفكروا لأن التفكر من أفعال القلوب التي يجوز تعليقها عن العمل . وان عسى (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف أي انه عسى . والمصدر المنسبك من أن يكون فاعل عسى . وقد استغنت عسى بالفاعل هنا عن الخبر ، كما استغنت عنه في قولك عسى ان تقوم كأنك قلت : قرب قيامك . ومثله عسى أن تكرهوا شيئاً . واسم يكون ضمير مستتر يعود الى الشأن ، وجملة قد اقترب أجلهم خبر كان . والجملة من عسى وفاعلها خبر ان .

المعنى :

(والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) . قد تتابع النعم على الانسان ، فيتمادى في طغيانه اغتراراً بكثرته وثروته ذاهلاً عن المخبآت والمفاجآت ، حتى إذا قال الناس طوبى له فاجأته ساعة السوء .. وقد اغتر أبو سفيان بيوم أحد ، وقال : يوم بيوم بدر ، حتى اذا جاء نصرالله والفتح استسلم صاغراً . قال الإمام علي (ع) : « كم من مستدرج بالاحسان اليه ، ومغرور بالستر عليه ، ومفتون بحسن القول فيه ، وما ابتلى الله أحداً بمثل الاملاء له (واملي لهم ان كيدي متين) . الاملاء الامهال وعدم الاستعجال ، والمراد بكيد الله انه تركهم يغترون باحسانه الظاهر ، حتى إذا ركنوا اليه أخذهم من حيث لا يشعرون : « أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون – ٥٧ المؤمنون » .

(أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين) . هكذا يبث اللصوص والسفاحون دعاياتهم المضللة ضد كل مخلص في كل زمان ومكان .. محمد مجنون وساحر وكذاب ، ولمه ؟ لأنه يأبى الكذب والضلال ، ويحارب اللصوصية والاستغلال .. افترت قريش على محمد . وهي تعرف من هو محمد منذ نشأته ، حتى تجاوز الأربعين من عمره الشريف ، وتعرف فيه العقل والصدق والأمانة . ولكنها تعرف أيضاً ان رسالة محمد هي الخطر الأكبر على سلطان قريش وطغيانها ، ومن أجل هذا وحده قالت : انه مجنون عسى أن تخدع بهذا الافتراء من استغلوه واستعبدوه .. فدعاهم القرآن إلى التفكر والتدبر في أمر محمد (ص) ، وهو صاحبهم ، وعشيرهم الذي سبروه وخبروه ، دعاهم القرآن أن يتفكروا : هل أخذوا عليه مأخذاً ، أو وجدوا في عقله وخلقه مغمزاً ؟ (ان هو إلا نذير مبين) يبين الحق ، وينذر من خالفه ، وهذا هو ذنبه الوحيد عندهم .

(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) . ملكوت مبالغة في الملك ، والمعنى ان السموات والأرض وكل ما فيهما من شيء يخضع لسلطانه ، ويدل على وحدانيته ، وان ما من عاقل ينظر الى أي شيء في هذا الوجود مجرداً عن كل غاية إلا آمن بالله وكتبه ورسله . أما الذي لا يفكر إلا في مصلحته فلا يهتدي ولن يهتدي إلى الله ولا لشيء من الخير (وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) . بعد أن طلب الله اليهم التفكر والتدبر في خلق الكون وأشيائه نبههم إلى الموت هادم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وانه ربما فوجئوا به عما قريب ، وهم في ضلالهم سادرون . نبههم الى هذا عسى أن يتوبوا ويثوبوا الى الرشد .

(فبأي حديث بعده يؤمنون) ؟ الضمير في بعده يعود الى القرآن ، وليس بعد القرآن بيان أوفى ، ولا دليل أقوى ، فمن لا تقنعه دلائل الله فلا يقنعه شيء . (من يضلل الله فلا هادي له) ذكرنا معناه قريباً عند تفسير الآية ١٧٨ من هذه السورة (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) . أي ان الله يتركهم يترددون في الضلال ويمهلهم إلى أجل . ثم يجازيهم بما أسلفوا ، وليس في هذا الإهمال ظلم ، لأنه جاء بعد البيان والتحذير ، وبعد اليأس من ارعوائهم وهدايتهم .

يسألونك عن الساعة الآية ١٨٧ – ١٨٨ :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ★ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ★

اللغة :

الساعة لغةً جزء قليل غير معين من الزمان ، وعرفاً جزء من أربعة وعشرين جزءاً من مجموع الليل والنهار ، والمراد بالساعة هنا الوقت الذي يفنى فيه العالم ويموت جميع الخلق . ومرساها اثباتها وحصولها من رسا الشيء إذا ثبت وحصل. والحفي المستقصي في السؤال .

الإعراب :

أيان اسم مبني لتضمنه حرف الاستفهـــام ، وهو سؤال عن الزمان ، ومحله الرفع خبراً مقدماً ومرساها مبتدأ مؤخر . وبغتة حال من الضمير في تأتيكم العائد إلى الساعة .

المعنى :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو) . المراد بالساعة خراب الكون وموت الخلائق . ويجليها يكشفها ويظهرها ، واللام في لوقتها للتوقيت . مثل أقم الصلاة لدلوك الشمس .. ويدل ظاهر الآية على ان قوماً سألوا رسول الله (ص) : متى تقوم الساعة ؟ فأمره الله أن يقول لهم : انها من الأمور التي ليس في طاقة البشر معرفتها ، وان علمها مختص بالله وحده ، وهو الذي يكشفها في وقتها المحدود (ثقلت في السموات والأرض) أي ثقل وقعها على أهل السموات والأرض لعظمتها وشدتها (لا تأتيكم إلا بغتة) من غير اعلام سابق .

(يسألونك كأنك حفي عنها) أي كأنك مهتم بالسؤال عنها مثل اهتمامهم . لم يكن النبي (ص) يهتم بعلم الساعة ومتى تقوم ؟ وانما كان يهتم بالعمل لأجلها والانذار بها ، ويربط بين النجاة من هولها وبين العمل الصالح ، ومن أجل هذا لم يسأل ربه عنها . وقيل : ان اعرابياً سأله : متى تقوم الساعة ؟. فقال له النبي (ص) : وماذا أعددت لها ؟. يريد بجوابه هذا أن يفهمه ان الأولى بك أن تسأل عما ينجيك منها ، لا عن وقتها وشكلها . فالعاقل اذا أصيب بداء لا يسأل : كيف يموت به ؟ وانما يسأل : ما الذي يشفيه منه ؟. وأعاد سبحانه (قل انما علمها عند الله) لتأكيد حصر العلم بالساعة وحده ، وتمهيداً لقوله : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) بأن علم الساعة عند خالقها ولا يُطلع عليه أحداً.

النبي وعلم الغيب :

(قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) . هذه عقيدة المسلمين بنبيهم محمد أشرف خلق الله أجمعين ، لا يملك لنفسه شيئاً فضلاً عن أن يملكه لغيره ، وهذا الاعتقاد بمحمد (ص) هو نتيجة حتمية لعقيدة التوحيد .

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) . ان كلمة الغيب لا تدل على معناها فحسب ، بل تدل أيضاً على ان الغيب لله وحده ،

وبالإضافة الى هذه الدلالة فان أقرب الناس الى ربه يعلن للأجيال بأنه أمام الغيب بشر لا فرق بينه وبين غيره من الناس ، ثم لا يكتفي بهذا الإعلان بل يستدل على ذلك بالحس والوجدان وهو انه لو علم الغيب لعرف عواقب الأمور ، فأقدم على ما تكون عاقبته خيراً . وأحجم عما تكون عاقبته شراً ، وما أصابه في هذه الحياة ما يسوؤه ويكرهه .

وكيلا يقول قائل : كيف لا يعلم محمد الغيب ، وهو الرسول المقرب من الله ؟. قال محمد (ص) بأمر من الله : (إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون). انه رسول الله . ما في ذلك ريب .. ولكن مهمة الرسول تنحصر بتبليغ الناس رسالات ربهم ، وانذار من عصى بالعقاب ، وبشارة من أطاع بالثواب ، أما علم الغيب . والنفع والضر فبيد الله وحده .. وخص المؤمنين بالبشارة والانذار، مع انهما يعمان جميع الناس اشارة إلى أن البشارة والانذار إنما ينتفع بهما من يريد الإيمان الحق ، أما المكابر فلا تجدي معه شيئاً .

وتسأل : لقد جاء في سيرة النبي (ص) وكتب الأحاديث : ان محمداً(ص) أخبر عن كثير من المغيبات .. من ذلك اخباره بأن المسلمين من بعده يتغلبون على الروم والفرس ، وان سلمان الفارسي سيوضع على رأسه تاج كسرى. فوضع.. وأيضاً أخبر عن موت النجاشي وعن شهادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وعن نباح كلاب حوأب على عائشة وعن قتال علي بن أبي طالب الناكثين والقاسطين والمارقين ، وعن استشهاد سبطه الحسين بن علي .. إلى غير ذلك كثير .. فكيف تجمع بين إخباره عن المغيبات ، وبين قوله : (ولو كنت أعلم الغيب) .

الجواب : ان غيب الله لا حد له ولا حصر ، وحده ان لا حد له، وهذا الغيب على أنواع : نوع يحجبه الله عن عباده ، ولا يُطلع عليه أحداً كائناً من كان كقيام الساعة . ونوع يُطلع عليه من ارتضى من عباده ، وإليه أشارت الآية ٢٦ من الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » . والآية ١٧٩ من آل عمران : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » . ونوع يطلع عليه كل الناس كالبعث والنشر . والجنة والنار .

فالمراد بأن الغيب لله وعند الله انه لا طريق الى معرفته بالتجربة ، ولا بالعقل ولا بأي شيء إلا بالوحي منه تعالى، وهو يوحي بشيء من غيبه إلى من ارتضى من رسول حسبما تستدعيه حكمته وحاجة الناس ، والرسول بدوره يخبرهم بهذا الغيب كما تلقاه من الله . وعلى هذا فلا يكون إخبار الرسول به علماً بالغيب، بل نقلاً عمن يعلم الغيب، والفرق بعيد بين مصدر العلم ، وبين النقل عن مصدره، لأن الأول أصل، والثاني فرع ، وأيضاً فرق بين من ينقل عمن نقل عن الأصل مباشرة ، وبين من ينقل عن هذا الناقل .. « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم – ٣٢ البقرة » .

وهذه الآيات دليل قاطع على فساد ما تقوله الصوفيـة من ان نفس الانسان بنحو من الرياضة تنعكس فيها المغيبات .. وقد أسموا هذا الانعكاس علماً لدنّيا.. ولست أدري كيف جمع الصوفية بين الإيمان بالله ورسالة محمد (ص) ، وبين الاعتقاد بهذا العلم الدنّي ؟.

وأعجب من هذا ما قاله ابن العربي في الجزء الثالث من الفتوحات المكيـة الباب الـ ٣١١ : ان من أحب الله حباً خالصاً يستطيع أن يحول نفسه الى أية حقيقة شاء من حيوان أو شجر أو حجر أو ماء .. وقد حدث هذا بالفعل ، ذلك ان بعض المحبين من أهل هذه الطريقة – أي الصوفية – دخل على شيخ وحوّل نفسه بين يديه الى كف من ماء .. ولما قيل للشيخ : دخل عليك فلان ولم يخرج ، فأين هو ؟. قال لهم : هذا الماء هو .

هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ – ١٩٠ :

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـــدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ★ فَلَمَّا آتَاهُمَـــا صَالِحاً

جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللهُ عَمّا يُشْرِكُون★

المعنى :

ليست الآيتان حكاية عن حادثة خاصة حصلت بين زوج وزوجته كما يوهم ظاهر اللفظ . كلا ، وانما هما حكاية عن حال الانسان بما هو مع صرف النظر عن أفراد معينين ، وتتلخص حكاية هذه الحال أو هذا التمثيل بأن الانسان اذا نزل به ما يكره ، أو أراد الحصول على ما يحب التجأ الى الله يدعو ويتضرع ويقطع على نفسه العهود والمواثيق ان الله اذا حقق له ما يريد شكره وأطاعه . فاذا آتاه الله ما أراد تولى معرضاً عن عهوده ومواثيقه ، وبعد هذا التمهيد الذي ينبغي أن تُفهم الآيتان على أساسه نشرع بايضاحها :

(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) . الخطاب في خلقكم لجميع الناس ، والمعنى انكم جميعاً أيها الناس من شيء واحد جنساً وطبيعة وعنصراً ، لا فرق اطلاقاً بين شرقي وغربي ، ولا عربي وعجمي ، ولا بين اسود وأبيض ، ولا ذكر وأنثى .. ومسألة الذكر والأنثى تعم جميع الأجناس ، ولا تختص بجنس دون جنس ؛ قال عز من قائل : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون – ٤٩ الذاريات . والغرض من ذلك معروف هو حفظ النوع ، وبالاضافة الى هذا الغرض فان الله سبحانه قد خلق للانسان زوجاً من جنسه ليسكن كل منهما للآخر ويطمئن اليه. وليكون بين الاثنين مودة ورحمة .

(فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) . تغشاها قاربها ، وفي الفعل ضمير مستتر يعود الى الزوج وضمير (ها) الى الزوجة ، ومرت به أي استمرت بالحمل ، ولم تسقطه ، وأثقلت حان وقت الولادة ، وفي هذا الحين اتجه كل من الأب والأم الى الله سبحانه ، وتضرعا اليه ان يرزقهما ذكراً صالحاً أي تام الخليقة والخلق ،

وان الله ان استجاب وفعل أديا شكر هذه النعمة على أكمل الوجوه (فلما آتاهما صالحاً) كما طلبا (جعلا له شركاء فيما آتاهما) ضمير جعلا يعود الى الزوج والزوجة ، وضمير له يعود الى الله . والمراد بما آتاهما الولد الذي طلباه، والمعنى ان الله لما رزقهما الولد قالا : الفضل فيه للأصنام وبركاتها، ونسيا الله وما عاهداه عليه (فتعالى الله عما يشركون) أي يشرك جميع الكافرين ومن جملتهم هذان الزوجان . ومرة ثانية نقول : ان الغرض الحكاية عن حال الانسان بما هو ، وليس الحكاية عن حادثة خاصة .

أيشركون ما لا يخلق شيئاً الآية ١٩١ – ١٩٨ :

أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ★ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ★ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ★ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ★ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ★ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ★ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ★ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ★

المعنى :

(أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون) . ان الخلق والأمر لله ، وهو وحده الذي يقول للشيء كن فيكون ، وكل من عداه وما عداه مما فيه الأصنام مفتقر اليه تعالى في أصل وجوده وفي استمراره في الوجـــود . (ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أ [illegible] نصرون) ان النصر والغلبة والاعزاز والاذلال بيد الله ، والأصنام أحجار تبول عليها القطط والكــلاب ، فلا تنصر ولا تنتصر (وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) . هــذه الأصنام لا تخلق ، ولا تنصر ولا تنتصر ، ولا تهدي ولا تهتدي ، ولا تدعو أحداً ، ولا تستجيب لدعوة أحد ، ومع كل هذا تعبد !.

(ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) . لقد زعمتم أيها المشركون ان الأصنام آلهة ، والإلـه ينفع ويضر ، ويعطي ويمنع فاطلبوا منهم لنرى هل يستجيبون لطلبكم ؟ (ألهم أرجــل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها). هذا إيقاظ وتنبيه للمشركين الى أنهم خير وأفضل من الأصنام التي يعبدون، لأن لهم عقولاً تدرك ، وأعيناً تبصر وآذاناً تسمع ، وأرجلاً تمشي ، وأكفاً تبطش، وألسنة تنطق ، وليس للأصنام شيء من ذلك ، فكيف صار الادون معبوداً ، والأكمل عبداً له ؟.

وتسأل : ان الواو ضمير للعاقل ، فكيف استعملها القرآن في الأصنام، وهي لا تعقل ، مثل يخلقون ويبصرون الخ ؟.

الجواب : انها تستعمل في العاقل وغيره ، ومن ذلك قوله تعالى : يا أيهـا النمل ادخلوا مساكنكم . وقوله : وكل في فلك يسبحون . ولكن الأكثر استعمالها في العاقل .

(قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) . قل الخطاب لمحمد (ص)، وواو ادعوا للمشركين ، والأمر فيه للتعجيز ، وشركاءكم أي أصنامكم ، وأصل كيدون كيدوني ، ومثلها فلا تنظرون ، ومحصل المعنى ان الله سبحانه أمر نبيه

أن يقول للمشركين : إن كان لأصنامكم شأن كما تزعمون فاني احتقرها وإياكم ، فاستنجدوا بها لكيدي والاقتصاص مني ، ولا تمهلوني لحظة ، فهذا أوان مقدرتها وسلطانها .

(ان وليي الله الـــذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . بعد أن تحدى النبي (ص) المشركين وآلهتهم قال لهم : أنتم تتولون هذه الأصنام ، وأنا أتولى الله الذي نزل عليّ القرآن ، وفيه تبيان كل شيء ، وهـــو أيضاً يتولى حفظي وحراستي ، فهل لأصنامكم كتـــاب ؟. وهل تتولى هي حفظكم وحراستكم ؟.. وكانت النتيجة ، كما يعرفها الجميع ، اذلال الشرك والمشركين ، واعزاز الاسلام والمسلمين .

(والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) . تقدم هذا في الآية ١٩٢ ، وجاء التكرار لأن النبي (ص) تحدى الأصنام ان تناله بأذى فناسب أن يشير الى أنها أعجز من أن تنصر أو تنتصر .

(وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا) . أيضاً تقدم في الآية ١٩٣ والتكرار للغاية نفسها .

(وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . يدل هذا النص على ان الأصنام كانت تماماً كهذه التماثيل في الكنائس ، وان عرب الجاهلية كـــان لهم شأن في فن النحت لأنهم جعلوا أصنامهم بحيث يتخيل الرائي للوهلة الأولى أنها تنظر وتبصر .

وتسأل : لماذا كرر الله وأعاد في آيات متلاحقة متلاصقة ان الأصنام لا تضر ولا تنفع ، ولا تنصر ولا تنتصر ، وانه ليس لها أيد ولا أرجل ولا أعين الخ حتى بلغت الآيات تسعاً ، مع العلم بأنه يغني عن كل ذلك القول : انها أحجار وكفى .

الجواب : لقد سيطرت الوثنية على تفكير العرب وعقولهم ، وامتزجت بأرواحهم ودمائهم ، لأنهم ورثوها عن الآباء أجيالاً وقروناً ، وكان ايمانهم بها أقوى من ايمانهم بالله الذي جعلوها شريكة له .. فـــلم يكن تغيير شيء من عقيدتهم هذه سهلاً يسيراً ، وكانوا يضحون بالنفس والنفيس اذا ذكرها ذاكر بسوء ، فاقتضى ذلك التكرار والتأكيد والايضاح .. ولنفترض ان واحداً من رجال الكنيسة حاول

أن يزيل منها هذه الصور والتماثيل فهل يكتفي بقوله : انها أوراق وأحجار ، أو يلقي الخطب الطوال العراض ؟.

خذ العفو وامر بالعرف الآية ١٩٩ ـ ٢٠٣ :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ★ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ★ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ★ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ★ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَـٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ★

اللغة :

العفو هو الذي يأتي من غير كلفة ومشقة ، والعرف المعروف ، وهو فعل الخير . والنزغ في اللغة النغز والوكز ، ونزغ الشيطان اغراؤه بالشر والفساد . والاستعاذة بالله الالتجاء اليه . والمس الاصابة . والطائف ما يدور حول الشيء ويأتيه من جميع نواحيه . ومعنى اجتبيتها اصطفيتها ، والمراد بها هنا افتعلتها .

الاعراب :

إذا هم مبصرون (إذا) هنا للمفاجأة لا تحتاج الى جواب. ولولا أداة طلب بمعنى هلا .

المعنى :

(خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين). أدب الله نبيه محمداً (ص) فأحسن تأديبه ، وكان يقول في دعائه : اللهم حسن خَلقي وخُلقي ، وجنبني منكرات الأخلاق ، وقد استجاب الله دعاءه ، وأتم له مكارم الأخلاق ، ثم أرسله كافة للناس ليتمم لهم مكارم الأخلاق . ومن الآيات التي أدب الله بها رسوله الأكرم (ص) هذه الآيـة ، وقد تضمنت أسساً ثلاثـة في الشريعة والآداب ، وهي :

١ – العفو ، وهو السهل اليسير الذي لا مشقة فيه ولا عسر ، ويكون في الأفعال وفي الأخلاق ، وهو في الأموال ما زاد عن الحاجة ، وقد امر الله نبيه أن لا يشق على الناس فيما يأمرهم به ، وينهاهم عنه ، وان يأخذ زكاة أموالهم فيما زاد عن حاجاتهم ، وهذا أصل من أصول الشريعة : « وما جعل عليكم في الدين من حرج – ٧٨ الحج » ، وان لا يكلفهم الشاق من الأخلاق، كأن يلزم أحدهم أن يتنازل لغريمه عن حقه ، ولا يقتص منه لنفسه .

٢ – الأمر بالعرف ، وهو الخير المعروف الواضح يدركه الانسان بفطرته .

٣ – وأعرض عن الجاهلين ، وهم الذين لا تُرجى هدايتهم بالحجة والدليل ، ولا بالموعظة والارشاد .. وقد يكون اهمالهم والإعراض عنهم أجدى في هدايتهم .

وقال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية : « روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه انه قال : ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق منها » .

(وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم) . النبي يغضب ما في ذلك ريب .. ولكنه يغضب لله ، حتى غضبـه لنفسه هو غضب لله .. وربما غضب على جهالة جاهل من الذين أمرهم الله بالإعراض عنهم ، فتحركه نفسه لمجابهته بكلمة يستحقها ، فقال له مؤدبه الأعظم جل ثناؤه : إن صادف وعرضت لك مثل هذه الحال فلا يذهبن الغضب بحلمك فاصبر واستعذ بالله ، فانه يسمع لك ويستجيب، ويعلم ما تلاقيه من أهل السفاهة والجهالة، ويثيبك عليه .

ولا بد من الاشارة الى ان قوله تعالى : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) هو مجرد فرض لمكان ان الشرطية ، تماماً كقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) . وبديهة ان فرض المحال ليس بمحال ، وفي المجلد الثاني صفحة ٧٥ فقرة « الأنبياء والمعصية » بيّنا ان الله سبحانه أن ينهى أنبياءه المعصومين عن المعصية ، لأن نهيه من الأعلى الى من هو دونه.وليس لأحد غير الله أن يأمرهم أو ينهاهم .

(ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) . مـا من انسان إلا وتتنازعه اندفاعات نفسية ، بعضها عاطفي ، وبعضها عقلي ، وبعضها ديني ، وفي الأغلب ينهزم الدين والعقل أمام العاطفة ، لأنها تنبع من ذات الانسان ، وتلازمه منذ تكوينه في بطن أمه ، والعقل متأخر عن العاطفة في الوجود ، وهو ينمو بالدرس والتجربة ، أما الدين فنزل لترويض العاطفة وكبح جماحها . فهـو أضعف العوامل والانفعالات .. اللهم إلا إذا اقتنع الانسان به اقتناعه بنفسه وكيانه، بحيث لا يرى لنفسه وجوداً سعيداً إلا بالدين والعمل بأحكامه ، وهذا النوع من المتدينين هم الذين يتغلب دينهم على ميولهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا) . أي إذا أغراهم الشيطان بمعصية الله ، أو وسوست لهم النفس الامارة بذلك تذكروا ما أمرهم الله به ، وما نهاهم عنـه (فإذا هم مبصرون) مكائد الشيطان ووسوسة النفس ، فيحجمون عن المعصية ، ويتغلب دينهم على أهوائهم .

(واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) . المراد بالاخوان هنا الشياطين، والضمير في اخوانهم يعود الى المشركين الذين تقدم ذكرهم ، والضمير المرفوع في يمدونهم يعود الى الشياطين ، والضمير المنصوب يعود الى المشركين ، والمراد بلا يقصرون لا يكف الشياطين عن امداد المشركين بالاغواء والافساد ، وملخص المعنى ان الشياطين هم اخوان المشركين لا يكفون عن غوايتهم وتضليلهم .

(وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) . كان المشركون يطلبون من النبي آيات ومعجزات معينة على سبيل التعنّت ، فإذا لم يأتهم بها قالوا له : هلا تأتي بها انت من نفسك ؟. ألست نبياً ؟. (قل انما اتبع ما يوحى إليّ من ربي) .

أي قل يا محمد لهؤلاء المتعنتين : أجل أنا نبي ، ولكن النبي لا يصنع المعجزات ، ولا يبتدع من عنده الآيات ، ولا يقترحها على الله ، بل ينتظر الوحي ، ويبلغه لعباده .

(هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . هذا اشارة الى القرآن ، والبصائر هي الحجج والبينات التي يبصر العاقل بها الحق ، ويميزه عن الباطل .. بعد ان قال النبي (ص) للمشركين : انما اتبع ما يوحى إليَّ من ربي قال لهم : وقد أوحى إليَّ ربي بهذا القرآن ، وفيه الأدلة الساطعة على نبوتي ، وهو هدى ورحمة لمن يريد أن يؤمن بالحق لوجه الحق ، فإن كنتم من طلابه كما تزعمون فعليكم أن تتركوا الشرك ، وتسلموا ، والا فأنتم طلاب منافع وأرباب غايات .

واذا قرىء القرآن الآية ٢٠٤ ـ ٢٠٦ :

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ★ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ★ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ★

اللغة :

استمع له واليه أصغى بقصد . والانصات السكوت من أجل الاستماع . والغدو جمع غدوة ، وهي الصباح ، والآصال جمع أصيل ، وهو المساء . والقصد دوام الذكر . وخيفة حالة الخوف .

الاعراب :

تضرعاً وخيفة مصدران في موضع الحال من واو فاستمعوا ، أي متضرعين وخائفين . ودون الجهر أي واذكر ربك دون الجهر ، والجملة عطف على واذكر ربك في نفسك . وبالغدو متعلق باذكر .

المعنى :

(وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون) . لما ذكر سبحانه في الآية السابقة ان القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر في هذه الآية بالاستماع والانصات له ، لتدبر ما فيه من الهدى والدلائل ، وليس من شك ان من تدبر القرآن . واتعظ به فهو جدير برحمة الله ورضوانه .

واتفق الفقهاء ما عدا الظاهرية على ان الانصات لقراءة القرآن مستحب وليس بواجب على غير المأموم الذي يصلي جماعة خلف الإمام .

واختلفوا في المأموم : هل يجب عليه أن يسمع وينصت للإمام ، وهو يقرأ القرآن في صلاته ؟. ذهب جماعة الى الوجوب ، وقال آخرون بعدمه .

وعلى أية حال فان الأمر في قوله تعالى : (فاستمعوا له وانصتوا) هو للاستحباب لا للوجوب ، لأن هذا الأمر حكمه حكم الأمر في قوله : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) لأنهما جاءا في سياق واحد ، والأمر بالذكر للاستحباب فكذلك الأمر بالاستماع والانصات .. هذا ، الى ان الانصات لكل قارىء فيه عسر وحرج ، بخاصة في عصرنا الذي أصبحت فيه قراءة القرآن في المكبرات أشبه بالغناء واللعب ترتفع الأصوات به بمناسبة وغير مناسبة.

(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) . اذكر الخطاب للنبي ، والمراد عام ، وتضرعاً وخيفة أي ليكن مع الذكر خشوع وخوف من الله ، ودون الجهر من القول معناه اذكر ربك بصوت متوسط بين الجهر والاخفات ، وبالغدو والآصال كناية عن دوام الذكر وقوله تعالى : (ودون الجهر من القول) يدل صراحة على ان من

رفع صوته بالقرآن فقد ترك المستحب وفعل خلاف الأولى بخاصة إذا كان في المكبر ، وبصورة أخص إذا كان فيه إزعاج للنائمين . (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله في نفسك ، لأن الذكر باللسان فقط أشبه بكلام فارغ لا معنى له.

ومعنى ذكره تعالى في النفس أن ندرك ان الله وحده هو الخالق الرازق ، والمحيي والمميت ، والمبدىء والمعيد .. وأفضل الذكر اطلاقاً أن يتقي الانسان الاساءة الى أخيه الانسان خوفاً من عقاب الله ، وأفضل منه أن يحسن اليه رغبة في ثواب الله عز وجل ، ونقول من غير تحفظ : ان هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون – ٤٥ العنكبوت ». وقوله : « والله يعلم ما تصنعون » بعد قوله : « ولذكر الله أكبر » يؤيد أن الذكر الأكبر هو الإحسان الى عيال الله . وأخسر الناس صفقة عند الله من يهلل له ويكبر ، وهو يسعى في أرض الله فساداً بالغش والخداع ، ومشايعة الطغاة والمستعمرين ضد عيال الله الآمنين والمستضعفين .

(ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) . قال المفسرون : أراد الله بهؤلاء المسبحين الساجدين – الملائكة ، واستدلوا على ذلك بـ (عند ربك) لأن الذين عند الله هم الملائكة .. ويلاحظ بأنه من الجائز أن يكون المراد كل من له مكانة ووجاهة عند الله ، سواء أكان ملكاً ، أم بشراً .

واختلف الفقهاء: هل يجب السجود عند تلاوة آية فيها كلمة يسجدون كهذه الآية ؟. نقل الطبرسي في المجمع عن أبي حنيفة القول بالوجوب،وعن الشافعي والإمامية القول بالاستحباب المؤكد .

ويلاحظ بأن الشيعة الإمامية قد أوجبوا السجود على كل من القارىء والمستمع لآيات السجدة من السور الأربع ، وهي ألم تنزيل ، وحم فصلت ، والنجم ، والعلق .

سُورَةُ الأَنفَالِ

سورة الأنفال

آياتها ٧٥ ، وهي مدنية الا من آية ٣٠ لغاية ٣٦ فانها مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

قل الأنفال لله والرسول الآية ١ ـ ٤ :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ★ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ★ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ★

اللغة :

الأنفال جمع نفل بفتح الفاء ، وهو الزيادة ، والمراد به هنا نوع من المال يأتي بيانه . وبين ظرف يتوسط بين اثنين أو أكثر ، والمراد بالذات هنا الحال الواقعة بين اثنين أو جماعة . والوجل الخوف .

الإعراب :

حقاً منصوب على المصدرية ، أي أحق حقاً ، أو صفة لموصوف محذوف أي إيماناً حقاً .

المعنى :

(يسألونك عن الأنفال) . ذكر سبحانه في هذه الآية ان قوماً سألوا النبي (ص) عن الأنفال ، ولم يبين المراد منها ، واتفق أهل العلم بالدين على ان أية كلمة ترد في كتاب الله وسنة نبيه من غير تحديد لمعناها فانها تحمل على المعنى الذي يفهمه الناس من الكلمة ، فان لم يعرف الناس لها معنى تعين الرجوع الى قواميس اللغة . وتقول هذه القواميس : النفَل الغنيمة والزيادة بوجه عام من غير تحديد لنوعها ، ومن هنا اختلف المفسرون في المراد بالأنفال : هل هي جميع الغنائم ، أو هي غنائم بدر ، أو غيرها ؟.

أما الشيعة الإمامية فقالوا : لا مبرر لهذا الاختلاف لأنه ثبت في السنة النبوية برواية أهل بيت الرسول (ص) ان المراد بالأنفال الأرض التي تؤخذ من غير المسلمين بلا قتال ، والأرض الموات ، سواء أكانت مملوكة ثم باد المالك ، أم لم تكن ، ورؤوس الجبال وبطون الأودية ، والأحراج ، وكل ما اختص به سلطان الحرب ، على شريطة أن لا يكون مغتصباً من مسلم أو معاهد ، وميراث من لا ميراث له .

ويتفق هذا مع مذهب المالكية لأنهم فسروا الأنفال بما أُخذ بغير قتال (احكام القرآن لأبي بكر المالكي المعروف بابن العربي المعافري) . وقال أبو اسحق الفيروزبادي الشافعي في كتاب المهذب : « الأنفال أن ينفل أمير الجيش لمن فعل فعلاً يفضي الى الظفر بالعدو ، كالتجسس والدلالة على طريق أو قلعة ونحو ذلك » . وقال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن : « قال أصحابنا : أن يقول الأمير : من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أصاب شيئاً فهو له » .

(قل الأنفال لله والرسول) . هذا بيان لمحل الأنفال ، وانها لله ورسوله ،

وما كان لله فهو لرسوله ، وما كان لرسوله يُنفق لاعلاء كلمة الإسلام ، وصالح المسلمين ، يأخذ منه كل ذي حاجة منهم على قدر حاجته . والتفصيل في كتب الفقه ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا « فقه الإمام جعفر الصادق » .

(فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) . هذا يشعر بأن الصحابة قد تنازعوا على الأنفال ، ولما سألوا النبي (ص) قال لهم بأمر من الله : انها لله والرسول ، وان عليهم أن يستسلموا لله ورسوله ، ولا يتنازعوا على الأنفال ولا على غيرها ، وان يتآلفوا ويتحابوا في الله ، كما هو شأن المؤمنين حقاً .

ثم أوضح لهم جل ثناؤه بأن المؤمنين حقاً من اتصفوا بالأوصاف التالية :

١ — (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . فالخوف لا ينفك أبداً عن اسم الله عند المؤمنين بلقائه وحسابه وجزائه ، ولكنهم في الوقت نفسه يرجون رحمة الله ، لأنهم يؤمنون أيضاً بقوله : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » . وقوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » . ومما قاله الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين : فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . وقال الشاعر في وصفهم :

تعادل الخوف فيهم والرجاء فلم   يفرط بهم طمع يوماً ولا وجل

٢ — (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) بأنهم على بصيرة من دينهم ، تماماً كما لو رأوا الغيب رأي العين ، بل قد يشكون فيما تراه العين لأن الحواس تخدع صاحبها بعض الأحيان ، فيظن السراب ماء ، والورم شحماً ، أما قوله تعالى فلا يتطرق اليه الشك واحتمال الخلاف .

الدين لا ينبت قمحاً :

٣ — (وعلى ربهم يتوكلون) . وليس معنى التوكل عليه تعالى أن نقول

بألسنتنا توكلنا على الله . ولا أن نترك الأسباب والعمل اتكالاً على ان يسخر لنا الأشياء ، ونحن قاعدون ، وانما التوكل ان نسعى كما أمرنا الله راجين التوفيق منه في سعينا مؤمنين بأن العمل شرط أساسي للتوكل ، وانه عبادة وطاعة لقوله تعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » .. ان الإيمان والتوكل على الله من غير عمل لا ينبت قمحاً ولا يشفي مريضاً ، وإلا لم يخلق الله للانسان يدين ورجلين من أجل العمل .. نعم ، ان الدين الحق ينبت الحب والاخلاص والاستقامة ، وليس الخبز والدواء .. حتى العلم لا يعطينا القمح ، ولا يشفينا من المرض ، وانما يعلمنا كيف نزرع القمح ونصنع الدواء ، ولا يعنيه بعد هذا متنا من الجوع والمرض أو لم نمت ، أما الدين فهو الحريص على حياتنا ومن أجلها يحثنا على العلم والسير على منهجه ، ويعتبر اهماله جريمة اذا أدى الى الفساد والضرر .. ان العلم يرسم الخطوط لحياة راضية مرضية : وهذا ما يهدف اليه الاسلام ، ومن أجله أمر بالعلم وحث عليه تماماً كما أمر بالصيام والصلاة ، ويعاقب من يستغل العلم للنهب والعدوان كما يعاقب من يحرف الدين لمنافعه الشخصية . والخلاصة إذا صح ان الانسان لا يحيا بالخبز وحده فصحيح أيضاً ان الانسان لا يحيا بالصلاة وحدها .

٤ و ٥ - (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) . الأوصاف السابقة من أحوال القلب ، والصلاة والزكاة من أفعال الجسم ، وهما نتيجة حتمية للإيمان بالله ، والخوف منه ، والتوكل عليه . فتارك الصلاة والزكاة لا يعد من المؤمنين حقاً ، والدليل قوله تعالى :

(أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) . أولئك اشارة الى الذين جمعوا بين الصفات الخمس ، والمؤمنون حقاً هم الذين ينعكس الإيمان في أفعالهم ، لا في أقوالهم فحسب ، والدرجات عند الله تتفاوت تبعاً للجهاد والتضحية . وأعلاها لمن ينتفع الناس بهم . ويتحملون الكثير ليعيش عيال الله جميعاً في ظل الأمن والعدل والخصب ، والمغفرة التجاوز عن الهفوات والرزق الكريم الجنة .

كما أخرجك ربك الآية ٥ ـ ٨ :

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ★ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ★ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ★ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ★

اللغة :

المراد بالشوكة هنا القوة ، والطائفتان هما العير والنفير ، والنفير ذات الشوكة والعير غير ذات الشوكة ، ويأتي التوضيح . ودابر القوم آخرهم .

الإعراب :

كما متعلق بمحذوف دل عليه السياق ، والتقدير ان القتال حق كما أخرجك من بيتك بالحق، وكما كره فريق اخراجك من بيتك فقد كره أيضاً فريق القتال. وإذ يعدكم (إذ) منصوب بفعل محذوف أي اذكروا اذ يعدكم . وإحدى مفعول ثانٍ ليعدكم ، ونسبك انها لكم بمصدر في موضع نصب بدل اشتمال من إحدى أي يعدكم احدى الطائفتين ملكيتها . والمعنى ملكية احدى الطائفتين ، تماماً كما تقول : أعجبني زيد ثوبه أي ثوب زيد .

الى بدر :

بُعث النبي (ص) وهو ابن اربعين ، وأقام بمكة بعد البعثة ١٣ سنة ، ثم

هاجر الى المدينة فدخلها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، وأقام فيها عشر سنوات، وانتقل إلى ربه وهو ابن ٦٣ سنة يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، ولما استقر به المقام في المدينة أخـذ يرسل السرايا تعترض قوافل المشركين ، وتستطلـع أخبارهم ، وتقلق راحتهم ، قال المسعودي : كانت غزوات النبي التي قادها بنفسه ٢٦ قاتل منها في تسع .

ونشير هنا الى خروجه لبدر لأنها موضوع الآيات التي نحن بصددها ، وفي هذه الغزوة ظهرت أول قوة للمسلمين ترد بها على قوة المشركين الذين ظلوا يطاردون المسلمين بالتنكيل والأذى أكثر من ١٣ سنة ، والمسلمون يتلقون التنكيل بالاحتمال ، والأذى بالصبر ، لأن المقاومة مع الضعف الذي كانوا فيه أشبه بعملية الانتحار ، وتتلخص قصة الخروج الى بـدر بأن رسول الله (ص) سمع بأن أبا سفيان رجع من الشام بقافلة ضخمة جهزتها قريش بالكثير من أموالها ، وكان من جملة هـذه الأموال مـا استولت عليـه قريش من أموال المهاجرين الذين نفتهم من مكة .

فجمع النبي الصحابة ، وحثهم على الخروج ليصادروا أموال القافلة ، فتثاقل البعض وكره الخروج رهبة من قريش وشوكتها ، ثم مضوا مع النبي ، وكان ذلك في ١٧ رمضان للسنة الثانية من الهجرة ، ولم يدر بخلد واحد من الصحابة انه مقبل على معركة من أعظم معارك المسلمين ، وأبعدها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وأرسل يهود المدينة الى أبي سفيان من ينذره ، وهو في الطـريق ، فبعث أبو سفيان يطلب النجدة من قريش ، فخرجت برجالها ، ولم يبق أحد قادر على حمل السلاح في مكة ، وكان المسلمون اذ ذاك ما يزالون في طريقهم الى بدر ، ولكن أبا سفيـان تحول عنها الى ساحل البحر الأحمـر ، وأتى النبي (ص) نبأ قريش ، فاستشار (ص) الصحابة يمضون لقتال قريش ، أو يعودون الى المدينة؟ وفي الوقت نفسه قال لهم : ان الله وعده باحدى الطائفتين إذا مضوا للقتال ، والطائفتان هما العـير المحملة بالأموال ، والنفير وهم قريش الذين خرجوا من مكة لحماية الأموال ، فأشار الأكثرون بالمضي للقتـال ، وكرهه البعض ، كما

كره الخروج من المدينة منذ البداية ، ثم أجمعوا على لقاء قريش .

وعندها قال لهم النبي (ص) : سيروا على بركة الله ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ، فتأهبوا لخوض المعركة ، وابتدأت بها قريش ، وكان عددها حوالى الف مقاتل بينهم مئة فارس ، والمسلمون نحو ٣٠٠ ليس فيهم إلا فارس وقيل اثنان . وقتل المسلمون من المشركين ٧٠ وأسروا ٧٠ ، وفر الباقون ، واستشهد من المسلمين ١٤ ولم يؤسر أسير ،وكانت هذه الغزوة أول نصر للمسلمين تغيرت بعدها أوضاعهم ، وانحاز الكثير إلى جانبهم ، وأصبحوا يقابلون القوة بالقوة والعنف بالعنف بعد أن كانوا يتلقونه بالسكوت أو الفرار من الوطن .. بعد هذا التمهيد نشرع بتفسير النصوص .

المعنى :

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقاً من المؤمنين لكارهون) . المراد بالبيت المدينة .. حين أراد النبي (ص) الخروج من المدينة لمصادرة العير تثاقل جماعة من المؤمنين ، وقالوا : لا طاقة لنا بقريش ، ثم خرجوا على كره مع من خرج على حب ، وفي أثناء الطريق أخبرهم النبي بخروج قريش من مكة ، واستشارهم : أيمضون للقتال ، أو يعودون الى المدينة ، فكره البعض القتال ، وقالوا : ما كان خروجنا إلا للعير ، وقال الأكثر : نمضي معك للقتال . ثم مضوا جميعاً الى المعركة على بركة الله . وهذه الآية تشير الى موقفين لبعض الصحابة : الأول كراهية الخروج من المدينة الى العير . والثاني كراهية المضي لقتال النفير بعد أن خرجوا من المدينة قاصدين العير ، وانهم كما كرهوا الخروج الى العير فقد كرهوا أيضاً المضي لقتال النفير .. هذا هو معنى الآية ، وهو واضح وبسيط، ولكن المفسرين حاروا في تفسيرها ، وذكر صاحب البحر المحيط خمسة عشر قولاً .

ومن الطريف ما قاله هذا المفسر في كتاب آخر : انه ذكر في البحر المحيط ١٥ قولاً للآية،ولم يقتنع بشيء منها،حتى رأى في النوم انه يمشي في رصيف ومعه رجل يباحثه في قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك) فقال له : ما

مر بي شيء مشكل في القرآن مثل هذا .. ولعل هناك محذوفاً يصح به المعنى ما وقفت فيه لأحد المفسرين على طائل ، ثم قلت للرجل : ظهر لي الساعة ان ذاك المحذوف هو نصرك .

وما أردت بذكر ما حدث لهذا المفسر الجليل ان أمس من مكانته ، وانما أردت التدليل على ان العالم الفطن قد تُسد أحياناً في وجهه نوافذ الفطنة ، فتلجئه الحيرة إلى التشبث بكل شيء .. حتى بالأحلام يفسر بها القرآن ، وهو في واقعه في فطرته على يقين من خطأه ، دون أن يلتفت الى هذا الواقع ، وهنا مكان الغرابة .. كيف يكون على يقين ، وهو غير ملتفت ؟. ولكن هذا هو الواقع.. والدليل انه لو رأى من غيره ما ارتضاه لنفسه لأنكر عليه .

(يجادلونك في الحق بعد ما تبين) جادل فريق من المؤمنين في لقاء النفير وقتاله . مع ان هذا اللقاء والقتال حق وخير ، وآثروا العير لأنها أكثر أموالاً ، وأقل رجالاً .. وقوله تعالى : (بعد ما تبين) يشير إلى أنهم جادلوا بعد أن أخبرهم النبي (ص) بالنصر (كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون) الى الموت وأسبابه عياناً ، وهذه صورة يرسمها القرآن لشدة خوفهم من قريش ، لأنها أقوى عدة ، وأكثر عدداً .

وتسأل : ان المسلمين يقدسون البدريين ، ويرفعونهم إلى المكان الأعلى : وها هو القرآن يدين بعضهم صراحة ، وانهم جادلوا النبي على رغم بيان الحق لهم ووضوحه عندهم لأن الوحي نزل به وأخبرهم عنه الرسول الأعظم (ص) .

الجواب : ان هذا لا يحط من شأنهم ، ولا يمس من إيمانهم بالله ورسوله . إنهم بشر تهتز نفوسهم إذا رأوا الموت برغم إيمانها واطمئنانها ، هذا إلى انها غمامة صيف عرضت ، ثم تقشعت . ومضوا مع النبي ، وواجهوا الموت بعزم وثبات .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) : إما الانتصار في الحرب على قريش ، ولا عير ، وإما العير ، ولا انتصار (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) غير ذات الشوكة هي العير وأموالها ، وقد آثروها على القتال والجهاد في سبيل الله ، ولكن الله أراد الخير لهم وللاسلام بتحطيم الشرك والطغيان (ويريد

الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) . المراد بالحق هنا ظفر المسلمين بالمشركين ، والمراد بكلماته وعده بأن تكون إحدى الطائفتين للمسلمين . والمعنى انكم أيها المسلمون أردتم الحطـام الزائـل ، وأراد الله أن ينصركم على صناديد قريش أعداء الله وأعدائكم ، ويهلكهم بأيديكم ، ويستأصل الكافرين منهم ، ويحقق وعده بالنصر لكم ، فأيهما خير وأفضل: هذه العزة والكرامة ، أو الأباعر وحمولتها ؟.

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) . المراد بالحق في الآية السابقة أي قوله تعالى : (ان يحق الحق بكلماته) انتصار المسلمين على قريش ، والمراد بالحق هنا الإسلام ، والمجرمون أعداؤه ، والمراد بالباطل الشرك. وإحقاق الحق يكون باظهاره وإعلانه على الملأ . أو بانتصار أهله . أو بهما معاً. وإبطال الباطل يكون باعلانه ، أو خذلان المبطلين ، أو بهما معاً ، وأوضح تفسير هذه الآية قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ــ ٣٣ التوبة » .

اذ تستغيثون ربكم الآية ٩ ــ ١٤ :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ★ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ★ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ★ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ

كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ★
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ★ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ★

اللغة :

مردفين من أردفه إذا ركب وراءه ، والمراد ان للألف من الملائكة تبعاً . أو ان الألف يأتي بعضهم في أثر بعض . والرجز الشيء المستقذر حساً أو معنى. والربط على القلب اطمئنانه . وفوق الأعناق الرؤوس . والبنان أطراف الأصابع من اليد أو الرجل . وشاقوا الله ورسوله خالفوهما .

الاعراب :

اذ تستغيثون (اذ) ظرف متعلق بمحذوف أي اذكروا اذ تستغيثون ، وقيل بدل من اذ يعدكم . ومردفين حال من ألف. والضمير في جعله يعود الى الامداد، وهو مصدر متصيد من (ممدكم) . وبشرى مفعول لأجله . ولتطمئن منصوب بأن مضمرة بعد اللام،والمصدر المنسبك معطوف على بشرى لأن المعنى إلا للبشارة وللاطمئنان . وفاعل يغشيكم ضمير مستتر يعود الى الله،والناس مفعول به ليغشيكم، وامنة مفعول لأجله . ذلك بأنهم شاقوا (ذلك) مبتدأ وبأنهم شاقوا خبر،والكاف لخطاب السامع . وذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي أمر الله أو عذاب الله ذلكم ، والخطاب للمشاقين .

المعنى :

(اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) .

لما تأكد المسلمون ان القتال واقع لا محالة مع عدو أقوى عدة ، وأكثر عـدداً التجأوا الى الله يطلبون منه النجاة من هذه الشدة ، ولما علم الله منهم صدق النية والعزم أنبأهم جل ثناؤه بلسان نبيه (ص) انه قد استجاب دعاءهم ، وانه ينجدهم بألف ملك يأتي بعضهم إثر بعض . وتسأل : قال سبحانه هنا : ممدكم بألف مردفين ،وفي الآية ١٢٤ من آل عمران قال: يمدكم بثلاثة آلاف منزلين ،وفي الآية التي بعدها بلا فاصل قال : بخمسة آلاف مسوّمين . فما هو وجه الجمع بين الآيات الثلاث ؟. وأجبنا عن هذا السؤال في ج ٢ ص ١٥٢ .

(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله ان الله عزيز حكيم) . يقول جلت عظمته: ان الغرض من هذا الامداد ان تطمئنوا وتصبروا في قتال العدو ، لا أن تتكلوا على الملائكة ، بل عليكم أن تبذلوا كل جهد ، ولا تُبقوا منه بقية ، أما النصر فلا يكون ولن يكون إلا بمشيئة الله ، لا بجهودكم ولا بامداد الملائكة . وتقدمت هذه الآية في سورة آل عمران رقم ١٢٦ ج ٢ ص ١٥٢ .

ثم ذكر سبحانه ستة وجوه لنعمته على المسلمين .

١ – (اذ يغشيكم النعاس امنة منه) . في يغشيكم ضمير يعود الى الله ، وكذلك ضمير (منه) .. خاف المسلمون من المشركين لكثرتهم ، فعالج خوفهم بالنوم ، وما استيقظوا منه إلا وأنفسهم تغمرها السكينة ، وكلنا يعلم بالتجربة ان النوم يخفف الكثير من وطأة الحزن والخوف . قال الإمام علي(ع): ما انقض النوم لعزائم اليوم . أي قد يعزم المرء على أمر فإذا نام وقام انحلت عزيمته .

٢ – (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) . بعد أن أخذ المسلمون قسطاً من الراحة بالنوم وجدوا أنفسهم بحاجة الى الماء ، لأنهم لم يكونوا قد وصلوا الى بدر آنذاك ، فأنزل الله عليهم المطر فشربوا وتطهروا ، وهذه نعمة ثانية تأتي بعد النوم .

٣ – (ويُذهب عنكم رجز الشيطان) . كان الشيطان يوسوس للمسلمين ، ويخوفهم من المشركين ، وقد أذهب الله هذا التخويف الذي عبر عنه برجز الشيطان ، اذهبه بالنوم والامداد بالملائكة .

٤ — (وليربط على قلوبكم) بزوال الخوف والفزع .

٥ — (ويثبت به الأقدام) . قال أكثر المفسرين : ان ضمير به يعود الى الماء ، وان المراد بالأقدام الأرجل ، وذلك ان المسلمين كانوا في رملة لا تثبت فيها قدم ، فلما نزل المطر تلبدت الرملة وتماسكت ، وثبتت عليها أقدام المسلمين .

هذا ما جاء في أكثر التفاسير ، أما نحن فنختار ان ضمير به يعود إلى مصدر متصيد من ليربط قلوبكم ، وان المراد بتثبيت الأقدام الثبات في ميدان القتال ، وعدم الفرار منه ، والمعنى ان الله يثبتكم في القتال بما منحكم من ربط القلوب واطمئنانها .

٦ — (إذ يوحي ربك إلى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) . الخطاب في (ربك) لمحمد (ص) وفي (معكم وثبتوا) للملائكة عملاً بظاهر السياق ، أي ان الله مع الملائكة يسمع ويرى ، تماماً كقوله لموسى وهرون : « انني معكما أسمع وأرى — ٤٦ طه » .

وتسأل : على أي شكل شارك الملائكة في نصرة المسلمين يوم بدر ؟ هل كانت بالضرب والقتل ، أو بالتشجيع ، وانهم كانوا يسيرون أمام الصف في صورة الرجال المقاتلين ، ولا يقاتلون ، وإنما يقولون للمسلمين : ابشروا فان الله ناصركم ، كما قال بعض المفسرين .

الجواب : لقد أخبر سبحانه انه أمر الملائكة أن يثبتوا المؤمنين . وليس من شك في انهم فعلوا ، لأنهم يفعلون ما يؤمرون ، وأيضاً ليس من شك ان المشركين هابوا المسلمين وتخوفوا منهم ، لأن الله وعد بذلك ، ووعده الحق ، وان المؤمنين انتصروا على المشركين .. هذا كل ما دل عليه ظاهر النص ، أما التفصيلات والكيفيات فهي من الغيب الذي سكت الوحي عنه ، فبالأولى أن نسكت نحن ، وسكوت الوحي دليل قاطع على ان الإيمان بالتفصيلات ليس من العقيدة في شيء ، وإلا وجب بيانها .

(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) . قال بعض المفسرين :

الخطاب في اضربوا للملائكة . وقـال آخرون : بل للمسلمين . ثم اختلفوا في المراد من فوق الأعناق ، فمن قائل : المراد الأعناق بالذات ، وان فوق بمعنى على ، ومن قائل : المراد الرؤوس ، ومن الطريف قول بعض الصوفية : ان المراد النفوس الخبيثة .. والذي نختاره نحن ان الخطاب للمسلمين لأنهم المقصودون بالقتـال ، وان قوله : فوق الأعناق وكل بنان كناية عن حث المسلمين على الشدة في قتال المشركين ، وان لا تأخذهم بهم هوادة ، ولا يدعوا فرصة تمر إلا ضربوهم في أي عضو من أعضائهم اتفق . فهذه الآية أشبه بقولـه تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله ــ ٢ النور » .

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب). ذلك اشارة إلى لزوم معاملة المشركين بالشدة ، وبأنهم بيان للسبب الموجب لهذه الشدة ، وهو وقوف المشركين من الله والرسول موقف المخالف والمعاند (ذلكم فذوقوه) ذا اشارة الى العقاب الشديد وخطاب (كم) للذين شاقوا الله والرسول (وان للكافرين عذاب النار) الى جانب ما أصابهم في الدنيا من القتل والأسر والهزيمة ، وليست هذه بشيء بالقياس الى النار الكبرى .

الفرار من القتال الآية ١٥ ــ ١٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ★ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ★ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ★ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ★ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ★

اللغة :

الزحف الدنو قليلاً قليلاً . والأدبار جمع دبر ، وهو الخلف ، والمراد به هنا الهزيمة . وقال صاحب البحر المحيط : المتحرف للقتال هو الذي يكر بعد أن يفر يُري عدوه انه منهزم ، ثم يعطف عليه . ومتحيزاً الى فئة منحازاً الى جماعة من المسلمين . والمأوى الملجأ . والموهن المضعف .

الإعراب :

زحفاً حال من الذين كفروا أي زاحفين . والأدبار مفعول ثان لتولوهم . ومتحرفاً أو متحيزاً حالان من الواو في تولوهم . ذلكم خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلكم . وتسبك ان الله موهن بمصدر خبراً لمبتدأ محذوف أي الأمر كون الله موهناً كيد الكافرين ، والجملة عطف على جملة الأمر ذلكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار) . يقال : زحف العسكر إذا توجه للقتال ، وسبق ان المشركين خرجوا من مكة لقتال المسلمين ، وهذه الآية من تعاليم الحرب ، وهي تأمر المسلمين أن يثبتوا لعدوهم ، ولا يفروا منه إذا زحف لقتالهم ، لأن الفرار وهنٌ في الدين ، وذلٌ للمسلمين .

(ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب

من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . الا متحرفاً لقتـال أي تاركاً موقفه إلى موقف أحكم وأصلح للقتال ، أو متحيزاً إلى فئة أي منحازاً إلى جماعة أخرى من المسلمين تقاتل العدو لأنهم بحاجة اليه ، أو هو بحاجة اليهم ، والمعنى اثبتوا أيها المسلمون لعدوكم في المعركة ، ولا تفروا منها الا أن تختاروا موقعاً أحسن ، أو تدبروا خطة أحكم بانضمام بعضكم إلى بعض، وان من فر من العدو بلا مبرر فقد استحق غضب الله ومأواه جهنم .

وقد أفتى الفقهاء بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عــدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وفي رأينا ان الفقهــاء لا يملكون هنا الفتوى بوجوب الثبات ، ولا بجواز الفرار ، وان الأمـر في ذلك يجب أن يترك لتقدير القائد الأمين الخبير ، لأنــه هو المسؤول عن الحرب ، وليس الفقهاء ، فيجب أن يترك له تقدير وجوب الثبات أو الفرار ، فقد يرى الثبات مع زيادة عدد العدو ثلاثة أضعاف ، وقد يرى لزوم الفــرار والانسحاب من المعركة مع زيادة عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة ، لأن الثبات عملية انتحارية ، وفي جميـع الحالات يجب الأخذ بقوله ، لا بقول الفقهاء الذين يفتون ، وهم على الوسائد متكئون .. هذا ، إلى أن قول الفقهاء في الحروب قد ذهب بذهاب وقته الذي كانت تقاس فيه القوة بالكم لا بالكيف ، وبعدد الجيش لا بمعداته الجهنمية الحديثة .

(فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) . انتصر المسلمون ببـدر على المشركين ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأسروا من أسروا ، وسبب هذا الانتصار ثبات المسلمين وصبرهم في القتال ، أما سبب هذا الثبــات والصبر فهو ما أشارت اليه الآيات السابقة من ان الله ربط على قلوب المسلمين ، وثبت أقدامهم، وأمدهم بالملائكة ، وأزال الرعب من قلوبهم وألقاه في قلوب المشركين .. وعلى هذا تصح نسبة قتل المشركين إلى المسلمين لأنه كان بأيديهم ، وبسبب ثباتهم وصبرهم ، وأيضاً تصح نسبته إلى الله تعالى لأنه هو الذي مهد لهم لهذا الثبات والصبر بالاضافة إلى انـه سبب الأسباب .. وفي رواية ان بعض المسلمين قال يوم بدر أنا قتلت فلاناً . وقال آخر : وأنا قتلت فلاناً . فأنزل الله سبحانه : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . أجل ، ان الله رمى ، ولكنـه

اختار لرميته كف محمد (ص) الذي فضله على جميع خلقه ، وخصه برسالته التي عمت رحمتها جميع العالمين . وروي ان النبي أخذ يوم بدر قبضة من الحصى أو التراب ، ورمى بها المشركين ، وقال : شاهت الوجوه،وأعقب ذلك هزيمتهم. وغير بعيد أن تكون هذه الرواية صحيحة ، وأيضاً غير بعيد أن يكون المراد بالرمية تدبير الأمر وأحكامه ، ومهما يكن ، فان مشيئة الله هي سبب الأسباب، بها وجد محمد (ص) والحصى والكون بما فيه ، فان أي سبب مباشر أو غير مباشر لأية حادثة من الحوادث فانها تنتهي إلى قوة عليا وجدت من غير موجد، وإلا كانت كلمة الوجود لفظاً من غير معنى ، تماماً كما لو قلت : لا أحد يعطي المال ، حتى يأخذه من غيره فان هذا تعبير ثانٍ عن قولك : لا أحد يعطي المال على الاطلاق ، لأنك نفيت الأصل الذي يعطي ولا يأخذ . وبانتفاء الأصل ينتفي الفرع .

(وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً) . البلاء والابتلاء يستعملان بمعنى الاختبار ويكون الاختبار بالنعمة لاظهار الشكر ، وبالمحنة لاظهار الصبر ، وأيضاً يستعمل كل من البلاء والابتلاء بالاعطاء ، وهذا المعنى هو المراد بالبلاء في الآية ، أما المراد بالحسن فهو النصر والغنيمة، أي ان الله سبحانه أمر المسلمين بالثبات والصبر وعدم الفرار من الزحف ، ومهد لهم السبيل الى ذلك ليتم عليهم نعمته بالنصر والغنيمة (ان الله سميع عليم) . فقد سمع استغاثة المسلمين واستجاب لهم لأنه علم منهم صدق النية وصحة العزم .

(ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين) . ولا نعمة أجل وأعظم من ضعف العدو ، وإبطال كيده وحيله (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وان الله مع المؤمنين) . الخطاب في أن تستفتحوا وان تنتهوا وان تعودوا وفي لكم وعنكم وفئتكم ، كل اولاء للمشركين بقرينة السياق واستقامة المعنى . وروي ان المشركين حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله ، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين . فأجابهم الله بقوله : ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح الخ . أي إن تستنصروا للاعلى والأهدى فقد استجاب الله ونصر

الأعلى والأهدى ، فان انتهيتم عن حرب المسلمين ومشاقة الله والرسول فالانتهاء خير لكم وأبقى بعد أن ذقتم من القتل والأسر والهزيمة ما ذقتم ، وان عدتم إلى الحرب والمشاقة يحل بكم ثانية ما حل بكم أولاً . أما الكثرة التي تعتزون بها فقد رأيتم انها لا تدفع عنكم القتل والأسر والهزيمة ، فان الله هو الناصر ، وهو مع المؤمنين ، فان أردتم النصر حقاً فدعوا الشرك ، وآمنوا بالله ورسوله .

طاعة الله والرسول الآية ٢٠ ـ ٢٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ★ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ★ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ★ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ★

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) جاء هذا النداء منه تعالى للمؤمنين بعد قوله : (وان الله مع المؤمنين) والغرض من النداء والأمر بطاعة الله والرسول هو تحديد المؤمن الذي ينصره الله ، ويكون معه أينما كان ، وانه الذي يطيع الله ورسوله فيما يأمران به ، وينهيان عنه ، وان من خالف وعصى فقد استحق من الله العذاب والخذلان (ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون) . التولي الاعراض ، وضمير عنه يعود الى الرسول ، ومفعول تسمعون محذوف أي تسمعون كتاب الله وآياته .

(ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . يستعمل السماع كثيراً

في القبول،ومنه : لا أسمع منك أي لا أقبل منك . وسماعون للكذب أي قابلون له،وهذا المعنى هو المراد بالسماع في الآية،أي ان الله سبحانه نهى المؤمنين أن يكونوا كالمنافقين يظهرون القبول من النبي والطاعة لأمره ، ويضمرون المخالفة والعصيان.

(ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . الأصم لا يسمع ، والأبكم لا يتكلم ، والدواب لها آذان تسمع بها ، ولكنها لا تفهم الكــلام الذي تسمعه ، ولها ألسنة ولكنها لا تنطق ، فهي لا تَفهم ولا تُفهم ، ومـن يسمع كلام الله والرسول ، ثم لا يهتدي به فمثله كمثل الدابة الصماء البكماء تسمع الكلام ولا تنتفع به .

طالب حق وطالب صيد :

(ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون). الناس اثنان : الأول طالب حق،مجرداً عن كل غايـــة .. وهذا لا يؤمن بمبدأ ، ولا يرى رأياً إلا بعد البحث وامعان النظر في الأدلة ، ثم يبني آراءه عليها .

والثاني طالب صيد لا يؤمن إلا بذاته ومصالحه ، فيرحب بما يلائمها ، وان كان باطلاً ، ويرفض ما ينافيها ، وان كان حقاً .

والله سبحانه يُسمع دعوة الحق لكل من الاثنين على السواء القاء للحجـــة ، قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » وبعد البيـان الذي تم به الحجة على الجميع يزيد سبحانه من النصح والارشاد للذين يستجيبون له وينتفعون به : « والذين اهتدوا زادهم هدى – ١٧ محمد » . أمـا الذين لا يستجيبون إلا لمنفعتهم الذاتية فان الله يعرض عنهم ، ما دام النصح لا يجدي معهم شيئاً . وهذا هو المراد من قوله : (ولو علم فيهم خيراً لأسمعهم) .. ويدل على ذلك قوله بـــلا فاصل : (ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) أي لو أسمعهم الحق لأعرضوا عنه لأنه لا يلائم أهواءهم .

الدين والدعوة الى الحياة الآية ٢٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ★

إذا في قوله تعالى : (إذا دعاكم لما يحييكم) ليست للشرط ، وانما هي لبيان موضوع دعوة الله والرسول ، وتقريرها وحصرها بالدعوة إلى الحياة بأكمل معانيها .

ومن أحاط بالإسلام علماً يجد ان كل أصل من عقيدته . وكل فرع من شريعته يرتكز على الدعوة صراحة أو ضمناً الى العمل من أجل الحياة .. فالإيمان بالله يستدعي الإيمان بالتحرر من العبودية إلا لله وحده ، وبأنه لا سلطان للمال ولا للجاه ولا للجنس ولا لشيء إلا للحق والعدل ، وبديهة ان الحياة الطيبة القوية لا توجد ، ومحال ان توجد إلا مع الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه . أما الإيمان برسالة محمد (ص) فهو عين الإيمان بشريعة الإخاء والمساواة ، وبحرية الانسان وحمايته،وبكل مبدأ يعود على الانسانية بالخير الصلاح .. ذلك بأن رسالة محمد تهدف الى هدي البشر واسعاده ، وبث العدل بين أفراده ، أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بأن الانسان لا يُترك سدى ، وانه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله يحاسَب عليها ويكافأ ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .. وهذا الإيمان – كما ترى – أشبه بالقوة التنفيذية ، أو بالحافز على العمل بما يوجبه الإيمان بالله والرسول .

هذا فيما يعود الى أصول العقيدة ، أما الفروع . وأعني بها ما يجوز من الأفعال ، وما لا يجوز في الشريعة الاسلامية فانها تقوم على مبدأ انساني أشار اليه الإمام جعفر الصادق (ع) بقوله : كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات فهو جائز ، وكل ما فيه فساد بجهة من الجهات فهو غير جائز .. هذه هي دعوة الله والرسول التي نص عليها القرآن بصراحة ووضوح : « استجيبوا لله

وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . وإذا عطفنا على هذا النص الآية ٣٢ من آل عمران : « قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » إذا عطفنا هذه الآية على تلك ، وجمعنا بينهما تشكل معنا هذا القياس المنطقي : لقد دعا الله والرسول إلى العمل من أجل الحياة ، وحكم سبحانه بكفر من أعرض وتولى عن هذه الدعوة . فالنتيجة الحتمية ان الذي لا يعمل من أجل الحياة فهو كافر [١] .

وبهذا يتبين معنا ان الإسلام يسير مع الحياة جنباً الى جنب ، وان كل ما هو بعيد عن الحياة فما هو من الإسلام في شيء ، وان أي انسان — كائناً من كان — يدعو الى حياة لا استغلال فيها ولا ظلم ولا مشكلات فان دعوته هذه تلتقي مع دعوة الله والرسول ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد . وان من يقف في طريق الحياة وتقدمها فهو عدو لله وللرسول ، وان قام الليل ، وصام النهار.. أما تلك الزمرة التي ظهرت في عصرنا ، وباعت دينها للصهيونية والاستعمار ، وتسترت باسم الدين ، اما هذه الزمرة العميلة فقد أشرنا اليها في ج ٢ ص ١٦٦ عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران » .

(واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون) . القلب محل الايمان والكفر . والاخلاص والنفاق ، والحب والبغض ، وعنه تصدر الأعمال خيرها وشرها ، ولولا القلب لم يكن الانسان انساناً ، وكفى به عظمة قوله تعالى : ما وسعتي أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، وما من شك ان الذي يتسع لما ضاقت عنه السموات والأرضين فهو أعظم منها .

وتسأل : كيف اتسع هذا العضو الصغير لمن ضاقت عنه السموات والأرضون ، ثم لماذا خص تعالى قلب المؤمن دون قلب الكافر ؟.

الجواب : ليس المراد بالسعة في هذا الحديث القدسي السعة المكانية ، لأن الله

---

١ عند تفسير الآية ٤٧ من المائدة ذكرنا ان الكفر اذا أضيف الى العمل فالمراد به الفسق ، وان الفسق اذا أضيف الى العقيدة فالمراد به الكفر ، وعليه يكون المراد بكفر تارك العمل من أجل الحياة الكفر العملي ، لا الكفر العقائدي .

لا مكان له ، وانما المراد بها سعة الادراك والفهم عن الله . وان قلب المؤمن يفهم عنه تعالى ما لا تفهمه السموات والأرض ، وكذلك قلب الكافر لا يفهم عن الله شيئاً ، لأنه في كنّ من الضلال والفساد : « وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ــ ٥ فصلت » .

وبهذا يتضح ان المراد بالمرء الذي يحول الله بينه وبين قلبه هو الذي أعماه الهوى والضلال ، وعليه تكون هذه الآية بمعنى الآية ٧ من سورة البقرة : « ختم الله على قلوبهم » أي انهم لا ينتفعون بقلوبهم بسبب ما ران عليها من الضلال ، حتى كأن الله قد ختم عليها أو حال بين أصحابها وبينها .. وعلى هذا تكون نسبة الختم والمنع اليه تعالى مجازاً ، لا حقيقة .

وذهب جماعة من المفسرين الى ان معنى قوله تعالى : (يحول بين المرء وقلبه) ان القلب في قبضة الله يقلبه كيف يشاء ، فيفسخ عزائمه . ويبدله بالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وبالخوف أمناً ، وبالأمن خوفاً .. وكل من التفسيرين محتمل .

واتقوا فتنة الآية ٢٥ ــ ٢٩ :

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ★ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ★ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ

لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ★

اللغة :

للفتنة معان ، منها العذاب . وهو المراد من الفتنة في قوله تعالى : « واتقوا فتنة » بدليل قوله في نفس الآية : « ان الله شديد العقاب » . أما الفتنة في قوله : « انما أموالكم وأولادكم فتنة » فان المراد منها المحبة والهوى الذي يصد عن الحق . ويجعل لكم فرقاناً أي هداية ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل .

الإعراب :

لا تصيبن نفي بمعنى النهي ، ولهذا دخلت على الفعل نون التوكيد ، والجملة صفة للفتنة . وتخونوا أماناتكم عطفاً على لا تخونوا الله والرسول .

المعنى :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) . هذا تحذير منه تعالى لكل مفتن يفسد في الأرض . بخاصة الذين يبثون الخلافات والنعرات الدينية ، ويقلقون راحة الآمنين ، ويعتدون على المستضعفين ، هذا تحذير منه تعالى بأن شرور الفتنة ومفاسدها لا تقتصر على الظالمين ، بل تعم المجتمع بكامله صالحه وطالحه .. وفي تفسير الطبري نقلاً عن السدي ، وهو مفسر كبير ، ان هذه الآية تنطبق على أصحاب الجمل الذين حاربوا علي بن أبي طالب وذكر الرازي عند تفسير هذه الآية : « ان الزبير كان يسامر رسول الله (ص) يوماً إذ أقبل علي رضي الله عنه فضحك اليه الزبير ، فقال له رسول الله :

كيف حبك لعلي ؟ فقال : يا رسول الله احبه كحبي لولدي أو أشد . فقال له الرسول : كيف أنت إذا سرت اليه تقاتله ؟ » .

وأيضاً في تفسير الطبري : « ان الزبير بن العوام قال : قرأنا هذه الآية زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فاذا نحن المعنيون بها » .

(واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) . الخطاب لصحابة الرسول(ص) يذكرهم الله تعالى بما كانوا فيه قبل الإسلام من الضعف والخوف ، والمهانة والفقر ، وبما هم عليه بعد الاسلام من الأمن والمنعة ، والغنى والعز ، لأنهم استجابوا لدعوة الحياة التي دعاهم اليها الله ورسوله ، والغرض من هذا التذكير أن يستمروا على الطاعة والاستجابة لدعوة الحياة ، ليعيشوا في ظلها أقوياء أعزاء .. وانهم متى أعرضوا وعصوا عادوا إلى ما كانوا فيه من الضعف والهوان كما هي حال المسلمين اليوم ، بخاصة العرب .

(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) . وليست خيانة الله والرسول بترك الصوم والصلاة فقط ، وإنما الخيانة العظمى هي خيانة الأمة والوطن ، هي أن يتولى الطغاة مركز القوة والقيادة ، ويتحكموا بالبلاد ومقدراتها ، وان نصبر عليهم وعلى طغيانهم ، ونسكت عن حربهم وجهادهم (وتخونوا أماناتكم) . أي ولا تخونوا أماناتكم . وقال كثير من المفسرين : ان هذا نهي عن خيانة الأمانة فيما بين الناس من المعاملات المالية .. وليس من شك ان رد الأمانة واجب ، وان خيانتها حرام ، ولكن من الخيانة ، بل من أعظمها عدم التعاون مع المستضعفين لاسترداد حقوقهم من الأقوياء الظالمين (وأنتم تعلمون) ولا أحد أجرأ على الله ممن يقدم على معصيته عالماً متعمداً .

(واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) . جاءت هذه الآية بعد النهي عن الخيانة للتنبيه إلى أن المؤمن لا ينبغي له أن يمنعه المال والولد عن القيام بواجبه تجاه الله والأمة والوطن ، والمراد بالفتنة هنا المحبة التي تصد عن الحق والخير . وقد روي عن النبي (ص) انه قال : « الولد ثمرة القلب ، وانه مجبنة مبخلة محزنة » ، تماماً كالمال ، فانه ثمرة عرق الجبين وكد اليمين ، وهو مجبنة لأن

صاحبه يجبن عن قول الحق وفعله خوفاً عليه . كما يجبن خوفاً على ولده ، وهو مبخلة لأن مالكه يبخل به حرصاً عليه كما يحرص على ابنه ، وهو محزنة لأن جامعه يحزن إذا أصيب به كما يحزن إذا أصيب بثمرة فؤاده . وأحسن ما قرأت في هذا الباب قول أعرابي في ولده :

أحبه حب الشحيح ماله　　قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا يريد بذله بدا له

(وأنّ الله عنده أجر عظيم) والعاقل يرغب في هذا الأجر العظيم،ويسعى اليه بالجهاد والعمل الصالح ، ولا يؤثر عليه مالاً يفنى ، وولداً لا يبقى .

(يا أيها الذين آمنوا إنْ تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً). كثيراً ما يقع الانسان فريسة للعاطفة ، فتُصور له الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً ، وأكثر ما يكون ذلك فيما يتصل بماله وولده ، حيث تبلغ العاطفة ذروتها ، ومن أجل هذا أمر سبحانه بالتقوى بعد أن حذر من الافتتان بالأموال والأولاد ، أما الفرقان أي الهداية التي يمنحها الله للمتقين ليميزوا بها بين الحق والباطل ، أما هذه الهداية فهي نتيجة حتمية للتحرر من الأهواء والأغراض ، لأن الهوى يُعمي ويُصم .. ونسب الله الهداية اليه لأنه هو الذي أقام عليها الدلائل ، ومن نظر اليها مجرداً عن كل غاية إلا طلب الهداية إلى الحق فإنه بالغها لا محالة .

(ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) . قال المفسرون: المراد بتكفير السيئات سترها في الدنيا ، وبالمغفرة الصفح عنها في الآخرة ، قالوا هذا فراراً من التكرار .. أما نحن فلا نفر من التكرار في القرآن ، وبينا وجهه في المجلد الأول والثاني .. والمعنى المراد من مجموع الآية أن من يتقي الله يمنحه الهداية والصفح والثواب ، وما ذلك على الله بكثير ، لأنه عظيم الأفضال ، وعطاؤه سهل المنال يبلغه كل طالب وراغب في مرضاته تعالى .

واذ يمكر بك الآية ٣٠ - ٣٥ :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ★ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ★ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ★ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ★ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ★ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ★

اللغة :

إذا نُسب المكر إلى الانسان فمعناه الحيلة والخداع ، وإذا نُسب الى الله فمعناه إبطال المكر . ليثبتوك أي يمنعوك من الحركة بالحبس أو شد الوثاق . والأساطير جمع اسطورة أي سُطرت في الكتب من غير تمحيص . المكاء التصفير بالفم . والتصدية التصفيق باليد .

الإعراب :

ان هـذا (ان) نافية . هذا هو الحق (هو) ضمير فصل لا محل له من

الاعراب . والحق خبر كان . واللام في ليعذبهم تسمى لام الجحود لمجيئها بعد النفي ، والفعل منصوب بأن مضمرة بعد اللام . والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقاً بمحذوف خبراً لكان . والتقدير ما كان الله مريداً لعذابهم . وما لهم مبتدأ وخبر . والمصدر المنسبك من ان لا يعذبهم منصوب بنزع الخافض، وقدره الطبرسي وأبو البقاء (في) والصحيح انه (من) والمعنى أي شيء يمنع من عذابهم وهم يصدون . وصلاتهم اسم كان ، ومكاء خبرها .

المعنى :

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) . في الآية السابقة ٢٦ ذكّر الله سبحانه المسلمين بنعمه عليهم.وفي هذه الآية ذكّر النبي (ص) بنعمه عليه،وذلك ان المشركين من قريش أجمعوا على الخلاص من محمد (ص)، واختلفوا في الوسيلة التي يتخلصون بها منه .. فمن قائل : نحبسه ونقيده ، وقال آخر : بل نخرجه من مكة ، ثم اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة رجلاً على أن يقتحم الجميع عليه بيته ، وهو نائم في فراشه ، ويضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل كلها ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب .. قال المفسرون ، ومنهم الطبري والرازي وأبو حيان الأندلسي : ان الله أوحى الى نبيه بذلك ، وأمره أن يخرج الى المدينة ، وأن يأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في مضجعه ، وبات علي في فراش الرسول ، واتشح ببردته ، ولما بادر القوم إلى المضجع أبصروا علياً فبهتوا . وأوصى النبي (ص) علياً أن يرد ودائع للناس كانوا قد أودعوها عند رسول الله .

وقوله تعالى : (ليثبتوك) يشير الى من قال : احبسوه وقيدوه . وقوله : (أو يخرجوك) يومىء إلى من أشار بإخراجه . وقوله : (أو يقتلوك) أراد به ما اتفقوا عليه من القتل .

(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) . أما مكر قريش فهو تآمرهم على قتل محمد (ص) بأسلوب يعجز الهاشميون عن الاقتصاص من قاتله . أما مكر الله فهو ابطال مكرهم وكيدهم بما دبر سبحانه من خروج النبي ، ومبيت علي

في فراشه . وتقدم الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من آل عمران ج ٢ ص ٦٦ .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا أساطير الأولين) . قالت قريش عن القرآن : انه أساطير ، وانها لو شاءت لقالت مثله ، قالت هذا ، وهي تعلم علم اليقين ان القرآن من عند الله ، لأنه تحداها والناس أجمعين على أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من يشاؤون . ولما عجزت قريش لجأت الى الافتراءات والمناورات تخفي عجزها وضلالها ، شأنها في ذلك شأن كل من عجز عن مجابهة الحق بالحجة والمنطق .

(وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) . قد تأخذ بعض الناس العزة بالاثم تعصباً لكبريائهم تماماً كما يتعصبون لدينهم أو أشد، حتى انهم ليؤثرون القتل على الخضوع للخصم وان كان محقاً ، ويستسلمون للهلاك والعذاب،ولا يتنازلون عن تعاليمهم وتقاليدهم وفي التاريخ الكثير من هؤلاء ، ذكر القرآن منهم فرعون وقوم نوح وغيرهم . وقالت قريش حين دعاها النبي (ص) إلى الإسلام : اللهم ان كان محمد محقاً في دعواه فأمطر علينا حجارة من السماء . أي انهم يفضلون الهلاك رجماً بالحجارة على أن يتبعوا محمداً ، وان كان نبياً مرسلاً من الله .

فأجابهم الله سبحانه بأن العذاب أمامهم ، وان الباب اليه مـــا زال مفتوحاً ، وإنما أمهلهم بعض الوقت لسبب واحد أشار اليه بقوله : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) . أي ان الله جل ثناؤه لا يعذب أهل مكة ، ومحمد بين أظهرهم اكراماً له ، وتعظيماً لشأنه .

(وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون).أي وهم يؤمنون برسالة محمد(ص) بعد أن قال عز من قائل : انه لا يعذب قريشاً ما دام محمـــد بينهم — قال : وأيضاً لا يعذبهم اذا آمنوا ، سواء أكان محمد بينهم،أم لم يكن ، فقوله تعالى: (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) بمعنى قوله : « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم — ١٤٦ النساء » ، ويدل على ارادة هذا المعنى قوله بلا فاصل: (وما لهم الا يعذبهم الله) . وقوله مخاطباً قريشاً : (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون).

وبكلمة بسيطة وواضحة ان معنى الآية انه تعالى لا يعذب قريشاً إذا كان محمد بينهم ، وأيضاً لا يعذبهم إذا أسلموا ، وعبّر عن الإسلام بالاستغفار لأنه من لوازمه. وبهذا يتضح انه لا حاجة إلى التأويلات التي ذكرها المفسرون بالإضافة إلى أنها تترك القارىء في ظلمات لا يهتدي الى شيء .

(وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) . ما لهم استفهام يتضمن معنى النفي . أي لا شيء فيهم من دين أو خلق يمنع من عذابهم ، فانهم الى جانب شركهم يصدون المسلمين عن عبادة الله في بيته الحرام . فما كان المسلم ، حتى النبي (ص) يوم كان بمكة يستطيع الصلاة في المسجد الحرام، دون أن يتحمل منهم الأذى والتنكيل ، وقد اتفقوا على صد النبي والمسلمين بالقوة عن العمرة عام الحديبية (وما كانوا أولياءه) أي ان المشركين ليسوا أصحاب المسجد الحرام ، ولا هم أولياء عليه ، بل هم أعداء الله وأعداء بيته فيجب طردهم ومنعهم عنه ، لأنهم يدنسونه برجسهم ونجاستهم، ومن أجل هذا حين قوي الاسلام منعهم من قربه : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا — ٢٨ التوبة » .

(ان أولياؤه الا المتقون) . أي لا يحق لأحد كائناً من كان أن يتولى المسجد الحرام إلا إذا كان براً تقياً إلى جانب إسلامه وإقراره بالشهادتين. فكيف المشرك والجاحد ؟ وموضوع الآية وان كان خاصاً بأولياء المسجد الحرام ، ولكن التقوى شرط في كل من يتولى المساجد والمقامات الدينية ، لأن السبب الموجب هو طهارة المكان وقداسته .. والغريب ان أكثر الذين يتولون أمر هذه المقامات هم شرار الخلق الذين يتقنون فن الاحتيال واللصوصية (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان الولي على المساجد والعتبات المقدسة يجب أن يكون براً تقياً ، وانه لا ولاية لفاسق .

وتسأل : ان قوله تعالى : (وما لهم الا يعذبهم الله) يشعر بأن الله قد عذب قريشاً ، مع العلم بأنه لم يحل بهم ما حل بقوم الأنبياء السابقين كعاد وثمود وقوم نوح ولوط وغيرهم ؟.

الجواب : إن الذين آذوا النبي والمسلمين من قريش قتلهم الله يوم بدر بأيدي المسلمين أنفسهم .. وقد كان من جملة القتلى أبو جهل وعقبة بن أبي معيط

والنضر بن الحارث وأمية بن خلف وغيرهم من صناديد قريش الذين كانوا يشتدون ويبالغون في أذى المسلمين . ونذكر من باب المثال أمية بن خلف . فقد كان يملك بلالاً مؤذن الرسول (ص) وكان أمية يعذبه في الرمضاء ، ويذيقه ألوان العذاب، وفي يوم بدر خرج أمية مع المشركين ، وخرج بلال مع رسول الله (ص) وما أن رأى بلال أمية حتى صرخ: هذا رأس الكفر لا نجوت ان نجا ، واجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من أمية بن خلف ، واندفع بلال يضرب أمية بالسيف حتى قتله ، وحمل رأسه على سيفه، وهو يرقص طرباً.

(وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) . المكاء التصفير ،والتصدية التصفيق ، وكأن سائلاً يسأل : إن قريشاً كانوا يصلون في المسجد الحرام، فكيف استوجبوا العذاب ؟ فأجاب سبحانه بأن صلاتهم كانت هرجاً ومرجاً لا خشوع فيها ولا خضوع ، لأنها كانت صفيراً بالأفواه ، وتصفيقاً بالأيدي (فذوقوا العذاب) الذي حل بكم يوم بدر ، وعذاب الآخرة أشد (بما كنتم تكفرون) ولو أسلمتم لسلمتم من عذاب الدنيا والآخرة .

ان الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ ـ ٤٠ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ★ لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ★ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ★ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ★ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ★

اللغة :

يركمه يضمه ويجعل بعضه فوق بعض . والمراد بالفتنة هنا الكفر .

الاعراب :

ليميز منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقاً بيحشرون . ويجعل ويركمه عطف على ليميز . وبعضه بدل بعض من الخبيث . وجميعاً حال من الهاء في فيركمه . ونعم المولى ونعم النصير المخصوص بالمدح محذوف أي الله ، وهو مبتدأ ، والجملة من الفعل والفاعل خبر مقدم .

المعنى :

(إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) . كان المشركون ينفقون أموالهم في قتال المسلمين ، وصد الناس عن الإسلام ، فبيّن سبحانه في هذه الآية أن تلك الأموال ستعود عليهم بالحسرة والخذلان في الدنيا ، والعذاب الشديد في الآخرة ،لأن النصر في النهاية لدين الله وأهله على الشرك وعبدة الأصنام .

(ليميز الله الخبيث من الطيب) . هذا تعليل وبيان للسبب الموجب لحسرة المشركين وخذلانهم ،وهو ان الله سبحانه عادل وحكيم ، ومن عدله ان لا يتساوى عنده الخبيث والطيب ، والمؤمن والكافر ، بل يميز كلاً عن الآخر ، ويعامله بما هو أهل له ، ومن أجل هذا يثيب الطيب ، ويرفع من شأنه في الآخرة ، وقد يجمع له بين ثواب الدارين ،ويخذل الخبيث المجرم ويعاقبه في الآخرة دار الحساب والجزاء ، وقد يعجل له نوعاً من العذاب في الدنيا حسبما تقتضيه حكمته .

(ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم) . المراد جنس الخبيث أي ما ينطبق عليه هذا الاسم بدليل قوله : (أولئك هم الخاسرون) والمعنى ان الله سبحانه يجمع الخبثاء غداً بعضهم فوق بعض متراكمين ،

ثم يلقي بهم في نار جهنم . كما يفعل الحطب بحزم الحطب في حبله ، ثم يجعله وقوداً للنار : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً – ١٥ الجن » . (أولئك هم الخاسرون) وأي خسران أعظم من أن يكون المرء بلحمه ودمه وقوداً لنار سجّرها جبارها لغضبه على من خان ربه وضميره!. اللهم إنا من عذابك خائفون، وبك لائذون ، وأنت كريم لا تطرد من استجار بكرمك . ولاذ إلى رحمتك .

(قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) . الخطاب للنبي (ص) يأمره الله به أن يعظ الكافرين ، ويقول لهم : ان باب التوبة مفتوح أمامهم ، وان الفرصة سانحة للانتهاء عن الكفر وعداوة الله والرسول . فإن تابوا تاب الله عليهم ، لأن الاسلام يجبُّ ما قبله ، كما جاء في الحديث (وان يعودوا) بعد التبين والتأمين الى عداوة الله والرسول ، والتجمع لحرب الإسلام وأهله، وانفاق الأموال للصد عن سبيل الله ورسوله (فقد مضت سنة الأولين) من أمثالهم الذين كذبوا الرسل وقاتلوهم ، والمراد بسنة الأولين سنة الله فيمن مضى من هلاك الكافرين ونصر المرسلين عليهم : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز – ٢١ المجادلة » .

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في ج ١ ص ٢٩٩ الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) . أي فان أعرض المشركون عن بيان الرسول وأمانه فاصمدوا لهم أيها المسلمون ولا تخافوهم ، فان الله ناصركم عليهم ، وحافظكم منهم ، وهو خير الحافظين والناصرين .

الجزء العاشر

فان لله خمسه الآية ٤١ :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

اللغة :

الغنيمة لغة الفوز بالشيء ، وشرعاً ما يأخـذه المسلمون بالقتال من أموال الكافرين ، هذا عند السنة ، أما الشيعة فمعنى الغنيمة عندهم أعم ، ويأتي البيان. واختلفوا في معنى الفيء على قولين : الأول انه الغنيمة ، والثاني المال الذي يؤخذ بغير قتال . أما النفل بفتح الفاء فقد تقدم الكـلام عنه في أول هذه السورة . والمراد بذي القربى قرابة الرسول (ص) . واليتيم من الانسان من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم . والمسكين المحتاج . وابن السبيل المسافر المنقطع في سفره .

الإعراب :

أنما غنمتم ان بفتح الهمزة تنصب الاسم وترفع الخبر و (ما) اسم موصول بمعنى الذي اسم أن ، وجملة غنمتم صلة ، والعائد محذوف أي غنمتموه ، ومن شيء متعلق بمحذوف حالاً من الضمير المحذوف أي قليـلاً أو كثيراً . وفأن بفتح الهمزة ، وخمسه اسم أن ، ولله خبر ، والمصدر المنسبك خبر لمبتدأ محذوف أي فالواجب كون الخُمس لله ، والجملـة من المبتدأ والخبر خبر أن الأولى ، والمصدر المنسبك من انما غنمتم مفعول اعلموا .

المعنى :

(واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . بحث المفسرون في جهات عديدة عند الكلام عن هذه الآية ، أما نحن فنقتصر على جهتين فقط أولاً لأن ظاهر الآية يدل عليها دون سائر الجهات . ثانياً ان الجهات الأخرى لا أثر لها من الناحية العملية . والجهتان اللتان نتكلم عنهما هما تحديد معنى الغنيمة . وبيان المستحقين للخمس .

وقد اختلف السنة والشيعة في المعنى المراد من الغنيمة في الآية، فقال السنة : هي ما يغنمه المسلمون من الكفار بقتال . وعلى قولهم هذا تكون مسألة الخمس عبارة عن قضية لا واقع لها من الناحية العملية في هـــذه الأيام ، تماماً كمسألة العبيد والاماء ، إذ لا دولة إسلامية تجاهد الكفار والمشركين في هذا العصر .

وقال الشيعة : ان الغنيمة أعم مما يأخذه المسلمون من الكافرين بقتال ، وانها تشمل المعدن كالنفط والذهب وغيرهما، وأيضاً تشمل الكنز المدفون تحت الأرض إذا لم يعرف له صاحب ، وتشمل ما يخرجه الانسان من البحر بالغوص كاللؤلؤ، وما يفضل عن مؤنة الانسان وعياله مما اكتسبه في سنته ، وتشمل المال الذي فيه حلال وحرام ، ولم يُعلم شخص الحرام ولا مقداره ولا صاحبه ، وتشمل الأرض التي يشتريها الذمي من المسلم ، والتفصيل في كتب فقه الشيعة ، ومنها الجزء الثاني من كتابنا فقـــه الإمام جعفر الصادق .. وعلى قول الشيعة تكون مسألة الخمس مسألة لها واقع من الناحية العملية .

وكما اختلف الشيعة والسنة في معنى الغنيمة فقد اختلفوا في عدد أسهم الخمس وتقسيمها على مستحقيها ، قال الشيعة : يُقسّم الخمس إلى قسمـــين ، والأول منها ثلاثة أسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذوي القربى ، ومـــا كان لله فهو للرسول ، وما كان للرسول فهو لقرابته ، وولي القرابة بعد النبي هو الإمام المعصوم القائم مقام النبي ، فان وجد أعطي له ، وإلا وجب انفاقه في المصالح الدينية ، وأهمها الدعوة الى الإسلام ، والعمل على نشره واعزازه . أما القسم الثاني فهو ثلاثة أسهم : سهم لأيتام آل محمد (ص) ، وسهم لمساكينهم،

وسهم لأبناء السبيل منهم خاصة ، لا يشاركهم أحد في ذلك ، لأن الله حرم عليهم الصدقات فعوضهم عنها بالخمس . وقال الطبري في تفسيره وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : « قال علي بن أبي طالب عليه السلام : اليتامى والمساكين أيتامنا ومساكيننا » . وقال الطبري في تفسيره أيضاً : « ان علي بن الحسين رضي الله عنه قال لرجل من أهل الشام : أما قرأت في الأنفال واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول وقرأ الآية . قال الشامي : نعم، وانكم لأنتم ؟. قال : نعم » .

أما مذهب السنة فندع الكلام عنه الى عالمين كبيرين : أحدهما من القدماء ، وهو الرازي ، والثاني من الجدد ، وهو المراغي أحد شيوخ الأزهر ورؤسائه في زمانه . قال الرازي : « القول المشهور ان ذلك الخمس خمسة أسهم : الأول لرسول الله ، والثاني لذوي قرباه من بني هاشم وبني المطلب ، دون بني عبد شمس – أي الأمويين – وبني نوفل ، والثالث لليتامى ، والرابع للمساكين ، والخامس لابن السبيل .. هذا ، في حياة رسول الله وأما بعد وفاته (ص) فعند الشافعي انه يقسم الخمس على خمسة أسهم : سهم لرسول الله ، ويصرف الى ما كان يصرفه اليه من مصالح المسلمين ، وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم : والباقي لليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال أبو حنيفة : ان سهم رسول الله بعد وفاته يسقط بسبب موته ، وكذلك سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون لفقرهم كغيرهم من الفقراء : ويقسم الخُمس على اليتامى والمساكين وابن السبيل . وقال مالك : الأمر في الخُمس مفوض إلى رأي الإمام » .

وقال الشيخ المراغي : « روى البخاري عن مطعم بن جبير من بني نوفل انه مشى هو وعثمان بن عفان من بني عبد شمس إلى رسول الله (ص) وقالا له : يا رسول الله اعطيت بني المطلب وتركتنا ، ونحن وهم بمنزلة واحدة .. قال الرسول (ص) : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد – وعلق الشيخ المراغي على هذا الحديث الشريف بقوله – : وسر هذا ان قريشاً لما كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة ، وحصرتهم في الشعب دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ، ولا بنو نوفل للعداوة التي كانت بين بني أمية بن

عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام،فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي (ص) ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علي وقاتله » .

ونعطف نحن على قول الشيخ المراغي وكذلك قتل يزيد حفيد أبي سفيان الحسين بن علي سبط الرسول الأعظم (ص) ، وقال الشاعر في هذا العدوان الموروث أباً عن جد :

فابن حرب للمصطفى وابن هند لعلي وللحسين يزيد

(إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) . قال المفسرون : المراد بيوم الفرقان واليوم الذي التقى فيه الجمعان هو يوم بدر ، لأن الله فرّق فيه بين الكفر والإيمان باعلاء كلمة الإسلام على الشرك ، وأيضاً فيه التقى الجمعان : جمع المؤمنين ، وجمع المشركين ، ودارت دائرة السوء على هؤلاء .. والمعنى ان الله سبحانه لا يقبل الإيمان به وبكتابه ونبيه كنظرية مجردة عن العمل ، وإنما يقبل الإيمان ممن يحكم ويعمل بما حكم الله ، قال الرازي : « إن قوله تعالى : إن كنتم آمنتم بالله يدل على انه متى لم يحصل الحكم بهذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان » .

ونعطف على قول الرازي وكذلك إذا لم يحصل الحكم في غير هذه القسمة كما حكم الله لم يحصل الإيمان به ، لأن السبب الموجب للكفر واحد ، وهو مخالفة حكم الله عمداً .. وبديهة ان هذا السبب لا يقبل التقييد والتخصيص في شيء دون شيء . وقدمنا أكثر من مرة ان المراد بالكفر في مثل ذلك هو الكفر العملي أي الفسق ، لا الكفر العقائدي .

اذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ - ٤٤ :

إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ★ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ★

اللغة :

العدوة بتثليث العين ،أي يجوز فتحها وكسرها وضمها ، وهي جانب الوادي ، والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد . والبينة الحجة الظاهرة . والمراد بذات الصدور ما يختلج في القلوب .

الإعراب :

الدنيا والقصوى صفتان للعدوة . والركب مبتدأ ، وأسفل منصوب على الظرفية متعلقاً بمحذوف خبراً للمبتدأ،لأنه بمعنى في مكان أسفل منكم . وليقضي منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق بمحذوف أي فعل ذلك لقضائه أمراً . والمصدر المنسبك من ليهلك متعلق بيقضي .

المعنى :

تعرض هذه الآيات بعض الأسباب التي مهدها الله لانتصار المسلمين على

المشركين في وقعة بدر،من تلك الأسباب ان الله سبحانه ألهم المسلمين أن يرابطوا في أقرب الجانبين من الوادي الى المدينة ، أما المشركون فقد نزلوا في الجانب الأبعد منه ، وبين الجانبين ربوة تفصل بينهما ، ويظهر من سياق الكلام ان الجانب الذي رابط فيه المسلمون كان موقعاً حربياً يعينهم على أعدائهم ، لأن الله سبحانه قد منّ عليهم به ، وكان من تدبيره تعالى أن ينزل كلّ في موقعه ، دون أن يعلم بموقع الآخر ، إذ لو رأى المسلمون أعداءهم رأي العين لهابوهم، ويئسوا من الظفر بهم ، وأيضاً من تدبيره انه – جلت حكمته – قلل المشركين عند اللقاء في أعين المسلمين ، كل ذلك ليظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، ومن الحكمة أيضاً أن تسلم العير التي مال بها أبو سفيان الى ساحل البحر ليتم اللقاء بين جند الحق وجند الباطل ، ولا ينصرف المسلمون الى العير عن النفير .. وبعد هذا التمهيد نشرع بتفسير الآيات :

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) . الخطاب موجه من الله للمسلمين يذكّرهم به بالموقع الذي رابطوا فيه ، وهو جانب الوادي الأقرب الى المدينة ، وبالموقع الذي اتخذه المشركون ، وهو الجانب الأبعد ، ويذكّر أيضاً بانحراف العير إلى ساحل البحر الذي أشار اليه بقوله: (والركب أسفل منكم). والغرض من هذا التذكير ان هذه الأشياء كانت لصالحهم ، كما تبين فيما بعد .

(ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد) . خرج المسلمون مع النبي (ص) من المدينة طلباً للعير واحمالها غير قاصدين القتال ، كما قدمنا . ولكن الله سبحانه حوّل هذه الرحلة من طلب المال إلى الجهاد في سبيله ، وكان في ذلك خير كثير ، ولو خرج المسلمون منذ البداية إلى القتال متواعدين عليه مع المشركين، ثم علموا بكثرتهم ، لو كان ذلك لعدل بعض المسلمين عن القتال خوفاً ورهبة، واختلفوا مع الذين يريدون القتال،ولما تمّ شيء من نصر أولياء الله على أعدائه .

(ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) . أي ولكن الله دبر هذا اللقاء على غير ميعاد ليقع ما أراد من اعزاز الدين ، واذلال المشركين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) المراد بمن هلك مَن كفر ، وبمن حي من آمن ، والمعنى ان الله نصر أولياءه ، وقهر أعداءه يوم بدر ليكون ذلك

حجة قاطعة على من يكفر ، وحجة ظاهرة لمن يؤمن .

وتسأل : إن ظاهر الآية يدل على ان من صارع الحق يُصرع ويُغلب ، مع ان المبطل كثيراً ما يتغلب على المحق ، كما نشاهد ونرى ؟.

الجواب : ان الله سبحانه قد وعد المسلمين بالنصر على لسان نبيه – قبل المعركة – مع قلتهم وضعفهم عدة وعدداً ، وذلك حيث يقول في الآية ٧ : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين » وقد وفى لهم بالوعد . وتحققت المعجزة بذلك لمحمد (ص) الذي أخبرهم بالنصر حين كانت جميع الدلائل تشير إلى العكس .. هذا ، إلى جانب إمدادهم بالملائكة كما في الآية ٩ . وإلى رمية النبي (ص) المشركين بقبضة من التراب أو الحصى كما في الآية ١٧ ، كل هذه وغيرها كانت معجزات باهرات ظهرت على يد محمد يوم بدر ، وهي المراد بالبينة والحجة على من كفر ، والحجة لمن آمن ، وليس المراد مجرد النصر .. وبكلمة ان المقصود بالبينة في الآية الإخبار بالنصر قبل وقوعه مع ما تم من المقدمات وخوارق العادات ، وليس المراد النصر بالذات (وان الله سميع عليم) لا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال وما يختلج في الصدور .

(إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم وتنازعتم في الأمر) . هذه معجزة أخرى لرسول الله (ص) ، وهي ان الله سبحانه أراه في المنام ان المشركين أقلاء عدداً ضعفاء عدة ، وأخبر النبي الصحابة بما رأى ، فاستبشروا وتشجعوا ، ولو أراه الله الأعداء أقوياء لوهنت عزيمة المسلمين ، وضعفوا عن القتال ، واختلفوا فيه ، ولأعقب ذلك الفشل وذهاب الريح (ولكن الله سلم) من هذه المشكلة ، ولطف بعباده المؤمنين (انه عليم بذات الصدور). أي ان الله يعلم ان قلوب المسلمين تشعر بالخوف من القتال إذا أيقنت بكثرة العدو ، فأبعد الله هذا الشعور عن قلوبهم بما أراه للرسول الأعظم في منامه من قلة العدو وضعفه .

(وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً) ليشد من عزمكم أيها المسلمون ، وتقاتلوا أعداءكم بجرأة وثبات (ويقللكم في أعينهم) كي لا يبالغوا في الاستعداد لقتالكم والحذر منكم .. وهكذا كان ، حتى قال أبو جهل : « إنما أصحاب

محمد أكلة جزور » وكانت عاقبة هذا الاستخفاف والغرور الوبال والخذلان ، وقد أثبتت الأحـداث ان أقوى سلاح بيد العدو هو الاستخفاف به ، وعدم الاستعداد له .

(ليقضي الله أمراً كان مفعولاً) . قال المفسرون : انما كرر هذه الجملة لأن التعليل بها في الآية الأولى كان للجمع بين المسلمين والمشركين في القتال من غير ميعاد ، أما التعليل بها في هذه الآية فقـد جاء لتقليل كل فريق في عين صاحبه .. وذكرنا فـيما سبق ان التكرار في القرآن أسلوب من أساليب الدعاية الناجحة (وإلى الله ترجع الأمور) . انها تصدر منه ، واليه تنتهي،وهو يدبرها بعدله وحكمته .

اذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ – ٤٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ★ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ★ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ★ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ★ اذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ★

اللغة :

وتذهب ريحكم أي قوتكم وهيبتكم . والبطر الطغيان في النعمة وصرفها إلى غير وجهها . والرئاء الرياء . وجار لكم ناصر لكم . وتراءت الفئتان التقتا ورأت كل منها الأخرى . ونكص رجع القهقرى . وفتفشلوا منصوب بأن مضمرة على معنى جواب النهي . وبطراً مفعول لأجله ، ويجوز أن يكون في موضع الحال .

عوامل النصر :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون). والمراد بالفئة الفئة الباغية التي تسعى في الأرض فساداً ، وقوله لعلكم تفلحون أي تظفرون بها وتنتصرون عليها . وذكر سبحانه في هذه الآية عاملين للنصر على الفئة الطاغية الباغية ، العامل الأول الثبات ، واليه أشار بقوله : (فاثبتوا) . العامل الثاني الإخلاص ، وأشار اليه بقوله (واذكروا الله كثيراً) فليس المراد بذكر الله في الحرب مجرد التهليل والتكبير ،وإنما المراد أن يكون القتال والصمود فيه خالصين لوجه الله تعالى ، بمعنى أن لا تثار الحرب بحال إلا من أجل إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، من أجل الحفاظ على سلامة العباد وأمنهم . والضرب على أيدي الآثمين الذين يسعون في الأرض فساداً بالسلب والنهب ، ويثيرون الفتن والحروب ليتحكموا بالبلاد وأرزاق العباد .

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) . ذكر سبحانه في الآية السابقة عاملين للنصر : الثبات والإخلاص وذكر في هذه الآية ثلاثة عوامل : التقوى بطاعة الله والرسول،وتجنب الاختلاف والصبر ، ولكن الصبر هو الثبات فقوله تعالى ، (واصبروا) في هذه الآية تعبير ثان عن قوله : (فاثبتوا) في الآية السابقة ، كما ان طاعة الله ورسوله هي الإخلاص لله ، أما الاختلاف فمنه حسن وقبيح ، والتفصيل فيما يلي ، والذي نستخلصه من الآيتين معاً ان عوامل النصر الحقيقية ثلاثة :

١ – الصبر والثبات ، وهو توطين النفس على التضحية بكل عزيز لنصرة الحق على الباطل ، وكما ينتصر الحق بمحق الباطل وزواله ينتصر أيضاً بالكشف عن الباطل ، وإظهاره للناس على حقيقته . والصبر ضروري لبلوغ أية غاية من الغايات ، فما من تلميذ أو أستاذ أو مخترع أو فنان ، أو تاجر ، أو أي كان ينال شيئاً من النجاح إلا بالصبر والثبات ، وعلى مقدار صموده لتحمل المشاق والآلام يكون فوزه ونجاحه ، وبهذا نجد السر في قوله تعالى : (ان الله مع الصابرين) . وقوله : (وبشر الصابرين) . وقوله : (وما يلقاها إلا الصابرون) . وقوله : (ولئن صبرتم لهو خير لكم) . إلى غير ذلك .. وقد جربت الصبر طالباً ومؤلفاً فما وجدت أحلى منه مغبة ، ولا أجدى عاقبة . وتقدم الكلام عن الصبر في فقرة مستقلة ج ١ ص ٢٤٠ .

٢ – الإخلاص ، وهو ان يقصد العامل بعمله وجه الله ، فيثق به لا بسواه ويؤمن إيماناً قاطعاً بأن ما عند الله خير وأبقى من الجاه والمال والبنين ، فلا يؤثر شيئاً من هذه على طاعة الله ومرضاته .. وقد يبلغ المرء ما يبتغيه من أهداف شيطانية ، ولكن هذا لا يُعد نصراً إلا إذا اعتبرنا الباطل فضيلة ، واللصوصية غنيمة ، والفساد تقوى وصلاحاً .

٣ – تجنب نوع من الاختلاف ، لأن الاختلاف قد يكون في الآراء ووجهات النظر ، مع الاخلاص والتجرد للحق ، وهذا لا يتنافى مع طاعة الله والرسول ، ولا يمنع من الاتفاق على الهدف كجهاد المفسدين ومحاربتهم ، وكثيراً ما يكون وسيلة للتمحيص وجلاء الحقيقة .

وقد يكون سبب الاختلاف الأهواء وحب الذات ، والتكالب على الدنيا وحطامها ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) والأمثلة على اضرار التنافس في المكاسب والأرباح لا يبلغها الاحصاء ، وبين دفتي التاريخ منها المئات ، ولسنا بحاجة الى التاريخ البعيد ، لنستخرج منه الأمثلة ، فإن تاريخنا الحاضر مع اسرائيل كاف ومغن عن جميع الأمثلة .. فبالأمس القريب قرأت عن الكاتب الأمريكي « سالز برجر » انه كتب مقالاً لجريدة الهيرالد تريبيون قال فيه ما نصه بالحرف : « واشنطن توازن الخلل العددي بين العرب واسرائيل ،

وتؤكد أنه وان بدا في غير مصلحة اسرائيل إلا أنها توازن دائماً بينه وبين الانقسام المستمر بين الدول العربية لأن هذا الانقسام يجعل تفوق العرب العددي مجرد أرقام لا قيمة لهـا » . وقبل هذا الكاتب أعلن المسؤولون في اسرائيل أكثر من مرة أنهم ربحوا حرب ٥ حزيران لمساندة الولايات المتحدة ، واختلاف كلمة العرب ، وأي شيء أحب إلى اسرائيل من أن يحمل العرب السلاح على بعضهم البعض من ان يشهروه في وجهها . ولـذا لعب الاستعمار والصهيونية دوراً أساسياً في اذكاء الصراع العربي ، وقد وجد ، وللأسف ، من يستجيب لها ؛ بل ويتكلم بلغتها أيضاً .. وعلى أية حال ، فان الثورة تواصل الزحف ولا بـد أن تصل وتنتصر على الاستعمار وعملائه آجلاً أو عاجلاً .

(ولا تكونوا كالذين خرجـوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) . بعد أن أمر سبحانه المسلمين بثلاثة ، وهم يخرجون الى الحرب : الثبات والاخلاص والاتفـاق نهاهم عن ثلاثة : البطر ، والرياء والصد عن سبيل الله . ونسب هـذه الأوصاف إلى كفار قريش لأنهم خرجوا إلى بدر لحرب النبي (ص) بطرين مرائين صادين المسلمين عن سبيل الله قال المفسرون : قـاد أبو جهل قريشاً لحرب النبي في بدر ، وفي طريقه أتاه ابن الحقاف الكناني بهدية من أبيه ، وقال لأبي جهل : يقول لك أبي : ان شئت أمدك بالرجال ، وان شئت زحفت معك . فقال أبو جهـل : ان كنـا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة ، وان كنا نقاتل الناس فوالله ان بنا على الناس لقوة ، ولا نرجع عن قتال محمد ، حتى نرد بـدراً فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان .. وتسمع العرب بذلك .

ويتجلى البطر في أوسع معانيه بقول أبي جهل : (وان بنا على الناس لقوة). أما الرياء فيتجسم بقوله : (وتسمع الناس) ومن أجل هذا نميل الى قول من قال : ان هذه الآية نزلت في أبي جهل ، أما عاقبة هذا البطر والرياء فقتـل من قُتل ، وفيهم أبو جهـل ، وأسر من أسر ، وهزيمة الباقين .

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لـكم اليوم من الناس واني جار لـكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون

إني أخاف الله والله شديد العقاب) . هذه الآية تقول بصراحة : ان هناك شيئاً اسمه الشيطان شجع قريشاً على حرب النبي في بدر ، وضمن لهم النصر ، وانه لما أيقن بسوء مصيرهم خذلهم وتبرأ منهم .. وقدمنا أكثر من مرة أننا نؤمن بكل ما دل عليه الوحي ، ولا يأباه العقل ، وأننا ندع التفاصيل للغيب ، ولا شيء في حكم العقل يمنع من وجود شيء يُرى أو لا يُرى يوسوس للناس بالباطل ويغريهم به .. وقد أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يتعوذ من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس جناً كان أو انساً .

(إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم . ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) . المنافقون هم الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، أما قوله والذين في قلوبهم مرض فيشمل المنافقين والكافرين والفاسقين ، وعليه يكون عطف مرضى القلوب على المنافقين من باب عطف العام على الخاص. وقد حكى الله في هذه الآية عن مرضى القلوب انهم دهشوا حين رأوا إقدام القلة المسلمة على حرب الكثرة الكافرة ، ولم يفهموا تفسيراً لهذا الإقدام الا تهور المسلمين وغرورهم بعقيدتهم ، أما الثقة بالله ، والتوكل عليه ، وفوز الشهيد بالجنة فكلام بلا معنى في مفهومهم ، لأن كل شيء عندهم صفقة تجارية ، حتى الدين .

هل الفدائيون مخربون ؟

في هذا الظرف الذي تتألب فيه قوى الشر ، وتتآمر على العرب والمسلمين ، ويطرد فيه الشعب الفلسطيني من دياره ،ويلقى به في العراء نساء وشيوخاً وأطفالاً ، في هذا الوقت الذي يقض فيه الفدائيون مضجع إسرائيل ، ويقلقون راحتها ، ويعبّرون عن إرادة كل حر ، ورغبة كل مخلص في تحرير الأرض المحتلة ، في هذا الأوان بالذات يقف معمَّم على حدود إسرائيل ، وفي قرية من قرى الجنوب ، يقف هذا المعمم ، وينادي في الجموع من مكبر الصوت : الفدائيون مخربون .. تماماً كما يقول دايان وأشكول وايبان .

الفدائيون مخربون يا محترم ، وأنت وإسرائيل مصلحون ؟ ولماذا الفدائيون

مخربون ؟ ألأنهم متمسكون بحقهم ، وفي سبيله يقتلون ويُقتلون ، أو لأنهم غيروا وبدلوا اسم اللاجئين باسم الفدائيين ؟ وهل أنت في قولك هذا مطيع لله ورسوله ، ومجاهد مناضل تؤدي واجباً دينياً ووطنياً ؟.

وأي دين من الأديان يحرم التضحيات من أجل دفاع الإنسان عن وطنه وإرادة الحياة فيه حراً كريماً ، وإن عظم الثمن ؟.

أنا أعرف منطقك أيها المعمم ، انك تقول : إن إسرائيل تجيب عن عمـــل الفدائيين بالانتقـــام من الأبرياء ، ونحن نسألك بدورنا : أين كان الفدائيون في ٢٩ آب سنة ١٨٩٧ حـــين عقد الصهاينة مؤتمراً عاماً بسويسرا وقرروا فيه طرد العرب من فلسطين وإحلال اليهود محلهم ؟ هل كان هذا القرار والتصميم نتيجة لضربات الفدائيين آنذاك ؟ ثم ما قولك في مجزرة دير ياسين ، والمذابح التي قام بها اليهود للسكان الآمنين قبل أن تدخل الجيوش فلسطين ؟.

يجب أن تعرف أيها المعمم أنت وكل عربي ان فلسطين لا تشبع أطماع إسرائيل ومعها الأردن ولبنان وسوريا والعراق ، انهـــا تهدف لاذلال العرب جميعاً ، وإخضاعهم للصهيونية والاستعمار سياسياً واقتصادياً . انها تطمع في نفط الكويت وقطر وأبي ظبي والسعودية ، وفي السوق العربية الاستهلاكية ، وفي أيدي العرب العاملة الرخيصة .

وقد وضعت لأطماعها هذه التصاميم ورسمت لها المخططات بالتآمر مـــع دول الاستعمار .. والعمل الفدائي هو الذي أفسد على إسرائيل هذه المخططات ، وتلك التصاميم ، وحملها على الاعتقاد بأن دون أحلامها وجود إسرائيل بالذات .

فخير ألف مرة أن نتحمل الألم الذي يفرضه عمـــل الفدائيين من أن تحقق إسرائيل أطماعها التي لا يحدها شيء ، حتى النيـــل والفرات .. هذا ، إلى أن المرحلة التي نحن فيها تحتم علينا أن نواجه العدو بمقاومة الفدائيين كخطوة أولى ، وأن نتحمل كل عبء بسببها دفعاً لما هو أشد وأعظم .

وبعد ، فما قولك أيها المعمم في السرايا والبعوث التي كان يرسلها محمد (ص) لتقطع الطريق على أعدائه المشركين ، وتنهب أموالهم ، وتقتل وتأسر رجالهم ، وتسلبهم الراحة والأمن في ديارهم ، وكان يقود بعضها بنفسه ، كما فعل حين

غزا يهود بني قريظة بعد أن نكثوا عهده ، وانضموا لحربه مع أبي سفيان عدو الله ورسوله في حرب الأحزاب ، فلقد أمر النبي (ص) جيشه الذي كان يقوده بنفسه أن يحرق زرع اليهود ويقطع أشجارهم ، ويهدم مساكنهم ، فهل كان النبي في عمله مصلحاً أو مخرباً ؟.

وقد تواتر قوله : من مات دون عقال من ماله مات شهيداً .. فكيف بمن مات في مقاومة إسرائيل عدوة الله والوطن والانسانية جمعاء ؟.

قال تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم — ١١٢ التوبة» .

ولا عامل اليوم بهذه الآية في الأمة العربية إلا الفدائيون ، وفداؤهم هو حجر الأساس لثورة الشعب العربي بأسره .

ولو ترى الآية ٥٠ — ٥٤ :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ★ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ★ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ★ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ★

اللغة :

أدبارهم أي ظهورهم . والدأب العادة .

الإعراب :

جملة ذوقوا عذاب الحريق مفعول لقول محذوف أي ويقول الملائكة للكفار ذوقوا . وبظلام الباء زائدة ، وظلام خبر ليس ، والمصدر المنسبك من ان الله ليس بظلام للعبيد مجرور بالباء المحذوفة أي بأن الله ليس بظلام. كدأب آل فرعون الكاف بمعنى مثل في موضع رفع خبراً لمبتدأ محذوف أي دأبهم مثل دأب آل فرعون . والمصدر المنسبك من ان الله سميع عليم مجرور بحرف جر محذوف متعلقاً بمحذوف أي وذلك كائن بأن الله سميع عليم .

المعنى :

(ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) . ولو ترى خطاب لكل من يرى ، لأن القصد منه العظة والاعتبار ، والمراد بالذين كفروا كل كافر أخذاً بظاهر اللفظ من حيث هو ، وقيل : المراد بهم خصوص كفار قريش الذين حاربوا النبي (ص) ببدر عملاً بقرينة السياق لأن الحديث ما زال عن وقعة بدر ، وضرب الوجوه والأقفية كناية عما يقاسيه الكفار من العذاب عند الموت ، ويجوز أن يكون الضرب على حقيقته وان لم يشاهد بالحس ، وأياً كان الأمر فان الكافر يُجزى عند الموت وبعده ، ولا تهمنا الصورة والكيفية .

(ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد) . كيف ، وهو ينهى عنه ، ويعاقب عليه ؟. وقال السنة : ان العقل يجيز على الله تعالى أن يعاقب الطائع ، ويثيب العاصي ، وأيضاً يجيز العقل على الله تعالى أن يخلف وعده (المواقف ٨ المقصد الخامس والسادس من المرصد الثاني في المعاد . والمذاهب

الاسلامية لأبي زهرة فصل بعنوان منهاجه وآراؤه رقم ١٠٤) .

وقال الشيعة : العقل لا يجيز على الله أن يعاقب المطيع ،ويجيز عليه أن يتفضل على العاصي .لأن العادل لا يعاقب من أطاع . والكريم الحليم يسمح عمن أساء .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب). أي ان ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر لأنهم كذبوا محمداً (ص) ان ما أصاب هؤلاء يشبه ما أصاب المشركين السابقين من الهلاك ، لأنهم كذبوا أنبياءهم ، كآل فرعون ومن كان قبلهم .

(ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) . الظاهر من النعمة هنا الرزق ، ومن تغييرها سلبه وازالته.. وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو ان ظاهر الآية يدل على ان القوم الذين أنعم الله عليهم بالرزق فانه يبقيه عليهم ما داموا مطيعين ، فإذا عصوا سلبهم إياه ، مع ان الذي نراه من عصاة كثيرين انهم كلما ازدادوا عصياناً ازدادوا ثراء ، أو لا يتغير عليهم شيء .

الجواب : ان الآية لم تصرح بلفظ المعصية ولا بلفظ الكفر ، وكل ما دلت عليه ان الله لا يزيل النعمة عن أهلها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم ، ولكنه جل ثناؤه لم يبين نوع التغيير ، ومثلها الآية ١١ من سورة الرعد : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وآل فرعون الذين مثل الله بهم في الآية السابقة كانوا مشركين من قبل ومن بعد ، أجل انهم ازدادوا طغياناً بعد أن جاءهم موسى (ع) بالبينات ، وعلى هذا يتعين حمل الآية التي نحن بصددها على معنى ان الله لا يهلك قوماً في الدنيا إلا إذا أرسل اليهم رسولاً ودعاهم الى الله مشافهة وجهاً لوجه ، فأعرضوا عن دعوته كآل فرعون ، ومن سبقهم من قوم نوح ولوط وغيرهم ، وإذا لم يرسل الله اليهم رسولاً كذلك فانه يؤخر عقابهم الى يوم الحساب والجزاء .. أما آية الرعد فإن لنا رأياً في تفسيرها نبينه في حينه ان شاء الله .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون) . مر نظيره في سورة آل عمران الآية ١١ ج ٢ ص ١٧.

(وكل كانوا ظالمين) . أي كل من آل فرعون الذين كذبوا موسى (ع) ، وكفار قريش الذين كذبوا محمداً (ص) ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا الناس بالصد عن سبيل الله .

قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ – ٦٣ :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ★ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ★ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ★ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ★ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ★ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ★ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ★ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ★ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ★

اللغة :

أصل الدابة لكل ما دب على وجه الأرض ، ثم غلب استعمالــه في ذوات الأربع ، والثقف الظفر . والتشريد الإبعاد . والنبذ الطرح . ورباط الخيل حبسها واقتناؤها . وجنحوا مالوا . والسلم بفتح السين وكسرها ضد الحرب ، ويشمل الصلح والمهادنة ، ويذكّر ويؤنث .

الإعراب :

الذين عاهدتم منهم بدل بعض من الذين كفروا . وامــا تثقفنهم واما تخافن (اما) مركبة من كلمتين ان الشرطية وما الزائدة ، ودخلت نون التوكيد على الفعل لوجود ما ، ومفعول انبذ محذوف أي عهدهم ، ولا يعجــزون أي ولا يعجزونني . وجملة ترهبون به حال من الواو في اعدوا . وحسبك مصدر بمعنى اسم الفاعل أي كافيك ، وهو مبتدأ واسم الجلالة خبر ، ويجوز أن يكون فاعلاً ساداً مسد الخبر . مثل أقائم زيد .

المعنى :

تتضمن هذه الآيات قواعد وأحكاماً في السلم والحرب نشرحها فيما يلي حسب ترتيب الآيات :

١ — (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) . يقول سبحانـه : إن جماعة من الذين كفروا ولا يرجى إيمانهم قد عاهدوا النبي (ص) على المسالمــة وحسن الجوار ، ولكنهم أضمروا الغدر ونقضوا العهد أكثر من مرة ، ولم يتقوا ما يترتب على ذلك من العذاب والوبال .. وقد وصف الله هؤلاء بأنهم شر من دب ويدب على وجه الأرض ، وقال جماعة من المفسرين : انهم يهود بني قريظة عاهدوا الرسول ، ثم نكثوا عهده ، وأعانوا عليه مشركي مكة يوم بدر ، ولما

انتصر النبي (ص) على المشركين اعتذر اليه اليهود فقبل عذرهم وصفح عنهم، ثم عاهدوه ثانية ونكثوا يوم الخندق .. ولا غرابة أن يخون اليهود ويغـدروا ، وإنما يُستكثر منهم الصدق والوفاء .

٢ – (فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكّرون) . الخطاب للنبي (ص) بيّن الله فيه حكم هؤلاء الكفرة الغدرة ، وانه ان ظفر بهم فليقسُ عليهم ، حتى يتعظ بهم غيرهم ممن تراوده نفسه بالخيانة والغدر . وبهذا يتضح ان المراد بمن خلفهم غيرهم . .

٣ – (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) . المراد بالخوف هنا العلم ، وعلى سواء أي تكون أنت وهم سواء في العلم بنقض العهد ، والمعنى إذا كان بينك يا محمد وبين قوم عهد ، وعلمت يقينـاً انهم خائنون بظهور إمارات قاطعة على انهم يضمرون الغدر والاغتيال ، ويتخذون من العهـد ستاراً يدبرون من ورائه المكر السيء ، إذا كان كذلك فألق اليهم عهدهم ، واعلمهم انك قد نقضته ، بحيث تكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء . ولا تبدأهم بقتال قبل أن تعلمهم بذلك كي لا تنسب إلى الغدر والخيانة (إن الله لا يحب الخائنين) .

وبكلمة : ان الإسلام يوجب الوفاء بالعهد لأهل الوفاء ، أما الذين يتخذون من العهد وسيلة للغدر والاغتيال فان الإسلام يأمر بنقضه لأنه كيد لا عهد : « وان الله لا يهدي كيد الخائنين – ٥٢ يوسف » . قال الإمام علي (ع) : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء .

(ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعجزون) . معنى سبقوا أفلتوا ، ولا يُعجزون أي لا يعجزونني . والمراد من مجموع الآية لا يحسبن أحداً ان الله يفوته مطلوب .

٤ – (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . الآيات السابقة تعرضت لابرام العهد مع الغير ، والحكم فيمن ينقضه ، وفي هذه الآية أمر الله سبحانه المسلمين باعداد القوة واستكمال العـدة للأعداء ، والمراد بالقوة كل ما يتقوى به على العدو رمحاً كان ، أو صاروخاً . أو أي شيء .. وخص سبحانه

الخيل بالذكر ،لأنها كانت من أعظم مظاهر القوة آنذاك ، وروي عن النبي (ص) انه تلا هذه الآيـة ، وقال : « الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي » كررها ثلاثاً ، والقصد بيان أهمية الرمي وتأثيره في الحروب وقد أثبت تاريخها صحة هذه النظرية التي نطق بها الرسول (ص) منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة ، حيث لا قاذفات قنابل ولا صواريخ موجهة ، وقد اتجهت عباقرة العقول في كل عصر الى تقوية الرمي وتطويره من السهم إلى الرصاص ، ومنه الى القنابل ، ومنها الى الصواريخ والقذائف الذرية والهيدروجينية .. وقـد استعمل المسلمون مع الرسول الرمي بالمنجنيق في غزوة خيبر .

(ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم). قسّم سبحانه أعداء المسلمين إلى نوعـين : نوع ظاهر العداء يعرفهم المسلمون بذلك ، ونوع غـير ظاهر يجهل المسلمون عداوتهم ، واليهم الاشارة بقوله : (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) وهم كل من يتمنى للمسلمين الفشل والخذلان خوفاً على سلطانه واستغلاله ، ومنهم الدول المجاورة كالفرس والروم الذين تغلب المسلمون عليهم حين قويت شوكة الاسلام .

القوة الرادعة والقوة المعتدية :

ونقف قليلاً عند قوله تعالى : (ترهبون به عدو الله وعدوكم) لأنه ينطوي على مبدأ يحفظ المجتمع الانساني من الفوضى ، ويردع الطغاة الأقوياء من التلاعب بحياة الناس واستغلالهم .. وهذا المبدأ هو وجود قوة في قبضة أهل الحق والعدل يردعون بها أهل الظلم والباطل ، ويخضعونهم لحكم الله وشريعته التي تدعو الناس جميعاً أن يعيشوا طبقاً لقوانين الحياة وسننها ، ولا ينحرف عنها أحـد ، فإذا ما راودته نفسه بالميل والانحراف ، أرغمته القوة على الرجوع الى تلك السنن والقوانين .

ولو ان أرباب العقول والمتخصصين بحثوا عن السبب لمشكلات الحياة وويلاتها لوجدوه في ضعف القوة الرادعة عن العدوان ، واستفحال القوة المعتدية . ويكفي مثالاً على ذلك القوة التي تملكها الولايات المتحدة ، وتستغلها في السلب والنهب ، دون رادع وزاجر إلا نضال الشعوب العزلاء .

يقول « نيكولاس سبيكمان » في كتابه الاستراتيجية الامريكية في السياسية العالمية : يقول : « مسموح لنا نحن الامريكيين بكل أشكال الجبر والقسر بما فيها حروب الدمار ان نملي ارادتنا ونفرضها بالقوة على الذين لا قوة لهم » . وأيضاً يقول « ليو ويلتش » الأمريكي : « واجبنا أن نحقق زعامتنا الايجابية بالقوة على العالم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا ينبغي أن يكون ذلك إلى أجل مسمى. انه واجب أبدي لا يجوز التفريط فيه » .

ولا سر لهذا التعاظم من أعداء الله ، والجهر بالعدوان على عياله وعباده من غير مبالاة إلا عدم الخوف والرهبة من القوة الرادعة التي تجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى .

ونفذ القادة في الولايات المتحدة ما جاء في كتاب الاستراتيجية الامريكية ، واعتبروه انجيلهم المقدس دون كتاب الله ، ومارسوا جميع أشكال الجبر والقسوة بما فيها حروب الدمار ليفرضوا ارادتهم على الذين لا قوة لهم ، فألقوا بالقذائف المحرقة على الأطفال والعجائز والحوامل، وبالقنابل الكيماوية على المحاصيل ووسائل الرزق والحياة من نبات وحيوان لتموت جوعاً البقية الباقية من قنابل النابالم وغيرها من القذائف .. ولهذه الغاية أقامت الولايات المتحدة على أرضها العديد من قلاع الموت ، أنشأت فيها المعامل والمختبرات لاكتشاف أشد المكروبات فتكاً بالانسان والحيوان والنبات . ولاختراع الغازات التي تُذهب العقل ، وتُنهك الأعصاب .

فأي عجب بعد هذا إذا أنشأت الولايات المتحدة على أرض فلسطين قلعة الموت والفناء ، وترسانة التخريب والتدمير ، وأطلقت عليها اسم دولة اسرائيل؟. أجل ، لا عجب في شيء من ذلك . وإنما العجب أن تعترف الدول بما فيها الدول الصغيرة الضعيفة — ان تعترف بهذه القلعة والترسانة التي قامت وأسست على عداء الانسانية جمعاء ، وان يكون لها من يمثلها ويدافع عنها ويبرر أعمالها في الأمم المتحدة .. وبرغم هذا وفوق هذا فنحن لا نيأس أبداً من انتصار الحق، وخذلان الباطل في يوم من الأيام ، فهذه أصوات الاحتجاج ضد الطغاة المعتدين ترتفع في كل مكان ، حتى في الولايات المتحدة . وهذا الشعب الفيتنامي الباسل قد أودى بهيبة الامريكيين ، وقتل من جيوشهم عشرات الألوف ، وأرغمهم أن

يحرقوا من أموالهم البلايين .

٥ – (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون) . هذا ترغيب في انفاق المال الذي لا بد منه لإعداد القوة الرادعة . وتقدم الكلام عن ذلك في ج ١ ص ٣٠١ عند تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة ، وج ٢ ص ١٠٧ عند تفسير الآية ٩٢ من آل عمران .

٦ – (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه سميع عليم) . السلم عام يشمل ترك الحرب بالهدنة والصلح ، وبدفع الجزية ، والدخول بالإسلام ، وقوله تعالى لنبيّه : (فاجنح لها) هو أمر حتم بمسالمة كل من يسالم كائناً من كان إلا إذا دلت الدلائل القطعية على أن سلمه مكر وتمهيد للوثبة والاغتيال على غرة .

وينبغي أن نفهم ان المراد بالسلم في الآية سلم الجميع من قاتل ومن لم يقاتل، وليس سلم الأطراف المتنازعة فحسب ، كالتعايش السلمي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الذي تسللت هذه من خلفه لتدبير المؤامرات والانقلابات لصالحها في الدول المحايدة ، وضرب الحريات في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية لتزيد من أرباح شركاتها الاحتكارية على حساب دم الشعوب وخبزها ومستقبلها .

وتسأل : قال سبحانه في هذه الآية : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . وقال في الآية ٣٥ من سورة محمد : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم) . فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟.

الجواب : لا منافاة بينهما ، فالأولى تأمر المسلمين أن يسالموا من يسالم ، والثانية تشد من عزائمهم ، وتقوي فيهم الروح المعنوية ، وتنهاهم عن الانهيار والفرار من العدو . ويؤيد ذلك قوله تعالى : (فلا تهنوا) . وقوله : (والله معكم) . فهذه الآية ، وهي فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم تماماً كالآية ١٠٣ من سورة النساء : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

٧ – (وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) . ضمير الخطاب موجه للنبي (ص) ، وضمير الغائب في يريدوا

ويخدعوا عائد إلى الذين جنحوا للسلم . والمعنى ان كان هؤلاء يبيتون لك يا محمد الخيانة والغدر من وراء جنوحهم للسلم فلا تخش غدرهم ، فأنت في أمان من الله وهو كافيك شرهم ، وقد أيدك من قبل بنصره وبالمؤمنين .

وتسأل : لقد مر قريباً عند تفسير قوله تعالى : (فاما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم) مر ان الله أمر نبيه أن ينقض عهدهم إذا خاف منهم الغدر والخديعة ، وفي هذه الآية أمره بالاستجابة لهم إذا طلبوا السلم ، حتى ولو كانوا مريدين الخيانة في الواقع ، فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟.

الجواب : أمره الله هناك بنقض العهد مع اعلامهم بالنقض إذا كان على يقين من غدرهم بما ظهر له من الامارات القطعية ، وأمره هنا بمسالمتهم وان أرادوا الغدر في الواقع إذا لم تقم الدلائل القطعية على غدرهم . وإنما احتمل ذلك. وفي مثل هذه الحال يأخذ النبي بالظاهر ويعاملهم بحسبه ، فان الظاهر للناس ، والباطن لله .

(وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم) . ليس من شك ان الله سبحانه هو الذي ألف بين قلوب الصحابة بعد أن كانت عصية على التأليف بخاصة بين الأوس والخزرج الذين امتدت الحروب بينهما ١٢٠ سنة .. وأيضاً ليس من شك ان الله سبحانه يجري الأمور على سننها ، والمسببات على أسبابها ، وسبب التأليف بين قلوب أصحاب محمد (ص) هو الإسلام وإيمانهم به نظرياً وعملياً ، والإسلام من عند الله ، فصحت النسبة اليه تعالى .

وقلنا عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة ان الدين لا ينبت قمحاً ، ولكنه ينبت حُباً وإخلاصاً .. ونظير هذه الآية التي نحن بصددها الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، وتجد تفسيرها مفصلاً في ج ٢ ص ١٢٢ .

حسبك الله الآية ٦٤ – ٦٦ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ★ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ★ الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ★

اللغة :

حسبك كافيك . والتحريض الحث . والتخفيف رفع المشقة . والضعف بكسر الضاد من المضاعفة أي زيادة الشيء مثله في المقدار ، وبفتحها ضد القوة المادية والمعنوية ، وكذلك بضم الضاد ، وقيل الضم يختص بضعف العقل .

الإعراب :

حسبك الله مبتدأ وخبر ، ومر في الآية ٦٢ . ومن اتبعك (من) في محل رفع عطفاً على اسم الجلالة . وان يكن منكم عشرون (منكم) خبر مقدم ليكن، وعشرون اسمها .

المعنى :

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . قيل : معناه يكفيك الله يا محمد ، وأيضاً هو يكفي المؤمنين الذين اتبعوك ، وعلى هذا التفسير يكون محل (من) النصب عطفاً على الكاف في حسبك ، أما نحن فنميل الى قول من قال : ان (من) محلها الرفع عطفاً على اسم الجلالة ، ويكون المعنى يكفيك

يا محمد الله والمؤمنون برسالتك، ودليلنا على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة ٦٢: (فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) فإنها صريحة بأن الله والمؤمنين نصروا محمداً . فكذلك : (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) . ومهما يكن، فان القصد أن يطمئن النبي ويعلم بأن معركته مع الكافرين مضمونة على كل حال، لأن القوة التي تسانده لا غالب لها .

(يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وان يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) . يقول جل ثناؤه لنبيه: شجع يا محمد أصحابك على القتال، وأخبرهم بأنهم كفء لاعداء الله وأعدائهم . حتى ولو زاد عددهم عشرة أضعاف ذلك بأن المؤمنين يفقهون أمر الله، ويعتقدون باليوم الآخر ، وان السعادة تُنال بالجهاد والاستشهاد ، فيقدمون عليه بنية صادقة ، وعزم قوي . أما الكافرون فإنهم لا يفقهون أمر الله ، ولا يعتقدون بالمعاد ، ولهذا يحجمون شحّاً بحياتهم وحرصاً عليها من الفناء والحرمان .

(الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) . أطال المفسرون والفقهاء الكلام حول هذه الآية . فمنهم من قال : إنها ناسخة للآية المتقدمة التي فرضت على المسلم أن لا يفر من عشرة ، وقال آخر ، شق على المسلمين أن يقابل الواحد منهم عشرة ، فجاء التخفيف بقوله : (الآن خفف عنكم) الخ ، وأفتى الفقهاء استناداً الى هذه الآية بتحريم الفرار من الزحف إلا إذا كان عدد جيش العدو أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين .. وبينا عند تفسير الآية ١٥ من هذه السورة ان الفقهاء لا يملكون الفتوى بذلك ، وان الأمر فيه يُترك لتقدير قائد الجيش الخبير الأمين وحده .

ومن أجل هذا نرجح ان الآيتين هذه والتي قبلها لم تردا لبيان حكم الفرار من الزحف بوجه عام ، وإنما هما خاصتان بالنبي وأصحابه فقط ، ولا تتجاوزان الى غيرهم ، والله أعلم بمراده .

في الأسرى الآية ٦٧ – ٧١ :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ★ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ★ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ★ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ★

اللغة :

أسرى جمع أسير ، والأسر الشد على المحارب وأخذه . والاثخان الشدة ، يقال : أثخنه إذا اشتد عليه . والعرض ما يعرض ولا يدوم . ومسّكم أصابكم .

الاعراب :

لولا كتاب (كتاب) مبتدأ ، وسبق صفة له ، والخبر محذوف ، أي لولا كتاب كائن . وحلالاً حال من الموصول في مما غنمتم ، أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي كلوا أكلاً حلالاً .

المعنى :

(ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) . اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت في أسرى بدر ، وظاهر السياق يدل على ذلك ، واختلفوا في تفسيرها على أقوال . ولايضاح المراد منها نورده بصيغة السؤال والجواب :

إذا قامت الحرب بين المسلمين وعبدة الأوثان ، وأمكن الله المسلم المقاتل من كافر ينازله فهل يجب على المسلم قتل هذا الكافر ، أو يجوز له أسره ، وإذا أسره بناء على جواز الأسر فهل يُخيّر النبيّ بين قتل الأسير ، وبين أن يطلقه بفدية أو بدونها ؟ .

ولا بد في الجواب من التفصيل بين حالين : الأولى أن تقع المعركة بعد أن يعظم شأن الدين في الأرض ، وتتم القوة له ولأهله بحيث لا يضرهم كيد العدو ومكره لمكان القوة الرادعة . وفي مثل هذه الحال يخير المسلم المقاتل بين القتل والأسر ، فاذا أسر كان الخيار للنبي بين قتل الأسير وإطلاقه بفداء أو غير فداء ، قال تعالى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً بعد واما فداء — ٤ محمد » . والسر في ذلك واضح ، وهو وجود القوة الرادعة .

الحال الثانية أن تقع المعركة قبل أن يتمكن الدين في الأرض ، وتتم له القوة والغلبة . فاذا تمكن المسلم المقاتل في مثل هذه الحال من الكافر المحارب فعليه أن يقتله ولا يأسره ، والسر إلقاء الرعب في قلب كل من يحاول إعلان الحرب على المؤمنين ، ويدل على هذا قوله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) أي لا أسر من الكفار ، حتى تتم للدين القوة الرادعة التي يذل بها أهل الكفر والطغيان .

(تريدون عرض الدنيا) هذا الخطاب موجه بصفة خاصة لمن أسر أسيراً من المشركين بقصد الغنيمة وأخذ الفدية غير مكترث بما يترتب على حياته من الفساد في الأرض (والله يريد الآخرة) يريد لعباده ثواب الآخرة لأنه خير وأبقى من

عرض الدنيا (والله عزيز حكيم) يهب العزة للمؤمنين وإن لم يكن لهم أسرى، وهو حكيم في تدبيره وأمره ونهيه .

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) . لقدسبق في قضاء الله أن ينصر دينه ونبيه بالفئة القليلة التي حاربت معه ببدر ، وان ينكل بالكثرة الكافرين قتلاً وأسراً ونهباً بأيدي المؤمنين ، ولولا قضاؤه هذا لعذّب المؤمنين الذين أسروا أعداء الله طمعاً بالفدية . لأنه تعالى يريد أن يكون الجهاد والعمل خالصاً لوجهه الكريم ، وفي الحديث : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر اليه » وتجدر الإشارة إلى انه تعالى لم يبين نوع العذاب الذي كان سيوقعه بالآسرين من الصحابة لولا قضاؤه السابق : هل هو العذاب الدنيوي أو الأخروي .

وتسأل : إذا كان الأسر محرماً قبل أن يُظهر الله دينه على الدين كله فكيف أجاز رسول الله (ص) للصحابة أن يأسروا يوم بدر ، ويقبل هو الفدية من الأسرى قبل النصر الشامل الكامل ؟ فان المفروض ان معركة بدر كانت الأولى، وأعقبتها معارك استمرت إلى عام الفتح والنصر .

وحار المفسرون وغيرهم في الجواب عن هذا السؤال أو الاشكال، وتضاربت فيه أقوالهم ، واستسلم بعضهم قائلاً : إن النبي غير معصوم عن الخطأ ، حاشا الله ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى .. والذي نرجحه ان الله سبحانه قد استثنى من تحريم الأسر كل من أطلقه النبي (ص) من أسرى بدر . وقد أسلم الكثير منهم وحسن فيه بلاؤهم ، بل كان فيهم من أخرج كرهاً إلى حرب المسلمين، قال ابن الأثير في المجلد الثاني من تاريخه بعنوان ذكر غزوة بدر الكبرى :

« قال رسول الله (ص) لأصحابه يومئذ : قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهاً ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله .. وكان في الأسرى سهيل بن عمرو ، فقال عمر بن الخطاب : دعني اقتله يا رسول الله، فلا يقوم عليك خطيباً ، فقال النبي (ص) دعه ، فسيقوم مقاماً تحمده عليه .. ومن جملة أسرى بدر أبو العاص بن الربيع زوج بنت رسول الله (ص)، وبعثت

زينب بفداء زوجها ، وفيه قلادة كانت لأمها خديجة . فلما رآها رسول الله(ص) رقّ رقة شديدة ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا ، فأطلقوا الأسير ، وردوا القلادة .. وقد أسلم أبو العاص بعد ذلك » .

وقتل النبي (ص) من الأسرى من لا يؤمن شره ، ولا يرجى خيره ، ولم يقبل الفدية منه ، قال ابن الأثير : وكان في الأسرى النضر بن الحارث ، وعقبة ابن أبي معيط ، فأمر النبي بقتلهما ، فقال عقبة : أليس لي اسوة بهؤلاء الأسرى ؟ فلم يلتفت الرسول إلى قوله ، لأنه يعلم بخبثه وغدره ، وان حياته شر وفساد في الأرض .. فاطلاق النبي لبعض الأسرى ، وقتله البعض الآخر يشعر بوجود مصلحة للاسلام والمسلمين في إطلاق من أطلق منهم ، وقد ظهرت هذه المصلحة فيما بعد كما أشرنا .. ومن أجل هذا صح استثناء أسرى بدر من حكم التحريم .

(فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم) . الخطاب موجه لمن حارب مع النبي (ص) ببدر ، ويتضمن الاذن بالأكل مما غنموه في معركة بدر فدية كان أو سلباً ، وهذا دليل على ان الأسر من المشركين في معركة بدر جائز ، لأن إباحة أحد العوضين تستدعي إباحة العوض الآخر ، وفي الحديث: إذا حرم الله شيئاً حرم ثمنه .

(يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) بعد أن أخذ النبي (ص) الفدية من الأسرى أمره أن يقول لهم : ان آمنتم بالله يعوض عليكم خيراً من الفدية دنيا وآخرة ، وقال المفسرون : ان قوماً من الأسرى أظهروا الاسلام ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : ان كان ما قلتموه حقاً فان الله يعلمه ويعوض عليكم خيراً مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، وان كان نفاقاً فقد كفرتم ومكرتم من قبل ، وأمكن الله نبيه منكم .

ثم ذكر المفسرون ، ومنهم الرازي والطبرسي ان النبي (ص) قال لعمه العباس ،

أفدِ نفسك وابني أخيك عقيلاً ونوفلاً [1] . فقال العباس: كنت مسلماً فأكرهوني على الخروج ، فقال له النبي : ان يكن ما تقول حقاً فالله يجزيك . قال العباس: ليس معي شيء . قال النبي : أين الذهب الذي سلمته لزوجتك أم الفضل ، وقلت لها : ان حدث بي حدث فهو لك ولأولادك ؟. قال العباس : من أخبرك بهذا ؟. قال : الله تعالى أخبرني . قال العباس : أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحد إلا الله .. وقال العباس بعد ذلك : صدق الله ورسوله لقد عوضني الله عما افتديت أضعافاً كثيرة .

(وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم). الضمير في يريدوا عائد الى الأسرى الذين أطلقهم النبي (ص). والمعنى لا تخف يا محمد من خيانة من سرحت وأطلقت من الأسرى ، وماذا عسى أن يفعلوا إذا أرادوا الغدر والخيانة ؟. فليس بعد الشرك واعلان الحرب شيء ، وقد حاربوك من قبل فسلطك الله عليهم : « ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام – ٩٦ المائدة ». وهذا دليل آخر على أن الله أباح الأسر للمسلمين في وقعة بدر .

والخلاصة ان الله أوجب قتل أهل الشرك في حربهم مع أهل الايمان إذا وقعت قبل أن يعظم شأن الدين إلا في معركة بدر فإن الله سبحانه قد أباح فيها للمسلم المقاتل الأسر لمصلحة الإسلام والمسلمين .

المهاجرون والأنصار الآية ٧٢ – ٧٥ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

---

[1] أسلم عقيل بن أبي طالب قبل وقعة بدر ، وأخرجه المشركون لحرب ابن عمه محمد (ص) كرهاً ، فاستأسر هو لابن أمه علي (ع) .

يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِم مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ★ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ★ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ★ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ★

اللغة :

الهجرة فراق الوطن . وآواه أسكنه منزله . والمراد بالولاية النصرة في قوله: بعضهم أولياء بعض . والميراث في قوله : أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض .

الإعراب :

من شيء (من) زائدة وشيء مبتدأ ومالكم خبر ، والجملة خبر الذين آمنوا ولم يهاجروا . فعليكم النصر مبتدأ وخبر ، ويجوز نصب النصر على معنى الزموا النصر ، مثل عليك زيداً . والهاء في تفعلوه عائد الى النصر .

المعنى :

قسمت هذه الآيات المؤمنين إلى أقسام ، وتعرضت للولاية فيما بينهم بسبب

الإيمان والهجرة . وأشارت إلى ولاية الكافرين ، وميراث أولي الأرحام، والتفصيل فيما يلي :

١ — (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) . وهم المهاجرون الأولون ، وقد وصفهم جل وعز بالإيمان ، وهجرة الأوطان ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله وبهذه التضحية لا بمجرد الايمان أثنى عليهم القرآن ، وتحدث كثيراً عن استجابتهم لله ورسوله .

وتسأل : المفروض ان المهاجرين دخلوا المدينة ، ولا شيء معهم من المال، ومن أجل هذا آواهم الأنصار في مساكنهم ، وآثروهم في المأكل والملبس على أنفسهم ، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله : (والذين آووا) فمن أين جاءهم المال الذي جاهدوا به في سبيل الله ؟.

الجواب : أولاً ان أغنياء المهاجرين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين قبل الهجرة. ثانياً انهم هاجروا من ديارهم تاركين مساكنهم ومزارعهم نهباً للمشركين رغبة في مرضاة الله .. ولا شيء أعظم من تضحية الانسان بمسكنه وأرضه، وبكل ما جمعه لحياته وحياة أولاده .

٢ — (والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) . وهؤلاء هم الأنصار، ونعتهم سبحانه بأنهم آووا النبي ومن هاجر معه في مساكنهم ، وآثروهم على أنفسهم وأولادهم . وبأنهم سالموا من سالمهم ، وعادوا من عاداهم ، ولهذا شرفهم الله بهذا الوصف ، حتى أصبح اسم الأنصار علماً عليهم مدى الدهر . وقوله : (أولئك بعضهم أولياء بعض) إشارة إلى المهاجرين والأنصار معاً ، وان كلاً منهم يتولى من أمر صاحبه ما يتولى من نفسه نصرة ودفاعاً .. وفي الحديث : مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر .

وقارن بعض المفسرين بين المهاجرين والأنصار ، وفضّل أولئك على هؤلاء ، أما نحن فنميل إلى انهم عند الله سواء ، وتشعر بذلك الآية التي نحن بصددها ، والآية ١٢ من الواقعة : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فان المراد بالسابقين المهاجرون والأنصار ، أولئك سبقوا إلى الإيمان والهجرة، وهؤلاء سبقوا

إلى الابواء والنصرة ، فكان كل فريق من السابقين الأولين ، وقد وصفهم سبحانه بذلك في الآية ١٠٠ من سورة التوبة : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » .

٣ – (والذين آمنوا ولم يهاجروا) هؤلاء آمنوا بالله ورسوله ، ولكنهم رفضوا الهجرة من دار الشرك إلى دار الاسلام ، مع ان القرآن أمرهم بها ، وحثهم عليها ، ولكنهم رفضوا تمسكاً بأموالهم ، وخوفاً على مصالحهم ، وسبق الكلام عن هؤلاء ، وعن حكم الهجرة في ج ٢ ص ٤١٨ وما بعدها عند تفسير الآية ٩٧ من النساء .

وقد بيّن سبحانه حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا بقوله : (ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر) . أي ان هؤلاء لا يعتبرون أعضاء في المجتمع الإسلامي ، ولا يثبت لهم شيء من حقوق المسلمين المقيمين في دار الإسلام ، لأنهم قد اختاروا حكم الشرك والمشركين على حكم الإسلام والمسلمين .. أجل ، إذا تركوا أرض الشرك إلى أرض الإسلام كان لهم حق الدفاع والنصرة ، وأيضاً إذا اعتدى عليهم معتدٍ من أجل دينهم وعقيدتهم ، وحاول أن يفتنهم عن الإسلام ، ويردهم إلى الشرك فعلى المهاجرين والأنصار أن يدافعوا عنهم ، ولا تجب نصرتهم في غير ذلك ، لأن رابطة الدين تحتم على كل واحد من أهله أن يدافع عن دين أخيه ، وإن كان فاسقاً .. وبكلمة ان الدفاع عن عقيدة الفاسق دفاع عن الدين بالذات ، لا عن شخص الفاسق .

وكأنّ سائلاً يسأل : إذا اعتدى معتدٍ من الكافرين على مؤمنٍ من الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وكان بين الكافر المعتدي ، وبين المسلمين المقيمين في دار الإسلام عهد وميثاق في الأمان والمسالمة ، واستنصر المؤمن المعتدى عليه بمن في دار الإسلام من المسلمين ، إذا كان الأمر كذلك فهل تجب نصرة المعتدى عليه على المعاهد المعتدي ؟.

فأجاب سبحانه بقوله : (الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير) . أي ان النصرة لا تجب في مثل هذه الحال محافظة على الوفاء بالعهد والميثاق ، والاسلام وان كان عهداً وميثاقاً أيضاً ، ولكنه لا يجيز بحال الخيانة والغدر ، حتى بالكافر .

لا أثر لاسم الدين :

(والذين كفروا بعضهم أوليـــاء بعض) . قد يوهم ظاهر الآية ان مجرد المشاركة في الكفر بين اثنين تستدعي بطبيعتها ان يناصر كل منهما الآخر .. وهذا لا ينطبق على الواقع ، فان تاريخ أهل الكفر بعضهم مع بعض تاريخ حروب ودماء .. وكذلك تاريخ المسلمين .. وقد دلتنا التجارب ان المصلحة هي التي تجمع وتفرق ، أما مجرد المشاركة في الألفاظ والأسماء الدينية ، كمسلم ومسيحي فقد يكون لها شيء من الأثر ، ولكنه لا يبلغ حد الولاية ، أي يتولى كل واحد يحمل هذا الاسم من أمر صاحبه وشريكه فيـــه ما يتولى من نفسه إلا إذا تجرد عن كل غاية إلا الغاية الدينية ، بحيث يضحي بجميع مصالحه، حتى بنفسه وأهله وماله في سبيل دينـــه ومعتقده ، وهذا هو المراد من قوله تعالى عن المهاجرين والأنصار : (أولئك بعضهم أولياء بعض) . وقوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر – ٧١ التوبة » . أي ان الأمر بالمعروف عندهم هو المصلحة .

أما المراد من قوله : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . وقـــوله : « وان الظالمين بعضهم أوليـــاء بعض – ١٨ الجاثية » . وقوله : « المنافقون والمنافقات بعضهم مـــن بعض يأمرون بالمنكر وينهـــون عن المعروف – ٦٧ التوبة » . أما المراد من هذه الآيات فهو ان الكفار والظالمين والمنافقين يتفقون يـــداً واحدة ضد الحق ، على ما بينهم من العداء والتناقضات ، لأن المصلحة المشتركة تجمعهم وتوحد صفوفهم ، وهي الدفاع عن المنافع والامتيازات ، وقد تكرر ذلك مرات ومرات قديماً وحديثاً ، فمن التاريخ الحديث تكتـــل المستعمرين والمستغلين ضد الشعوب والثورات الوطنية، على ما بين الدول الاستعمارية ، والشركات الاحتكارية من التنافس عـــلى الأرباح ، ومن القديم اتفاق مشركي العرب ويهود الحجـــاز والمنافقين ، اتفاقهم وإجماع كلمتهـــم على محاربة الإسلام والمسلمين ، ولا دافع إلا المصالـــح المشتركة ، فلقد بلغت العداوة بين المشركـين واليهود الغاية قبل الإسلام .. وبهذا نفسر قوله تعالى : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) . أما ما ذهب اليه أكثر المفسرين من أن المراد به ان الكفار يرث بعضهم بعضاً ،

أما هذا التفسير فبعيد عن ظاهر اللفظ . وتكلمنا عن نظير هذه الآية ، وعن المصلحة المشتركة بين كثير من اليهود والنصارى في هذا العصر عند تفسير الآية ٥١ من سورة المائدة بعنوان « اليهود والبترول والنصارى » .

(إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) . إلا هنا مركبة من كلمتين إن الشرطية ، ولا النافية ، والهاء في تفعلوه تعود إلى النصر في قوله : (فعليكم النصر) والمعنى انكم أيها المسلمون إن لم تنصروا من استنجد بكم من المسلمين على الكافرين الذين حاولوا أن يفتنوه في دينه ، ويردوه إلى الشرك ، إن لم تنجدوه تكن فتنة وفساد بتسلط الشرك على الإيمان والباطل على الحق .

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم). ذكر سبحانه في الآية السابقة المهاجرين والأنصار بهذا اللفظ لبيان ما يجب على كل واحد منهم تجاه الآخر من الدفاع والمناصرة ، ثم أعاد هنا للثناء عليهم بقوله : (أولئك هم المؤمنون حقاً) ولبيان شأنهم ، وما أعد الله لهم غداً من العفو عن السيئات والثواب الجزيل الذي عبّر عنه بقوله : (ورزق كريم) .

وما قرأت شيئاً أبلغ من وصف الإمام زين العابدين (ع) للمهاجرين والأنصار وهو يناجي ربه ، ويطلب لهم الرحمة والرضوان بقوله :

« اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة ، وأبلوا البلاء الحسن في نصره وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسابقوا إلى دعوته ، واستجابوا له ، حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن تبور في مودته .. فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك .. وكانوا مع رسولك لك اليك » .

— ملحوظة - هذه المناجاة جاءت في الصحيفة السجادية التي تعظمها الشيعة ، وتقدس كل حرف منها ، وهي رد مفحم لمن قال : ان الشيعة ينالون من مقام الصحابة .

٤ — (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) . هؤلاء هم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وهاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم

بعد السابقين الأولين ،ومع ذلك فحكمهم واحد من حيث وجوب النصرة والدفاع.

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم).

قال المفسرون : بعد أن آخى النبي (ص) بين أصحابه ، وبينه وبين علي (ع)[1]. أصبحوا أولياء في النصرة ، وفي الميراث أيضاً ، أي انهم يتوارثون بهذه المؤاخاة لا بالنسب والقرابة ، ثم نُسخ التوارث بهذه المؤاخاة ،وعاد الى التوارث بالرحم والقرابة .

واستدل الشيعة بهذه الآية على ان من كان أقرب إلى الميت نسباً فهو أولى بميراثه من الأبعد ، سواء أكان الأبعد ذا سهم ، أم لم يكن ، وسواء أكان عصبة ، أم غير عصبة ، فبنت الميت تحجب أخاه عن الارث لأنها أقرب منه إلى الميت ، وأخته تحجب عمه لنفس السبب ، وهكذا يحجب الأقرب الأبعد من جميع المراتب ، وتكلمنا عن ذلك وأقوال السنة والشيعة فيه ، كما أشرنا إلى التوارث بالمؤاخاة ، وإلى أسباب الأرث في الجاهلية ، كل ذلك تكلمنا عنه في ج ٢ ص ٢٦٢ وما بعدها عند تفسير الآية ١١ من سورة النساء .

---

١ قال الشيخ محمد الغزالي في كتاب فقه السيرة ص ١٤٢ طبعة ١٩٥٣ : ولقد صح ان رسول الله (ص) جعل علياً منه بمنزلة هرون الى موسى ، وهذا يؤيد رواية مؤاخاة النبي لعلي .

الفهرس

سورة المائدة	٥
أوفوا بالعقود الآية ١ ــ ٢	٥
الثورة والثورة المضادة	٨
حرمت عليكم الميتة الآية ٣	٩
إكمال الدين وإتمام النعمة	١٣
وما علمتم من الجوارح مكلبين الآية ٤	١٥
طهارة أهل الكتاب الآية ٥	١٧
الوضوء والتيمم الآية ٦ ــ ٧	٢٠
اعدلوا هو أقرب للتقوى الآية ٨ ــ ١٠	٢٤
اذكروا نعمة الله الآية ١١	٢٧
أخذ الميثاق من اليهود والنصارى الآية ١٢ ــ ١٤	٢٨
قد جاءكم من الله نور الآية ١٥ ــ ١٦	٣٣
الإسلام وأنصار السلام	٣٤
قالوا إن الله هو المسيح الآية ١٧ ــ ١٩	٣٥
الأشاعرة والنصارى	٣٨

موسى وقومه الآية ٢٠ ــ ٢٦	٤٠
قابيل وهابيل الآية ٢٧ ــ ٣١	٤٤
الفرد والجماعة في الإسلام الآية ٣٢	٤٦
جزاء المفسدين الآية ٣٣ ــ ٣٤	٤٩
ابتغوا اليه الوسيلة الآية ٣٥ ــ ٣٧	٥٢
والسارق والسارقة الآية ٣٨ ــ ٤٠	٥٣
سماعون للكذب الآية ٤١ ــ ٤٣	٥٦
فلا تخشوا الناس الآية ٤٤	٦٠
النفس بالنفس الآية ٤٥ ــ ٤٧	٦٢
بين الكفر والفسق والظلم	٦٤
لكل جعلنا منكم شرعة الآية ٤٨ ــ ٥٠	٦٦
لا تتخذوا اليهود والنصارى الآية ٥١ ــ ٥٣	٧١
البترول واليهود والنصارى	٧٣
أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين الآية ٥٤	٧٥
مشكلة الأخلاق	٧٩
يؤتون الزكاة وهم راكعون الآية ٥٥ ــ ٥٦	٨١
اتخذوا دينكم هزواً ولعباً الآية ٥٧ ــ ٥٩	٨٣
جعل منهم القردة والخنازير الآية ٦٠ ــ ٦٣	٨٦
قالت اليهود يد الله مغلولة الآية ٦٤ ــ ٦٦	٨٩
الصهاينة تواطأوا مع النازيين	٩١
اليهود ونار الحرب	٩٣
الرزق وفساد الأوضاع	٩٤

بلغ ما أنزل اليك الآية ٦٧	٩٦
صاحب المنار وأهل البيت	٩٨
اقامة التوراة والإنجيل الآية ٦٨ — ٦٩	٩٩
ميثاق بني اسرائيل الآية ٧٠ — ٧١	١٠٠
دعوة المسيح الى بني اسرائيل الآية ٧٢ — ٧٥	١٠٢
لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً الآية ٧٦ — ٨١	١٠٥
عداوة اليهود ومودة النصارى الآية ٨٢ — ٨٦	١١٣
من هم أقرب مودة للمسلمين	١١٥
لا تحرموا الطيبات الآية ٨٧ — ٨٨	١١٧
اللغو في الإيمان الآية ٨٩	١١٨
الخمر والميسر الآية ٩٠ — ٩٢	١٢١
اتقوا وآمنوا الآية ٩٣	١٢٣
لا صيد في الحرم ولا مع الاحرام الآية ٩٤ — ٩٦	١٢٤
معنى الاختبار من الله	١٢٦
البيت الحرام الآية ٩٧ — ٩٩	١٢٨
كثرة الخبيث الآية ١٠٠	١٣١
هل الرزق صدفة أو قدر	١٣١
لا تسألوا عن أشياء الآية ١٠١ — ١٠٢	١٣٤
لا بحيرة ولا سائبة الآية ١٠٣ — ١٠٥	١٣٦
في اثبات الوصية الآية ١٠٦ — ١٠٨	١٣٨
الرسل ويوم الجمع الآية ١٠٩ — ١١١	١٤٢
عيسى ونبوة الأطفال	١٤٤

مائدة السماء الآية ١١٢ ــ ١١٥	١٤٦
بين حواريي محمد وحواريي عيسى	١٤٨
عيسى والناس الآية ١١٦ ــ ١١٨	١٤٩
صدق الصادقين الآية ١١٩ ــ ١٢٠	١٥٢
سورة الأنعام	١٥٧
خلق السموات والأرض الآية ١ ــ ٣	١٥٧
الجحود بآيات الله الآية ٤ ــ ٦	١٥٩
لا ديكتاتورية في الأرض ولا في السماء	١٦١
ولو نزلنا عليك الآية ٧ ــ ١١	١٦٢
كتب ربكم على نفسه الرحمة الآية ١٢ ــ ١٦	١٦٥
لا كاشف إلا الله الآية ١٧ ــ ١٩	١٦٩
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الآية ٢٠ ــ ٢٤	١٧١
على قلوبهم أكنة الآية ٢٥ ــ ٢٦	١٧٥
وقفوا على النار الآية ٢٧ ــ ٣٢	١٧٧
قد نعلم انه ليحزنك الآية ٣٣ ــ ٣٧	١٨٠
الدواب والطيور الآية ٣٨ ــ ٣٩	١٨٤
قل أرأيتكم الآية ٤٠ ــ ٤٥	١٨٦
الله والفطرة	١٨٨
ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم الآية ٤٦ ــ ٤٩	١٩٠
ان اتبع إلا ما يوحى إليّ الآية ٥٠ ــ ٥٥	١٩٢
لا اتبع أهواءكم الآية ٥٦ ــ ٥٨	١٩٧
وعنده مفاتح الغيب الآية ٥٩ ــ ٦٢	١٩٩

قل من ينجيكم الآية ٦٣ – ٦٧	٢٠٢
حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ٦٨ – ٧٠	٢٠٥
قل اندعو من دون الله الآية ٧١ – ٧٣	٢٠٨
مع أهل التصوف	٢١٠
ابراهيم مع أبيه وقومه الآية ٧٤ – ٧٩	٢١١
أتحاجوني في الله الآية ٨٠ – ٨٣	٢١٤
ووهبنا له اسحق ويعقوب الآية ٨٤ – ٩٠	٢١٧
الحسن والحسين ابنا رسول الله	٢١٩
وما قدروا الله حق قدره الآية ٩١ – ٩٢	٢٢١
أنبياء الله وعلماء الطبيعة	٢٢٤
الافتراء على الله الآية ٩٣ – ٩٤	٢٢٦
يخرج الحي من الميت الآية ٩٥ – ٩٩	٢٢٩
من أين جاءت الحياة ؟	٢٣١
وجعلوا لله شركاء الآية ١٠٠ – ١٠٧	٢٣٥
لا تسبوا الآية ١٠٨ – ١١٠	٢٤٠
وكلمهم الموتى الآية ١١١ – ١١٣	٢٤٧
طراز من الناس	٢٤٨
أفغير الله أبتغي حكماً الآية ١١٤ – ١١٧	٢٥١
التسمية على الذبيحة الآية ١١٨ – ١٢١	٢٥٣
أو من كان ميتاً الآية ١٢٢ – ١٢٤	٢٥٦
المسؤولية والسائل الأعلى	٢٥٧
يشرح صدره للإسلام الآية ١٢٥ – ١٢٧	٢٦٠

ويوم نحشرهم جميعاً الآية ١٢٨ ـ ١٣٢	٢٦٣
وربك الغني الآية ١٣٣ ـ ١٣٥	٢٦٦
فقالوا هذا لله الآية ١٣٦ ـ ١٤٠	٢٦٧
كلوا من ثمره الآية ١٤١ ـ ١٤٤	٢٧٢
قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً الآية ١٤٥ ـ ١٤٧	٢٧٥
لو شاء الله ما أشركنا الآية ١٤٨ ـ ١٥٠	٢٧٧
ما حرم ربكم الآية ١٥١ ـ ١٥٣	٢٨١
الوصايا العشر	٢٨٢
ثم آتينا موسى الكتاب الآية ١٥٤ ـ ١٥٧	٢٨٥
لا ينفع نفساً إلا إيمانها الآية ١٥٨ ـ ١٦٠	٢٨٨
قل انني هداني ربي الآية ١٦١ ـ ١٦٥	٢٩١
ولا تزر وازرة وزر أخرى	٢٩٣
الأرض والبيت	٢٩٤
سورة الأعراف	٢٩٩
كتاب أنزل اليك الآية ١ ـ ٣	٢٩٩
وكم من قرية أهلكناها الآية ٤ ـ ١٠	٣١٠
ميزان الأعمال	٣٠٣
ولقد خلقناكم الآية ١١ ـ ١٨	٣٠٤
حول أصل الإنسان	٣٠٥
ويا آدم اسكن وزوجك الآية ١٩ ـ ٢٥	٣١٠
قصة آدم كما هي في القرآن	٣١٣
اللباس الحسي والمعنوي الآية ٢٦ ـ ٢٧	٣١٥

وإذا فعلوا فاحشة الآية ٢٨ ـ ٣٠	٣١٧
يا بني آدم خذوا زينتكم الآية ٣١ ـ ٣٤	٣٢٠
فمن اتقى وأصلح الآية ٣٥ ـ ٣٩	٣٢٣
الجمل وسم الخياط الآية ٤٠ ـ ٤٣	٣٢٦
ونادى أصحاب الجنة الآية ٤٤ ـ ٤٥	٣٢٩
وعلى الأعراف رجال الآية ٤٦ ـ ٤٩	٣٣٠
الأعراف	٣٣١
بين أهل الجنة وأهل النار الآية ٥٠ ـ ٥٣	٣٣٤
في ستة أيام الآية ٥٤ ـ ٥٦	٣٣٧
الله أصلح الأرض والانسان أفسدها	٣٤٠
يرسل الرياح بشراً الآية ٥٧ ـ ٥٨	٣٤١
نوح الآية ٥٩ ـ ٦٤	٣٤٤
هود الآية ٦٥ ـ ٧٢	٣٤٦
صالح الآية ٧٣ ـ ٧٩	٣٤٩
لوط الآية ٨٠ ـ ٨٤	٣٥٢
شعيب الآية ٨٥ ـ ٨٧	٣٥٥
لنخرجنك يا شعيب الآية ٨٨ ـ ٨٩	٣٦١
لئن اتبعتم شعيباً الآية ٩٠ ـ ٩٣	٣٦٣
وما أرسلنا في قرية ٩٤ ـ ٩٥	٣٦٤
ولو أن أهل القرى آمنوا الآية ٩٦ ـ ١٠٠	٣٦٦
تلك القرى نقص عليك الآية ١٠١ ـ ١٠٢	٣٦٦
موسى وفرعون الآية ١٠٣ ـ ١١٢	٣٧٠

اسم أم موسى ٣٧٢
وجاء السحرة الآية ١١٣ ـ ١٢٦ ٣٧٦
حول السحر ٣٧٩
أتذر موسى الآية ١٢٧ ـ ١٢٩ ٣٨١
ولقد أخذنا آل فرعون الآية ١٣٠ ـ ١٣٣ ٣٨٣
ولما وقع عليهم الرجز الآية ١٣٤ ـ ١٣٧ ٣٨٦
وجاوزنا ببني اسرائيل البحر الآية ١٣٨ ـ ١٤١ ٣٨٧
وواعدنا موسى ثلاثين ليلة الآية ١٤٢ ـ ١٤٥ ٣٨٩
سأصرف عن آياتي الآية ١٤٦ ـ ١٤٩ ٣٩٣
ولما رجع موسى الى قومه الآية ١٥٠ ـ ١٥٤ ٣٩٦
ان هي إلا فتنتك الآية ١٥٥ ـ ١٥٧ ٣٩٩
رحمة الله تسع ابليس ٤٠٣
رسول اليكم جميعاً الآية ١٥٨ ـ ١٥٩ ٤٠٤
بين الصهيونية واليهودية ٤٠٦
وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطاً الآية ١٦٠ ـ ١٦٢ ٤٠٧
واسألهم عن القرية الآية ١٦٣ ـ ١٦٦ ٤٠٩
اليهود وسوء العذاب الآية ١٦٧ ٤١٢
وبلوناهم بالحسنات والسيئات الآية ١٦٨ ـ ١٧١ ٤١٤
ألست بربكم الآية ١٧٢ ـ ١٧٤ ٤١٧
عالم الذر ٤١٨
آتيناه آياتنا فانسلخ الآية ١٧٥ ـ ١٧٧ ٤٢٠
من يهد الله فهو المهتدي الآية ١٧٨ ـ ١٨١ ٤٢٣

هل أسماء الله توقيفية أو قياسية ٤٢٥

والذين كذبوا بآياتنا الآية ١٨٢ – ١٨٦ ٤٢٧

يسألونك عن الساعة الآية ١٨٧ – ١٨٨ ٤٣٠

النبي وعلم الغيب ٤٣١

هو الذي خلقكم من نفس واحدة الآية ١٨٩ – ١٩٠ ٤٣٣

أيشركون ما لا يخلق شيئاً الآية ١٩١ – ١٩٨ ٤٣٥

خذ العفو وامر بالعرف الآية ١٩٩ – ٢٠٣ ٤٣٨

وإذا قرىء القرآن الآية ٢٠٤ – ١٠٦ ٤٤١

سورة الأنفال ٤٤٧

قل الأنفال لله والرسول الآية ١ – ٤ ٤٤٧

كما أخرجك ربك الآية ٥ – ٨ ٤٥١

إذ تستغيثون ربكم الآية ٩ – ١٤ ٤٥٥

الفرار من القتال الآية ١٥ – ١٩ ٤٥٩

طاعة الله والرسول الآية ٢٠ – ٢٣ ٤٦٣

طالب حق وطالب صيد ٤٦٤

الدين والدعوة إلى الحياة الآية ٢٤ ٤٦٥

واتقوا فتنة الآية ٢٥ – ٢٩ ٤٦٧

وإذ يمكر بك الآية ٣٠ – ٣٥ ٤٧١

إن الذين كفروا ينفقون أموالهم الآية ٣٦ – ٤٠ ٤٧٥

فان لله خمسه الآية ٤١ ٤٨١

إذ أنتم بالعدوة الدنيا الآية ٤٢ – ٤٤ ٤٨٤

إذا لقيتم فئة فاثبتوا الآية ٤٥ – ٤٩ ٤٨٨

عوامل النصر ٤٨٩
هل الفدائيون مخربون ٤٩٢
ولو ترى الآية ٥٠ ــ ٥٤ ٤٩٤
قواعد وأحكام في السلم والحرب الآية ٥٥ ــ ٦٣ ٤٩٧
القوة الرادعة والقوة المعتدية ٥٠٠
حسبك الله الآية ٦٤ ــ ٦٦ ٥٠٣
في الأسرى الآية ٦٧ ــ ٧١ ٥٠٦
المهاجرون والأنصار الآية ٧٢ ــ ٧٥ ٥١٠
لا أثر لاسم الدين ٥١٤